شـذراتٌ روحيّـة

للأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى ب.م

لا مانع من طبعه
المطران الياس شقّور
رئيس أساقفة عكّا، حيفا، النّاصرة وسائر الجليل
للرّوم الملكيّين الكاثوليك

فليُطبَع
الأرشمندريت جان فرج
رئيس عامّ الرّهبانيّة الباسيليّة المخلّصيّة
دير المخلّص – لبنان

ميلاد ٢٠١٢

طباعة الحكيم للطّباعة والنّشر م.ض- الناصرة
رقم الهاتف: ٠٤-٦٤٦٦٣٣٣

المؤلِّف في سطور

الأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى، فلسطينيّ الأصل، مخلّصيّ المنشأ. درس الفلسفة واللّاهوت في جامعة الرّوح القدس – الكسليك، لبنان. حصل على اللّقب الثّاني «الماجستير» في موضوع لاهوت الكتاب المقدّس من الجامعة الغريغوريّة الحبريّة، روما. يشغل حاليًا منصب رئيس رعيّة مار الياس للرّوم الملكيّين الكاثوليك في حيفا، ووكيل الرّهبانيّة المخلّصيّة في الأراضي المقدّسة.

- **له أعمال موسيقيّة بيزنطيّة متعدّدة، منها:**

١) تسجيل ترانيم أسبوع الآلام العظيم المقدّس

٢) بيوت المدائح

٣) صلاة النّوم الكبرى

٤) مختارات من ترانيم الميلاد المجيد

٥) أناشيد الأعياد السّيّديّة الكبرى

٦) «الكلمة»، ترنيم إنجيل يوحنّا كاملاً

والجدير بالذّكر أنّ الأب أبو سعدى قام مؤخّرًا بتأسيس مدرسة القدّيس رومانوس لتعليمِ أصولِ التّرنيمِ البيزنطيّ. وقد قامت هذه الجوقة النّاشئة بخدمة العديد من الاحتفالات الأبرشيّة وتسجيل حلقةٍ خاصّةٍ بأسبوعِ الآلام لتلفزيون نور سات.

- **له مؤلّفات أكاديميّة لاهوتيّة، منها:**

١) مريم، المرأة الملتحفة بالشّمس

٢) كلمة الرّاعي: مقالات في الحياة الرّوحيّة المسيحيّة

٣) ليتورجيّا القدّاس الإلهيّ بين اللّاهوت والرّمزيّة

٤) شذراتٌ روحيّة

٥) مقالاتٌ روحيّة، ليتورجيّة، كنسيّة أسبوعيّة في صحيفة «حيفا»

٦) قيد التّأليف، كتابٌ بجزأين:

الجزء الأوّل: النّسر المحلّق (دراسةٌ في لاهوت الإنجيل الرّابع)؛ الجزء الثّاني: عطش الله (دراسةٌ في الشّخصيّات اليوحنّاويّة)

تقديم

شذراتٌ ولا أطيب!

بدايةً أشكرُلجنة الشّبيبة الّتي طلبَت كلمةً أُقدّمُ فيها كتابَ "شذرات روحيّة".

إنّ كلمتي هذه هي أوّلاً تهنئةٌ للمؤلّف الأب أغابيوس أبو سعدى المخلّصيّ الّذي تربطُني به قرابةٌ روحيّةٌ عميقةٌ؛ فهو يحمل اسم عائلةٍ ملكيّةٍ عريقةٍ أعطت للكنيسة أساقفةً وكهنةً ورهبانًا، حافظت على تراث الكنيسة ومجدها والأب أغابيوس هو، أيضًا، راهبٌ مخلّصيٌّ ينتمي إلى عائلتي الرّوحيّة، فكِلانا قد نهلنا من الرّوحانيّة المخلّصيّة نفسها وتتلمَذْنا على يد كهنةٍ قدّيسين ساهموا في نشر كلمة الله وأعلنوا ملكوته، إن كان على صعيد الكتابة والتّأليف أو بالرّسالة أو بالنّسك، وكثيرون منهم واجهوا مصاعبًا وتحدّياتٍ واضطهاداتٍ وماتوا شُهداءَ من أجل مُعلِّمِهم.

«أبونا أغابيوس»، صاحب هذه الشّذراتِ الرّوحيّة، هو من طينة هؤلاء الآباء الّذين سخَّروا ثقافتهم لإعلان البشرى السّارّة. فكلامه العفويّ والمتفاعل يُعبّرببساطةٍ عن مُحتوى الإيمان، ويحاكي بخاصّة الشّبيبة ويشدّهم ليكتشفوا أنّ المسيح حيّ في حياتهم. **أمّا أسلوبه، فهو كيانيّ النّزعةِ والرّوح**: نكتشف عبر كلماته وتأمّلاته فرح القيامة، هذا الفرح لا يعرفه إلّا الّذين يتغرّبون عن ذواتِهم ويدخلون في فلسفة الصّليب.

أراد أبونا أغابيوس، الكاتب، أن يجمعَ شذراته الرّوحيّة في سبعٍ وعشرين باقةً، وضعها بين أيدينا لنعيش فيها ونتأمّل، رفعنا عبرَها إلى قمم الجبال ودعانا لنترك الكُهوف والوديان. يكفيكَ أن تقف معه عند إحداها لترى نفسك في حضرة القائم مُتمتّعًا بنور الصّليب، يكفيكَ أنّه ينقلك إلى حضرة الله بشوقٍ ومحبّةٍ وتواضعٍ، لترى نفسكَ مليئًا منَ الله.

من هذه الشّذرات، يدعونا الكاتب إلى العودةِ أحيانًا إلى تقليد الآباء القدّيسين، فيحكي لنا تقاليدًا كانت أمّهاتُنا تقُصُّها علينا، وأحيانًا أخرى يدفعُ بنا لنغوصَ في سرّ الكنيسة، فيبعثُ فينا عطشًا لنُسارعَ إلى اختيارِ كمالِ الوجودِ، الّذي هو الله، النّورُ الخلّاقُ الّذي لا يعتريه ظلامٌ.

أبونا أغابيوس أراد أن يقدّم لنا ورداتٍ لا تذبل، فجعل من شذراته مزاميرَ نعودُ إليها لنكتشِف غِنى رحمة الله وعدله وهو، بذلك، يرفعُنا إلى مشاهدة الله، إلى الإيمان العامر بثقةٍ وتَحرُّقٍ وظمأٍ وتوقٍ لنمكثَ في قلبِ الله.
شكرًا، أبونا أغابيوس، لهذه الشّذرات، وإلى مزيدٍ من العطاءات.

المطران عصام يوحنّا درويش

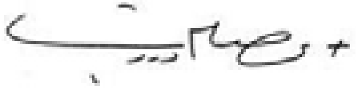

رئيس أساقفة أبرشيّة الفرزل وزحلة والبقاع للرّوم الملكيّين الكاثوليك

مُقدّمة

«كَهَنَتُكَ يَلْبَسُونَ الْبِرَّ، وَأَتْقِيَاؤُكَ يَهْتِفُونَ»
(سفر المزامير ١٣٢: ٩)

لقد قُمنا بتجميع ما أمكَن لنا من عظاتٍ، ومقالاتٍ، وكُتُبٍ للأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى، واستوفينا منها بشكلٍ مقطعيٍّ ألفًا وستّمائة اِقتباسٍ ومقولةٍ، على فم الأب الجليل، الّتي هي نافعةٌ للتّعلُّمِ والتّطوّرِ الفكريّ. إنّ ما حثَّنا على هذا العمل، الّذي ندعوه عملاً رعويًّا، هو ما وجدناه في ثنايا الكلمات الموعوظة من تصوّفٍ، وتحرُّرٍ إيمانيّ، وعُمقٍ روحيٍّ واجتماعيّ مُستقىً من الكتاب المُقدّس ومن الخبرة الكهنوتيّة الغنيّة على حدّ سواء. فنحن نؤمن أنّ مجتمعنا المسيحيّ اليوم بأمسّ الحاجة إلى التّوسُّعِ اللّاهوتيّ العمليّ في جميع اتّجاهات الحياة اليوميّة، الخاصّة والعامّة. حيث أنّ هذا الكتاب، بأبوابه، يَمثُلُ أمامَ قُرّائه كمُعجَمٍ مُهدّفٍ نحو الارتقاءِ اللّاهوتيِّ الرّوحانيّ؛ فإنّنا نطرح بين أيديكم صفحاتٍ موضوعيّةً مُرشِدةً ومُقوِّمةً، وهي بمثابة دليلٍ مُلهِمٍ وخصبٍ يَرنو بمُجمله إلى تحقيق الكمالِ الإنسانيّ الإلهيّ في أفراد شعبِ الله.

إنّ إنعامَ اللهِ علينا بكاهنٍ فذٍّ، كلمتُهُ متأصّلةٌ بعمل الرّوح القُدُسِ، فيه وفي دعوته الكهنوتيَّة، لا يُمكن تجاهله أو جعله يمرُّ مرور الكرام. إذ إنّ فكرة هذا الجمع السّخيِّ تُكرّم عمل الله الظّاهر في ضلوع كلمات الأب أبو سعدى، وأيضًا، تُكرّم رعيّة الكنيسة نفسها بنَيلِها أبًا ومُعلّمًا قائدًا لا يبخل عليها بالنّعمة المُعطاة له. فإنّ أبينا القدير، بحكمة الرّوح القُدُس، قد جابَ الكُتُبَ والدّراسات الأكاديميّة والشّخصيّة المتتابعةَ حتّى صارَلنا ذخرًا جائدَ المتاعِ في التّربية اللّاهوتيّة والثّقافة المسيحيّة. زد على ذلك، فإنّ حصاد الحصيدِ هذا، وباستدامةِ شعلة نار الرّوحِ القدسِ المعلّم، المُنعَم عليه بها، فقد تميّزَ«أبونا» بفكرِهِ «الأغابيوسيّ» المُتفرّدِ بالخبرةِ الرّوحيّة الشّخصيّة المستنيرة. إذ إنّ هذا الفكرَ اللّامعَ بأصالةِ الرّهبانيَّةِ الشّرقيّة، هو مُعتَقٌ من أغلال الحرفيَّةِ، وسجينٌ لمحبّة الكلمة المُحرِّرة والعاملة والمثمرة في تُربَةِ أرضِ الملكوت.

ويجدر بنا الذّكر هنا، أنّنا قد رُوِّضنا، في زمن خدمة الأب أبو سعدى في كنيستِنا، على نمطيّةٍ مُركّزةٍ في التّعليم والجلادة الدّراسيّة، الأمر الّذي جعل منّا، مع الوقت، طلّابًا مُجاهدين في سبيل التّغيير الشّعبيّ، والنّهضَة الرّوحيّة، والحُريّة الإنسانيّة. إنّنا لا نملّ ولا نكلّ من سماع كلمته المُعلَنة بالحقّ، إنّنا نترقّب على الدّوام إصداراته الأدبيّة الرّوحيّة لنروي عطَش أنفُسنا. حيث أنّ مُرادَنا هو أن تتذوّقوا ما نتذوّقه من تعليمٍ مُغدَقٍ بِرُقيّ الرّوحانيّات.

هذا وقد تمّت عَنوَنة الكتاب «شذَراتٌ روحيّة» نسبَةً لأصالة الفكر المطروح النّابع من الرّوحانيّة المصقولة ؛ فالمعنى الحرفيّ لكلمة شذرات هو: «قِطَعٌ من الذَّهَب تُلْقَطُ مِنْ مَعْدِنِه بلا إذَابَة الحِجَارة، وممّا يُصاغ من الذَّهب فَرَائِدُ يُفَصَّلُ بها اللّؤلُؤُ والجَوْهَرُ». كتابُ «شذَراتٍ روحيّة» هو قِطَعُ ذهبِنا الخالص، هو عُصارة الأرض الخصبة الّتي نحتفِل بالعثورِ عليها من جديدٍ في كلّ قُدّاسٍ وفي كلّ عيدٍ وفي كلّ فرحٍ أو ترحٍ تمرّ به عائلتُنا الكنسيّة.

ما اعتادَ قُرّاء الأب أبو سعدى على هذه البُنية في مؤلّفاته فقد عَهدوه بالطّراز الكتابيّ التّقليديّ، في معظم كتُبه ومقالاته الطّويلة والقصيرة منها، الّتي، بطبيعَتِها، تتضمَّن مُقدّمةً وحبكةً وختامًا مُلتزمةً بموضوعٍ واحد. بينما هذا الكتاب يُنشِدُه نَفسُ الصّوت إنّما بلحنٍ جديدٍ؛ فالصّوتُ ذاتُهُ والمُنشِدُ هو هو، إلّا أنّ أسلوبَ «التّنغيم» الواقع على مسامع القلوب قد تبنّى حُلّةً جديدةً. إنّ في هذا المخزنِ المقطعيّ تركيزًا لأفكارٍ وإيمانٍ وقِيَمٍ مسيحيّةٍ تُخوّل القارئ أن يُسلِّط الضّوء على الكثير والكثير من جوانب بشريّته ومسيرته الرّوحيّة. فكلّ قولٍ يحمِل، بشكلٍ صارمٍ ودقيق، عِبرته الخاصّة، وكلّ مقطعٍ يُحمِّل قارئه زادًا تقتات به روحُهُ الرّانية إلى كلمة تنميةٍ وارتفاعٍ.

قُدس الأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى،

نُسلّمُك هذا الإنتاج، هديّةً أنت صانِعُها، هي منك ولك: من رسمِ روح الله فيك ولإجلال عظمة عمله فيك. إنّه، وإن ضلِعنا في التّعبير، وسام شرفٍ روحيٍّ لنا قبل أن يكون شرفًا لك.

إذ إنّ هذا العمل هو ما نُقدّم من خلالك للمسيحيّين، طاعةً لكلمات الكتاب المقدّس في رسالة يوحنّا الثّالثة: «لَقد فرِحتُ جِدًّا لمَّا قَدِمَ بعضُ الإِخوةِ، وشَهِدوا لِلحَقِّ الّذي فيكَ، ولسَيْرِكَ في الحقّ. وليسَ لي سُرورٌ أَعظَمُ مِنْ أن أَسمَعَ بأَنَّ أَولادي يَسْلُكونَ في الحقّ. أَيُّها الحبيبُ، إنَّكَ تَعْملُ عَمَلَ الإيمانِ في ما تَصْنعُ إلى الإِخوةِ، ولاسِيَّما وأَنَّهم غُرَباء؛ فإِنَّهم قد شَهِدوا لِمَحَبَّتِكَ أَمام الكنيسة. وإِنَّكَ لتَفْعلُ حَسَنًا إذا أَهَّبْتَهم للسَّفَرِ على ما هو حَقيقٌ باللهِ، لأَنَّهم لأَجلِ الاسْمِ خَرَجوا، ولم يَأْخُذوا مِنَ الأُمَمِ شَيئًا. فمِنَ الواجِبِ عَلَينا إِذنْ، أن نَقْبلَ نَحنُ أَمثالَ هؤُلاءِ فَنصيرَ لهم أَعْوانًا في نَشْرِ الحقّ» (الآيات ٣ - ٨).

إنّنا نُصلّي أن يدوم تألّق الإلهام فيك يومًا فيومًا. وما نُناشِد اللهَ به، اليوم بالذّات، هو أن تكون كلمات هذا التّوثيق الدّراسيّ اللاهوتيّ علّة تأثيرٍ على حياة كثيرين. نُصلّي أن تكون الكلمات هذه بمثابة زيارةٍ إلهيّةٍ في القلوب والنّفوس القارئة. أدامَك اللهُ عطرًا فوّاحًا بالنِّعَم والخيرات السّماويّة.

مع جزيل شكرِنا واحترامِنا،
اللّجنة العاملة على إنشاء الكتاب

كلمة شُكرٍ قلبيّة

يقول السّيّد المسيح له المجد والإكرام في الكتاب المقدّس حين دعا الاثني عشر تلميذًا: «مجّانًا أخذتم فمجّانًا أعطُوا» (متّى ١٠: ٨). نعم، أيّها الأحبّاء بالمسيح، إنّها المجّانيّة في العطاء الّتي تعلّمناها من معلّمنا الإلهيّ، يسوع المسيح، مُعطي الحياة والنِّعم والبركات. «فإنْ ظنّ أحدٌ أنّه شيءٌ، وهو ليس بشيءٍ، فقد غرّ نفسه»، يقول القدّيس بولس الرّسول في رسالته إلى أهل غلاطية (٦: ٣)؛ وإذا أردنا الافتخار بأيّ عملٍ نفعله، فما علينا، أيّها الأحبّاء، إلاّ أنْ «نفتخر بصليب ربّنا يسوع المسيح» (غلاطية ٦: ١٤). آيتان بولسيّتان غلاطيّتان تُحدِّدان بوضوحٍ لامعٍ أهميّة النّعمة الإلهيّة، الّتي «هي في كلّ حينٍ للمرضى تشفي، وللنّاقصين تُكمِّل»، والصّليب الكريم المُحيي الّذي يجعلنا نفتّش من خلاله عن معنى الحبّ الحقيقيّ، الحبّ الباذل والمُضحّي والمِعطاء، الّذي يتميّز بمجّانيّته الإلهيّة. من هذين المَعينين المتدفّقَين في قلوب المؤمنين والمكرَّسين، عنَيتُ بهما «النّعمة الإلهيّة» و «الصّليب المقدّس»، أفاض فيّ الله نعمة الكتابة، وجعلني أنظر إلى الوقت على أنّه هديّةٌ منه تعالى، وهو وقتٌ مقدَّسٌ يُعمَل فيه للرّبّ، ويجب عليّ، بالتّالي، أن أستثمره وأضعه في إطاره الصّحيح، متاجرًا بالوزنات الّتي منّها الله عليّ، لأكون، بنعمته، من الزّرع الّذي سقط على الأرض الجيّدة «فنبت وزكا وأثمر وأعطى بعضه ثلاثين، وبعضه ستّين، وبعضه مئة» (مرقس ٤: ٨)، فأسمع، عندئذٍ، صوت سيّدي وربّي يسوع المسيح يقول لي: «أحسنتَ، أيّها العبد الصّالح الأمين! لقد كنتَ أمينًا على القليل فسأُقيمك على الكثير. ادخل فرح سيّدك» (متّى ٢٥: ٢١).

لقد شَمِلَتني المفاجأةُ بحجمها ورونقها كهبّاتِ النّسيم العليل الّذي يُنعش الفؤاد ويُجدِّد القلب، ولكنّها، في الوقت عينه، وضعتني أمام مسؤوليّةٍ كبرى، أن أبقى ثابتًا وأمينًا ومتذكِّرًا عهديَ الّذي قطعته مع السّيّد المسيح

يوم نذوري الرّهبانيّة وسيامتي الكهنوتيّة: «لتكن أقوال فمي وخواطر قلبي مرضيّةً لديك أيّها الرّبّ صخرتي وفاديّ» (مزمور ١٨: ١٥). ما أجملك يا ربّ حين تضع أمام رسلك أُناسًا يُشجّعونهم باسمك، ويُصلّون لهم من أجلك، ويلتفُّون حولهم لأجل أن ينالوا رضاك واستحسانك، فيُشكّلون معًا عائلةَ المسيح الحقيقيّة.

أشكر، أوّلا، الله تعالى على الوزنات الرّوحيّة الّتي منحني إيّاها بمجّانيّةٍ مُطلقة، وهو بالمقابل ينتظر منّي المزيد والمزيد من العطاءات؛ أشكر ثانيًا أُمّي الرّهبانيّة المخلّصيّة على احتضانها ودعمها ومساندتها إيّايَ في كلّ مراحل حياتي الرّهبانيّة والكهنوتيّة؛ أشكر ثالثًا سيادة المطران الحبيب عصام يوحنّا درويش، رئيس أساقفة الفرزل وزحلة للرّوم الملكيّين الكاثوليك، الّذي خصّني بكلمةٍ فيّاضةٍ من نبع محبّته المتوشّحة بالله، أشكركم يا صاحب السّيادة على ما تفضّلتم به، فقد لمستم قلبيَ بدفء محبّتكم، فأصبح ببركتكم هذه نبعًا حيًّا فيّاضًا، فكلماتكم جدّدت فيّ روح النّشاط والعمل والمثابرة، فدُمتم لنا ذخرًا وسندًا، وإلى سنين كثيرة يا سيّد؛ أشكر رابعًا سيادة المطران الحبيب إبراهيم إبراهيم، مطران كندا للرّوم الملكيّين الكاثوليك، الّذي ومن خلال أسطره القليلة عبّر عن محبّته الكبيرة، وبكلماته المتواضعة عبّر عن صِدق مشاعره الأبويّة تجاهي، فإلى سنين كثيرة يا سيّد؛ أشكر أخيرًا العاملين على تجميع هذه الشّذرات الرّوحيّة القيّمة. ما أجمل روحكم الطّيّبة، وما أرقّ كلماتكم، إنّها «أشهى من الذّهب ومن أخلص الإبريز، وأحلى من العسل ومن قطر الشِّهاد» (مزمور ١٨: ١٠).

إنّكم، يا أحبّتي، تُفرِحون القلوب وترفعون الرّؤوس عاليًا بمحبّتكم البرّاقة للمسيح وانتمائكم الشّديد للكنيسة ودفء مشاعركم للإخوة. ألاَ بارككم الله القادر على كلّ شيء، ووهبكم، بدل تعبكم وسهركم ووقتكم، نِعَمه وبركاته وخيراته، ودُمتم لكنيستكم ومحبّكم.

إلى القارئين الأعزّاء في الرّبّ،

يطال هذا الكتاب مجمل الحياة المسيحيّة لبناء علاقةٍ إيمانيّةٍ- روحيّةٍ وشخصيّةٍ صحيحةٍ بالرّبّ الحيّ، يسوع المسيح. سيجعلك هذا الكتاب تجد نفسك متعلِّقًا ومنجذبًا إلى حبّ تعاليم الرّبّ ومسلكيّته، وتتلذّذ بعُمق كلماته الّتي تدعوك إلى الحياة الحقيقيّة من خلال خلع إنسانك القديم ولبس الإنسان الجديد الّذي هو على صورة المسيح.

يا ربّ، أطلبُ منك أن تفتح عيوننا مُعطيًا إيّانا البصيرة الرّوحيّة لنفهم كلمتك المقدّسة الّتي ما هي إلاّ مصباحٌ لخُطانا ونورٌ لسبيلنا، وأن تمنحنا آذانًا قلبيّةً لنُصغِيَ إلى صوتك الإلهيّ العذب، يدعونا إلى الدّخول إلى فرحك السّماويّ. آمين

بمحبّةٍ واحترام

الأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى ب.م

الباب الأوّل

اللّاهوت الإيمانيّ

إنّ الدّخول إلى هذا الكتاب، من خلال «باب الإيمان»، ما هو إلّا دعوةً مبدئيّةً افتتاحيّةً لكلّ قارئٍ لأنْ يُعيد النّظر بإيمانه الشّخصيّ وأبعاده، خاصّةً بعد أن أعلَن قداسة البابا بندكتس السّادس عشر عن هذه السّنة على أنّها سنةٌ مكرّسةٌ للإيمان وتقوية أواصره في المسيحيّينَ وبينِهم. فإنّ الإيمان هو حجر الأساس لكلِّ حياتِنا المسيحيّة، وعليْه تُبنى مسيرتُنا المُتّجهة نحو العرش السّماويّ. «بابُ الإيمانِ» يُعرّف لنا مفهوم ومبادئ الإيمان الشّخصيّ الّذي ليس له إلّا أنْ يخلِّص، والّذي هو إرثُنا من ظهور الرّبّ على الأرض في موته وقيامته.

١. الإيمانُ هو «الثّقة»، هو «التّصديق»، هو «الاتّكال الكامل». ويحصُل الإنسان على الخلاص «بالإيمانِ» وحده، أي بثقته في ما عمل المسيح لأجله عندما مات على الصّليب، وبتصديقه لشهادة الآب عن المسيح (١ يوحنّا ٥:١١، ١٢)، وباتّكاله الكامل على المسيح وفاعليَّة دمه الكريم في تطهيره من خطاياه.

٢. **الإيمانُ الجوهريّ**: إنَ موضوع الإيمان المسيحيّ لا ينحصر فقط، بما هو أبديٌّ، أي بما قد يظلّ خارج عالَمِنا كليًّا وخارج الزّمن؛ بل إنَ الموضوع المباشر للإيمان هو الله الَّذي دخل في التّاريخ، أي الله الَّذي صار بشرًا (يوحنّا ١: ١٤).

٣. يُثبِتُ الإيمانُ المسيحيّ أنّه قادرٌ على ردمِ الهُوّة الفاصلة بين ما هو أبديٌّ وما هو زمنيّ، وبين المنظور وغير المنظور، بفعل تمكينه إيّانا من لقاء الله بصفته إنسانًا، واطّلاعِنا على الموجود الأبديّ بصفته كائنًا خاضعًا للزّمن (يوحنّا ١: ١٨).

٤. الإيمانُ هو انفتاحٌ على كائنٍ شخصيّ، إذ إنّ العبارة المركزيّة لقانون الإيمان المسيحيّ تقول: «أومنُ بِك». إنّه حضور الأبديّ بالذّات في هذا العالم؛ حضور الحُبّ الَّذي يجعل الحياة تستحقّ مِنّي أنْ أتحمَّل عناءَها بفعل هذه الهِبة الفائقة الإدراك، المتمثّلة في حُبٍّ لا تهدِّده نهايةٌ ولا تعكِّره الأنانيّة.

٥. إنَ فعل «آمَنَ» يُشيرُ إلى العثور على الـ«أنت» الَّذي عليه يقوم وُجودي والَّذي يَعِدُني بِحُبٍّ سرمديٍّ، وهو حُبٌّ لا يكتفي فقط بالتّوق إلى الدّوام الأبديّ، بل يؤمِّن هذِهِ الدّيمومة الأبديّة بالفعل.

٦. الإيمانُ المسيحيّ لا يقترن فعلاً بالكتاب المقدّس وبحقائقه وحسب، بل هو بحسب جوهره وحقيقته عطيّةٌ ما أمكن وهبُها إلاّ بفضل عمل الله الّذي يوحي إلى الإنسان بالمشيئة الإلهيّة.

٧. الإيمانُ هو خيار اكتشاف الله في وجه الإنسان يسوع النّاصريّ. وبالتّالي، يُصبِح هذا القانون علامةً لوديعة الإيمان الّتي سلّمَها الرُّسل إلى خُلفائِهم، يَعرِف بها المعتَمِد الّذي يعترف أنّه هو وسائر المعمَّدين، ينتمون إلى المسيح الواحد والكنيسة الواحدة وأنّ لهُم الإيمان الواحد، وأنّ عليهِم الحفاظ على وديعة الإيمان هذه: «يا تيموثاوس، اِحفظ الوديعة» (١ تيموثاوس ٦: ٢٠).

٨. الإيمانُ المسيحيّ ليسَ أقوالاً معسولةً مُطرِبةً تنسَجِم لها آذان السّامعين، ولا نظريّاتٍ مُجردّةً يتسلّى بها العقل البشريّ، ولكنّه حياةٌ نحياها، وسلوكٌ يوميٌّ نلتزِم به، وطريقٌ صعبٌ نسيره حتّى اللّحظة الأخيرة، وشجرةٌ صالحةٌ نقطف ثمارها الجيّدة في كلّ أوانٍ (متّى ٧: ١٧)، وبيتٌ متينٌ ومحصَّنٌ نبنيه على الصّخر، فيَقينا مِن شدّة العواصف، وأضرار الأعاصير، ويُنجّينا مِن شرور التّجارب، ويحفظنا إزاء مصاعب الحياة وآلامها (متّى ٧: ٢٤-٢٥).

٩. إنّ قانون الإيمان هو مجموعة حقائق الإيمان الرّئيسيّة وهو من ثمّ المرجِع الأوّل والأساسيّ للكرازة؛ إنّه ليس تِعدادًا جافًّا لحقائق يجب الإيمان بها وحسب، بل هو خصوصًا تعبيرٌ متماسكٌ عن تدبير الله الخلاصيّ الّذي ينبع ويفيض من الثّالوث الأقدس.

١٠. اليوم، بجانب الكثير من العلامات الجيّدة، ينمو **التّصحُّر الرّوحيّ**: فالإنسان لا يبدو حقًّا أكثر حرّيّة. فلا يزال هناك العديد من أشكال الاستغلال والتّلاعب والعنف والقمع والظُّلم والارتباك. إنَ هذا بدَوره يؤكِّد على أنَ الإنسان لا يحتاج فقط إلى الخبز المادّيّ، وإنّما أيضًا إلى الحُبّ، والمعنى، والرّجاء، وإلى أُسُسٍ ثابتةٍ لمواجهَة أيّة أزمةٍ، وكلّ ظلامٍ وصعوبةٍ.

١١. إنّ فعل الإيمان هو الاعتراف بأنّ الإنسان محبوبٌ من الله الآب، وهو أيضًا القبول الواعي بأنّ هذا الإله قد كشف عن نفسه بشكلٍ كاملٍ في شخص المسيح، ابن الله، الّذي صار إنسانًا، وأخلى ذاته حتّى ذبيحة الصّليب العُظمى.

١٢. الإيمانُ هو اليقين بأنَ «محبّة الله» تُحوّل كلّ شكلٍ من أشكال العُبوديّة والشّرّ والموت إلى خلاصٍ، وهو أيضًا الانفتاح على عمل الرّوح القدس الّذي يقودُنا إلى اليقين وإلى التّبشير بإنجيل الفداء بجراءةٍ، في حضن الكنيسة الّتي هي جماعَة الإخوة.

١٣. إنّ الإيمان في عُمقه هو فعلٌ بشريٌّ حرٌّ وعميقٌ، وهو الثّقة بفرحٍ في خطّة الله الخلاصيّة في التّاريخ، على مثال إبراهيم والعذراء مريم، لأنّ «نعم» الإيمان هي فقط الّتي تُحوّل الحياة وتُغنيها بالرّجاء الأكيد.

١٤. المسيحُ، كإلهٍ-إنسان، هو، بطريقَةٍ ما، الإيمانُ «الموثّق»، الممنوح «من العلى»، لكي نأتي إلى معرفة الله «بذاته» («من رآني فقد رأى الآب»، يوحنّا ١٤: ٩). إنّه إيمانُنا الأقنوميّ (الشّخصيّ). نحن نصير «مؤمنين»، بالاشتراك في ذلك الإيمان الشّخصيَ المتجسّد، أي المسيح. فقط في المسيح يمكن أن تتوفّر إمكانيّة معرفة الإله الحقيقيّ؛ إنّه «خلاصُنا» الأوْحد: «وليس بأحدٍ غيره الخلاص، لأنّه ليس اسمٌ آخر تحت السّماء ممنوحًا للنّاس، به ينبغي أنْ نخلُص» (أعمال ٤: ١٢).

١٥. يردُّ الإنسانُ على الإيمان المعلَن «المُجاز» إليه لخلاصه بإيمانه الشّخصيّ. إيمان الإنسان أساسيٌّ بشكلٍ مُطلَقٍ، لكي تعمل قوّة الله في داخله؛ لتقودَهُ إلى الخلاص. المسيح نفسه أكّد قيمة إيمانه «من آمَن واعتمَد يخلُص، ومن لم يؤمن يُدان» (مرقس ١٦: ١٦) . ينبغي أنْ يتحوّل الإيمان «الموضوعيّ» إلى إيمانٍ «شخصيٍّ» من أجل الخلاص. وهذا يتحقّق، من خلال «سُكنى» الإيمان «الموضوعيّ»، «إنْ كان روح الله حالاًّ فيكُم» (رومة ٨: ٩)؛ بتعبيرٍ آخر، سُكنى غير المخلوق في المخلوق؛ سُكنى الله في الإنسان.

١٦. **الإيمانُ ثُنائيّ**. هناكَ الإيمان الّذي ينشأ بالسَّماع، حيث أنَّنا بسماعِنا الكتاب المقدّس، نؤمن بالتّعليم... من ثمّ، هناك الإيمان الّذي هو أقنوم (جوهر، أصل) الأمور المرجوّة... فالأوّل ينبع من الاقتناع، بينما ينتمي الثّاني إلى مواهب الرّوح.

١٧. المسيح يدعو الإنسان لأنْ يكون «مؤمِنًا»، متلقّيًا للحقيقة المعلَنة في المسيح «كحياةٍ في المسيح»، ولأنْ يعيش تلك الحقيقة لكي يصير هو نفسه حقيقيًّا، تمامًا كما المسيح هو «الإله الحقيقيّ»: «ونعلَم أنّ ابن الله قد أتى وآتانا بَصيرةً لنعرف الإله الحقيقيّ ونحن في الإله الحقيقيّ في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحقيقيّ والحياة الأبديّة» (١ يوحنّا ٥: ٢٠). خلاصُ الإنسان هو عندما يرجِع «حقيقيًّا» والشّرط المُسبَق لهذا هو اتّحاده بالإله الحقيقيّ.

١٨. بما أنّ يسوع المسيح، في نظر الإيمان، هو الكلمة الإلهيّ الكائن منذ الأزل وإلى الأبد، والمولود في مجرى التّاريخ البشريّ، فإنّ القيامة ما عادت مُجرّد حدثٍ خارقٍ، بل غدَت تكشف لنا عن تدبير الله في إكمال إنسانيّة الإنسان، وتمكينِها مِن تجاوُز الضّعف والمرَض والخطيئة والشرّ والموت.

١٩. إنَّ السّؤال الجوهريّ الوجوديّ لإنسان اليوم يظلّ باقيًا: «إذا جاء ابن البشرِ تُرى هل يجِد الإيمان على الأرض؟» (لوقا ١٨: ٨)، هل سيجِد الإيمان؟ إنَنا عندما نقول الإيمان، فإنّنا نَعني في المقام الأوّل الشّركة والحياة. **الإيمان هو «رؤية وإدراك القلب».**

- هل سيجِد محبّةً مسيحيّة؟
- هل سيجِد أُناسًا مستعدّين للتّضحيّة بأنفسِهم من أجل إخوتِهم في الإنسانيّة؟
- هل سيجِد رُهبانًا زاهدين في دُنيويّات هذا العالم؟
- هل سيجِد راهباتٍ مُلتهباتٍ كلّ يومٍ بمحبّةِ المسيح؟
- هل سيجِد أساقِفَةً مملوئين تواضُعًا ومحبّةً لله وحِسًّا روحيًّا مُرهَفًا؟
- هل سيجِد مسيحيّين مشتعلين بنار حلول الرّوح القُدُس؟

٢٠. بحسب تعليم آبائنا، تكون كلّ الفضائل عديمة النّفع ما لم يكُن الرّوح القُدُس موجودًا في قلوبنا. لم تخلص الخمسُ عذارى الجاهلات، على الرّغم من كونهنّ عذارى، **لأنّهُنّ لم يقتنِينَ المحبّة**، الّتي هي أهمّ كلّ الأمور وهي نعمة الله في قلوبهنّ. بالتّالي، عندما يأتي المسيح على الأرض هل سيجِد آثارًا للإيمان محفورةً من قِبَل الله، ذبائح عقليّةً، وأناسًا يكونون مسكنًا لله الثّالوث، هياكلاً للرّوح القدس؟

• صلاة

إلهنا القدير، يا مَن أنعمتَ علينا بالخلاصِ الأبديّ، نُعلِنُ لَك هذه السّنة على أنّها سنة إيمانٍ. سنةٌ، يا ربّ، نعود فيها إليكَ. فنُصلّي أن تكون هذه السنةُ سنة تعويضٍ عن كلّ ما مضى مِن بُعدٍ وجفافٍ قد صَدَر منّا. بإيماننا القليل، نأتي إليكَ، لكيما تُضاعفهُ أنتَ بنعمتكَ الإلهيّة.

لقد خطِئنا إليكَ في ما مضى، وإنّنا بالتّوبة الحقيقيّة، وبالصّلاة الدّائمة نُكرّس هذه السّنة لكَ ولإيماننا فيك. لأنّه ليس سواكَ مُستحقٌّ أن يعطى المجد والكرامة، أنت الّذي أرسلتَ لنا ابنكَ ليخلّصنا من الموتِ الأبديّ. بما أنّك مُحبٌّ للبشر إلى دهر الدّاهرين.

آمين

الباب الثّاني

لاهوت النّعمة الخلاصيّة في الظّهور الإلهي والقيامة

لقد أكمَلنا افتتاح هذا الكتاب بموضوع الخلاص ونعمته كونه المِفتاح لكلّ مسيرةٍ إيمانيّة بحسب مشروع اللهِ الخلاصيّ للبشريّة. فقد قال يسوع: «الْحقّ الحقّ أقول لك: إن كان أحدٌ لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يوحنّا ٣:٣).

١) ماهيّة النّعمة الخلاصيّة ولاهوتها

٢١. يردّد الكثيرون كلمة «النّعمة» دون فهمِهِم لمعناها... المعنى الصّحيح لكلمة «النّعمة» هو: «إحسانٌ إلى إنسانٍ لا يستحقّ الإحسان». ليس بين البشر من يستحقّ إحسان الله، إذ كما يقول القدّيس بولس: «إنّه ليس بارٌّ ولا واحدٌ» (رومة ٣: ١٠؛ راجع أيضًا مزمور ١٣: ١-٣)، ويقول أيضًا في الرّسالة ذاتِها: «فقد اعتلَنَ برّ الله بالإيمان بيسوع المسيح، إلى جميع الّذين يُؤمنون وعلى جميعِهِم بلا فرقٍ، لأنّ الجميع قد خَطِئوا فيُعوزُهُم مجد الله، فيُبرَّرون مجّانًا بنعمته بالفداء الّذي بالمسيح يسوع، الّذي سبق الله فجعله كفّارةً بالإيمان بدمه، لإظهار برِّهِ» (رومة ٣:٢٢-٢٥)، بمعنى أنّ الجميع أخطأوا وأعوزهُم الوصول إلى المقياس الّذي يمجِّد اللهَ، ولهذا احتاج النّاس إلى نعمة الله، إلى إحسان الله على الّذين لا يستحقّون الإحسان، وكلّنا لا نستحقّ هذا الإحسان: «لتكونوا بني أبيكم الّذي في السّموات، فإنّه يُطلِع شمسَهُ على الأشرار والصّالحين، ويُمطِر على الصّدّيقين وغير الصّدّيقين» (متّى ٥: ٤٥). وبالتّالي، فإنّ علامة حضور النّعمة هي الفرح والشّجاعة اللّذان يملآن النّفس.

٢٢. إنّ النّعمة هي التّعبير عن رأفة الله ومحبّته تجاه الإنسان بالمسيحِ يسوع في الرّوح القُدُس. وهي، أيضًا، مجموعة إشعاعات الله غير المخلوقة المنبعِثة على الخليقة كلِّها وبخاصّةٍ على الإنسان حتّى يصل إلى درجة التّألُّه بالنّعمة. هي، أيضًا، قوّة الله للخلاص، والعاضِدَة لنا، والّتي تجعلُنا من عدادِ مواطني السّماء بدءًا من هذه الحياة الحاضرة. تُظهِر لنا النّعمة محبّة الله الكُلّيّة لنا والمستمِرّةَ منذ إنشاء العالم، كما تشهد على تدبيرِهِ الخلاصيّ الّذي حدّدَهُ لنا منذ البدءِ لكي نَنال وعودَهُ الإلهيّة.

٢٣. إنّ النّعمة هي عطيّةٌ مجّانيّةٌ من الله، تُعبِّر عن جودتِهِ ورحمتِهِ الإلهيّة نحو الإنسان صنيعَهُ، وهي أيضًا عطيّةٌ ضروريّةٌ للخلاص والحياة الأبديّة.

٢٤. عطيّةُ يسوع لها غِناها الّذي يَصِل إلى درجة عدم التّمكّن من احتوائِهِ كلّه وتحصيل محتواه وتفريغِهِ. وليس هناك حتّى تسميّةٌ واحدةٌ قادرةٌ على استيعاب كلّ المعنى.

٢٥. إنّ عطيّة يسوع تخترق الإنسان بأكمله؛ فكلّ عطاياه تُصبح قوًى روحيّةً تثبُتُ في الإنسان وتعمل فيه، لأنّ كلمة الله هي الحياة، وهي كلمة روح الحقّ، هي المَسحة، وهي زرع الله. حيث أنّ العطّية الإلهيّة المُعطاة من قِبَل يسوع للإنسان تحتفظ بقوّتها غير القابلة للزّوال، لتبقى «إلى الأبد».

٢٦. في الحبّ الثّالوثيّ، يحيا كلّ شخصٍ بحسب «ذاك» الحبّ الّذي هو من صفات الله... العطاء الكامل؛ الموت الكامل في الآخر ولأجله؛ الإفراغ الكامل؛ الخلق الكامل وإعادة الخلق للوجود بأكمله، للحبّ في جوهره، في الحبّ «الله محبّة» (١ يوحنّا ٤: ١٦).

٢٧. هذا العطاء الكامل لذواتنا، هو المقدّمة لمحبّة الله... «أحبّك يا ربّ وأُعطيك ذاتي... منّي لشخصك»... أن تكون أَمَةً لله أو أن تكون عبدًا لله، هو أن تكون في قَبولٍ تامٍّ لإرادته ولوصاياه... أن تقبل، أن تطيعه ليس خارجيًّا أو سطحيًّا، بل بالرّوح والقلب والكيان. أن تصير مثله. وهذا يعني، يا أحبّاء، أن نقدِّم ذواتنا، قلوبنا وعقولنا، كمكانٍ لسكناه، مثل حشى مريم.

٢٨. على مثال مريم، كُلّنا مدعوّون لكي نعيش رسالتنا بقلبٍ منفتحٍ على نعمة الربّ وبتسليمٍ لها بالقبول عن طريق كلمة «نعم». مثل مريم، فلنقل نعم، ولنركض مسرعين، ولنخرُج لنبشّر بهذه النّعمة ولنكن صادقين شفّافين؛ وليكن عندَنا كُلّ الثّقة أنّ الّذين سنلتقيهم سوف يفهموننا، لأنّ بداخل كلّ واحدٍ منهم يوحنّا صغير يسمع وينتظر ويفرح، لأنّ الرّبّ يسوع الّذي في قلوبنا يكون قد لمسه.

٢٩. أيقونتنا، مريم، والدة الإله، وضعت نفسها لتصير أمته... وضعت نفسها، هي الّتي اختيرت لتحمله، لتكون مسكنًا له، لتكون خيمته، هيكله، الإناء المقدّس، صورته الّتي تعكس وجهه، وتكون نوره، كلمته، وشخصه... هاءنذا أَمَةٌ للربّ! هكذا علينا أن نبدأ علاقتنا بالمسيح في كلّ الأزمنة والأجيال، نأتي إلى الله لأنّنا نريد منه شيئًا. طول الوقت، نطلب منه أشياء (النّجاح، السّلطة، المال...) وهي احتياجاتٌ دُنيويّةٌ محض. الأمر الوحيد الّذي فَعَلَته والدة الإله، هو أنّها أعطت نفسها له بدون شرط، بكلّيّةٍ وتواضع، حتّى يقرِّر فيها ولها، ولوجودها وحياتها وخلاصها.

٣٠. محبّة الله هي العطاء الكامل، والاحتضان الكامل، لدرجة الموت لأجل الآخر، لخلاصه. بينما الفرديّة، الّتي هي ثمرة خطيئتنا في زماننا؛ فهي القبر، حيث تختبر النّفس البشريّة الموت والجحيم في الغيرة، في استعباد الآخر لإعادة صياغته على صورتنا، على الصّورة السّاقطة الّتي اتّخذناها، أو ما يُسمى بمرض أو سرطان عصرنا: اليأس.

٣١. علينا ألّا نركّز على موضوع الخطيئة. هنالك الكثير من النّاس المتعبّدين، إنْ جاز التّعبير، للخطيئة، بمعنى أنّهم يُعطونها اهتمامًا مبالغًا فيه، بيدَ أنّهم لا ينظرون، بالمقابل، إلى نعمة المسيح المُخلِّصة.

٣٢. الحقيقة هي أنّك أيّها التّرابيّ ستبقى خاطئًا طوال أيّام حياتك لكن لا تكن أسيرًا للخطيئة، بل اطلب نعمة الله، ونعمة الكنيسة، واطلب الشّفاء من الله برجاءٍ وإيمانٍ ومحبّة.

٣٣. إذا كانت الخطيئة (البُعد عن الله) هي سبب اغتراب الإنسان عن ذاته، فإنّ انهماكه بالخطيئة يزيده اغترابًا، بينما اقترابه من الله يُخفِّف هذه الغربة الكيانيّة الوُجدانيّة.

٢) نعمة الخلاص المجّانيّ

٣٤. الخلاص هو التّدبير الّذي صنعه الله الآب لإنقاذ الإنسان من الهلاك الأبديّ. وهو إذا كان يبدأ خطواته الحاسمة بصليب المسيح وموته وقيامته، فهو يتواصل عَبْرَ الإيمان والجهاد والقداسة (عمل الرّوح القدس في المؤمنين) حتّى يبلغ خطوته المجيدة في نوال الحياة الأبديّة. النّهاية السّعيدة لتدبير الخلاص الّتي تعود بها الخليقة الجديدة إلى الملكوت الّذي تعثّرت الخليقة القديمة في دخوله بسبب السّقوط ودخول الموت إلى العالم (عبرانيّين ٩: ١٥).

٣٥. الخلاص يعني: النّجاة من غضب الله على الخطأة. وما أرهب غضب الله: «فيا لَهول الوقوع في يَدَي الله الحيّ!» (عبرانيين ١٠:٣١). ويعني نوال الغفران الكامل، فالخطيئة ثقلٌ على الضّمير، ومحاولة إخفائها تصيبُ الإنسان بعدم الإتّزان أمامَ ثِقَل الخطيئة. فالخلاص يُشير، بالتّالي، إلى إزالة عائقٍ: فنحن نخلُص من شيءٍ ما، من الموت، ومن الخطيئة الّتي هي أصله (راجع رومة ٥: ١٢). لم يتمِّم آدم التّصميم الإلهيّ: فبدل أن تسلك مشيئة الإنسان خطًّا مستقيمًا للارتقاء نحو الله، سلكت طريقًا مُضادًا للطّبيعة، ينتهي إلى الموت.

٣٦. رغبة الله الخلاصيّة تبقى رغبةً نظريّةً وعاجزةً ما لم يتجاوَب الإنسان مع هذه الرّغبة ليضعها موضِعَ التّنفيذ والتّحقيق. لا يمكن لله أن يفرض علينا مشيئته (راجع رؤيا ٣: ٢٠)، ولا يمكن لله أن يفرض علينا طريقه، إنّما نحنُ العجزة، ونحن غير القادرين على اتّباع الله، نحن غير قادرين حتّى على المشي قُدمًا في مسيرة الرّجاء الإيمانيّة. بتعابير أخرى، لقد خلق الله الإنسان بمشيئته الإلهيّة وحدها، لكنّه لا يقدر أن يُخلِّصه من دون مساهمة المشيئة البشريّة.

٣٧. لا يتحقّق النّسل من يسوع بالطّبيعة والحتميّة، إنّما بالإرادة والحريّة. يمتلك الإنسان هذا النّسب ونِعَمَ هذا النّسل الجديد بفعل قراره الحُرّ والمُلتزم في تجديد حياته.

٣٨. الإنسان عاجزٌ تمامًا عن أن يخلّص نفسه، وأعماله الصّالحة لن تخلّصه، لأن أعمال الإنسان الصّالحة هي إهانةٌ بالغةٌ لقداسة الله؛ كأنّنا نقول لله: لقد أخطأنا، وتعدّينا وصاياك، وأثِمنا، لكنّنا نُسدّد لك أُجرة خطايانا بأعمالنا الصّالحة. الله القدّوس لا يقبل الرّشوة!!

٣٩. إنّ الخلاص ليس إصلاح الطّبيعة القديمة أو تقويمها، بل هو خَلقُ كائنٍ جديدٍ مولودٍ من الله بالبرّ والقداسة. التّجديد ليس فقط تغيّر الطّبيعة أو إصلاح القلب، وإنّما هو ولادةٌ جديدةٌ، ولادةٌ ثانية، ولادةٌ من عَلُ (راجع يوحنّا ٣: ٣)، على حدّ تعبير القدّيس بولس: «إذًا إنْ كان أحدٌ في المسيح فهو خليقةٌ جديدةٌ. قد مضى القديم، وها إنّ كلّ شيءٍ قد تجدّد» (٢ كورنثس ٥: ١٧).

٤٠. إنّه [الفهم] روح العلوم، والفِكر الّذي يجب أن يكون في كُلّ الأفكار. وهذا الفِكر هو خلاصُ الإنسان، سعادته، حياته الفُضلى مع الله. إنّ الإنسان غاية العلوم الّتي يجب أن تجعل حياة الإنسان مُتحرّرةً قدر الإمكان من ثِقَل المادّة ومظاهر الألم والأمراض الّتي لطالما هامت الفلسفات من أجل التّحرُّر منها حتّى صار الموت خلاص الفيلسوف.

٤١. أمَا علمتم أنّه لولا مؤازرة نعمة الله مؤازرة عظيمة لما استطاعت نفسٌ بشريّةٌ قطّ أن تصمد أمام نار تلك الذّبيحة الهائلة! لأنّه إن لم يكُن في استطاعة أحدٍ أن يعرف ماهيّة الإنسان المركّب من لحمٍ ودمٍ، فكيف يمكن الدّنوُّ من الطّبيعة المغبوطة المتفوّقة في الطّهارة والنّقاوة.

٤٢. لقد تخطَّى يسوع المسيح كُلّ ما قيل قديمًا عن أنّ الله يريد أن يحقِّق عهدًا مع شعبه. فكلّ العهود القديمة في سيناء ومع الأنبياء الّتي أراد الله من خلالها خلق رباطٍ مع الشّعب، جاء يسوع هو بنفسه وحقّق هذا الرِّباط. فهو إلهٌ يحمل للبشريّة محبّة الله، وهو إنسان يحمل لله معاناة البشريّة، وهكذا قرّر أن يحقِّق الرِّباط والعهد بينهما.

٤٣. **شموليّة الخلاص:** لقد أقام الله عهده القديم (النّاموس، الهيكل، الكهنوت، الذّبائح، الفرائض والطّقوس) مع بني إسرائيل فقط. أمّا العهد الجديد، فقد أقامه المسيح من خلال دمه «المهراق عن كثيرين»، أي مع كُلّ الَّذين سيؤمنون به، بغضّ النّظر عن أجناسهم وقوميّاتهم وخلفيّاتهم.

٤٤. دعوة المسيح لا تعني جزءًا من العالم فقط، إنّما هي دعوةٌ مفتوحةٌ لكلِّ الجنس البشريّ دون استثناء، وهي دلالةٌ على شموليَّة الدّعوة، وشموليَّة المشاركة بهذه الدّعوة.

٣) لاهوت النّعمة الخلاصيّة في الظّهورِ الإلهيّ (الميلاد)

٤٥. إنّ تجسُّدَ ابن الله يُظهرلنا كم أنّ الإنسانَ مهمٌّ للهِ، وكم أنّ الله مهمٌّ للإنسان. فبدون الله، يغلّب الإنسان أنانيّته على التّضامن والمحبّة، والأشياءَ المادّيّة على القِيَم. ولا بدّ من العودة لله كي يعود الإنسان إنسانًا. فمع الله، وحتّى في اللّحظات الصّعبة والأزمات، هناك أُفُقُ رجاء: يؤكّد لنا التّجسُّد أنّنا لسنا وحدنا أبدًا.

٤٦. المفارقة الَّتي لا لبس فيها هي أنّ الكلمة السّاكن مع الله، واللّابس كمال عظمة الألوهيّة والحائز على ملء الحياة الإلهيّة، قد دخل فعلاً في المجال الأرضيّ والإنسانيّ، واتّخذ المواد القابلة للفساد بصيرورته بشرًا: إنّه حدثٌ حقيقيّ.

٤٧. المسيح الرّبّ هو مخلّصنا لأنّه هو إيّاه الإله الإنسان. في شخصه يصير الإله إنسانًا ويصير الإنسان إلهًا. بشخصه الإلهيّ-الإنسانيّ يشكّل المسيح الرّبّ أعجوبةً مزدوجة: أنسنةَ الله وتأليهَ الإنسان. إنّ خلاص الجنس البشري ليس سوى تأليهه في شخص الإله الإنسان، المسيح. إنّ تأليه الطّبيعة البشريّة في الإله الإنسان، المسيح، إنّما ينجم عن وحدتها الأقنوميّة مع الإله الكلمة. غير أنّ الطّبيعة البشريّة، في هذه الوحدة، لا تفقد ما هو محدودٌ فيها ولا ما يجعلها بشريّة.

٤٨. لقد تجسّد المسيح ليصحّح غلطة آدم. نعرف من العهد القديم أن آدم فشل في أن يثْبُت في الاستنارة وبلوغ التّألّه. وحيث فشل هو، نجح آدم الجديد؛ ربّنا يسوع المسيح.

٤٩. إنّ الإنسان بعد السّقوط، صار عليه العبور على الطّريق النّسكيّ- نعم، النّسك، في العمق، هو للجميع- وذلك ليبلغ بالإنسان إلى الخلاص، وليصير حاملاً للرّوح القدس، ليصير أيقونةً للإله- الإنسان، ربّنا يسوع المسيح.

٥٠. في شخص المسيح يصير الإله إنسانًا ويصير الإنسان إلهًا. وبشخصه الإلهيّ الإنسانيّ يشكّل المسيح الرّبّ أُعجوبةً مزدوجة: أنسنةَ الله وتأليهَ الإنسان. هذا هو الخبر السّار، خلاصة مجمل العهد الجديد. فبتجسّده اشتمل الله الكلمة كلّ الطّبيعة البشريّة وقادها على سكّة التّبنّي الإلهيّ.

٥١. لقد تمّ الكشف عن حياة الدّهر الآتي هذه للمؤمن مُسبَقًا في رسالة يسوع الأرضيّة – الخلاصيّة الّذي نزل من السّماء ليُعطيَ الحياة للعالم لإشباع جوع العالم الرّوحيّ، وإرواء عطشه الرّوحيّ أيضًا.

٥٢. وحده الله قادرٌ على أن يُعيد للبشر إمكان التّألّه، وذلك بأن يعتقهم في الوقت ذاته من الموت ومن أسر الخطيئة. ما كان ينبغي للإنسان أن يبلغ بارتفاعه نحو الله، يُحقّقه الله بانحداره نحو الإنسان. ولهذا السّبب سيعبر الله الحواجز الثّلاثة، الّتي ليس باستطاعة الإنسان أن يعبرها: الموت (بقيامته الانتصاريّة) والخطيئة (بموته الخلاصيّ) والطّبيعة (بتجسّده الإلهيّ): «إنّ ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطيئة والموت. لأنّه إذ عَجِزَ النّاموس، فأصبح لا قوّة له بسبب الجسد، أرسل الله ابنه في شبه جسد خطيئة. ومن أجل الخطيئة قضى على الخطيئة في الجسد.

٥٣. صار ابنُ الله ابنَ البشر لكي يصير أبناءُ البشر، أبناءُ آدم، أبناءَ الله... لنستطيع أن نُعطيَ الله لقب أب... ابنُ الله يذوق الموت، ليستطيع أبناء البشر الاشتراك في حياة الله. إنّه ابن الله بالطّبيعة، ونحن أبناء الله بالنّعمة.

٥٤. لقد لَبِسَ ابن الله «الجسد» ليحيا وجودًا بشريًّا على غرار حياة الحبّ الكائنة في الله بهدف تقديمها للبشر عربون تحريرٍ لهم من عبوديّة الشّرّ وانضمامهم إلى عالم الله وانتمائهم له. فالرّسول الأمين للرّسالة، والحدث البشريّ ليسوع التّاريخيّ، تقبَّل في الإيمان وأعلن بشارة الله الّذي أصبح بشرًا واختتم وجوده مرفوعًا على صليبٍ من أجل المحبّة. في حدث يسوع، الإله والإنسان معًا، خرج الله من ذاته، كاشفًا إيّاها للبشر. إنّ سلوك الله هذا، الّذي يظهر، للوهلة الأولى، غريبًا ومُبهَمًا، يجد إجابته في إلهٍ يعيش حالة حبٍّ وعشقٍ مع الإنسان.

٥٥. الله ينزل إلى العالم، ويصير إنسانًا، والإنسان يرتفع نحو الكمال الإلهيّ، ويصير إلهًا، وذلك لأنّ اتّحاد الطّبيعتَين هذا، الإلهيّة والإنسانيّة، سبق الله فحدّده في مشورته الأزليّة، وهو الغاية الأخيرة الّتي لأجلها خُلِقَ العالم من العدم.

٥٦. إذا قرأنا ذكرى الميلاد قراءةً أولى تُعنى بإدراك النّعمة الخلاصيّة - تحرّرنا من أزمة الامتداد الطّقوسيّ والفكريّ. بيد أنّ هذا التّحرّر يُسقِطُنا في منطق اللاهُويّة الّذي يُفقِد التّجسّد معانيه التّاريخيّة، إذ يُصبح المسيح معنى الإنسانيّة الأسمى الحاضر في الكون على غير انغراس، والمنتشر في الزّمن على غير تجذّرٍ، والنّاشط في الوعي الإنسانيّ على غير انتماء. وإذا قرأنا ذكرى الميلاد قراءةً ثانية، بنيّة الانتساب إلى ملكوت الله، تحرّرنا من أزمة اللاهُويّة. غير أنّنا قد نسقُط في أزمة التّقيُّد والتّقييد، التّقيُّد بأنماط التّفكير الموروثة وتقييد يسوع المسيح بنُظُم التّراث وأعراف التّقاليد وأحكام المؤسّسة الدّينيّة.

٥٧. هناك رابطٌ بين الحياة والمجد: مَن يُظهر مجد المسيح في حياته، من خلال عَيش الفضائل المسيحيّة بأمانة، فهو محبوبٌ عند إله المجد. علينا إماتة أعضائنا البشريّة عن طريق حضور يسوع المسيح في حياتنا لكي نأخذ أعضاءً جديدةً ممجَّدة. علينا أن نخلع الإنسان القديم بدُنيويّته الفكريّة والعمليّة، لنلبس الإنسان الجديد، الّذي على صورة المسيح (راجع كولسّي ١: ١٥).

٥٨. الإيمان بظهور الله الخلاصيّ، في المسيح، لا يكون إيمانًا حقيقيًّا إلاّ إذا اقترنَ بفعل التزامٍ كيانيٍّ يعني وجود الإنسان برُمّته. ولا غرابة، من ثُمّ، أن يعسُرَ على الإنسان غير المسيحيّ أن يتحدّث عن الظّهور الإلهيّ، إذ إنّ هذا الحديث مُلزمٌ من تلقاء ذاته.

٥٩. وحدهُ الإيمان يمكِّن الإنسان من معاينة الآثار الضّخمة الَّتي يولّدها ظهور الكلمة الإلهيّ في مسرى الوجود الإنسانيّ. وعلى قدر ما تنكشفُ لي عَظَمَة هذه المفاعيل، ينسابُ كياني انسيابًا حُرًّا في حركة الالتزام الوجوديّ الّذي يجعل من الظّهور الإلهيّ ظهورَ الفعل الدّائم في حياتي الفرديّة وفي حياة الآخرين.

٦٠. في الميلاد يؤمن المسيحيّون بأنّ الله ليس فكرةً، أو تصوّرًا، أو مثالاً نظريًّا، أو حالةً رفيعة، أو ناموسًا مُهيمِنًا، أو طاقةً كونيّةً، بل هو صِلةُ حُبٍّ، وعلاقة ودٍّ، ومصدر حياةٍ وإشعاع.

٦١. وحده يسوع هو حدث الله لأجل الإنسان، لأنّه مجيء الله إلى الإنسان، لأنّه الله مع الإنسان، العمّانوئيل، أي «الله معنا».

٦٢. لقد كشف يسوع لنا وجه الله الآب الرّؤوف الحنون الكثير المراحم، كما كشف لنا أنّه الشّمس الحقيقيّة الّتي تُضيء العالم (لوقا ١: ٧٨-٧٩) وكوكب الصُّبح المُنير (رؤيا ٢: ٢٨؛ ٢٢: ١٦)، على أمل أن يُشرق هذا الكوكب نفسه في قلوبنا (٢ بطرس ١: ١٩).

٦٣. لقد شوهد في السّماء نجمٌ أضعفَ نورُه سائر النّيّرات. فحار النّاس في وصف ضيائه، وأدهشهم بحدّته. واكبته جميع الكواكب والشّمس والقمر، وكان نوره يُخفي ضياء سائر النّيّرات مجتمعةً فتساءلت فيما بينها مضطربةً عن مصدر هذا النّجم العجيب المختلف عنها جدًّا. إذ ذاك خُزي كلّ سحرٍ وتحطّم كلّ رباط شرّ وتلاشى الجهل وسقطت المملكة القديمة، لأنّ الله ظهر متأنِّسًا ليُحقّق النّظام الجديد (رومة ٦: ٤)، أعني الحياة الأبديّة. فإنّ النّظام الّذي أعدّه الله منذ البدء أخذ يتحقّق، فنتج عن ذلك اضطرابٌ عامّ لأنّ الموت أوشك أن يزول.

٦٤. إنّ الّذي ظهر وحلّ في بشرِيّتنا واصطلع بجسديّتنا وولج في تُرابيّتنا فاتّحد بالكيان الإنسانيّ بأسره ليس هو الله الآب، بل هو الابن. ومعنى هذا القول أنّ المسيحيّة تصونُ سمُوّ الله، إذ تحجبُ نظرها وتكفّ عقلها عن إدراك الله الآب، فتكتفي بالتّأمل في هويّة الكلمة المتجسّد.

٦٥. إنّ العقل الإنسانيّ خارقٌ لا يستوعبه العقل بمحض إرادته الذّاتيّة. الظّهور الإلهيّ يعسر تبريره في حدود المنطق، لكنّه لا يستحيل اختباره في حسّ الإيمان والثّقة.

٦٦. إذا كان الله قادرًا على إظهار كلمته في تاريخ البشر، أي على الانخراط في مجرى الزّمن الإنسانيّ، فلأنّ الإنسان قادرٌ على تقبُّل هذه الكلمة ويستطيع أن يعيش منها وفيها فيحيا حياةَ الله.

٦٧. معنى ظهور الله في التّاريخ أنّ التّاريخ الإنساني لم يعد محدودًا بحدودِ زمنِنا الحاضر لأنّ الإنسان شرع كيانَهُ على آفاقِ الألوهة. ومن طبيعةِ الألوهة أن تتجاوزَ الحدود في كُلّ شيءٍ.

٦٨. الإنسان ما عاد قادرًا على نقض العهد الجديد الّذي أبرمَهُ الله معه. فالإنسان يمكنه أن يتغاضى عن هذا العهد، ولكنّه لا يستطيع أن يُلغي بحرّيّته الرّافضة مضامين المبادرة الإلهيّة الخلاصيّة.

٦٩. عندما يُدرك المسيحيّون أنّ الظّهور الإلهيّ هو ظهور كلمة الله في شخص المسيح، وهو ظهورٌ لا يسلِّط الإنسان على جوهر الله وطبيعته وذاته، فإنّهم يتصرّفون تصرّف الحفاظ على حريّة الله في إظهار حياته وإعلان مشيئته وإنجاز فعله. فيعودون لا يدّعون امتلاك الذّات الإلهيّة. فيطمحون إلى الانصهار فيها وتمثّلها حتّى يتسنّى لهم أن يقوموا مقامها ويتحدّثوا باسمها.

٧٠. على قدر ما يولد الله في الإنسان، يولد الإنسان في الله. ومعنى هذه الولادة الإنسانيّة أنّ الحياة الإنسانيّة تقترب بعمق فكرها وخصوبة قولها وجمال فعلها من الحياة الإلهيّة الّتي ظهرت لنا في شخص يسوع المسيح. ومِثل هذه الولادة الإنسانيّة في الله تقتضي على الدّوام من الإنسان المؤمن تجديدًا وإبداعًا.

٧١. إنّ تجسّد الله الكلمة هو الدّليل السّاطع على أنّ الله هو صاحبُ المبادرة الدّائمة في ملاقاة الإنسان. وهو أيضًا الدّليل السّاطع على أنّ القطيعة الّتي تنشأ بين الله والإنسان سببها الأوّل أنّ الإنسان يصعُب عليه أن يدرك على الدّوام إدراك الاختبار الصّائب أنّ الله يروم أن يبلغ بالإنسان إلى كمال إنسانيّته، أي أن يجعله قادرًا على إنجاز كيانه وتفعيل هُويّته في حريّة الواثق بأمانة الشّريك الإلهيّ.

٧٢. إنّ الأيقونة المقدّسة تشهد لعظمة تجسّد الكلمة تجسُّدًا أفضى، في الذّات الإلهيّة، إلى اختبار الخروج من الذّات خروجَ حبٍّ وعطاء، وتدلّ على التحام اللّاهوت بالنّاسوت التحامًا خارقًا لا امتزاج فيه ولا اختلاط.

٧٣. بفضل هاتين الولادتين، ولادة الله وولادة الإنسان، باتَ الإنسان هو في عمق جوهره كائن التّألّه الدّائم. فيحمل هذا التّألّه معاني الإبداع الوجوديّ الذّاتيّ الّذي لا يقيّده سوى مراعاة الإبداع الوجوديّ المقابل. فإذا كان الميلاد يدفع بالمسيحيّين إلى الإيمان بأنّ الإنسان كائن التّألّه، وكان التّألّه مرادفًا للإبداع الكيانيّ الحُرّ، فإنّ المسيحيّة الميلاديّة لا يمكن أن تتحوّل إلى ديانة القهر والانقهار، والاخضاع والخضوع، والاستصغار والاستذلال.

٧٤. من حقائق الميلاد في المسيحيّة أنّ الإنسان قادرٌ على إظهار الله. فكما أنّ الله أراد لنفسه أن يحمل الإنسان في ذاته، كذلك أراد للإنسان أن يحمل الألوهة في ذاته. ولـمّا كان الإنسان، في معتقد المسيحيّة، حاملاً للألوهة، فإنّ الميلاد يصبح في الوقت عينه ميلاد الله في الإنسان وميلاد الإنسان في الله. فالمسيحيّون يؤمنون بأنّ الميلاد يعني لهم أنّ الله، في كلمته وفكره وحياته وقدرته المُحِبّة، ما انفكّ يولد في الإنسان ليجعل من الإنسان كائناً قادرًا على التألّه، أي على ابتكارِ نهج الألوهة الّذي يليق بمسرى وجوده التّاريخي.

٧٥. المسيحيّ الميلاديّ لا يمكنه أن يكون إلّا إنسانَ الرّجاء الدّائم بأنّ الله سيولد فيه وفي كُلّ إنسانٍ نظيريّ، وبأنّه سيولد في الله وبأنّ كُلّ إنسانٍ نظيريٍّ سيولد في الله. هو إنسانُ التّحرّر والجرأة. إنسانٌ يبتهج في أن يبدع إنسانيّته إبداعًا ينحت له صورة الألوهة الّتي تليق بحصاد نضاله الوجوديّ. المسيحيّ الّذي لا يبتكرُ نهج التّألّه الّذي يوائِم مطمح طاقاته الدّفينة لم يؤمن بعد بأنّ الميلاد هو عيد ولادة الله فيه وعيد ولادته في الله.

٤) لاهوت النّعمة الخلاصيّة في الآلام والصّليب

٧٦. روحانيّة الثّلاثة أيّام من أسبوعِ الآلام (الخميس، الجمعة والسّبت):

١. إذا عُدنا إلى الوراء، إلى أناجيل الآلام في خدمة سحر الجمعة العظيمة عشيّة الخميس العظيم المقدّس، نجد في بداية الإنجيل الأوّل الآية: «الآن تمجّد ابن البشر وتمجّد الله فيه» (يوحنّا ١٣: ٣١). هنا يكشف الإنجيليّ يوحنّا بوضوحٍ أنّ أسمى ظهورٍ للمجد الإلهيّ قد سطع في الصّلب.

٢. لهذا، تبدأ الكنيسة احتفالها الفصحيّ بهذه الكلمات، أي أنّ الفصح يبدأ يوم الجمعة وليس الأحد. ففي التّقليد القديم، لم تكن لفظة الفصح تشير إلى الأحد كما هي الحال اليوم، بل إلى السّرّ الثّلاثيّ الأيّام غير المنقسم: الجمعة والسّبت والأحد. فهذه الوحدة وهذه العلاقة المتبادَلة بين يوم الصّلب ويوم القبر ويوم القيامة، هي الّتي ستكشف لنا كيف يكون العبور بالصّليب عبورًا إلى «الفرح الأقصى» أو «الفرح الأعظم». وهذا ما تؤكّده الكنيسة في تكرارها سحر كلّ أحد: «بالصّليب أتى الفرح لكلّ العالم».

٣. إنّ هذه الفترة الخلاصيّة المقدّسة، أي أسبوع الآلام العظيم المقدّس، تتطلّب منّا جهادًا روحيًّا ومثابرةً صلواتيّة وهي فترةُ صلب الأنانيّة والكبرياء والتّبجّح والكلام البطّال ودفنها مع المسيح الميت يوم الجمعة العظيمة لنقوم معه منتصرين وظافرين ومعلنين نشيد انتصارنا بقيامة الرّبّ يسوع في حياتنا وقلوبنا وعائلاتنا. لا تتوانَوا ولا تَفتروا بل سيروا بقوّة وعزمٍ ثابتَين في الرّبّ.

٧٧. لقد بذل المسيح نفسه لأجل فداء الإنسان، لأنّه هكذا أحبّ الله العالم، بلا استثناء (راجع يوحنّا ٣: ١٦-١٧)؛ لم تقتصر هذه المحبّة على أُمَّةٍ من الأمم أو بُقعةٍ جغرافيّةٍ معيّنة، بل شملت الكون بأسره. لم يوجد كائنٌ آخر بذل نفسه وحياته لإنقاذ أعدائه والإنعام عليهم بحياةٍ جديدة. فالجهاد الرّوحيّ المسيحيّ هو جهاد محبّةٍ أيضًا يقوم على نعمة الاختبار (راجع ١ يوحنّا ١: ١-٤).

٧٨. لشفاء الإنسان، احتمل المسيح آلامًا كثيرة: الاستجواب من رؤساء الكهنة وبيلاطس، الجلد، إكليل الشّوك، الثّوب الارجوانيّ، حمل الصّليب إلى الجلجلة، الصّلب، وغيرها. في كلّ هذه الأمور تظهر شهامة الله الّذي قَبِلَ كلّ شيءٍ لخلاص الإنسان. الخالق يُدان ويُعَيَّر من خليقته، والصّانع من صنيعته، والأب من ابنه.

٧٩. بآلامه، برهن المسيح أنّه طبيبٌ حقيقيٌّ للبشر، لأنّه شفى كلّ المِحَن الَّتي كدّسها آدم على الجنس البشريّ. لقد أثبت أنّه المُنشِئ الجديد للجنس البشري.

٨٠. كما خلَّص الله أوّلاً شعبه من عبوديّة مصر، وصنع معه العهد في سيناء، هكذا الآن، هناك بدايةٌ جديدةٌ لشعب الله، لا تجد مركزيّتها في طقوس الذّبائح الحيوانيّة، بل إنّما من خلال الموت الكَفّاريّ الوشيك ليسوع. ذلك أنّه كرَّس نفسه من أجل هذه التّقدمة الذّبائحيّة الوشيكة الَّتي هي حياته (راجع عدد ٦: ١-٢١؛ عبرانيّين ٩: ١١-١٤).

٨١. لقد وضع الله خطّة الخلاص الأبديّ (تدبير الله الخلاصيّ) لجنسنا البشري منذ الأزل ولذلك فإنّ الخلاص المجاني يتمّ بالتّوبة والإيمان، بفداء المسيح على الصّليب: «لأنّكم بالنّعمة مخلَّصون بالإيمان وذلك ليس منكم، هو عطيّة الله ليس من أعمالٍ كيلا يفتخر أحد» (أفسس ٢ : ٨-٩).

٨٢. إنّ عهد الفصح مع يسوع لا يعني أنّه احتفل به فقط، أحياه، وعاشه كليتورجيّة الوجبة الفصحيّة اليهوديّة، بل أضفى على عهد الفصح اليهوديّ هذا معنًى جديدًا خلاصيًّا، ذلك أنّ يسوع غيّره ليكون «عهدًا جديدًا بدمه المُهراق».

٨٣. لقد صُلِب المسيح على خشبة الصّليب، أي على شجرة المعرفة. نحن نعرف من العهد القديم أنّ آدم سقط من خلال شجرة وخَسِرَ الشّركة مع الله، فمن خلال شجرةٍ أخرى، أي شجرة الصّليب، يعود الإنسان إلى فردوس الابتهاج.

٨٤. إنّ فصح المسيح هو الحدث الّذي يخترق التّاريخ ويحمله. ها هي أشعّة نور المسيح المقدّسة تتألّق... اللّيل الشّاسع المُظلم قد ابتُلِع، وظلمات الموت القاتمة تبدّدت في ذلك النّور، وظلال الموت الكئيبة قد دخلت في الظّلمة. مَشرق المشارق غَمَرَ الكون، والّذي كان قبل نجمة الصُّبح وقبل الكواكب، خالدًا لا حدّ له، المسيح العظيم، شمس العدل، يسطع أكثر من الشّمس على كلّ الكائنات. لذلك، فقد أشرق علينا جميعًا، نحن الّذين نؤمن به، يوم نور، طويل، أبديٍّ لا ينطفئ؛ الفصح السّرّيّ.

٨٥. الجلجلة هي السّفارة الإلهيّة الّتي تأخذُني إلى الملكوت. لذلك، فإنّنا وبكلّ ثقةٍ نقول إنّ الكنيسة الأرضيّة المجاهدة في محجّتها نحو الكنيسة السّماويّة المنتصرة بدم الحمل لن تكون إلاّ **كنيسة الجلجلة**، الّتي تصل بنا، بلا محالة، إلى القبر الفارغ، الّذي أصبح بداية العهد الجديد، عهدِ القيامة.

٨٦. على الصّليب، أشارت كلّ صُور الفصح إلى يسوع: قصب الزُّوفا، وعظامه الّتي لم تُكسَر، أي أنّه حملٌ كاملٌ، ممّا يعني بوضوحٍ أنّ يسوع قد مات كحمل العهد الجديد الفصحيّ (راجع ١: ٢٩؛ ١٩: ٣٦؛ ١ كورنثس ٥: ٧). فقد حرّر يسوع بموته العالم والإنسان من العبوديّة. فمن خلال يسوع الفصحيّ، تحرّر العالم أيضًا من الظّلمة الأبديّة، وانتقل إلى النّور الأبديّ والمحبّة الخالدة.

٨٨. يقول الرّبّ: «من أراد»، مشيرًا إلى عدم الإلزام. فالسَّير في طريق الصّليب ليس إلزاميًّا، بمعنى أن لا أحد يجبرك عليه، ولا الرّبّ نفسه يريد أن يرغمك على السَّير فيه. ولكن، هذا شيءٌ، وأنّه ضروريٌّ للخلاص شيءٌ آخر. تستطيع أنت أن تختاره، فتسير نحو الحياة الأبديّة؛ وتستطيع أن تتجاهله، فتهمل خلاصك.

٨٧. لقد سُمِّر المسيح على الصّليب ليسمِّر الخطيئة. لقد بسط يديه على الصّليب ليشفي امتداد يدي آدم وحواء لأخذ الثّمرة المحرَّمة، ولكي يوحّد ما كان قد تفرّق، أي الملائكة مع البشر، السّماويّين مع الأرضيّين.

٨٩. لا يعني تكريم الصّليب أن نتذكّر آلام السّيّد وحسب، وإنّما هو باعثٌ للفرح والبهجة والسّرور، هو إنعاشٌ للنّفس، مائدةٌ وافرة، وليمةٌ روحيّة. خدمة هذا اليوم مفعَمةٌ بالفرح، وألحان قانون السّحر ألحانٌ فصحيّةٌ مُشبَعةٌ بالحيويّة وبهجة العيد وبريق القيامة المجيد. تخبرنا الطّروباريّة (نشيد العيد) عن تجديد الحياة، فآدم القائم يطرب فرحًا، وينشد نشيد ظفر السّيّد، لأنّ الصّليب صار سببًا لحياةٍ جديدةٍ بالرّوح القدس.

٩٠. الصّليب الجزيل الثّمن هو الهيكل الّذي ضُحّي عليه المسيح من أجل خلاصنا، وبه خُوِّلنا الاقتراب من الله. إنّه قوّتنا وملجأنا، هو الّذي يملؤنا بالنّعمة الإلهيّة؛ هو السّلاح الّذي أمدّنا المسيح به لدخول ملكوته، ولهذا ننشد بأنّ الصليب هو «باب الفردوس» أو «الفردوس الحلوّ»، الّذي يُضيء القلوب بشعاع نعمته. هو «ينبوع المواهب»، مواهب الرّوح القدس الّتي تُغذّينا لننموَ «في النّعمة وفي معرفة ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح» (٢ بطرس ٣: ١٨).

٩١. لقد أعاد لنا الصّليب اللّباس الإلهيّ الّذي فقدناه، «فشجرة الصّليب تحمل للعالم لباس الحياة»، ولهذا نقول بأنّنا قد «لبسنا المسيح» (غلاطية ٣: ٢٧).

٩٢. كانت صلاة الجسمانيّة تعبيرًا عن الرّهبة أمام الموت، وردّ فعلٍ تعرفه كلّ طبيعةٍ بشريّة، وبشكلٍ خاصّ تلك الطّبيعة غير الفاسدة، الَّتي لم تكن تحت سلطان الموت، بل كان الموت بالنّسبة إليها مجرّد تمزُّقٍ إراديّ، مخالفٍ للطّبيعة.

٩٣. بطعم الخلّ، شفى المسيح طعم اللّذة المحرَّمة. لقد قَبِلَ الموت ليُميت الموت. المسامير هي لإصلاح، بمعرفة الإله الكلمة، ما كان ينشر الموت: الأشواك كانت عناقيد من عنب اليهود؛ المرّ سببًا لعسل الإيمان وتعزيةً لشرّهم؛ الاسفنجة كانت ما محا خطيئة العالم؛ القصبة كانت ما أدرج أسماء المؤمنين في السماء وحطّم تشامخ الحيّة مصدر الشّرّ؛ وأخيرًا الصّليب كان رمزًا عارَضَه غير المؤمنين وأكرمه المؤمنون.

٩٤. إنّ جنب السَّيِّد المطعون هو نموذجٌ حيٌّ للرّحمة الإلهيّة، إذ إنّ قلب الشّخص البشريّ-الإلهيّ للكلمة المتجسِّد هو نبعٌ لمحبّته اللّامتناهيّة، وفي الوقت عينه، هو نبعٌ لعطيّة الرّوح القدس.

٥) الوليمة المسيحانيّة

٩٥. يُسطِّر العشاء السِّرِّيّ استمراريّة الأفعال الخلاصيّة الَّتي قام بها الله في العهد القديم، ويُبرز أهميّة موت الرّبّ.

٩٦. عندما يجعل الله كلَّ شيءٍ جديدًا، في حين أنّ رؤيةً كلاسيكيّةً واحدةً لوعود الوليمة المستقبليّة تُشير إلى أنّ هذا النّبيذ (عصير الكرمة) سيكون معتَّقًا وناضجًا. إنّ تحقيق ملكوت الله هو عملٌ خاصٌّ بالأزمنة الأخيرة، والإفخارستيّا هي عشاءٌ وطعامٌ على الأرض؛ فالغذاء الَّذي يعطيه هذا الطّعام هو غذاءٌ سماويٌّ يتغذّى به المؤمنون من أجل تحقيق الملكوت الَّذي ينمو ويكبر على الأرض حتّى يصل إلى النّهاية في السّعادة السّماويّة.

٩٧. اشتهى الرّبّ شهوةً أن يُسفك دمه ويسقيهم منه قوّة الحياة الَّتي للعهد الجديد، ليبقى حيًّا فيهم بقوّة قيامته، فيكون لهم حياةٌ أبديّةٌ في أنفسهم، حتّى يقوموا ويلحقوا به في السّماء ليُكمِل معهم الفصح الأبديّ في ملكوت الآب، ويجلسوا معه على مائدته! هذه كانت شهوةَ المسيح الَّتي اشتهاها لنا.

٩٨. إنّ يسوع يَعلو فوق أيّ سياقٍ طقسيّ، لأنّه أتمّ في ذاته التّضحيّة الشّخصيّة والطّوعيّة (الحُرّة). فلقد أكمل الله، في شخص المسيح يسوع، الكَفَّارة، وهي: إزالة كلّ نجاسةٍ كامنةٍ في البشر المحرومين من «مجد الله» (رومة ٣: ٢٣). هذا ما يجعلنا نؤكِّد أنّ التّضحيّة المادّيّة أو الدّمويّة لا تستطيع أن تجلب للإنسان التّبرير أو الخليقة الجديدة.

٩٩. سيأتي، في الحقيقة، يومٌ يستعيد فيه المسيح مع تلاميذه شُربَ النّبيذ الجديد، لا نبيذ الحزن والألم، بل نبيذ الفرح والعيد «في ملكوت أبيه».

١٠٠. «العطيّة» تجعلنا نستحضر الزّمن الماضي ليسوع في مواجهته لموته، والزّمن الحاضر للجماعة المسيحيّة الَّتي تعيش الذّبيحة الإفخارستيّة.

١٠١. من الآن وصاعدًا، فإنّ الرّبّ القائم لن يكون حاضرًا في جماعة الرّسل بشكلٍ منظور، بل في كسر الخبز. وهكذا، فإنّ جماعة الرّسل بوجهٍ خاصّ، والجماعة المسيحيّة بوجهٍ عام، سيعرفونه ويُدركونه، لأنّه هكذا سيكون حاضرًا حقًّا في وسطهم وفي ما بينهم.

٦) لاهوت النّعمة الخلاصيّة في حدثِ القيامة

١٠٢. إنّ المسيحيّة لا تكتسبُ جدارتها وقيمتها وفاعليّتها منذ تاريخيّة عناصر رواية الميلاد بقدرما تكتسبها من إيمان الجماعة بأنّ الّذي قام من بين الأموات هو ابن الله المتجسِّد في التّاريخ البشريّ. فالقيامة هي الَّتي جعلت من ميلاد المسيح عيد الظّهور الإلهيّ. ولذلك قيل إنّ القيامة متقدّمةٌ على الميلاد تقَدُّم المعنى على الحدث، والميلاد مُتقدِّم على القيامة تقَدُّم الحدث على المعنى.

١٠٣. يسوع القائم من الموت جعل من حياة الإنسان عيدًا دائمًا.

١٠٤. بقيامة المسيح، عرفنا أنّ الموت ليس إلاّ عبورًا إلى الحياة الأبديّة. فلا خوف مع المسيح ولا هلع من الغد الآتي، بل نحن نردِّد مع الرّسول بولس «الحياة لي هي المسيح والموت ربحٌ» و«لي رغبةٌ في الرّحيل لأكون مع المسيح وهذا هو الأفضل جدًّا جدًّا (فيلبّي ١: ٢١، ٢٣).

١٠٥. العبور من المسيح المصلوب إلى المسيح القائم؛ إنّه تغييرٌ طال أيضًا قلوب التّلاميذ، فحوّلها من قلوبٍ يائسةٍ وحزينةٍ إلى قلوبٍ مُلتهبةٍ بالرّوح الإلهيّ ومتّقدةٍ بالمحبّة الإلهيّة الخلاصيّة ومليئةٍ بالفرح المسيحانيّ.

١٠٦. علينا أن ننظر إلى الموت كعمليّةِ عبورٍ بالمسيح من «أرض مصر» إلى «أرض الميعاد»، من الموت إلى الحياة، وكرجاءٍ بقيامتنا الّتي تتمّ أيضًا بالمسيح. هذا ما يؤكّده بالتّحديد القدّيس يوحنّا الدّمشقيّ في قانون الفصح: «اليوم يوم القيامة فلنتفاخر أيّها الشّعوب، فالفصح فصح الرّبّ، لأنّ المسيح إلهنا قد أجازنا من الموت إلى الحياة، ومن الأرض إلى السّماء، نحن المرنّمين نشيد الانتصار» (التّسبحة الأولى، ضابط النّغم).

١٠٧. إنّ سرّ موت يسوع وقيامته من بين الأموات يُحقّق له وللمؤمنين به الخروج إلى الله؛ إنّه الخروج الجديد من الخطيئة إلى الحياة الحقيقيّة، ومن أرض العبوديّة إلى أرض الميعاد «أرض الحرّيّة».

١٠٨. نحن قابلون للفساد والموت، لكنّنا نملك «**دواء عدم الموت**» الّذي هو المسيح القائم من بين الأموات. فبتجسّد الابن واتّحاد الطّبيعتين البشريّة والإلهيّة في شخص الكلمة، حصل «استنساخٌ روحيّ»، واتّحدت طبيعتنا المائتة بحياة الله. لهذا غيّر الموت اسمه وهو الآن يُسمّى «رُقادًا»، وأماكن دفن الرّاقدين تُسمّى مراقد (مدافن) وليست قبورًا.

١٠٩. في النّهاية، نحن «غرباء وحُجّاج» في هذه الحياة وموطننا الحقيقيّ ليس هنا (راجع عبرانيّين ١٣: ١٤). فنحن فيما نحيا هنا على الأرض إلاّ أنّنا مثل جنينٍ في رَحِم أمِّه، نولَد لحظة موتنا ونخرج من ذلك الرّحم. لهذا السّبب، في كنيستنا البيزنطيّة يُعَيَّد للقدّيسين في يوم رقادهم أو استشهادهم وليس في يوم مولدهم.

١١٠. إنّ قيامة المسيح، وقد حدثت مرّةً واحدة في التّاريخ، قد أصبحت الآن معاصرةً لكلّ لحظةٍ من لحظات حياتنا، ذلك لأنّ المسيح، إذ قام من بين الأموات، قد اخترق جدار الزّمن المائت. فالقيامة زمن التّجديد، زمن الاستنارة، الرّبيع الرّوحيّ، غَلَبَة النُّور على الظّلام، النّهوض من كبوة.

١١١. الصّورة الأفضل للقيامة هي صورة الطّبيعة الرّبيعيّة. لأنّ الطّبيعة في الرّبيع تتجدّد وتكتسي الأشجار أوراقها من جديد والأزهار تنبت وتتفتّح، النّهار يطول على حساب اللّيل. ليس لأنّ الطبيعة تتجدّد فحسب، بل لأنّها تتحوّل إلى الأفضل ولكون المخلوق يُصبح هكذا رمزًا للحقائق الرّوحيّة، رمزًا للتّجدّد الدّاخليّ للإنسان.

١١٢. القيامة هي علامةٌ بأنّنا قادرون بقوّة المسيح القائم من بين الأموات أن نتحوّل نحن بدورنا إلى نوره ومجده. بمعنى أنّه كما أنّ الرّبّ يسوع تألّم ومات وقام من الموت وغَلَبَه وحطّم أبواب الجحيم وكَسَرَ شوكة الخطيئة والشّرّ والألم والمرض، كذلك نحن قادرون بقوّة المسيح القائم أن نغلب، نحن بدورنا، أيضًا، كلّ فكرٍ شرّيرٍ والألم والمرض. لم يَعُد للموت سلطانٌ كما قال الرّبّ عن لعازر المريض.

١١٣. القيامة هي الميلاد الجديد، إعادة خلق الإنسان، ندفنُ إنسانَنا العتيق مع المسيح ليولد إنسانًا جديدًا بعد ثلاثة أيام. القيامة هي انقلابٌ حياتيٌّ جذريٌّ يؤول إلى عيش النّهار الّذي لا مساءَ له.

٧) قدسيّة الزّمن القياميّ

١١٤. الزّمن هو مهد الرّجاء المشعّ، في حال كان المسيح سيّده ومحوره، وقبرٌ لحبّ المجد الخاوي، في حال كان المال الإله المُهيمن.

١١٥. إنّه زمنٌ جديدٌ تكمن مَهمَّته في التّوجيه نحو العهد المصمَّم ليكون نهائيًّا، بحيث يُصبح العهد الأوّل هكذا عهدًا قديمًا. يسوع هو الحمل الفصحيّ الجديد، الّذي يقودنا إلى استعادة إنسانيّتنا المفقودة والضّائعة، ويُعيدنا، بالتّالي، إلى الحالة الفردوسيّة الأولى، حالة البرارة والنّقاء والصّفاء الرّوحيّ، حالة المحبّة والشّركة مع الله، إلى الحظيرة الأبويّة.

١١٦. إنّ تبنّينا فكرَمَن يزعم بأنّ الزّمن هو مرادفٌ للمال، نكون قد خسرنا الحياة نفسها، لأنّ الحياة أثمن من المال. الزّمن يمرّ ويعبر كالنّهر الجارف، وهؤلاء الّذين يؤلّهون المال تألفهم مشرَّدين يحتضنهم القلق وعدم الأمان والجزع من خسارة المال، وتاليًا من ضياع حياتهم.

١١٧. إنّ الزّمن أو الوقت الحاضر هو، بالحقيقة، مالٌ تشتري به إمّا الحياة السّعيدة الأبديّة أو الجحيم الرّهيب الأبديّ. أمّا الّذي يجاهد روحيًّا كابحًا جماح أهوائه، ومذلِّلاً شهواته تغذّيه شرارة الرّجاء الحيّ، فهو الّذي يبقى متّقد القلب يمدّه الربّ بقوّته، ويسنده ضميره الحيّ الأمين.

١١٨. عندما يعيش الإنسان بجِدّيّةٍ داخل الكنيسة يعيش، ويعي، في الوقت نفسه، قداسة الزّمن، هذا الزّمن المقدّس الّذي لا تستطيع قساوة الزّمن المادّيّ ولا سطحيّته أن تسيطر عليه أو تلاشيه أو تفنيه. إنّه زمنٌ لا يذوب ولا يضمحلّ وسط الاضطرابات الدّنيويّة، لأنّه زمنٌ سامٍ ومقدَّس بمحبّة الله الأزليّة، ويصل بالإنسان إلى ميناء الملكوت السّماويّ الهادئ.

١١٩. إنّ عيش هذا الزّمن الحاضر، بثباتٍ واستمراريّة، عبر سرّ الصّليب والقيامة، يشكّل الأساس لحياةٍ مباركةٍ سعيدةٍ خارجًا عن حدود المكان والزّمان، حياةٍ يحياها الإنسان في النّور الّذي لا يوصف، حياةٍ حقيقيّةٍ وقويّةٍ في المسيح يسوع.

١٢٠. إنّ الزّمن سيبقى أبدًا إحدى نِعَم الله الّتي تنحدر علينا بسخاءٍ بسبب المحبّة الإلهيّة المنسكبة عبر الصّليب والقيامة، فيصبح المنبّهَ الرّوحيّ والدّافع الشّخصيّ لتطهير وقداسة كلّ إنسان آتٍ إلى هذا العالم.

١٢١. لكي يختبر المرء أو المؤمن هذه النّعمة أو عطيّة الفرح هذه، عليه أن يكون في الكنيسة في الفترة الفصحيّة ليتذوّق شخصيًّا فرح الاشتراك في الزّمن الجديد، زمن الملكوت. لأنّ الفرح لا يمكن تحديده ولا تحليله وإنّما ندخل إليه: «ادخلوا كلّكم إلى فرح ربّكم». ولا سبيل للدّخول إلى الفرح وعيشه إلاّ من خلال الكنيسة، لأنّ لها قد أُعطي أن تكون شاهدةً له لتغيّر هيأة العالم به.

١٢٢. إنّ تألُّق القيامة هو طاقة (لفظة أقوى من الفعل والعمل، تنفتح على الحياة، حياة الله الحيّ، حياة الرّوح القدس) الرّوح القدس الثّابتة في زماننا الزّائل، لا فوق الّذين يتقبّلونه، بل في داخلهم. وإلهُنا ليس فوقنا، في الأعالي، بل أمامنا، بانتظار اللّقاء، اللّقاء بين يوم القيامة وزماننا العتيق، اللّقاء بين الزّمن الجديد الّذي يهبه الرّوح والزّمن الّذي يعيشه المؤمن، هذا ما يجعل من زمننا زمنًا أسراريًّا وليتورجيًّا.

• صلاة

ما أعظم خلاصك يا ملكَ الكُلّ، إنّه لم يعُد يهُمّني ماضي الأسر الّذي قيّد حُرّيتي وروحي، فها قد أُطلِقَ سراحي وعادت إليّ حياتي من فيضِ إحسانك وحُبّكَ. بتواضُعِ مجيئك إلى هذه الأرض عَرّفتَني طريقكَ الزّاهية بألوان الحياة. رأيتُكَ تهدمُ أسوارَ حياتي الّتي عجِزتُ أنا أمامها، تشُقّ بحارًا لتصنع لي طريقًا آمِنة، وترويني في عزّ القفر من ينبوع خلاصكَ. كيف لي ألّا أُقدّس لكَ عُمري وأنت قد صَلَبتَ موتي بصَلبِك على خشبة؟ احفظني بنعمتكَ يا مَن أخَذتَ عنّي أحمالي.

آمين

الباب الثّالث

عاداتٌ كنَسِيّةٌ قديمة

يُذكّر، هذا الباب، القارئ بعددٍ من العادات الكنسيّة القديمة الّتي لَقِيَت حتفها في حاضرنا هذا لمُختَلَفِ الأسباب، ومعظمها آجتماعيّةٌ غير مُردفةٍ لمعاصرة التّغييرات الحياتيّة. فإنّها مجموعة تُحيي ما قد سَبَق وداومَ عليه أجدادنا من عاداتٍ وتقاليد كنسيّة لها معانٍ روحيّةٍ عميقة.

١٢٣. إنّ الشّعب، فضلاً عن الكهنة، كانوا يغسلون أيديهم قبل الخِدَم الإلهيّة. ويبدو هذا جليًّا في زمن القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفم، حيث تمّ وضع أحواض ماءٍ عند مدخل الكنيسة، بحيث يستطيع المؤمنون غسل أيديهم كعلامةٍ على رغبتهم في أن يكونوا أنقياء القلوب في خدمتهم وصلاتهم للرّبّ. وما زالت العديد من كنائسنا شاهدةً على هذه العادة الطّقسيّة.

١٢٤. **تسميّة الأحياء والأموات:** إنّها عادة كنسيّةٌ جميلةٌ ما زالت مستعمَلةً في بعض الرّعايا، بينما اندثرت في رعايا أخرى، هي «تسميّة الأحياء والأموات». فتُحضر العائلة قربانةً واحدةً بمنديلٍ خاصٍّ للكاهن قبل بدء القدّاس الإلهيّ، أي أثناء تهيئته للذّبيحة. تضع فيه لائحةً بأسماء الأحياء، من أجل توفيقهم، وصحّتهم، وعافيتهم، وخلاصهم، والأموات من أجل راحة نفوسهم، فيجتزئ الكاهن قطعةً صغيرةً من القربانة ويضعها في الصّينيّة المقدّسة، وقطعةً أكبر يضعها في صينيّةٍ خاصّةٍ لتوزيعها في آخِر القدّاس على المؤمنين، ويُدعى «خبز البركة» (الأنديذورون)، بحيث يُباركها الكاهن، إذ يُدنيها من القرابين المقدّسة، أثناء ترنيم نشيد والدة الإله «إنّه واجبٌ حقًّا».

١٢٥. اللّيتورجيّا تُحذِّرنا من الخطر الرّوحيّ الكامن في الاستماع غير المُجدي وغير المُثمر لكلمة الله. لذلك، في القرن الرابع، كان يُصغي المؤمنون إلى تلاوة الإنجيل المقدّس وهم وقوف. وهذه عادةٌ قديمةٌ جدًّا تُشير إلى الفرح والحريّة والقيامة الرّوحيّة الّتي جاء بها الإنجيل إلى الإنسانيّة.

١٢٦. كان المؤمنون يحملون شموعًا مُضاءةً أثناء تلاوة الإنجيل المقدّس ترمز إلى أنّ الإنجيل المقدّس، كلمة الله الحيّة، هو النّور الحقيقيّ الّذي يُنير حياتنا ودربنا (راجع يوحنّا ١: ٩). لقد آمن المسيحيّون على مرّ العصور إيمانًا لا يقبل الجدل بأنّ كلمة الله هي النّور الإلهيّ الّذي يُنير عتمات حياتهم ويُضيئها.

١٢٧. **عادة الأسقف:** عندما يظهر الرّاعي الحقيقيّ ورئيس الكهنة الأعظم لدى فتح الإنجيل المقدّس، إذّاك يقف الأسقف ويضع جانبًا كلّ شارات سلطته ورتبته الأسقفيّة، مشيرًا بذلك إلى أنّ الرّبّ نفسه، واضعَ الوظيفة الرّعويّة، إلهه وسيّده، قد حضر الآن. واليوم أيضًا، لدى ترتيل الإنجيل المقدّس، ينزع الأسقف عن رأسه تاجه الأسقفيّ، ويضع جانبًا عصاه الرِّعائيّة وكلّ شارات سلطته الأسقفيّة، إشارةً إلى الحضور الشّخصيّ للسَّيِّد المسيح من خلال الإنجيل المقدّس.

١٢٨. هنالك عادةٌ قديمةٌ شكّلت جزءًا من اللّيتورجيّا الإلهيّة في الكنائس البيزنطيّة هي عادة إغلاق الباب المقدّس (أو تُسدَل ستائرها) الَّتي ترمز إلى إغلاق القبر على جسد الرّبّ المائت وختمه؛ إلاّ أنّ هذه العادة قد تلاشت في كنيستنا الملكيّة.

١٢٩. **الأبواب. الأبواب:** بعد قبلة السّلام وقبل تلاوة قانون الإيمان، كانت هناك عادةٌ طقسيّةٌ في الكنيسة البيزنطيّة، يُعلن خلالها الشّمّاس أو الكاهن قائلاً: «الأبواب. الأبواب»، وذلك قبل أن تتلو جماعة المؤمنين قانون الإيمان. ها قد أغلقت أبواب الكنيسة بعد صرف الموعوظين. ومن هذه السّاعة يقف الشّمامسة ومساعدوهم عند الأبواب بحيث لا يتركون مجالاً، ساعة الأنافورا المقدّسة، للمؤمنين للخروج من الكنيسة، ولا يسمحون لغير المؤمنين والهراطقة بالدّخول إليها.

١٣٠. لم يُسمَح بتاتًا لمشاركة غير المعمَّدين، لدرجة أنّ النّظام الكنسيّ آنذاك، أي في زمن الكنيسة الأولى، كان يمنع أيضًا مشاركة المؤمنين المعمَّدين الواقعين في الخطيئة العلنيّة، أو الممسوسين بالأرواح النّجسة، أو التّائبين الَّذين ما زالوا في فترة تهيئتهم للنّدامة والتّوبة، أو حتّى المؤمنين الَّذين تأثّروا بفكر الهرطقات والبدع الَّتي عَصِفَت بالكنيسة في العقود الأولى وما زالت حتّى يومنا هذا.

١٣١. عادةٌ قديمةٌ ميّزت ذات يومٍ الكنيسة البيزنطيّة مفادها أنّ الكاهن يرسم إشارة الصّليب المقدّس على جبينه بالخبز الإفخارستيّ المقدّس قبل تناوله إيّاه.

١٣٢. في دورة القرابين، يجيء المخلِّص لكي يتألّم ويُصلب ويموت. فتوضع القرابين على الهيكل، كما أُنزل جسد يسوع عن الصّليب ووُضع في قبر. وتُغلَق الأبواب المقدّسة وتُسدل السّتائر (عادةٌ قديمةٌ في التّقليد البيزنطيّ، قد زالت في أيّامنا الحاضرة)، فكأنّي بالحجر يُدحرج على باب القبر. ويُقدَّم البخور، كأنّه الطِّيب الَّذي حُنِّط به جسد الرّبّ. ثمّ تُفتَح الأبواب المقدّسة، كما لو فُتِحَ القبر وخرج منه المسيح. ويُرفرف بالغطاء الكبير فوق القرابين، فكأنّي بالأرض تهتزّ والحرّاس يهربون والحجر يُدحرج عن باب القبر.

• صلاة

نشكرُكَ، يا مُبدِعَ الكلّ، على ما أرشدتَ به آباء كنسيتنا من طقوسٍ. فقد نَظَموا لنا عاداتٍ تزيدُنا ورعًا... بها نُعطيكَ مجدًا ونعظّمكَ. أعطِنا أن نحافِظَ عليها برمزيّتها وأن نقيمها بإيمانٍ وتقوى. إنّنا نخشَعُ أمامكَ مِن خلالها بقلبٍ واحدٍ متّجهٍ نحو السّماء. نقدّمُ لكَ قلبنا ذبيحةً حيّة في كلّ قدّاسٍ، فارفعنا إليك لكيما نحتفلُ بخلاصِكَ. لك السّجود والإكرام.

آمين

الباب الرّابع

رونقُ الأيديولوجيّةِ المسيحيّة

يعرضُ هذا الباب أفكارًا وحقائق عن طابِع الدّيانة والحياة المسيحيّة وموقفها من عدّة أمورٍ تتحدّاها يوميًّا. فإنّه ينقلُ لنا روح الأيديولوجية المسيحيّة وأبعادها، ويشرحُ عدّة جوانبٍ للإيمان المسيحيّ ونضال كينونته في هذه الأرض.

١) المسيحيّة، ديانة اللّقاء الشّخصيّ

١٣٣. المسيحيّة هي بشارةٌ سارّةٌ وفرحٌ عظيمٌ وسعادةٌ لا توصف: «فها أنذا [الملاك] أبشّركم بفرحٍ عظيمٍ يكون لجميع الشّعب: قد وُلِدَ لكم اليوم مخلِّص، وهو المسيح الرّبّ في مدينة داود» (لوقا ٢: ١٠-١١).

١٣٤. لقد عُرِفت المسيحيّة منذ أوائل عهدها باسم الطّريق (أعمال ٩: ٢) لأنّها هي وحدها الطّريق إلى الله الواحد، استنادًا إلى ما قاله السّيّد المسيح في الإنجيل الرّابع: «أنا الطّريق والحقّ والحياة. ولا يأتي أحدٌ إلى الآب إلاّ بي» (١٤: ٦).

١٣٥. الحياة في المسيح، كممارسة، تسمّى جهادًا روحيًّا لأنّها تتوق إلى تحويل الإنسان إلى متلقٍّ للرّوح القدس.

١٣٦. لا بدّ لنا من إيضاح مفاهيمنا المسيحيّة حول الإنسان ووَحدته مع ذاته ومع العالم ومع الله، وعلينا إخراجها من لغتها الدّينيّة الحصريّة والموجَّهة لفئةٍ محدَّدةٍ، لأنّها وديعةٌ في تراثنا المسيحيّ يستحقّها كلّ إنسانٍ. هناك إذن الحقيقة وهناك التّعبير عنها. فالحقيقة هي كونيّةٌ ومسكونيّةٌ، أمّا التّعبير فينتمي إلى الحضارات والأديان. تلك هي واحدةٌ وهذه متنوّعة.

١٣٧. إنّ أكبر إساءةٍ إلى حقائقنا المسيحيّة هي أن نأسرها في لغتنا الدّينيّة الَّتي لا يفهمها سوانا، أو حتّى ليس جميعُنا بل بعضٌ من المختصّين بيننا. إنّ كلماتٍ مثل: «الخلاص، الفداء والتّألّه»، هي كلماتٌ تخصّ الله والإنسان والكون، لذلك فهي تخصُّ كلَّ إنسانٍ وليس دينًا من الأديان فقط.

١٣٨. الألوهة في المسيحيّة ليست هي في المقام الأوّل اقتدار الفعل القاهر، ولا فرادة الكيان الخارقة. بل الألوهة هي، قبل كلّ شيءٍ، رقّةٌ وحنان، لطفٌ ووداعةٌ، ووهبُ وجودٍ. إنّها ألوهةُ فيض الحُبّ، وألوهة العشق الإلهيّ، وألوهة الثّقة الكاملة بالإنسان.

١٣٩. تعلن المسيحيّة أنّ الإنسان مخلوقٌ ليكون أبديًّا ويعيش في شركةٍ مع الله وتناغمٍ مع كلّ الخليقة. بالرّغم من عصياننا وانفصالنا المؤقّت عن الخالق، نحتفظ في قلوبنا وفكرنا ببصمة الألوهيّة والرّغبة باكتشاف الحقيقة، وتمييز المعنى وإيجاد الله.

١٤٠. إنّ يسوع المسيح ليس شخصًا يخصّ المسيحيّين فقط، وإن كانوا هم أكثر مَن يتكلّم عنه. وإنّ تقليدنا الشّريف والعريق ليس إرثًا لنا، وإن كان محفوظًا في كنيستنا. إنّ المسيحيّة رسالةٌ كونيّةٌ بين الله والإنسان، نحن مجرّد خدّامٍ فيها ورسلٍ لها نتمّم عمل يسوع في الكنيسة الّتي أسّسها.

١٤١. طالما أنّ الله رسمَ أن يتجلّى كلمته في شخص يسوع المسيح، فإنّ الطّريق إلى الله هو طريق اللّقاء الشّخصيّ. **فالمسيحيّة هي ديانة اللّقاء الشّخصيّ**، وليست هي ديانة التّرويض الذّاتيّ الفرديّ، أو ديانة الائتمار بأحكام الشّريعة، أو ديانة الانصهار في قوى الكون الخفيّة. لذلك، تتضاءل في هذه الدّيانة سمات الدّين المؤسّسة بينما تتعزّز فيها سمات الإيمان والالتزام الشّخصيّ والبحث الحرّ.

١٤٢. يجب على المسيحيّين أن يَعُوا جيّدًا أنّهم ليسوا دينًا، فيبحثون عن حقوقٍ خاصّةٍ وامتيازاتٍ، أو يقيموا تجمّعاتٍ منعزلةً أو حتّى ينتموا إلى تكتّلاتٍ منفردةٍ أيًّا كانت. بل عليهم أن يَعُوا أنّهم أصحاب إيمانٍ ينطق بالحياة، بالحبّ، بالأمل، بالفرح، ينطق بيسوع المسيح لكلّ العالم، بذلك يدركون كيانهم ويسعَون إليه من جهة، ويخلقون في الحياة المعنى الحقيقيّ للعيش المشترك، من جهة أخرى.

١٤٣. مَن يبحث في الكتب ويتفحّصها سيُدرك أنّ إيماننا المسيحيّ ما هو إلا علاقةٌ شخصيّةٌ بالرّبّ يسوع المسيح تتكوّن فيه وتُبنى وترتقي في الشّركة الكنسيّة الصّحيحة، شركة المؤمنين بالعلاقة السّرّيّة العضويّة الّتي تربط الكنيسة بالمسيح كجسدٍ له. وهنا لا أدعو إلى التّخلّي عن الممارسات الكنسيّة، بل على العكس تمامًا، أدعو إلى فهمها الصّحيح على أنّها ليست فرائض وواجباتٍ بل هي ممارسات محبّةٍ تهدف إلى الاتّحاد الحقيقيّ بالله.

١٤٤. المسيحيّة لا تُعاش حقًّا إلاّ في الإيمان بالقلب والرّوح. ربّما عمل العقل ضروريٌّ ومهمٌّ كمقدّمةٍ للإيمان بالقلب والرّوح. غير أنّ وظيفته أن يعرف حدوده وعند بلوغه إليها أن يتخلّى عن معرفته. الإنسان بالإيمان يحيا. بما يفوق العقل، بإحساس القلب والكيان العميق. فإذا أهمل هذا الوجه انْتَفَت تاليًا شروط الإيمان الحقّ الَّتي هي إحساس الإنسان بضعفه والتّوبة والدّموع.

٢) نظرة المسيحيّة للإنسان الآخر والكون: نظرةٌ ليتورجيّةٌ

١٤٥. إنّ الكنيسة ليست الطّائفة ولا الدّين ولا المنظّمة، إنّها «ليتورجيّا كونيّة» يعمل فيها الله بروحه القدّوس.

١٤٦. ليست العولمة هي المسألة بالعمق، ولكنّ مَسْحَنة العالم ووحدته هي غايتنا المسيحيّة، وهنا العولمة يمكنها أن تكون الأداة أو أن نتركها فتصير العائق. رؤيتنا لمسحنة العالم تنطلق من وَحدته، ولكنْ بالرّبّ. وهذا ليس وَقفًا على دينٍ دون آخر ولا على حضارةٍ دون أخرى.

١٤٧. إنّ المعارف والعلوم والتّقدّم الحضاريّ يجب كلّها أن تسير نحو حضارة الرّوح الَّتي تُقدِّس الزَّمان والمكان فتجعل الأرض ملكوتًا، وتحضّر الإنسان لسَكب الرّوح وفيضه.

١٤٨. لم يَرَقدّيسونا أنفسهم أبناء أُمَّةٍ أو طائفةٍ أو قوميّةٍ أو دينٍ... بل «أبناء الله». ولم يتكلّموا عن ديانةٍ بل عن «حياةٍ». لهذا، لم يكن تعليمهم مقتصِرًا على فئةٍ معيّنةٍ فحسب، بل على الإنسان نفسه كإنسانٍ. قد تكون لغتهم من لونٍ ما، لكنّ هدفهم هو «حياة الإنسان»، الَّتي جاء يسوع ليُعطيَها.

١٤٩. تحترم المسيحيّة الإنسان احترامًا مطلقًا بغضّ النّظر عن تفصيلات خلفيّته، لأنّ الله خلقه على صورته كشبهه، أي كائنًا روحيًّا يتمتّع بالحِسّ الأخلاقيّ والأدبيّ (تكوين ١: ٢٧). فالمسيحيّة تساوي بين الجميع، فلا تفضّل شخصًا على آخر أو أمّةً على أخرى أو طبقةً على غيرها، فهي مستعدّةٌ لتجاوز كلّ الحواجز والعداوات الَّتي يخلقها البشر من أجل الوصول برسالتها العالميّة إليهم (١ كورنثس ١٢: ١٢-١٣؛ غلاطية ٣: ٢٦-٢٨).

١٥٠. إنّنا نؤمن أنّ اللّاهوت ليس مسألةً فلسفيّةً، وكذلك العقائد. بل بالأحرى اللّاهوت هو علمٌ يربط الإنسان بالله، ولذلك هو فنّ الفنون وعلم العلوم.

١٥١. إنّ **«طهارة الحياة»** تجعل المسكونة فردوسًا وتجعل العالم كلّه في سلامٍ يتوسّطه ويثبّته حضورُ الله، سلامٍ لا يقبل بالحروب والصّراعات البشريّة الَّتي تحرّكها شريعة الغاب وليست صورة الفردوس. هذه «الصّورة» الفردوسيّة يجب أن تكون روح الأنظمة الدّوليّة والعلوم الإنسانيّة، ذلك أنّ القيم الإنسانيّة المشتركة بين البشر هي الحقيقيّة، والميّزات الأخرى العرقيّة والإثنيّة وحتّى الدّينيّة هي فراداتٌ للحوار والتّرابط وليست دواعٍ للشّقاق كفردوسٍ واحد.

١٥٢. **«الحكمة»**، كما يقول الكتاب، هي مخافة الله. فالحياة البشريّة لا تؤّمن بكفالة الفهم البشريّ، وإنّما الفهم الإلهيّ، وإلاّ فلا معنى للعالم حتّى ولو كان مجتمعًا مثاليًّا. وهذه هي العلمنة، أي توحيد العالم بأبعادٍ عالميّةٍ فقط. إنّ علمنة المسيحيّة تتمّ حين يفسَّر الفهم فقط بالعقل. بينما، مسيحيًّا، يجب أن يقود الفهم إلى الحكمة.

١٥٣. إنّ العقل البشريّ بموهبة فهمه يجب أن يعمل بشرطَين: الأوّل هو التّحسين؛ والثّاني هو، تفسيرٌ للأوّل، التّأليه. دون ذلك يتضارب الإبداع مع التَّطوّر ويتصارع العلم مع الدّين، وتتحدّى التّبدّلات والأعراف، حتّى والصّالح منها. هكذا يخلق العقل البشريّ مجتمعاتٍ شبه سماويّةٍ وبشرًا أشبه بملائكة، وتصير المادّةُ روحيّةً ويحرّك الرّوح كلّ مادّة.

١٥٤. لقد فُرِزَت أمور الكون إلى فئتَين: فئة ما هو «مقدَّسٌ»، وفئة ما هو «دنيويٌّ»! وصار وكأنّ على الحياة أن تجمع بين «الدّين» و«الدُّنيا»، وأحيانًا يظهر ذلك مستحيلاً، إمّا عملانيًّا أو أيضًا مبدئيًّا، من حيث أنّ التّناقض لا يأخذ وجه المنافسة أحيانًا وإنّما وجه التّعارض العقائديّ. فلا يتجدّد العالم بتحطيم القديم بل بتقديسه. فليس في الدّنيا شيءٌ دَنِس. كلّ شيءٍ يمكنه – ويجب – أن يصير تقدمةً، وذلك ما دام كلّ شيءٍ هو مادّةٌ للتّقديس. ونحن مدعوّون لنكهن هذه القداسة.

١٥٥. تتعامل المسيحيّة مع أساس مشكلة الإنسان المتمثّلة في ميوله ورغباته الّتي تترجم نفسها إلى تصرّفاتٍ شرّيرة؛ فالمشكلة تكمن في القلب والفكر حيث يتمّ تفريخ بذور الخطيئة والشّرّ. فالخطيئة تتمّ فعلاً في القلب والفكر قبل أن تظهر عملاً وممارسةً في حيّز الوجود المرئيّ، ولهذا تعمد المسيحيّة إلى معالجة جذور الخطيئة في مكامنها ووضع «صمّام أمانٍ» هناك.

١٥٦. ليست الأبديّة زمنًا قبل أو بعد التّاريخ بل هي خميرته. الأبديّة هي التّاريخ حين يتوسّطه الله، وحين تتحقّق إرادته الإلهيّة، أي حين يصير العالم قربانًا بواسطة الإنسان. الأبديّة هي التّاريخ المختمر بالإرادة الإلهيّة. لذلك يمكننا أن نكون في التّاريخ بين وبين! أي بين الزّمن وبين الأبديّة.

١٥٧. رغم أنّ كلّ التّيارات الاجتماعيّة والمدنيّة تذهب إلى تعميق الحياة الفرديّة، فإنّ اللّيتورجيّا هي التّيار المعاكس في الحياة. لا يوجد في اللّيتورجيّا شيءٌ فرديّ. لأنّ العلاقة مع الله ليست بين فردٍ وإلهه، بل بين الله وشعبه.

١٥٨. الإنسان ليس فردًا يهتمّ بشؤونه، إنّما هو الإنسان الَّذي يهتمّ بالإنسان. فالآخر ليس أداةً للحياة نستهلكه، وإنّما غاية حياتنا الَّتي نضعها لخدمته. هكذا يُحقِّق الإنسان ذاته في اللّيتورجيّا.

١٥٩. موضوع الصَّدَقة ليس موضوعَ كمّيّةٍ من المساعدة، إنّما هو موضوع انعطاف القلب صوب الآخرين. الصّدقة، في الحقيقة، هي المحبّة النّابعة من القلب.

١٦٠. «**الكلمة**» في المسيحيّة ليست فنَّ الكلام بل هي «الشّخص» الَّذي سوف يمسّ قلب كلّ إنسانٍ ويتّحد به. فالكلمة تخدم حدث وَحدة الله بالإنسان وهذا ما تحقّقه اللّيتورجيّا، حيث هناك نلاقيه.

١٦١. لقد ظهرت المسيحيّة في العالم كحركةِ «تجديدٍ»، أي إلغاءٍ لواقعٍ قديمٍ، وذلك بعمليّة «تَجَلٍّ» للإنسان. وسمّى يسوع رسالته «نارًا» ألقاها وقد اضطرمت. هذه «النّار» هي «عطشٌ» يطلب الـ«إيسخاتا»، (أي أخيريّ أو نُهيويّ) في الحاضر ويستحضرها ليعيشها، خاصّةً في اللّيتورجيّا.

٣) القدّيسون، الإنجيل النّاطق

١٦٢. إنّ المسيحيّة هي شركة القدّيسين الإنتاجيّة: إنتاج الفضائل، المسامحة والنّمو في الإيمان.

١٦٣. إنّ ذِكرنا للقدّيسين إنّما هو إنماءٌ وتعميقٌ لشركتنا بالمسيح نفسه، وفي الوقت ذاته، هو ربطنا بنظام الخليقة الجديد الَّذي هو القداسة.

١٦٤. القدّيسون يشكّلون التّعليق الأهمّ على الإنجيل، وهم تجسيدٌ للإنجيل في الحياة اليوميّة، بحيث إنّ كلًّا منهم يعكس، بطريقته الخاصّة، نور قداسة الله: إنّهم طيف النّور الإلهيّ، وزهرة الرّبيع الجديدة في الكنيسة والعالم. إنّهم، بالتّالي، الَّذين فضّلوا عار المسيح على جميع كنوز العالم.

١٦٥. القدّيسون دائمو الاتّضاع، لأنّهم مقتنعون بأنّ كلّ ما هو صالحٌ هو مُعطًى من فوق، وليس من غنائمهم. فهم لا يمكنهم أن يتباهَوا بمواهبهم، لأنّها من لدن أبي الأنوار. قدّيسونا، في وعيهم الكامل لمواهبهم، يقدّمون كلّ التّمجيد والإكرام والسّجود لله المُعطي. عندما يمدحهم النّاس يمدحون مصدر كلّ صلاح، الله الكلّيّ صلاحه.

١٦٦. تَشَبَّه القدّيسون بالمسيح فأحبّوه كما هو أحبّ، وعاشوا معه كما عاش هو، واتّحدوا معه في شركة حبّه الأزليّ مع أبيه وروحه القدّوس، فماتوا معه ليصلوا إلى ذروة مجد الحبّ، إلى «التّألّه» بنعمته الإلهيّة. وهكذا يستحيل الزّمن إلى حياةٍ أبديّة ويمتلئ المكان بالأنوار الإلهيّة غير المخلوقة وتفيض العظام المائتة بينابيع الرّأفة والمحبّة الّتي تبشّر بالنّهاية السّعيدة الّتي أعدّها الله للّذين يُحبُّونه ويتّقونه (راجع ١ كورنثس ٢: ٩).

١٦٧. كلّ القدّيسين «جاهدوا الجهاد الحسن وحفظوا الإيمان» (٢ تيموثاوس ٤: ٧). القدّيسون هم مجاهدون غالبون معترفون باسِلون. لقد زارهم الرّوح القدس وحلّت عليهم النّعمة. لم يكونوا صالحين ونبلاء ومُشرقين وأخلاقيّين وحَسْب، بل كانوا **أيقوناتٍ للمسيح**. إنّهم الّذين اتّحدوا بشكلٍ لا فكاك فيه بالمسيح وهم يكشفون المسيح للعالم ويقودون النّاس إليه.

١٦٨. إنّ إكرام ذخائر القدّيسين عند المسيحيّين عادةٌ قديمةٌ تعود إلى الأزمنة المسيحيّة الأولى، وهو تقليدٌ مستمرٌّ في كنيستنا.

١٦٩. يُثبت لنا القدّيسون أنّ الإنجيل قابلٌ للتّنفيذ وعمليٌّ عبر العصور، وأنّنا إذا رغبنا يمكننا أن نسعى إلى الاتّحاد بالمسيح. بقبولهم المسيح في حياتهم بدون تحفّظٍ، صاروا على شبهه ومتوشِّحين به ومعاينين له. بهذه الطّريقة، يشهدون له ويعترفون به ويَعِظُون عنه ويقدّمونه في كلّ مكانٍ وزمانٍ. لا يستطيعون أن يحيَوا من دون المسيح، فهو لهم كلّ شيءٍ.

١٧٠. مفهوم الشّفاعة اليوم تغشاه الضّبابيّة لدى أبناء كنيستنا، ويختلط أحيانًا بأفكارٍ غير أرثوذكسيّةٍ (مستقيمة الرّأي والعقيدة). من الضّروريّ أن يتّضح هذا المفهوم ويترسّخ كي تكتمل الشّركة بين القدّيسين والأحياء في الكنيسة. لا يرى كلّ المؤمنين في الشّفاعة الشّيء نفسه حتّى إنّ بعضهم لا يؤمن بها. فإذا كان المؤمنون أنفسهم لا يؤمنون بالشّفاعة، فكيف نتوقّع منهم أن يُفهموا العالم بأنّ الكنيسة تتشفّع به؟

١٧١. إنّ شفاعة القدّيسين تستمدّ حقيقتها من الشّركة الَّتي تجمع المؤمنين - أعضاء جسد المسيح - فكما أنّ الأعضاء تخدم بعضها البعض في وَحدة الجسد (١ كورنثس ١٢)، هكذا المؤمنون بالصّلاة، كما كتب الرّسول يعقوب في رسالته: «... لأنّ صلاة البارّ الحارّة لها قوّةٌ عظيمةٌ» (يعقوب ٥: ١٦).

٤) مسيح المسيحيّة!

١٧٢. المسيحيَّة كلّها هي في تعاليم المسيح مضافةٌ إلى شخصه، مقرونةٌ بشخصه، ومكمَّلةٌ بشخصه. تعاليم المسيح بدون شخص المسيح لا تكفي؛ فالمسيحيَّة ليست في حفظ النّاموس وحده كحفظ طالبٍ لمواد صفٍّ بعينه وبعدها يُرقَّى إلى الأعلى. المسيحيَّة جهدٌ وجهادٌ دائمان، كمالٌ واكتمالٌ مستمرّان، موتٌ وحياةٌ يوميَّان متواصلان، واقتداءٌ وتمثُّلٌ متواصلان.

١٧٣. لم يجرؤ أحدٌ سوى المسيح، وما كان من الممكن أن يجرؤ، على إطلاق مثل هذا التّصريح عن نفسه؛ لقد صرّح المسيح عن ذاته الإلهيّة المُحبّة لبني البشر من خلال تجسّده الإلهي ونزوله إلى هذه الأرض كاشِفًا لنا عن لاهوته وقصده في الخلاص. قد تتطوّر العقائد الدّينيّة وتتّسع وتتكيّف، وقد تتغيّر مبادؤها وأحكامها حسب المتغيّرات، لأنّ المُثُل والمبادئ والأحكام هي نسبيّةٌ. أمّا إذا تجسّد الحقّ في شخصٍ غير متغيّرٍ، أي المسيح، فلا مجال للنّسبيّة. فقد قال القدِّيس بولس في رسالته إلى العبرانيّين: «إنّ يسوع المسيح هو هو أمسِ واليومَ وإلى الأبد» (١٣: ٨).

١٧٤. يتميّز مسيح المسيحيّة عن كلّ من عداه بقداسته، فهو القدّوس الخالي من الخطيئة (لوقا ١: ٣٥) وقد تحدّى كلّ مَن عرفه حتّى أعداءه بقوله: «مَن منكم يُبكّتُني على خطيئةٍ؟»(يوحنّا ٨: ٤٦). وهذه ثقةٌ لم يتمتّع بها أحدٌ قبله أو بعده، وإنّ مشكلة المذاهب الأخرى أنّها تفتقر إلى مُثُلٍ أعلى أو نموذجٍ يستحقّ الاحتذاء، فحتّى الأنبياء والرّسل الّذين أوصلوا للنّاس وصايا الله وحثّوهم على اتّباعها، قاموا أنفسهم بكسر هذه الوصايا، ومع أنّهم أنبياءُ عِظامٌ قياسًا بنا، إلاّ أنّه من الظّلم لهم ومن غير المناسب مقارنتهم بالمسيح.

١٧٥. المسيحيّة دين النّعمة لا دين النّاموس، فهي تعتمد على دور الله وعمله وقوّته في خلاص الإنسان، لا على ما يمكن أن يسهم به الإنسان في هذا المجال، لهذا فهي تعزو الفضل وتُقدِّم المجد لله، لأنّ كلّ شيءٍ به وله.

١٧٦. لا توجد أيّة تعاليمٍ يمكن مقارنتها بتعاليم المسيحيّة، فسُموّها يتّفق مع طبيعة نبيّها وإلهها، فهي تحضّ على مسامحة المسيء ومحبّة الأعداء بلا قيدٍ أو شرطٍ، فهي لا تهدّد ولا تتوعّد، وليس فيها «حقدٌ مقدّسٌ» أو «بغضٌ في الله»، لأنّها تؤمن إيمانًا راسخًا ثابتًا أنّ «الله محبّةٌ»: «وهذه هي البُشرى الّتي سمعناها منه، ونبشِّركم بها: إنّ الله نورٌ، وليسَ فيه ظلمةٌ البتّة»(١ يوحنّا ١: ٥).

١٧٧. علّم يسوع تلاميذه أن يصلّوا قائلين: «أبانا» ويقول يسوع نفسُه لتلاميذه: «إنّي لا أدعوكم بعدُ عبيدًا لأنّ العبدَ لا يعلم ما يصنع سيِّدُهُ، بل أدعوكم أحبَّائي لأنّي أطلعتكم على كلّ ما سَمِعْتُ عند أبي» (يوحنّا ١٥: ١٥). فلا عجب أن تخلو المسيحيّة من الأحكام الشّرعيّة والقوانين والأنظمة. فالقوانين والأحكام والعقوبات توضع من أجل العبيد والمجرمين، لا من أجل الأبناء وأفراد العائلة الواحدة (أفسس ٢: ١٩).

١٧٨. المسيحيّة دين اليقين، إذ تؤكّد كلمة الله أنّ من يضع إيمانه وثقته في المسيح من أجل الخلاص، ينال الحياة الأبديّة. فالمؤمن على يقينٍ بأنّه لن يهلك، وأنّ له حياةً أبديّةً بفضل ما عمله المسيح من أجله على الصّليب، وهو، لهذا، لا يرتعد خوفًا من مصيره بعد الموت.

١٧٩. لم يتحدّثِ المسيح عن سلامٍ عاديٍّ يتحدّث عنه النّاس، إنّما أشار إلى سلامٍ من نوعيّةٍ أخرى هو سلامه بالذّات. سلامٌ متميِّزٌ عن سلام العالم لأنّه سلام ربِّ السّلام (راجع ١ تسالونيكي ٥: ٢٣)، وفادي الإنسان، ومُحيي العظام وهي رميم. سلامٌ لا يمكن للعالم أن يعرفه وهو سلامٌ دائمٌ لا تهزّه العواصف ولا تُزعزع أساساته الأمواج العارمة: إنّه سلامٌ مبنيٌّ على الصّخر، صخرة الإيمان الحيّ بالرّبّ الحيّ والقائم من بين الأموات والمُنتصر على الموت، يسوع المسيح.

٥) المسيحيّة بين الشّهادة والاستشهاد

١٨٠. إنّ الشّهادة للمسيح لا تعتمد على قدرةٍ شخصيّةٍ أو مهاراتٍ ذاتيّة، كالقدرة على الإقناع والحوار، ولكنّها قوّة الله الّتي تعمل في الضّعف (راجع أعمال ٦: ١٠).

١٨١. هكذا تبدأ الشّهادة لله بالصّراع مع النّفس، وصلب الجسد مع الأهواء والشّهوات. ثمّ صراع مع العدوّ الّذي يُغربل النّفس كالحنطة، مُستخدمًا كلّ الظّروف الخارجيّة، مع حرب الأفكار. وبعد ذلك تكون الحرب سافرةً يشنّها العالم بلا هوادةٍ ضدّ كلّ الّذين يريدون أن يعيشوا بالتّقوى في المسيح يسوع (راجع أفسس ٦: ١٢).

١٨٢. معرفة الحقّ الّذي في المسيح ليست شيئًا نظريًّا، بل هي قوّةٌ فائقة، قوّةٌ مُحَرِّرة، يفوق سلطانها قوّة الفعل والمنطق والإرادة والطّبع والعادة. فقوّة الحقّ الّذي نناله من المسيح هي قوّة حياةٍ تتحدّى الموت. بهذه القوّة واجه الشّهداء الموت، مُستمدِّين القوّة من معرفة الحقّ الّذي في المسيح الّذي أَحَبُّوه. ولم يَدْرِ مُعذِّبُوهم أنّ الحقّ الّذي فيهم حَرَّرَهم من كلّ ارتباطاتهم بالدّنيا، ومن الخوف من الموت، فكان دمهم شهادةً لصدق اختبارهم الرّوحيّ.

١٨٣. لا يبدأ الاستشهاد في مكان الشّهادة. فالشّهيد، الّذي يموت في موضع الاستشهاد، يعيش الشّهادة يوميًّا، مقدِّمًا ذاته دائمًا للموت، في سبيل يسوع المسيح، تقدمةً نابعةً من القلب.

١٨٤. قلب الشّهيد هو قلبٌ مملوءٌ بالفخر والفرح بسبب الآلام (راجع كولسّي ١: ٢٤)، يحلُم ليلاً ونهارًا بأثمار جهاد الشّهادة. إنّ الفخر والفرح بالمسيح يسوع (راجع أعمال ٢١: ١٣) يخلقان مناخًا إلهيًّا يتغذّى ويتحضّر من خلاله مواطنو السّماء في ساحة الاستشهاد.

١٨٥. الاستشهاد هو موهبةٌ سماويّة. موهبة الإيمان بالمسيح، مختومةٌ بدم الشّهادة (راجع فيلبّي ١: ٢٩).

١٨٦. أقوى سلاحٍ للشّهيد أثناء الاستشهاد هو الذِّكر الدّائم لمحبّة المسيح. الصّورة الإلهيّة «للمسيح المُمات» من أجلنا، تخلق عشقًا كبيرًا لموت الشّهادة. إغراءات المضطهِدين تبقى بدون جدوًى وعقيمةً، بحيث أنّها لا تستطيع أن تبدّل عزيمة الشّهيد في تقديم نفسه ذبيحةً، مؤمنًا بمحبّة المسيح. الّذي يثبت في محبّة المسيح يبقى غير متزعزعٍ أمام الاضطهاد، الجوع، السّيف، الذّبح وسائر أنواع العذابات: «وإنّي لأحسب أنّ آلام هذا الدّهر الحاضر لا يُمكن أن تُقابَل بالمجد المُزمع أن يتجلّى لنا» (رومة ٨: ١٨).

٦) الكتاب المقدّس تجسُّدٌ ثانٍ للمسيح

١٨٧. تتميّز المسيحيّة بكتابها المقدّس، كلمة الله الموحى بها، مصدر الإيمان الوحيد وركيزته. لا يؤمن المسيحيّون بأيّ وحيٍ إلهيٍّ مُلزمٍ للجميع خارج نطاق الكتاب المقدّس، وهو كتابٌ كاملٌ متكاملٌ، مُنسجمٌ ومتوافقٌ مع نفسه، وهو يُقدّم للإنسان كلّ ما يحتاجه للحياة.

١٨٨. ليس الكتاب المقدّس كتاب الوحي النَّصِّيّ الحرفيّ، بل هو كتاب الإلهام يقذفه روح الله في صدر الإنسان.

١٨٩. الكتاب المقدّس هو كنز الكنيسة العظيم وهو معيار إيمانها وحياتها: فالعهد القديم يحمل شهادةً عن إعلان الله عن نفسه للآباء بالأنبياء (عبرانيّين ١: ١). ويشهد لأعمال الله الخلاصيّة والدّينونة وطلب الله لطاعة المؤمن ووعده بالمخلّص الآتي للعالم. أمّا العهد الجديد فيحمل شهادة أنّ الله الآب أرسل ابنه إلى العالم ليصير كائنًا بشريًّا، مولودًا من مريم (لوقا ١: ٣٠-٣١؛ غلاطية ٤: ٤) وأنّ الله أقامه من بين الأموات بقوّة الرّوح القدس (رومة ١: ٤).

١٩٠.الاعتلان الذّاتيّ الإلهيّ في العهد الجديد:

١. لم يَعُدِ الله يكشف للإنسان أمرًا من الأمور (وحي الخلق، ووحي الله إلى آباء العهد القديم، ووحي الله إلى موسى، ووحي الله إلى الأنبياء...)، بل راح يوحي إليه ذاتَه من خلال شخص يسوع المسيح الوحي الإلهيّ الوحيد (راجع يوحنّا ١ : ١٨).

٢. إنّ وحي الله لذاته لا يعني انكشاف ذات الله أمام الإدراك البشريّ وحسب، بل الإشراك في ذات الله، أي أن يجود الله على الإنسان بالاشتراك الكيانيّ الفعليّ في واقع الخلاص العلويّ: إنّه فكر المشاركة والشّركة الإلهيّة.

٣. ترمي الشّركة الإلهيّة هذه إلى تعزيز وصال العلاقة الشّخصيّة الّتي أمست ممكنةً بفضل اعتلان الله الذّاتيّ، ويتجلّى في فكر المشاركة وعدُ الله بإسباغ نِعَم الخيرات الإلهيّة على الإنسان، ومنها نعمة الحقيقة والعدل والمحبّة والسّلام، وفي هذه الخيرات طاقةٌ بيّنةٌ للتّأثير في واقع الإنسان الاجتماعيّ أيضًا.

٤. يفسّر إنجيل العهد الجديد حدث الخلاص بأسره كاعتلانٍ لدينونة الله ولنعمته: فلقد ظهر الله المُحبّ البشر وظهرت سيادته وحقيقة خلاصه. وفي حدث ظهور المسيح اختبر الإنسان ظهور الخلاص اختبارًا مميّزًا.

١٩١. إنّ الإنجيل المقدّس هو التّجسُّد الثّاني. ففي التّجسُّد الأوّل ابنُ الله صار ابنَ الإنسان، وفي التّجسُّد الثّاني كلمةُ الله صار كلمةَ الإنسان. الإنجيل المقدّس هو حقًّا تجسُّدٌ ثانٍ. فكما أنّ ابن الله المتجسّد هو في آنٍ واحدٍ إلهٌ وإنسانٌ، كذلك الإنجيل المقدّس هو إنسانيٌّ وإلهيٌّ. إنّه إنسانيٌّ لأنّه مكوّنٌ من كلماتٍ بشريّةٍ تروي أعمالاً وأحداثًا جرت في حياة المسيح. وهو إلهيٌّ لأنّ الله نفسه هو الّذي يتكلّم فيه في شخص ابنه وكلمته، وهو نفسه الّذي يعمل فيه ويمنح العالم الخلاص.

١٩٢. الأناجيل هي سجلاّت البشارة الرّسوليّة وتعليم الرّسل الّذي لم يكن مُتضمِّنًا «كلام الحكمة الإنسانية المقنِع بل برهان الرّوح والقوة» (١ كورنثس ٢: ٤). وهكذا، في ذكريات شعب الله، تنمو صورة يسوع المسيح بقوّةٍ حيّةٍ، وكلُّ قلبٍ حسّاسٍ يتعرّف في يسوع النّاصري المصلوب والقائم إلى مخلِّص العالم والله الكلمة المتجسّد، ابن الله وابن الإنسان. من خلال الإيمان، يُكشَف مخطّط الإنجيل على الأرض بشكلٍ سِرّيٍّ، وبقوّة الرّوح القدس يُصبح الدّليل التّاريخيّ أداةً بها نتمكّن من إدراك الحقيقة الإلهيّة.

١٩٣. الإنجيل يحوي دعوةً صريحةً حيّةً للتّطوُّر والطّموح، فهو **إنجيل النّور الّذي يهزم الظّلمة**: «والنُّورُ يُضيءُ في الظُّلمة» (يوحنّا ١: ٥)، **وإنجيل القيامة الّتي تغلب الموت: إنّه إنجيل الحياة الأفضل**: «السَّارِقُ لا يأتي إلاّ ليسرِقَ ويَذبَحَ ويُهلِكْ. أمَّا أنا فقد أَتيتُ لتكونَ لهم الحياة وتكونَ لهم بوفرة» (يوحنّا ١٠: ١٠).

١٩٤. الإنجيل يَبني «الإنسان» ويجعله قادرًا على مواجهة الزّمن ككلّ، والكلمة تسبق كلّ عصرٍ، بل وتتفوّق عليه، لأنّها إلهيّةٌ وسماويّةٌ لا نهائيّةٌ، أبديّةٌ. من ناحيةٍ أخرى، الإنسان هو الإنسان، أكان غلامًا بسيطًا أم عالمًا كبيرًا، سواء كان حيًّا في القرن الأوّل أو القرن العشرين، هو بعينه الّذي يؤمن بنفسه ويثبت بإرادته، وهو بعينه الّذي سيظلّ محتاجًا إلى محبّة الله وغفرانه ومعونته، وكذلك الزّمان وما فيه من متغيّراتٍ.

١٩٥. لقد صمد الكتاب المقدّس أمام كلّ أنواع التّشكيك والتّمحيص العلميّ الدّقيق، وبقي صخرةً شمّاء أمام كلّ أعاصير النّقد الحاقدة، وقد اضطر كلّ ناقدٍ موضوعيٍّ جادٍ أن يحني رأسه احترامًا له. إذ يقدّم الكتاب المقدّس الحقّ، لأنّه حقٌّ، فإنّه لا يخشى شيئًا أو أحدًا، ولا يتردّد في المواجهة. فالنّور لا يخشى الظّلمة، بل العكس هو الصّحيح، لذلك لا تضع المجتمعات الّتي تؤمن بالكتاب المقدّس حظرًا أو حجرًا على العقائد المخالفة أو المضادة، فهو قادرٌ على الصّمود والدّفاع عن نفسه.

١٩٦. إنّ قراءة الكتاب المقدّس هي قراءةٌ شخصيَّةٌ لهذا الكتاب، قراءةٌ تَتِمُّ في الإيمان وروحِ الصَّلاة، مؤمنين بحضورِ الله الآن، وأنّه يُكلِّمُنا في النّصِّ المقدَّس، حيث يَسعى المؤمن للإجابة على كلمة الله بروح الطّاعة والثّقة المطلقة بوعود الله وبما يَطلبُه منّا.

١٩٧. تتمّ قراءة الكتاب المقدّس بنور الرّوح القدس **لتتحوَّلَ** الكلمةُ إلى صلاةٍ **وتُتَرجَمُ** إلى حياة. فكلُّ الكتب المقدَّسة تُشكِّلُ كتابًا واحدًا هو **المسيح**. فالكتابُ المقدَّس ليس شيئًا، بل **شخصًا**: شخصًا حيًّا هو المسيح يسوع.

١٩٨. إنّ قراءة كلمة الله ليست عمليَّةً سطحيَّةً، بل تتطلَّب **انتباهاً وإصغاءً**، لأنّ الهدف منها ليس تعميقًا أو تطبيقًا، بقدر ما هو إصغاء وقبول لكلمة الله باستعدادٍ وتهيُّؤٍ كاملٍ. فالقراءة هي إصغاءٌ إلى شخصٍ، شخصٍ حيٍّ يتكلَّم وهو الله نفسه.

١٩٩. إنّ التّأمُّل في الواقع ليس دراسةً للكتاب المقدَّس أو عملاً ثقافيًّا، بل هو لحظاتُ صلاةٍ حقيقيَّةٍ وبحثٍ حكيمٍ عن الكلمة الإلهيَّة الَّتي تقود من خلال حوار الصَّلاة إلى عيش خبرةٍ شخصيَّةٍ مع الله.

٢٠٠. لا يُعطى فهم الكتاب المقدّس لحذاقة الفكر بل لنقاوة القلب.

٢٠١. يتطلّب فهم الكتاب المقدّس صلاةً تأمّليّةً قلبيّةً مُفعمةً بحضور الرّوح القدس، المُرشد والملُهِم، وطلب نعمة الإصغاء إلى صوت الله الّذي يُكلّم الإنسان من خلال الكلمة المكتوبة.

٢٠٢. إنّ الكتاب المقدّس، الّذي هو «صوت الحبيب»، يُقرأ ويُعلَن ويُعاش في الكنيسة؛ والمسيح القائم من بين الأموات يصير فيها حاضرًا للعالم (الكنيسة المتعلّمة والمعلّمة).

٢٠٣. تتميّز المسيحيّة بأنّها دين الهداية، إذ لا يتمّ الإيمان بمجرّد الاقتناع بصحّة الحقائق الّتي يتحدّث عنها الكتاب المقدّس، فلا بدّ أن يكون هناك تدخُّلٌ إلهيٌّ في حياة الفرد فيجذبه إلى شخص المسيح، ويعطيه بصيرةً لفهم كلمة الله ويشرح قلبه لقبولها، وهذا هو عمل روح الله.

• صلاة

يا ربّ، بما أنّني قد صِرتُ فردًا من أفرادِ شعبكَ، فإنّه لا بدّ للشّيطان أن يُداهِمني بروح التّعصّب والتّقوقع على ذاتي. لذلك، أرجوك أن تفتح عينيّ لكي أرى في مسيحيّتي معانٍ أعمَق من تلك السّطحيّة فاقدة الرّوحانيّة. يا مُخلّص الكلّ، علّمني الإيمان لكي أرى وجهَك، لكي أراكَ فيّ وفي الآخرين. علّمني الانفتاح على أخي الإنسان بطهارةٍ لكي أنقُل له بشارتكَ لنا. استجِب يا ربّ بشفاعة والدتك الدّائمة البتوليّة، أمُّنا مريم. آمين

الباب الخامس

أُسَرِيّةُ الرّعيّة:

كيانُ الكنيسةِ الخاصّ والعامّ

يعلّل هذا الباب أهميّة التّكاتُف الأسريّ الرّعويّ ومدى تأثيره على الصّعيد الشّخصيّ وأيضًا على الصّعيد الجماعيّ. ويعكِسُ لنا مبادئ مسلكيّة الكنيسة الواحدة المتآخيّة باسم الآب والابن والرّوح القدس، بالإضافة إلى طرح بعض النّقاط الّتي تواجه الإكليروس والشّعب.

١) ماهيّة الكنيسة

٢٠٤. معنى الكنيسة، في تقليدنا الصّوفيّ، بعد أن قَزَّمَتْه النّظريات الدّينيّة وجَعَلَتْه مجرّد نظامٍ أو مؤسّسةٍ أو مدرسةٍ أو بشارةٍ أو عقيدةٍ، يتحقّق في «اللّيتورجيّا» أي «عمل الشّعب»، عمل الإنسان، وهذا العمل هو اللّيتورجيّا، الّتي لا تنحصر أبدًا بالصّلوات أو الطّقوس. وعمل الكنيسة في العالم هو أن تصير عالم العالم، أو أن يصير العالمُ كنيسةً، أي أن يأتيَ ملكوت الله ويصير «الله كُلاًّ في الكلّ» (١كورنثس ١٥: ٢٨)، عندها يتّحد الكلّ فيه وبه.

٢٠٥. مَن هي مدينة الله إنْ لم تكن الكنيسة المقدّسة؟! إنّها ملكوت المسيح وملكوت السّماوات على الأرض، لأنّها المكان الّذي فيه يتحقّق، في الحياة الحاضرة، الاتّحاد بالله، هذا الاتّحاد الّذي سيتمّ في الدّهر العتيد، بعد قيامة الأموات.

٢٠٦. الكنيسة هي الصّورة الرّوحيّة للعالم، وللإنسان، وللنّفس. إنّها أشبه ببناءٍ منظَّمٍ بطريقةٍ قادرةٍ على احتواء كلّ هذه العناصر فيها كأجزاءٍ منها. إنّ الغاية النّهائيّة للعالم والإنسان هي أن يصير الإنسان والعالم كنيسةً.

٢٠٧. لم تكن المسيحيّة يومًا ديانةَ حياةٍ سهلةٍ يعتنقها المهزومون، ولم يكن المسيح يومًا متساهلاً مع أتباعه لئلاّ يتركوه ويرجعوا عنه، ولم يغيّر طريق السّير وراءه ليربح أكبر عددٍ ممكنٍ من الكسالى والنّفعيّين!

٢٠٨. الكنيسةُ «واحدةٌ» لأنّ ربّها وفاديها واحد، وتتجلّى وحدتها عبر وحدة الإيمان والعقائد. وهي «جامعة» أي أنّها مدعوّةٌ إلى الانتشار في جهات المسكونة قاطبةً لكي يصل كلّ النّاس إلى الاتّحاد بالله. وهي «مقدّسة» تستمدّ قداستها من الله الّذي هو وحده قدّوسٌ ومصدر القداسة، والكنيسة تُدعى مقدّسة لأنّ عمل الله يتجلّى فيها عبر التّبشير بكلمته، وفي منح الأسرار، وفي مواهب الرّوح القدس. وهي «رسوليّة» لارتباط جماعة المؤمنين بالأصل وأمانتهم له. فالرّسل، بصفتهم شهود القيامة وقابلي الرّوح القدس في العنصرة، هم المرجع الثّابت في شؤون الإيمان الأساسيّة، قانونيّة العهد الجديد، شرعيّة الأساقفة المستندة إلى التّسلسل الرّسوليّ.

٢٠٩. الكنيسة هي استمرارٌ لعمل المسيح على الأرض. إنّها الخميرة الَّتي يجب أن تخمّر العجين كلّه. إنّها الملح الَّذي يجب أن يُعطي للعالم طعمه الواحد في وَحدته الإنسانيّة الرّوحيّة حول الله. وهي مكان تجلّي الله الدّائم والمستمرّ في التّاريخ. وهي المكان الّذي يتذوّق فيه المسيحيّ الملكوت الآتي. جعل الله لنا الكنيسة حصنًا مَن يحتمي به لن يرى الموت أبدًا.

٢١٠. ما أكثر مباني الكنائس الموجودة في كلّ مدينةٍ وبلدةٍ ومجتمع. إلاّ أنّ روح العابدين فيها تكاد أن تكون فارغةً بل معدومةً. وها نحن قد تجاهلنا وصيّة الرّبّ القائل لنا بأن نكون نورًا للعالم (متّى ٥: ١٤). لقد أغلقنا آذاننا الطّبيعيّة والقلبيّة لدعوة الرّوح القدس. لذا، فإنّي أتوق بكلّ جوارحي لرؤية جميع الكنائس والمؤسّسات المشغولة بالكرازة في العالم ممتلئةً بالرّوح بدلاً من النّاس، حتّى تختبر تلك النّصرة الإلهيّة الَّتي ننالها أثناء الكرازة بالإنجيل النّقيّ.

٢١١. علاقة الكنيسة بالمجتمع معروفةٌ وحُكي عنها الكثير. فالكلّ متّفقون على أنّ مؤمنًا ملتزمًا ممارسًا هو مواطنٌ صالحٌ وعضوٌ حسن السّيرة في المجتمع. هذا كلامٌ يقوله العامّة كما يثبته الباحثون. هذا بالطّبع يجب ألّا يحوّل الكنيسة إلى شرطيٍّ بخدمة المجتمع، بل يجب أن تحفظ استقلاليّتها حتّى تستطيع قول كلمة الحقّ. فالكنيسة ليست من العالم ولكنّها فيه، كما أنّ أبناءها ليسوا من العالم ولكنّهم فيه، وفيه يُحفَظون بنعمة الله.

٢) الكنيسة الأرضيّة، مجاهدةٌ ومتألّمةٌ ومُضطَهَدةٌ

٢١٢. الكنيسة الأرضيّة هي كنيسةٌ حاجّةٌ، أي أنّنا نحن الرّعيّة في مسيرة حجٍّ، ولكن إلى أين؟ إلى المكان المقدّس الّذي هو أرض أورشليم السّماويّة. هو اتّحاد الكنيسة الأرضيّة المضطهَدة والمُجاهِدة في الكنيسة السّماويّة المنتصرة والَّتي تردد دائمًا «قدّوسٌ قدّوسٌ قدّوسٌ ربّ الصّباؤوت». لنستمرّ في مسيرتنا رغم الشّدائد والصّعوبات والحواجز والتّحديات الإنسانيّة بنعمة السّماء.

٢١٣. إنّ الكنيسة مُبْغَضَةٌ من العالم لأنّها ليست منه، فهي جسمٌ غريبٌ عنه (راجع يوحنّا ١٥: ١٨-١٩). إنّها ليست من العالم ولكنّها تشهد في العالم لحساب السّماء.

٢١٤. الشّيطان يريد أن يدخل الكنيسة وأن يقلب الرّعيّة تمامًا كما دخلَ قلب يهوذا الاسخريوطيّ (يوحنّا ١٣: ٢٧). لذلك، إن لم يكن المسيح في حياتنا، فيكون الشّيطان أقوى منّا. في حال أنّ المسيح مُهَيمِن على حياتنا فإنّ الشّيطان هو مُجرّد شيءٍ صغيرٍ أمامنا، فلنتحالف مع الله وليس مع الشّيطان. الجُهّال هُمُ الَّذين تحالفوا مع الشّرّ وهدفنا، كأبناء الله، أن نحوّل هذه الأرض إلى سماءٍ يتجلّى فيها سيّدنا وربّنا.

٢١٥. في حال أنّ الكنيسة ثبُتَت ضدّ كلّ المكائد الإبليسيّة، يأتي إبليس ليهادنها ويلاطفها ويدعوها لمهادنته تحت شعارات السّلام، المُعَاصَرة، الدّبلوماسيّة كبديلٍ عن الاتضاع. يعرض عليها أساليبه في الدّهاء، لا يكفّ عن عرضه: «أُوليكِ كلّ هذا السّلطان مع مجد هذه الممالك لأنّه قد دُفِع إليّ وأنا أجعله لِمَن أشاء. فإنْ أنت سجدت لي فهولك كلّه أجمع» (لوقا ٤: ٦-٧). العرض سخيٌّ ومُغْرٍ، والمرونة نافعة. لماذا لا نطاوعه في اعتدالٍ للحظةٍ حتّى نحصل على ما نريده لمجد الكنيسة؟ مَن يطاوع إبليس من أجل عطاياه يمُسَك فيه بهذه العطايا، ولا يستطيع أن يفلت من قبضته. يبدأ العرض ناعمًا، فلا مانع من استخدام بعض الدّهاء والمداهنة ثمّ النّفاق والرّياء من أجل حسن التّعامل ثمّ يتطوّر إلى الكذب.

٢١٦. إنّه مِن طبيعة إبليس أن يقترح تارةً حلاًّ وسطيًّا بين الحقّ المُعلَن من الله في الكتب المقدّسة وبين العالم الّذي يترأسه رافعًا راية التّسامح، وتارةً أخرى يلبس ثوب الصّلاح بالتّزمُّت المملوء عجرفةً والتّعصُّب البغيض ليُسيء للمسيح وكنيسته. وأحيانًا أخرى يستخدم الأسلوبين معًا، حتّى يُقسِّم الكنيسة إلى معسكرَين كلاهما مُرٌّ.

٢١٧. يَلَذّ لإبليس أن يَجُرَّ الكنيسة وأولادها خلفه لاهثين من أجل منافعَ تافهةٍ وأمجادَ زائلةٍ، فيصبغهم بصبغة العالم، ويَسِمُهم بسِمَتِه، وهنا تصبح الكنيسة عاجزةً عن الشّهادة للمسيح فيخبو النّور ويفسد الملح، لأنّ الشّهادة للمسيح هي أكثر ما يؤرق إبليس وجنوده، إذ يعلم أنّ في ذلك نهايته. لهذا يضطهد إبليس الكنيسة ويحاربها بكلّ قوّةٍ ليُعيقها عن الشّهادة للمسيح، وله في ذلك أساليبُ متنوّعةٌ، ذكرناها آنفًا.

٢١٨. متى تمكّن إبليس يذلّ الكنيسة، فيرفعها إلى العلاء ليُلقي بها إلى أعمق هاويةٍ. فمتى يستنفذ كلّ أغراضه يُشَهّر بالكنيسة ويفضحها. كم يبتهج العالم عندما يُعَيِّر المسيح بكنيسته. هل انتصر إبليس إذن؟ هل غُلِب المسيح في كنيسته؟ الإجابة حاشا وكلاّ. إنّ وعد المسيح ثابتٌ، فأبواب الجحيم لن تقوى عليها.

٢١٩. عدوٌّ آخر يُهدِّد الكنيسة البشريّة هو التّهاون، الّذي ما هو إلاّ شكلٌ من أشكال الموت الرّوحيّ للإنسان. فبحجّة الحاجات الجسديّة والإرهاق من الجهاد، يصوّر هذا المخادع نفسه جديرًا بالثّقة، وكمادةٍ موصِلةٍ، ينقلنا الفتور ويسلّمنا إلى محبّة الذّات، وهي العدوّ الأكثر شمولاً. وحدها النّفس الشُّجاعة الثّابتة في الإيمان والرّجاء بالله تقدِر على الإطاحة بهذه المؤامرة.

٣) اللاّهوت الرّعويّ

٢٢٠. الرّعيّة هي الكنيسة الصُّغرى حيث ينمو الإنسان في نِعَمِ الخلاص ويشهد للمحبّة بين الإخوة: «فمن يفرح ولا أفرح أنا، ومَن يبكي ولا أبكي أنا». إنّه التّضامن الرّوحيّ والإنسانيّ الَّذي تعيشه الرّعيّة فتكون بحقٍّ كنيسةً.

٢٢١. إنّ الرّعيّة هي الهدف الأساسيّ من كلّ النّشاطات الكنسيّة، والرّسوليَّة، والاجتماعيَّة وعلينا اليوم أن نُعيد النّظر في كيفيّة العمل الرّعويّ لنرى إذا كان يُغني الجماعة الرّعائيّة أم يفقّرها.

٢٢٢. إنّ مفهوم الرّعيّة والكاهن ليس دائرة «تصريفِ معاملاتٍ»، إنّها «جماعةُ مَحبّةٍ»، ولكلِّ عضوٍ دوره في الجماعة الرّعويّة، وعلى الكاهن أن يعي وينمّي موهبة كلِّ الأعضاء، كما أنّه على أبناء الرّعيّة أيضًا أن يأخذوا المبادرة في تقديم ذواتهم ومواهبهم وأوقاتهم لخدمة الجماعة روحيًّا، اجتماعيًّا وثقافيًّا وفي كلّ الميادين وبخاصةٍ من خلال الحركات الرّسوليّة واللّجان العاملة في الرّعيّة.

٢٢٣. إنّنا نفتقر، في بعض الأحيان، إلى نوعيّة العمل الرّعويّ والرّسوليّ، إذ إنّ المطلوب من الاشخاص العاملين في الحقل الرّعويّ، الانتقال من مفهوم «الجماعة من أجلي» إلى مفهوم «أنا من أجل الجماعة». إنّه العبور من الأنانيّة إلى المحبّة، ومن الموت إلى القيامة: إنّه الفصح، عبور الرّبّ. إنّه كذلك عبورٌ من أرض العبوديّة إلى أرض الميعاد، أرض التّحرُّر الدّاخليّ.

٢٢٤. المطلوب هو نظرةٌ كنسيَّةٌ شاملةٌ وإيمانٌ بكنيسةٍ واحدةٍ وفي نفس الوقت جامعةٌ، وتنميّة لاهوت وروحانيّة «الوَحدة في التّنوّع»: مواهبُ متعدّدةٌ، أعضاء كثيرةٌ لكن من أجل جسدٍ واحدٍ هو المسيح وكنيسته.

٢٢٥. أدعوكم جميعًا إلى تقويّة أواصر الانتماء إلى الكنيسة وإلى التّعمّق أكثر فأكثر في الكتاب المقدّس للوصول إلى **فهمٍ صحيحٍ لمسيحيَّتِنا**. لا تَفقِدوا محبَّتَكم وانتماءكم للمسيح المخلِّص واطلبوا إليه بحرارةٍ أن يُطهِّرَ قلوبَكم من دَنَس الخطيئة ويُعطيَكم قلبًا جديدًا لعهدٍ جديد تقطعونَه بدمِه الإلهيّ المحيي.

٢٢٦. «الفهم» هو رسالة الكنيسة الَّتي يجب أن تنفخها في كلّ العلوم الإنسانيّة، بحيث لا تتحوّل هذه الأخيرة إلى معضلاتٍ فكريّةً، بل إجاباتٍ وجوديّةً حقيقيّةً تتناسب فعلاً والحاجات البشريّة، وَفق الرُّؤيا الأنثروبولوجيّة المسيحيّة للإنسان.

٢٢٧. إن لم تكُن هنالك جماعةٌ مسيحيّةٌ واحدةٌ (قلبًا واحدًا وروحًا واحدةً) فإنّنا لم نُنشئ شيئًا يُمَجِّد عمل الله فينا. العَمَل، وفقط من خلال العَمَل، يُمجَّد الله في حياتنا. يسوع لا يبحث عن كبريائنا وفوقيّتنا، إنّما يبحث عن جماعةٍ مُقَدّسةٍ مُتّحِدَةٍ باسمه. إذا وجدْتَ أخاك واقعًا في خطيئةٍ ولم تُلبسه ثوبًا لتغطّيه، فلستَ إذًا مسيحيًّا حقيقيًّا. إن لم نبنِ كنيسةً مثاليّةً نموذجيّةً قائمةً على المحبّة والصِّدق، فإذًا نحن لسنا بمسيحيّين.

٢٢٨. **الرّعيّة هي جماعةٌ إفخارستيّة:** الإفخارستيّا هي المكان اللّاهوتيّ الّذي تعلن فيه الكنيسة موت وقيامة المسيح ونشترك في حياة المسيح ونتّحد به، في جسده ودمه ومن خلاله بالآب السّماويّ، بقوّة الرّوح القدس الّذي يحقّق ويكمّل فيها ثمار الخلاص.

٢٢٩. الرّعيّة هي القوت والزّاد وهي ضمانة الشَّركة والوحدة وتجلّي الكنيسة، والاشتراك بالمائدة المقدّسة وبنصيب القدّيسين، وهي الَّتي تجعل من الجماعة جماعة قدّيسين «الأقداس للقدّيسين».

٢٣٠. نحن لسنا نُزَلاء، لأنّ الله منحنا بيتًا مقدَّسًا: «في بيت أبي منازلَ كثيرةً» (يوحنّا ١٤: ٢)، وجواز سفرٍ مقدّسٍ، وجنسيّةٍ إلهيّة (راجع تكوين ١: ٢٦)، لنكون قدّيسين وأهل بيت الله (راجع أفسس ٣: ١٩).

٢٣١. من دون أيّ تعميمٍ للخاصّ، يمكننا القول بأنّ الفواصل بين الكنيسة والاجتماعيّات غالبًا ما تكون مفقودةً أو هزيلةً وسهلة الاختراق. أحد أهمّ أسباب هذا الخلل هو البُعد بين الكاهن والرّعيّة ممّا يجعلهم يقرّرون دون العودة إليه. يلي هذا السّبب علّةٌ أخرى هي أنّ الرّعاة يلينون أمام أبنائهم لأسبابٍ كثيرة. وفوق كلّ هذا أنّ الجميع لا يطرحون عنهم كلّ اهتمامٍ دنيويّ في الكنيسة.

٢٣٢. في كثيرٍ من الأحيان يضطر الكهنة لوضع القانون الكنسيّ جانبًا مِن أجلِ كسب نفوسٍ للمسيح. إذا أردنا أن نتعامل مع بعضنا البعض في القانون فلعُمرنا لن نوصل المسيح إلى النّاس الّذين لا يعرفونه. التّعامل في الرّعيّة ليس تعاملاً قانونيًّا فحسب، **إنّه تعاملٌ روحيٌّ ورعويّ**، تدخل فيه حسابات خلاص النّفوس وليس هلاكها. لذلك علينا أن نُصلِح أنفسنا. علينا أن نجد حلولاً لمشاكلنا وشبابنا.

٢٣٣. عندما كان يسوع يقابل الخطأة كان يغطّيهم بثوبه ويتعامل معهم على أساس إحداث تغييرٍ جذريٍّ في حياتهم: كان يقبلهم كما هم بخطاياهم وضُعفهم وأوهانهم وأفكارهم، ثمّ يقوم ببثّ الرّوح الجديدة في قلوبهم وحياتهم، ليُصبحوا «خليقةً جديدةً». فيسوع، لم يكن يملك عصًا سحريّةً لتغيير الأشخاص، كان يملك نظرةَ المحبّة الّتي يفتقر إليها الكثيرون.

٢٣٤. لا يوجد أيّ مبرّرٍ للفرز في «الشّركة» المسيحيّة وفي شركة القدّيسين، لا على أساسٍ اجتماعيٍّ ولا على أساسٍ ماديٍّ ولا حتّى على أساس معرفيٍّ أو إيمانيّ (راجع يعقوب ٢: ١-٩).

٢٣٥. في شركة القدّيسين كلُّنا أعضاء جسد المسيح، والعضو الضّعيف يُسنده القويّ. وأكثر الأعضاء هوانًا أكثرها كرامةً. ولا يوجد عضوٌ - مهما كان مريضًا أو ضعيفًا - غير ضروريٍّ للجسد كلّه.

٢٣٦. على الأقل، علينا أن نشعر أنّنا نحن، أبناء الكنيسة، عالم آخر ومجتمع آخر، مجتمع الله. المجتمع الخارجيّ هو خارج عن مشاريع الله: لنعيش الاحتضان والتّكاتُف والتّعاوُن.

٢٣٧. **الرّعيّة هي واحة التّعاضد والتّضامن باحترامٍ كلّيٍّ للإنسان وبصمت القدّيسين.**

٢٣٨. يجب أن تكون الجماعة المسيحيّة الحقيقيّة نورًا في عالمٍ يعيش ظلمةً مُدلهمّةً؛ أن تكون علامةً فارقةً لعيش المحبّة الإنجيليّة (راجع ١ يوحنّا ٣: ١٨)، الّتي قد تصل بنا إلى حدود الصّليب «أحبّوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم» (يوحنّا ١٣: ٣٤)، في عالمٍ يعيش أنانيّة المحبّة ومركزيّة الأنا (أُنظر مَثَل الغنيّ الأحمق في لوقا ١٢: ١٥-٢١)؛ أن تشهد لله من خلال تطبيق شريعته، في عالمٍ يُطبِّق شريعة الغاب، إذ يسيطر القويّ على الضّعيف وينهش الغنيّ الفقير (أُنظر مثل الغنيّ ولعازر في لوقا ١٦: ١٩-٣١)؛ إذًا، المطلوب من الجماعة المسيحيّة أن تكون نبعًا روحيًّا يفيض قِيمًا دينيّةً وأخلاقيّةً لجميع البشر.

٢٣٩. تبسط الرّعيّة مائدة المحبّة لكلّ بعيدٍ وقريبٍ، وكان «كلّ شيءٍ مُشترِكًا بينهم» (أعمال ٢: ٤٤): الجماعة المسيحيّة مدعوّةٌ لتجسيد المحبّة من خلال التّضامن بين الإخوة: والتّضامن سبيلٌ إلى العدالة الاجتماعيّة، ضمن الرّعيّة المسيحيّة علينا أن نشهد لإنجيل التّطويبات (متّى ٥: ١-١٢) ونضع إنجيل الدّينونة (متّى ٢٥: ٣١-٤٦) كبرنامجٍ أساسيٍّ لها.

٢٤٠. بيت الكاهن وقاعات الرّعيّة وبيت كلّ فردٍ من أبنائها هو بيت الضّيافة الَّذي يستقبل المشرّد، والجائع، والمريض، والمتألّم، والمهمَّش، والمنبوذ، والبعيد قبل القريب. فمعاذ الله أن تكون الرّعيّة ومجالسها وفرقها لطبقةٍ معيّنةٍ من النّاس.

٢٤١. إنّ الجماعة الرّعويّة هي مكانُ الصَّفح. وإذا كان الاحتفال بالذّبيحة هو قمّة الحياة الرّعويّة، فالصَّفح هو قلبُها، ذلك أنّنا كمسيحيّين نحيا ونموت لأجل جميع الآخرين (راجع رومة ١٤: ٧-١٠)، الّذين نرى فيهم صورة المسيح (راجع ١ يوحنّا ٣: ١٤، ١٦).

٢٤٢. أن تكون جزءًا من خدمةٍ كنسيّةٍ يعني أن تعمل في كواليس الخدمة متنازِلاً عن أهدافِكَ الشّخصيّة مِن أجل تحقيق هدف الجماعة والكنسيّة ككلّ.

٤) «الأنا» بين الأنانيّة والكنسيّة

٢٤٣. لعلّنا نقاتل من أجل مركزٍ، نقاتل من أجل أيّ موضوعٍ في الرّعيّة... نقاتل من أجل دورٍ معيّنٍ! نحن لا نريد كلّ هذا؛ على الإنسان أن يعيش التّجرّد والتّنزّه، أن يخدم في الخفاء... طُلِب منك؟ اِعمل! ولكن لا تكُن خدمتنا فقط للأمور الظّاهريّة. لكلّ واحدٍ منّا دورٌ في الكنيسة (راجع ١ كورنثس ١٢: ٧-١١؛ أفسس ٤: ٧-١٢). هل تؤمن بأنّ الله يحضّر لك دورًا في وقتٍ من الأوقات أم إنّك تريد أن تسير بحسب رغبتك ومخطّطك ووقتك؟ دَع زمن الله يعمل معك، وليس زمنك الخاصّ الّذي ليس له إلّا أن يوقعك في المشاكل والطّموح الفاسد والزّائل.

٢٤٤. علينا أن نقدّم خدمتنا في الخفاء، في تستّرٍ، بهدوءٍ... دون اعتقادنا أنّنا شيءٌ مهمٌّ في الكنيسة، لا يوجد شخصٌ مهمٌّ في الكنيسة لأنّه يوجد مَن هو الأهمّ في الكنيسة؛ سيّدنا يسوع المسيح. نحن نأخذ الأهميّة من الله، نحن نأتي إلى الكنيسة من أجل أن نعيش سلام الله، ليس لنعيش الحروبات والمناوشات، والاضطرابات والأدوار والتّزعّمات وما إلى ذلك، انطلاقًا من قول السّيّد له المجد: «فدعاهم يسوع وقال لهم: تعلمون أنّ أراكنة الأمم يسودونهم، والعظماء يتسلّطون عليهم. وأمّا أنتم فلا يكن فيكم مثل هذا، بل مَن أراد أن يكون فيكم كبيرًا فليكن لكم خادمًا، ومَن أراد أن يكون الأوّل فيكم فليكن لكم عبدًا، كما أنّ ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم وليبذل نفسه فديةً عن كثيرين» (متّى ٢٠: ٢٥-٢٨).

٢٤٥. الاعتزاز بالنّفس والكبرياء يُنشئان حاجزًا قويًّا يحجب عن الإنسان الرّؤية السّليمة والاعتراف بأفضال الآخرين، فتُصبح الفضائل موجَّهةً لأشخاصهم. وقد يؤدّي هذا في بعض الحالات أيضًا إلى توجيه الكلمات الجارحة للآخرين. ومثل هؤلاء السّاعين وراء المجالس الأولى (راجع لوقا ١٤: ٧-١٤) والشُّهرة والسّلطة والعَظَمة الدّنيويّة يفتقرون إلى فضائل الوداعة واللّطف والاتّضاع.

٢٤٦. إنّ السّيادة والعَظَمَة في المسيحيّة أصبحت خدمةً مجّانيّةً باذِلةً وفِديةً ذاتيّةً من أجل الآخرين.

٢٤٧. إنّ معظم المشاجرات بين الإخوة ترجع إلى هذه الكلمة الرّنّانة «الأنا»: «أنا عملت»، «أنا فعلت»، «أنا أكثر خبرة وعلمًا من الآخرين!». أُنظر ماذا يقول القدّيس بولس في هذا الشّأن: «أحبُّوا بعضكم بعضًا حبًّا أخويًّا، وليَحسَبْ كلّ واحدٍ الآخرين خَيرًا منه؛ كونوا على غير توانٍ في الغَيرة، وعلى اضطرامٍ بالرّوح: فأنتم تخدمون الرّبّ» (رومة ١٢: ١٠-١١). قليلون الّذين يحتلّون المجالس الأخيرة عن طيب خاطرٍ واتّضاعٍ. **فالأكثر قداسةً هو الأكثر اتّضاعًا**. المسيح القدّوس كان المسيح المتواضع (راجع متّى ١١: ٢٩).

٢٤٨. كان يوحنّا المعمدان جريئًا طوال حياته، فقد أعلن كلمة الله بشجاعةٍ نبويّةٍ لأنّه رجلٌ متجرّد. لم ينتظر ممات يسوع ليطلب جسد الرّبّ مثل يوسف، إذ إنّه كان «تلميذًا ليسوع ولكن في الخُفية خوفًا من اليهود» (يوحنّا ١٩: ٣٨). كان يخاف أن يُعلن إيمانه وتلمذته ليسوع خوفًا على مركزه الدّينيّ والاجتماعيّ من الضَّياع.

٢٤٩. إنّ «الأنا» في الإنسان تكتمل بانفتاحها وعلاقتها بالآخر الَّذي هو «الأنت»؛ وهذا «الأنت» ليس محدودًا أو محصورًا.

٢٥٠. أمّا المعمدان فكان رجلاً متجرّدًا، يعيش في البريّة منذ البداية. لم تهمّه الألقاب الدّنيويّة والمراكز الاجتماعيّة والكهنوتيّة، ولكنّنا، مع كلّ أسفٍ، نهتمّ كثيرًا بهذه الأمور لأنّنا متعلّقون بمراكز الأرض وأمورها. ولكنّ هذه الأمور تلقي علينا مسؤوليةً أكبر وأصعب... كلّما ارتفع مركزنا كلّما كبرت المسؤوليّة الملقاة على كاهلنا، وكلّما زادت الثّمار المطلوبة منّا.

٢٥١. إمّا أن نكون أولاد كنيسةٍ مُبتعدين عن كلّ منفعةٍ شخصيّةٍ أو أنّنا نأتي للبحث على المجد الذّاتيّ الباطل في الكنيسة؛ فحاشا وكلّا للكنيسة أن تعطي مجدًا باطلاً لأيّ إنسانٍ مهما كانت صفته. لو كنتم تبحثون عن مجدٍ ذاتيٍّ باطلٍ فاذهبوا خارج الكنيسة فستجدونه بوفرةٍ وفي كلّ مكانٍ. يقول السّيّد المسيح: «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون المجد بعضُكم من بعضٍ، ولا تطلبون المجد الّذي من عند الله وحده» (يوحنّا ٥: ٤٤).

٢٥٢. لا تُبنى الكنيسة على مصالحَ شخصيّةٍ، لا تُبنى على خوفٍ أو على اضطرابٍ، حتّى ولو كانت هنالك مشاكل وصعوباتٌ وتحدّياتٌ كنسيّةٌ ورعويّةٌ واجتماعيّةٌ وعائليّةٌ أو كلامٌ بطّالٌ. نحن لا نستسلم؛ ولأنّنا مع المسيح، فهذا سببٌ أساسيٌّ كي لا نعرف الاستسلام ولا وجود لهذه الكلمة في قاموسنا المسيحيّ. نحن شعبٌ لا يعرف الاستسلام أبدًا! هذا ما نردِّده في صلاة النّوم الكبرى «يا ربّ القوّات»: «إنّ الله معنا، فآعلموا أيّها الأمم وانهزموا، لأنّ الله معنا!» (راجع أيضًا رومة ٨: ٣١).

٢٥٣. تظهر، في حياتنا الكنسيّة، فئاتٌ نُخبويّةٌ تبرّر في تجمّعها فرديّتها ونرجسيّة حُبّ الذّات وتطويبها «التّجمّعات» تحت أسماءٍ في الكنيسة، وجعلها فوق الكنيسة هي مظاهرٌ تدلّ على تأثير الطّابع الاجتماعيّ وليس الرّوحيّ، وعلى غياب فاعليّة اللّيتورجيّا في حياة هذه «الجماعات».

٢٥٤. ما زالت لدينا تلك الفرصة الثّمينة الّتي تقدّمها لنا الكنيسة للتّوبة، ما زالت لدينا الفرصة الثّمينة لنعيش القليل من إيماننا في حياتنا قبل أن ننتقل إلى الحياة الأخرى، قبل أن نقابل وجه ربّنا... لدينا فرصٌ كثيرةٌ في الحياة. فلماذا أستغلّ الفرص الّتي توصلني لأعلى المناصب الدّينيّة والاجتماعيّة وغيرها، ولا أستغلّ فرصةً توصلني إلى يسوع المسيح ولقائه؟ ما الفرق بين الاثنين؟ الأولى هي ماديّةٌ ملموسةٌ، والثّانية روحيّةٌ غير ملموسةٍ. هذا ما يشير إليه القدّيس بولس قائلاً: «فالّذي يزرع في جسده، يحصد من الجسد الفساد؛ والّذي يزرع في الرّوح، يحصد من الرّوح الحياة الأبديّة» (راجع أيضًا يوحنّا ٣: ٦).

٢٥٥. واجبنا ومسؤوليّتنا، نحن أبناء الكنيسة، أعظم من مسؤوليّة الإنسان الّذي لا يعرف الكنيسة، لأنّ هذا الإنسان «البعيد عن حياة الكنيسة» إنْ جاز التّعبير، ينظر إلينا، يُراقب مسلكيّتنا، تصرّفاتِنا، أقوالنا، تطبيقنا لوصايا الرّبّ، ولا ينظر إلى الكاهن فقط. لذلك، قد نكون في كثيرٍ من الأحيان حجر عثرةٍ أمام النّاس، قد نُبعدهم عن الكنيسة بسبب تصرّفاتنا العمياء. هذه مسؤوليّةٌ مشتركةٌ بين الكاهن وأبناء الكنيسة الملتزمين، علينا أن نبنيَ... يدًا بيدٍ.

٢٥٦. الكنيسة لا تُريدُ أموالكم، إنّما تريدكم أنتم، تريد مواهبكم وطاقاتكم، تريد كلّ شيءٍ مَنَّ الله به عليكم لكي تضعوه في خدمة هذه الجماعة وفي خدمة الكنيسة المنتشرة في الأرض. هذه المواهب لا يُمكن أن تكون قد خُلِقَت معنا في ولادتنا، المسيح وضع لكلّ واحدٍ منّا مخطّطًا. فإمّا أن نسير في مُخطّط المسيح وإمّا أن نسير في مُخطّطنا الخاصّ.

٢٥٧. كان إبراهيم مُطيعًا لأوامر الرّبّ وذهب إلى أرضٍ لم يعرفها من قبل بناءً على إرادة الله... نحن اليوم لا نقبل أن نطيع الله مثل ابراهيم ونخاف أن نقفز قفزةً في المجهول... ولكن مع الله لا شيء مجهول... مع الله كلّ قفزةٍ محسوبةٌ. لذلك، ما هو دوري مع الله؟ عليّ أن أفكّر... ما هو دوري في حياتي؟ أنا إنسانٌ مؤمنٌ (لست كاملاً... لا يوجد أحدٌ كاملٌ) كيف أعيش إيماني خارج الكنيسة؟

٢٥٨. إدراك الإنسان لمكوّناته الرّوحيّة، يجعله مختلفًا عن باقي المخلوقات؛ وقدرات الإنسان تساعده على الانفتاح على كلّ الحقائق، بما فيها حقيقة نفسه. قدرة الإنسان على الانفتاح ليس لها حدّ. إنّه يملك حريّة الإرادة، ولذلك هو سيّد أعماله، وهو المسؤول عن نفسه. إنّ انفتاح الإنسان على تلك الحقائق، يجعل منه إنسانًا منفتحًا على الآخرين أيضًا. كائنٌ اجتماعيٌّ، يعبّر عن ذاته بالحوار.

٢٥٩. محبّة الله هي العطاء الكامل، والاحتضان الكامل، لدرجة الموت لأجل الآخر، لخلاصه. بينما الفرديّة («الأنا» الأنانيّة)، الّتي هي ثمرة خطيئتنا في زماننا، فهي القبر، حيث تختبر النّفس البشريّة الموت والجحيم في الغيرة، في استعباد الآخر لإعادة صياغته على صورتنا، على الصّورة السّاقطة الّتي اتّخذناها، بدل تحريره وإعادة صياغته على صورة المخلّص الإلهيّ، الرّبّ يسوع المسيح («الأنا» الكنسيّة).

٥) المسيحيّ: سفيرٌ دائمٌ ومعتَمَدٌ إلهيّ

٢٦٠. أنتم كنيسة زيارة الله إلى العالم، على مثال زيارة مريم «حاملة المسيح» لنسيبتها أليصابات «شعب الله المنتظر الخلاص المسيحانيّ» (راجع لوقا ١: ٣٩-٤٥). لا تنتهي رسالتنا التّبشيريّة في الكنيسة، بل تنطلق منها، خارج أسوار الكنيسة، بعد أن يكون المؤمنون قد امتلئوا من حضور الرّوح، روح الحقّ وموهبة التّبنّي وعربون الميراث العتيد وباكورة الخيرات الأبديّة والقوّة المحيية وينبوع التّقديس (راجع أشعيا ١١: ٢)، واختبروا العلاقة الإيمانيّة الشّخصيّة بالمسيح الفادي والمخلّص (راجع ١ يوحنّا ١: ١-٣).

٢٦١. لقد تمّ تعييننا، نحن المسيحيّون، من قِبل الله كسفراءَ دائمين للمسيح لدى البشريّة وأرسلنا برسالة المصالحة للعالم. إنّ مَهمّتنا صعبةٌ وشاقّةٌ، لأنّ هذا العالم هو العالم المتألِّم، المظلم، الثّائر، الحاقد، المنتقم، المحارِب، المستأثر، المستغلّ، المادّيّ، الجسديّ، الجنسيّ، السّطحيّ، الأنانيّ، الاستغلاليّ، المتقلّب، المتأرجح، التّائه بلا مرشدٍ ولا مرجعيّةٍ ولا موجِّهٍ، يَهِيم على وجهه. هذا العالم اليوم يحتاج إلى رجالٍ أشدّاء وأقوياء ومؤمنين بموعظة يسوع المسيح على الجبل: «طوبى لصانعي السّلام، فإنّهم أبناءً الله يُدعَون» (متّى ٥: ٩).

٢٦٢. نريد أن نبني مجتمعًا مسيحيًّا كنسيًّا مثاليًّا، هذا ما نريده. وبِمَن نبدأ؟ ليس بِمَن هُم خارج الكنيسة، إنّما نبدأ من الكنيسة، مِن أنفسنا، من هنا تبدأ المسيرة... لأنّكم أنتم سفراء المسيح (راجع ٢ كورنثس ٥: ٢٠)، أنتم مُرسَلو المسيح إلى العالم (راجع يوحنّا ١٧: ١٧-١٨؛ أفسس ٦: ١٨-٢٠)، أنتم ممثّلوه الحقيقيّون، أنتم العلامة الفارقة في المجتمع، تتميّزون بمحبّتكم الخلّاقة وبنوركم الوُهّاج السّاطع الضِّياء من القبر الفارغ.

٢٦٣. لقد خرجن المريمات من القبر الفارغ حاملاتٍ بُشرى القيامة بفرحٍ عظيمٍ (متّى ٢٨: ٨؛ يوحنّا ٢٠: ١٨) للتّلاميذ الّذين كانوا غارقين في الحزن والنّحيب (راجع مرقس ١٦: ١٠). هل نحن نخرج من الكنيسة ونذهب إلى النّاس ونقول لهم: هلمّوا وانظروا القبر فارغًا؟ المسيح حاضرٌ في حياتنا ولكنّه ليس في القبر. هل نعطي هذه البشارة للعالم أم أنّنا نحضر القداديس فقط؟ الزّمن الجديد يبدأ خارج أسوار الكنيسة وليس داخلها.

٢٦٤. لا يمكن أن تبقى الكنيسة داخل الأسوار أو ضمن مكاتب بيت الرّعيّة ونقول للنّاس: تعالوا إليّ... الكنيسة اليوم هي كنيسةٌ تذهب، تنطلق إلى العالم وتعيده إلى المذبح، إلى المسيح. فحدود الرّعيّة هي حدود كنيسةٍ واضحة، لكنّ حدودها أيضًا هي كلّ إنسانٍ مخلوقٍ على صورة الله ومثاله.

٢٦٥. **التّبشير** يعني أن نذهب نحو... لكي نُستقبَل منه: عادةً نفهم أنّنا ننطلق إلى الرّسالة ونذهب نحو الآخرين لنلتقيهم ونحمل إليهم ما اعتمر في قلوبنا من عطايا الإنجيل وغناه حتّى نعطيهم لهم وبشكلٍ «فوقيّ» وكأنّنا الأفضل لأنّنا السّبّاقون في معرفة الحقّ. لكنّنا لا ننتبه إلى وجهٍ آخر في الرّسالة وهو أن نستوعب أيضًا ما **زرعه الرّوح القدس نفسُه** الّذي يقتادنا إلى الرّسالة، في نفوس الآخرين وحياتهم وقلوبهم.

٢٦٦. إنّ قيامة المسيح هي الّتي جعلت الجماعة المؤمنة الأولى تبصر في يسوع المسيح كائنًا مميّزًا يسمو كيانه على سائر الكائنات، لأنّه من صُلب الجوهر الإلهيّ.

٦) اللّاهوت الپنيڤماتولوجيّ (الرّوحيّ)

٢٦٧. حينئذٍ، و«بغتةً» (أعمال ٢: ٢)، بهذه الفُجائيّة الّتي ترافق قدرته العذريّة، اِستولى روح يسوع على هؤلاء الرّجال والنّسوة وملأهم بحضوره الشّخصيّ. فلم يعودوا مجموعة مؤمنين بل جماعةً، شركةً جديدةً؛ لم يعودوا صيّادين، بل لاهوتيّين وناطقين بالإلهيّات؛ كانوا تلاميذ ليسوع، فصاروا رسلاً، مُرسَلين مثله: «وقال لهم ثانيةً: السّلام لكم. **كما أرسلني الآب كذلك أنا أرسلكم.** ولمّا قال هذا، نفخ فيهم وقال لهم: خذوا الرّوح القدس» (يوحنّا ٢٠: ٢١-٢٢).

٢٦٨. الجماعة الرّوحيّة تختبر أوّلاً العنصرة وهذه أيقونة شعارها ومن هنا تنطلق لِتكون شهادةً للمسيح في العالم. فأيّة شهادةٍ نؤدّي إذا لم تنبع من أعماقنا، ممّا اختبرناه، ممّا رأيناه، ممّا لمسته أيدينا وذقنا طعمه: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرّبّ» (مزمور ٣٤: ٩).

٢٦٩. **الكنيسة هي سرّ الرّوح القدس**، ذلك لأنّ هدف الحياة المسيحيّة الحقيقيّ هو اقتناء الرّوح القدس.

٢٧٠. الرّوح القدس يكوّن الكنيسة في كرازة الرّسل فيها وانضمام المؤمنين إليها. لقد رافق الرّوح القدس الكنيسة منذ نشأتها وفي جميع مراحل نموّها. لذلك، دعي سفر أعمال الرّسل، الّذي يروي نشأة الكنيسة ونموّها، «إنجيل الرّوح القدس». الرّوح القدس هو قدرة الله الّتي تدفع بالكنيسة النّاشئة «إلى أقاصي الأرض» حسب قول يسوع لتلاميذه: «إنّكم ستنالون قوّةً بحلول الرّوح القدس عليكم، فتكونون لي شهودًا في أورشليم، وفي جميع اليهوديّة والسّامرة، وإلى أقاصي الأرض» (أعمال ١: ٨).

٢٧١. الرّوح القدس هو موجِّه الجماعة الرّوحيّة، وجوهر وجودها. ويجب على كلّ جماعةٍ روحيّةٍ أن تكون على مثال الثّالوث القدّوس بالمحبّة والمشاركة والبذل والخروج من الذّات.

٢٧٢. من خلال الرّوح القدس (راجع ١ كورنثس ١٢: ٣) يبقى كهنوت المسيح حاضرًا في «هنا» و«الآن» الحياة الكنسيّة؛ ومن خلال الرّوح القدس يرتبط الكهنوت في تجلّيه التّاريخيّ بكهنوت المسيح.

٧) اللّاهوت الإكليزيولوجيّ (الكنسيّ)

٢٧٣. إنّ الكنيسة وُجِدت منذ أن وُجِد الإنسان على الأرض. وتاريخ الكنيسة هو تاريخ تعاملات الله مع شعبه.

٢٧٤. بفضل التّجسّد صارت الكنيسة تمام العهد القديم واكتماله، وهي، في القوت عينه، صورةٌ عن الملكوت السّماويّ الاسكاتولوجيّ، لأنّ حياة الإنسان ما هي إلاّ مسيرةٌ من أورشليم الأرضيّة إلى أورشليم السّماويّة.

٢٧٥. إنّ الكنيسة هي سرّ الملكوت. في قلب الكنيسة الحاجّة، يحضر ملكوت الله بالفعل إلى الوجود، يُصبح واقعًا محسوسًا وملموسًا؛ إنّها العالم المتصالح؛ إنّها بالفعل الخليقة الجديدة.

٢٧٦. إنّ الكنيسة الحاجّة هي الملكوت الّذي يَنبت ويَنمو إلى أن يحين وقتُ الحصاد (راجع مرقس ٤: ٢٦-٢٩)، بحيث تكون الكنيسة في المجد السّماويّ هي الملكوت الكامل، الهدف النّهائيّ لمحجّة شعب الله المسيحانيّ من الكنيسة الأرضيّة المجاهدة إلى الكنيسة السّماويّة المنتصرة، من أورشليم الأرضيّة إلى أورشليم السّماويّة: إنّه اكتمال الزّمن البشريّ في أبديّة الله والملكوت.

٢٧٧. لا تتكوّن كنيسة المسيح الجامعة من الرّعاة «**الكنيسة المعلِّمة**» فحسب، بل إنّما أيضًا من جماعة المسيحيّين «**الكنيسة الصّاغية**» أو «**شعب الله**».

٢٧٨. عندما نتحدّث عن كنيسةٍ مسيحيّةٍ، ككنيسة كورنثوس مثلاً، فإنّنا لا نقصد منظمّةً بشريّة. فالجماعة المسيحيّة هي وليدة الاتّحاد الأسراريّ الحاصل بين الإنسان وجسد المسيح النّاهض المتألّه، الّذي هو رأس الكنيسة كلّها، أي أنّها تلك الجماعة الّتي كرّسها الله نفسه والّتي تتحقّق أسراريًّا بالمعموديّة والإفخارستيّا (راجع ١كورنثوس ١٠: ١٦؛ ١٢: ١٢-١٤؛ أفسس ٤: ٤-٦).

٢٧٩. الأسبوع كلّه يتوجّه نحو الأحد والأحد نحو الأسبوع. فالمسألة ليست بكثرة القداديس بل بعمق المشاركة، وإلاّ تحوّلت اللّيتورجيّةُ الافخارستيّة إلى ليتورجيّةٍ تَقَويّةٍ مؤلَّفةٍ من مجموعة حركاتٍ وطقوسٍ فارغةٍ من معناها الأساس: سرّ الكنيسة في دخولها إلى فرح ربّها (راجع متّى ٢٥: ٢١) والشّهادة له في العالم.

٢٨٠. عندما يدخل المرء إلى الكنيسة فإنّه يدخل السّماء في حضرة الله، وهناك على المؤمن أن يتّصل مع الله بإيمانٍ وورعٍ، لأنّ الخدمة هنا هي خدمة الله العليّ خالقنا ومخلِّصنا. إنّ قداسة الكنيسة ليست نابعةً منّا، إنّها قداسة المسيح الَّذي «أحبّ الكنيسة» والَّذي «أسلم نفسَه لأجلها... لكي يحضِّرها لنفسه كنيسةً مجيدةً لا دنس فيها» (أفسس ٥: ٢٥-٢٧).

٢٨١. جُلّ ما نبتغيه هو أن تُصبح الجماعة المؤمنة جماعةً إفخارستيّةً-قربانيّةً، إذ إنّ القدّاس لا ينتهي داخل الكنيسة بل يتواصل في مشروعٍ قربانيٍّ أي تقديم الذّات يوميًّا للآب، والحركة في هذا تساهم مع المسيح في رسالته التّقديسيّة: «كرِّسهم بالحقّ» (يوحنّا ١٧: ١٧، ١٩) وأبناؤها بدورهم ملتزمون في مشروع تقديس المجتمع.

٢٨٢. **الإفخارستيّا هي اعتراف**: الاعتراف بأنّ الله يرغب في أن يدخل في صلةٍ حميميّةٍ معنا وقد بُنينا لندخلَ ليس في شركةٍ مع الله فحسب، بل في شركةٍ مع الآخرين أيضًا، ذلك أنّ كلّ مَن يأكل من الخبز الواحد، ويشرب من الكأس الواحدة، لا يمكن إلاّ أن يكون واحدًا مع الآخرين، فنؤلِّف معًا جماعة المؤمنين.

٢٨٣. يسوع حاضرٌ بشكلٍ ملموسٍ داخل الكنيسة في مسيرتها نحو الملكوت؛ يعضد كلّ مَن يحمل بشارة الكلمة؛ يوجِّه كلّ مستقبل الكنيسة نحو هدفه وقمّته، أي نحو مجيء يسوع بالمجد وعندما يقوم الموتى كلّهم ويتم الحساب الأخير؛ هذا ما نسمّيه أنّ القربان يقودنا جميعًا نحو الرّجاء الَّذي لا يخيب.

٢٨٤. رسالتي لكم: في كلّ مرّةٍ نأتي فيها إلى الكنيسة علينا أن نتذكّر أنّ الكنيسة المنشودة ليست كنيسة الحجر، **إنّما كنيسة البشَر. إنّها الكنيسة القلبيّة، الكنيسة الدّاخليّة**. المسيح يُريد أن يلتقيَ بنا لا بحجارتنا ولا بثُريّاتنا ولا بأعمدتنا ولا بأجراسنا، إنّه يريدُ أن يلتقيَ بنا في قلوبنا، كنيسة اللّقاء الشّخصيّ.

٢٨٥. المسيح يُريد أن يبني في قلوبنا كنيسته الَّتي لم تصنعها يدُ إنسانٍ، ويريدُ أن تتحوّل عائلاتنا إلى كنائس، وتتحوّل بيوتنا إلى مزاراتٍ مُقدّسةٍ يزورها المسيح ليس مرّةً واحدةً كلَّ مئة عام وإنّما في كلّ لحظةٍ لأنّه حاضرٌ دومًا معنا كما وعدنا بعد قيامته: «هاءنذا معكم كلّ الأيّام إلى انقضاء الدّهر» (متّى ٢٨: ٢٠).

٨) اللّاهوت اللّيتورجيّ

٢٨٦. اللّيتورجيّا، إنّها «**مدرسةٌ تربويّةٌ**»، يتعلّم المؤمن من خلالها، وبكلِّ ما تحمل من كلماتٍ ومعانٍ وحركاتٍ وفنونٍ، وبفعل الرّوح القدس، الإيمان، ويتمَّرس عليه، فتنمو وتتطوَّر عبر العصور لتعلن حقيقته، وتعيشه في حضارة كلِّ زمانٍ ومكانٍ دون أن ترتهن لها.

٢٨٧. تأخذ اللّيتورجيّا المقدّسة مواضيعها من «تاريخ الخلاص» الممتدّ من بداية الزّمان، حيث أبدع الله الإنسان وكرّس له الخليقة بأسرها وسيّده عليها، حتّى نهايته، حيث المجيء الثّاني للمسيح. وتستمرُّ أيضًا خلال زمن الأبديّة تسبيحًا وتمجيدًا لله القدُّوس.

٢٨٨. إنّ ليتورجيا الأرض هي نافذة السّماء، الّتي يُلغى فيها الزّمن. فتصبح المعاني، بكلِّ ما تحمل من أحداثٍ ورموزٍ وفنونٍ، زمنًا جديدًا، لا ينتسب إلى رتابة تدفّق التّاريخ، بل يمتدُّ متواصلاً في تاريخ الخلاص، بعهديه القديم والجديد وتاريخ الكنيسة المقدَّس وتقليدها الحيّ، لأنّه دخل عهد الأبديّة.

٢٨٩. فتتأوَّن هذه المعاني في كلّ عملٍ ليتورجيٍّ سواء كان رتبةً أم عيدًا، أيقونةً أم نشيدًا. وبالمعنى ذاته، يتبعثر المكان. فينفتح على الكون بأسره دون أن ينتسب إليه. وإذا انتسب، ليستفيد من مواده فقط. ويصبح مكان الخدمة اللّيتورجيّة المقدَّسة (الكنيسة عمومًا) **سفارة الملكوت العتيد**. فيتذوَّق المؤمن من خلال ذلك كلِّه، إطلالةً، ولو غير مكتملةٍ، للخلاص المحقَّق والمكتمل في شخص يسوع المسيح، الحيّ دائمًا. بانتظار ملء الأزمنة، حيث يستمرّ لحن المعيّدين الّذي لا يفتر، ولا تزول صورة جمال القدّوس، **إنّه زمن الملكوت!**

٢٩٠. إنّ التّعصّب والتّطرّف الدّينيّ، الّذي يُظهر غَيرةً عمياء في التّمسّك بالطّقوس والعادات والتّقاليد وشتّى الأشكال الخارجيّة لحياة الكنيسة، لا يمكنه إلاّ أن يُحوّل احتفالاتنا اللّيتورجيّة الكنسيّة إلى عبادة أصنامٍ تُشوِّه مفهوم عبادة الله «بالرّوح والحقّ».

٢٩١. في كثيرٍ من الأوقات نعلّق على القانون، على اللّيتورجيّا، على الطّقوس والشّعائر الدّينيّة... وهذا يقول إنّ الإنسان الفارغ من الإيمان بيسوع المسيح هو الإنسان الّذي يعتقد أنّ يسوع المسيح موجودٌ في روبريكا من روبريكات اللّيتورجيّا. «العبادة لله لا تكون على هذا الجبل ولا في أورشليم، إنّما بالرّوح والحقّ». إذًا، عبادتنا وطقوسنا وشعائرنا وليتروجيّتنا، الّتي هي حياةٌ وليست حجارةً صمّاء، إذا اقترنت بعبادة الله بالرّوح والحق يصبح احتفالنا اللّيتورجيّ احتفالاً حقيقيًّا يعبّر عن إيمانٍ حيٍّ وحقيقيٍّ.

٢٩٢. اللّيتورجيّا هي غير الطّقوس. الطّقوس هي وسائل وتعابير لإحياء اللّيتورجيّا. اللّيتورجيّا هي تبادل العالم مع الله في «علاقةٍ إفخارستيّةٍ»! لذلك، إذا كانت كلمة ليتورجيّا بالأصل اللّغويّ اليونانيّ للكلمة يعني «عمل الشّعب»، فهذا يريد أن يقول، كما أنّ «عمل الله» كان وما زال الخلق والمحبّة، فإنّ «عمل الشّعب» هو استخدام عطيّة الله في شكرٍ-إفخارستيٍّ. اللّيتورجيّا هي طريقة عملٍ وحياةٍ تعني أن يقبل الإنسان العالمَ والكونَ إيجابيًّا من الله.

٢٩٣. بحياة الصّلاة اللّيتورجيّة بكلّ أبعادها (اللّيتورجيّا الإفخارستيّة، صلوات السّاعات، السَّحر، الغروب، النّوم الصّغرى وصلاة نصف اللّيل) يتحقّق ازدهار نعمة بنوّتنا لله: إنّ حياتنا الصّلاتيّة يجب أن تتبنّى حركة اللّيتورجيّا نفسها الّتي تَعبُربنا من الموت إلى الحياة، من الخوف إلى المحبّة، من النِّير إلى الخدمة، ومن عبوديّة الأهواء إلى مجد حريّة أبناء الله.

٢٩٤. ينبغي تحرير ليتورجيّا الكنيسة من «برنامج الخِدَم» المبتَذَل لتصير مجدَّدًا ما هي إيّاه: تقديس الزّمان وبه كلّ الحياة، بحضور المسيح. وحدها هذه اللّيتورجيّا لا تقسِّم حياة المسيحيّ إلى حياتين، واحدةٌ «مكرّسةٌ» وأخرى «نجِسةٌ»، بل تتجلّى الواحدة في الأخرى، جاعلةً الوجود بمجمله اعترافًا بالمسيح. فالمسيح لم يأتِ لكي نجعل حضوره رمزًا بل لكي يحوّل العالم ويخلّصه بحضوره.

٢٩٥. علينا أن نفهم أنّ ليتورجيّا الكنيسة واقعيّةٌ بشكلٍ عميقٍ، أنّ لصلاة الغروب إلفَةً حقيقيّةً مع هذا المساء المحدَّد: هذا هو المساء الّذي علينا أن نقضيه «كاملاً مقدَّسًا سلاميًّا وبلا خطيئة»، هذا هو المساء الّذي علينا أن نقدِّمه ونكرّسه لله، وهذا هو المساء الّذي أُنيرلنا بنورٍ مسائيٍّ آخر، ببلوغٍ آخر ننتظره، وفي الوقت نفسه، نخشاه، وهو يدنو في زمننا البشريّ. في اللّيتورجيّا، نكتشف كم تحترم الكنيسة الزّمن والطّعام والرّاحة وكلّ الأعمال، كلّ تفاصيل حياتنا. في العالم الّذي صار فيه الله إنسانًا، لا يمكن عزل أيّ شيءٍ عنه.

٢٩٦. إنّ اللّيتورجيّا تبلغ إلى هدفها المنشود والمُبتغى، إلى مبادلة حياة، إلى شركةٍ واتّحادٍ بين الإنسان والله. هذا وتُعطينا اللّيتورجيّا المسيح الكامل، ملء المسيح (راجع أفسس ٤: ١٣)، في ثلاثة مجالاتٍ أو صُعدٍ هي:

١. **الصّعيد السّماويّ أو اللّيتورجيّا السّماويّة** أو الإلهيّة في إشارةٍ إلى أنّ اللّيتورجيّا هي في جوهرها المسيح الإله في وضع المجد السّماويّ، جالسًا عن يمين الآب «المسيح الظّافر» (رؤيا ٥)؛
٢. **الصّعيد الكنسيّ أو اللّيتورجيّا الكنسيّة**. إنّها تهدف إلى تحويل الزّمان والمكان إلى المسيح. ففي اللّيتورجيّا الافخارستيّة خاصّةً تنشأ الكنيسة في وسط العالم ويُقدِّس الكون ويؤلّه الإنسان؛
٣. **الصّعيد الدّاخليّ أو اللّيتورجيّا الدّاخليّة القلبيّة**. إنّها تهدف إلى تحويل الإنسان من كائنٍ حيوانيٍّ إلى كائنٍ ليتورجيٍّ. فقد كانت اللّيتورجيّا تُقام على المذبح أو المذبح المتنقّل (الأنديمنسيون) قوامه بقايا الشّهداء. وهذا يعني أنّ المذبح الحقيقيّ إنّما هو الإنسان: إنّه المذبح القلبيّ: «يا بُنيّ، أعطني قلبك» (أمثال ٢٣: ٢٦).

٢٩٧. إنّ طريقة التّعبير عن التّقوى خارج اللّيتورجيّا هي طريقةٌ فرديّة. لكنّ اللّيتورجيّا تعبّر عن عبادة الكنيسة كلّها مع بعضها البعض كجماعةٍ للمؤمنين وليست عملاً فرديًّا لكلّ مؤمنٍ تجاه الله أو حتّى الكنيسة.

٢٩٨. لا يعرف التّقليد البيزنطيّ «قدّاسًا شخصيًّا». «كما أنّه لا يعرف ممارسة «السّجود للقربان» كما في الغرب لأنّ العبادة ليست تقوًى شخصيّةً أبدًا، بل هي حدث تقديم شركة القدّيسين للعالم إلى الله. إلاّ أنّ كنيستنا الملكيّة الكاثوليكيّة أدخلت إلى ليتورجيّتها رُتبة زياح القربان المقدّس، ممّا يُشير بكلّ وضوحٍ إلى انفتاح هذه الكنيسة على التّقاليد اللّيتورجيّة والتّعبُّديّة الخاصّة بالكنائس الأخرى، وذلك بهدف منفعة المؤمنين الرّوحيّة.

٢٩٩. لا تعرف الكنيسة البيزنطيّة «سجودًا للقربان» لكنّها تتميّز «بالسّجدات الغُفرانيّة» الّتي يقوم بها المؤمنون، وبخاصّةٍ في زمن الصّوم الكبير، أي الصّوم الأربعينيّ المقدّس. إنّها سجداتٌ روحيّةٌ أكثر منها جسديّة. في إحناء رُكَبِنا نتّخذ موقف التّواضع أمام الله الّذي نتقدّم إليه بالرّكوع، ومن ثمّ، بملامسة الأرض بجبيننا، نحن نعترف بقابليّة الخطيئة عندنا. نخلق صورةً حيّةً عن سقوطنا في الخطيئة. إنّ وضعيّتنا الفعليّة تمثّل اعترافًا بتلك الحالة، استذكارًا في الفكر لفقرنا، وقابليّتنا لأهواء التّكبّر والغضب والخبث.

٣٠٠. إنّ السّجدات تصوّر سقوط الإنسان في الخطيئة وتعبّر عن الاعتراف بقابليّتنا للخطيئة. من جهة أخرى، النّهوض يعني التّوبة والوعد بحياة الفضيلة. فليترافق مع كلّ سجدةٍ استدعاءٌ ذهنيٌّ (نوسيّ) للمسيح، حتّى متى نزلنا أمام السّيّد بالنّفس والجسد نكتسب نعمة إله الأرواح والأجساد.

٣٠١. عندما نقف على قدمينا، يصير هذا الاعتراف المزدوج، بالمسيح وبخطيئتنا، رمزًا جسديًّا ووعدًا فعليًّا بأنّ التّغيير سوف يتمّ في حياتنا. نحن نلتزم بالتّوبة، بالتّحوّل من آدم القديم إلى آدم الجديد. التّحوّل الدّاخليّ المُعَبَّر عنه بهذه الحركة بالطّبع لا يأتي كنتيجةٍ لسجداتنا، ولا حتّى كنتيجةٍ لقرارنا بالتّوبة. كمثل كلّ أوجه حياتنا المسيحيّة، هذا التّحوّل – أي القدرة على العمل على التزامنا – هو عطيّة النّعمة الّتي تأتي «من فوق، من لَدُن أبي الأنوار» (يعقوب ١: ١٧).

٣٠٢. إنّ حركة الجسم في السّجدات الصّغرى والكبرى ربما تُساعد في جعل الصّلاة أكثر حرارةً، وتُقدّم تعبيرًا خارجيًّا عن خضوعنا وتواضعنا أمام الله. كما أنّها تطبيقٌ للوصيّة الرّسوليّة بأن نُمجّد الله بنفوسنا وأجسادنا: «مجّدوا الله في أجسادكم وأرواحكم، لأنّها لله» (راجع ١ كورنثس الأولى ٦: ٢٠).

٣٠٣. القربان ليس موضوعًا للتأمّل الفرديّ. القربان الإلهيّ هو حدثٌ يحقِّق شركة القدّيسين كجسدٍ للمسيح حيّ. ليست اللّيتورجيّا، وخاصّةً سرّ الشّكر، لحظاتٍ نستمدّ منها قوّةً لحياتنا اليوميّة وحسب، إنّما هي حدثٌ يُحيي شركة النّاس ببعضهم ويُصلح الرّوابط ويعيد بنيتها الصّحيحة.

٣٠٤. يقودنا الوعظ والتّعليم إلى إدراك أهميّة أن نكون «شركةً ليتورجيّةً» ويجعلنا نمارس هذه الحياة اللّيتورجيّة الّتي تجعل «التَّجلّي» حدثًا دائمًا وتخمّر بالنّعمة العجين كلّه.

٣٠٥. الكنيسة تسير إلى المذبح وليس إلى المنبر، هذا الأخير يشير إلى الأوّل. الاجتماعات جيّدةً ولكنّ اللّيتورجيّا هي الاجتماع الحقيقيّ.

٩) الفرّيسيّة المسيحيّة والأصوليّة الكنسيّة

٣٠٦. الكثيرون منّا يُطالبون الكنيسة بالقيام بواجباتها تجاههم وحفظها تمامًا، ويتناسَون بالمقابل واجباتهم تجاه الكنيسة. فهم قادرون على أن يطالبوا الكنيسة بحقوقهم كاملةً، وعندما تطلب الكنيسة حقوقها، تصبح كنيسةً لا تعرف التّسامح والمحبّة والمغفرة. فهل يا إخوتي وأخواتي أصبحنا نعيش في زمنٍ تبدلّت فيه المفاهيم والمصطلحات؟

٣٠٧. تؤدّي الفرّيسيّة والأصوليّة بالإنسان الّذي يقتنيهما إلى الكبرياء وضعف الإيمان ونكران الجميل ورفض كافّة الإصلاحات الطّقسيّة واللّيتورجيّة الّتي تقوم بها الكنيسة، بحجّة أنّه يُحافظ على الأصول والجذور، وأنّه الوحيد الّذي يُحافظ على تقاليد الكنيسة القديمة العهد.

٣٠٨. إنّ الفرّيسيّة المسيحيّة أو الأصوليّة الكنسيّة، الّتي لطالما حاربها المسيح علنًا لتحجّرها وسطحيّتها وعدم منفعتها في خلاص الإنسان، بقدرما تزيد على كاهله أحمالاً وأوزانًا ثقيلة (راجع متّى ٢٣)، تخدم مصالح إبليس من خلال الرّغبة في التّفرقة وجلب الاضطراب والخِصام إلى داخل الرّعيّة والحركات الرّسوليّة وكافّة النّشاطات الرّعويّة الأخرى. إنّها الدّاء الخبيث الّذي يجب استئصاله من قلوب المؤمنين وفكرهم، ليكونوا «**أبناء الكنيسة**» وليسوا «أبناء الفرّيسيّة والأصوليّة» الّتي تُدمّر الرّوح الكنسيّة وتُضعف الإيمان.

٣٠٩. الفرّيسيّ أو الأصوليّ هو الإنسان الفارغ روحيًّا واجتماعيًّا، وقلبه ممتلئٌ رئاءً وخبثًا. يظنّ نفسه عالمًا بكلّ شيءٍ، حتّى في الأمور الّتي يجهلها. إلاّ أنّ أنانيّته المُظلمة وكبرياءه الأعمى يقودانه لأن يُفكّر نفسه شيئًا؛ بمعنى آخر، يُفكّر نفسه رُكنًا من أركان الكنيسة، وأنّ خسارته هي خسارةٌ لكلّ الكنيسة. يقول القدّيس بولس الرّسول: «**فإنّه إنْ ظنّ أحدٌ أنّه شيءٌ وهو ليس بشيءٍ، فقد غَرّ نفسه**» (غلاطية ٦: ٣).

٣١٠. التّعارض الخاطئ بين النّطاقين الرّوحيّ والمادّيّ في الكنيسة. «ليهتم الكاهن بالرّوحانيّات ونحن، العلمانيّون، سنهتم بالأمور المادّيّة». نحن نؤمن بتجسّد ابن الله. لقد اتّخذ جسدًا حتّى يؤلّه الطّبيعة المادّيّة بكاملها، ليجعل كلّ الأشياء ذات معنًى روحيٍّ ومتّصلةٍ بالله. كلّ ما نفعله في الكنيسة هو دائمًا روحيّ ومادّيّ. **نحن نبني كنيسةً مادّيّةً لكنّ الهدف روحيٌّ**. كيف يمكن فصل أحدهما عن الآخر؟ نحن نجمع المال، ولكن حتّى نستعمله من أجل المسيح.

٣١١. يعتقد البعض أنّ التّذمّر هو موضوع حديثٍ شيّقٍ يُضفي جوًّا من الإثارة على اللّقاء بين الأصدقاء، ويُحسِّن العلاقات ويُقرِّب النّاس بعضهم من بعضٍ. وهكذا يتجاوب الآخرون بالمشاركة بالتّذمّر لكي ينالوا إعجاب الشّخص المتذمّر ورضاه. لكن، غاب عنهم ما قاله القدّيس يعقوب في رسالته: «**لا تتذمّروا لئلاّ تُدانوا**» (٥: ٩).

٣١٢. **الشّكليّة** هي التّديّن بدون روح، أي التّمسّك الشّديد بالاشكال الخارجيّة والسّطحيّة؛ **الاكتفائيّة** هي المسيحيّة الفاترة لِما يناسب راحتنا واهتماماتنا الذّاتيّة. الاسميّة هي أن تكون مسيحيًّا بالإسم فقط. خدعةٌ هائلةٌ؛ **الدّهريّة** هي عبادة آلهة هذا العالم كالشّهرة، الرّبح، السّلطة، واللّذة؛ **الأصالة** تعني أن أسمح للمسيح بأن يحوّل حياتيَ الشّخصيّة إلى عليقةٍ محترقةٍ بنعمة الله وقداسته ونوره.

٣١٣. **الفكرة الخاطئة لملكيّة الكنيسة**. «إنّها كنيستنا لأنّنا اشتريناها أو شيّدناها... إنّها لعائلتنا الّتي تبرّعت بالأرض لبنائها أو لعائلتنا الّتي ساهمت ماديًّا في بنائها...». لا، وألف لا، إنّها ليست أبدًا كنيستنا لأنّنا كرّسناها لله، أي أعطيناها له. الكنيسة ليست ملكًا للإكليروس أو العلمانيّين، كونها بالفعل ملكيّةً مقدّسةً لله نفسه. **إنّه هو المالك الحقيقيّ**. وإذا كنّا نستطيع أن نتّخذ قراراتٍ تخصّ هذه الملكيّة، ويجب علينا هذا، يجب أن تنسجم هذه القرارات مع مشيئة الله. وهنا من جديدٍ، إنّ على الإكليروس والعلمانيّين أن يتحلّوا بالمبادرة والمَسؤوليّة لمعرفة مشيئة الله. الأمر ذاته ينطبق على مال الكنيسة وبيوتها وكلّ ممتلكاتها.

٣١٤. التّذمّرُ هو عدوٌّ لدودٌ لحياة الجماعة. ولعلّه عدوّ الجماعة الأوّل. والشّخصُ الّذي يتذمّرُ باستمرارٍ هو لعنةٌ على نفسه والّذين حوله. وقد يكونُ التّذمُّرُ علامةَ جهلٍ، لأنّ الّذي يَعلمُ عواقِبَ التّذمّر المدمِّرة، قد لا يتذمّرُ مُطلقًا! لكنّ المتذمِّرَ يجهلُ نتائجَ تذمُّرِهِ لأنّ انتباهَه مُنصَبٌّ على إفراغ عدائيّته والتّعبير عن عدم رضاه.

• صلاة

هذا بيتُكَ يا إلهي، هُنا يحلو لنا أن نمكُثَ ونستذكر صنيعَك من أجلِنا. هُنا نجِدك مُنتظرًا دُخولنا، فترحّب بنا بقربانكِ ونبيذكَ؛ بجسدِكَ ودمكَ. إلهي المُمجّد، نحنُ أهل بيتك احفظنا في سترِكَ، أنت ترسنا وأنتَ راعينا. أنت هو مَن يُبطِلُ مكائد الشّيطان وخططهِ لدخول بيتك. باسمِك نُصلّي من أجل رعيّة هذه الكنيسة، ومِن أجل أن تتمجّد في وسطهم. كلّلنا بحمايتك.

آمين

الباب السّادس

روحانيّة الإنسان المسيحيّ

يعرضُ هذا الباب ذريات الحياة الرّوحانيّة المُفعمة بالإيمان الحيّ القائم على استراتيجيّة بناءٍ مستمرّة بقيادة الله للإنسان. وهو عرضٌ لكيفيّة وصول الإنسان إلى اختبارٍ روحيٍّ نابضٍ بالحياة المقدّسة وخاضعٍ للفضائل الرّوحيّة.

١) الرّوحانيّة، اشتراكٌ في حياة الرّوح القدس

٣١٥. الرّوحانيّة هي حياةٌ وجهادٌ في الرّوح القدس، وهي تتماهى مع كامل حياة الكنيسة الّتي، كجسدٍ، ضمن تقليدها يتجنّد الإنسان لينشد الخلاص.

٣١٦. على «الإنسان الرّوحانيّ» ألّا ينشغل بالأمور الدّنيا من الكون ولكن بحقيقته، أي أن يتعامل معه «لاهوتيًّا» كعلاقةٍ مع الله تجعله يتعاطى مع الكون بمسؤوليّة الرّاعي. وهكذا الإنسان مدعوٌّ ليصير بالنّعمة ما هو الله بالطّبيعة، فتنتقل حياته من حياةٍ بحسب اللّحم والدّم - البشرة إلى حياةٍ بالرّوح.

٣١٧. **الإنسان عطشان**. وهو يبحث عن الماء حيث يظنّ أنّه سيجده، وخلال تجواله وتيهانه من دون أُفقٍ ولا مفرّ، تراه كلّما ضرب خيمته في موضعٍ، يحفر بئرًا. والعجيب أنّ تاريخ خلاصه يبدأ دائمًا من هنا. كلّ واحدٍ يشيّد قرب بئره هيكلاً لإلهه: دينِه، أيديولوجيّتِه، مالِه، سلطانِه... ومع هذا كلّه، يبقى الإنسان كائنًا عَطِشًا، لذلك فهو يحفر حيث يظنّ أنّه سيجد الماء.

٣١٨. **التّصحُّر الرّوحيّ** هو علامة الجفاف الرّوحيّ الّذي يُحوِّل قلب الإنسان إلى صحراء قاحلةٍ؛ وفي هذه الصّحراء المُقفرة، يبدأ الإنسان التّائه والضّائع، بالبحث عن الماء الّذي يُبقيه على قيد الحياة لفترةٍ زمنيّةٍ أطول، إلاّ أنّه لا يجد في ضياعه هذا إلاّ ماءً ضحلاً غير نقيٍّ، إنّه ماء حبّ السّلطة وعبوديّة المال وأسر السّعادة الدّنيويّة القائمة على إرضاء الجسد بأهوائه وشهواته وملذّاته، متناسيًا في بحثه هذا عن أنّ الماء الحيّ الّذي يُزهر صحراءه هو يسوع المسيح، ربيع النّفس الحقيقيّ، الّذي بمقدوره وحده أن يهب الإنسان نوعيّة الحياة المنشودة (يوحنّا ١٠: ١٠).

٣١٩. إنّ الله هو الّذي يحرِّر حرّيّتنا من عطش السّلطة والتّملُّك، ويجعلها قادرةً على الانفتاح على البُعد الّذي يعطيها معناها الكامل: عطاء الذّات، المحبّة.

٣٢٠. حقيقة كيان الإنسان هي كيان حبٍّ.

٣٢١. لأنّنا نفتقر إلى الرّوحانيّة الحقيقيّة لا نستطيع أن نعطي عملاً روحيًّا (فاقد الشّيء لا يعطيه). فاقد الرّوح لا يقدِّم عملاً روحيًّا. أن نقرأ ذواتِنا فهذا شيءٌ مهمٌّ، لماذا؟ لكي ندرك أن الله هو كلّ شيءٍ وليس نحن، هو الّذي يملأ كلّ شيءٍ؛ يعطينا من امتلائه لكي نتمتلئ.

٣٢٢. علينا أن نتخطّى المادّة والحرف لنصِل إلى البُعد الدّاخليّ والرّوحيّ، إلى «شريعة الرّوح»، وإلى المضمون اللّاهوتيّ في كلمة الله في حياتنا.

٣٢٣. نقرأ الإنجيل وكأنّ حروفه حروفٌ ميّتةٌ لا تعني لنا شيئًا. في الحقيقة الحُروف هي حروفٌ ميّتةٌ ولكنّ إيماني بيسوع المسيح (أي الإيمان الحَي والمُعاش) يجعل من الحُروف الميّتة مسلكيّةَ حياةٍ تُعطيني حياةً جديدةً تفيض بالرّوح والفرح والبُعد الرّوحيّ الّذي هو خاصٌّ لحياتي.

٣٢٤. الحياة المسيحيّة ليست مجرّد خضوعٍ لوصايا وشرائع تُفرَض على الإنسان من الخارج، إنّما تنبع من داخل قلب الإنسان، بعد أن يتجدّد بنعمة يسوع المسيح ويمتلئ من روحه القدّوس. كُنْ أنت ذلك الإنسان الّذي يسلك بحسب الرّوح، كما قال بولس الرّسول: «إنْ كنّا نحيا بالرّوح، فلنسلكنّ أيضًا بحسب الرّوح» (غلاطية ٥: ٢٥).

٣٢٥. إنّ المسكين بالرّوح هو المتواضع برأيه، والّذي يدافع عنه دون تعصّبٍ أعمًى، ويتوكّل على الرّبّ التّوكّل الرّوحيّ. المسكين بالرّوح هو الّذي يطرح عنه كلّ الاهتمامات الدّنيويّة والكبرياء وهو الّذي يعيش زمانًا هادئًا برفقة الرّبّ يسوع.

٣٢٦. روحانيّة المؤمن هي روحانيّةٌ مريميّةٌ بالصّلاة (صلوات المدائح والباراكليسي وصلاة المسبحة الورديّة)، روحانيّةٌ مريميّةٌ بعيش بساطة النّاصرة على المستوى الفرديّ والعائليّ والرّعويّ. روحانيّةٌ مريميّةٌ بعمقها: «تحفظ كلّ شيءٍ وتتأمّل به في قلبها». روحانيّةٌ مريميّةٌ للنُّموّ الدّائم في المسيح والاتّحاد به، مقياسها هو المسيح.

٢) المسيحيّ بين دعوتِهِ الإلهيّةِ وواقعِهِ البشريّ

٣٢٧. قبل السّقوط، خلق الله الإنسان، **ملكًا وكاهنًا ونبيًّا**. ملكًا على الخليقة كلّها ووكيلاً، وشريكًا في الخلق، وكاهنًا يُمجِّد الله ويُقدِّم الخليقة كلّها لها ونبيًّا يُنبئ بمشيئة الله وإرادته.

٣٢٨. بعد السّقوط، صار على الإنسان العبور على الطّريق النّسكيّ - نعم، النّسك، في العمق، هو للجميع – وذلك ليبلغ بالإنسان إلى الخلاص، وليصير حاملاً للرّوح القدس، جاعلاً إيّاه أيقونةً للإله-الإنسان، ربّنا يسوع المسيح.

٣٢٩. بما أنّ الإنسان صورة الله فهو كائنٌ شخصيٌّ موضوعٌ أمام إلهٍ شخصيّ. يتوجّه الله إليه كشخص، والإنسان يُجيبه.

٣٣٠. الإنسان هو **كائنٌ شِركويٌّ**، أي أنّه يعيش مع الآخر، للآخر ومن أجل الآخر.

٣٣١. الإنسان البارّ هو الإنسان الّذي يطلب وجه يسوع المسيح، في كلّ الأحوال، في كلّ قولٍ، في كلّ فكرٍ، وفي كلّ فعلٍ. لا يعمل شيئًا، على الإطلاق، إلاّ في الله؛ ولا يأتي شيئًا، على الإطلاق، إلاّ من أجل الرّبّ يسوع المسيح، للشّهادة له، ولتمجيد اسمه القدّوس.

٣٣٢. لحسنِ الحظِّ أولسوئه، لقد اختارَنا المسيحُ كي نكونَ رموزًا له في هذا العالم. فالعالمُ الَّذي يتساءلُ إذا كان اللهُ قد مات «وهي مقولةُ الفيلسوف الملحد نيتشه»، والَّذي يسألُ عمَّن هو المسيح، لن يَجِدَ له جوابًا إلاّ في حياةِ المسيحيّ. لخيرِنا أولويلِنا، إنّنا المسيحُ في العالم.

٣٣٣. يبني المؤمنُ حياته المسيحيّة أوّلاً من التّعليم، أي من اطّلاعه على الإنجيل واستماعه للوَعظ. لكنّ عيش المسيحيّة الَّتي اكتشفها يحتاج إلى تدريبٍ لكي يصل إلى إيمانٍ، أي إلى كُشُوفات الإيمان و معاينة اختباراتٍ مع الله. هكذا يغدو المؤمن بدل مواطنٍ أرضيٍّ سائحًا سماويًّا - صاعدًا نحو المدينة السّماويّة (فيلبّي ٣: ٢٠).

٣٣٤. الإنسان المُخلِص للمسيح يصارع طبيعته الأنانيّة من خلال الحرمان الطّوعيّ والتّعهُّد التَّلقائيّ لضبط الجسد لكي يصل إلى التّحرُّر الخارجيّ.

٣٣٥. يستقيل الإنسان من نزعة الخضوع لكلّ شيءٍ ويتعلّم محبّة العالم وتحقيق وحدته معه وكشف ختم قوّة الله الخلاّقة في كلّ مخلوقٍ بذاته، واستعمال العالم بطريقةٍ تُرضي الله، كليتورجيّا مستمرّةٍ وإشارةٍ إلى الله. من خلال التّجارب والصّعوبات، وهي تمرينٌ روحيٌّ، يصل الإنسان إلى الشّركة الأصيلة حيث تصبح الحياة تجاوزًا ذاتيًّا للمحبّة.

٣٣٦. لقد بكى المسيح مرتَين: الأولى، عند قبرلعازر، بكى على الموت الّذي سقط فيه الإنسان بخطيئته (راجع يوحنّا ١١: ٣٥)؛ والثّانية، على أورشليم الَّتي تقتل الأنبياء وترجم مرسلي الله (راجع لوقا ١٩: ٤١). واليوم يبكي المسيح في كلّ لحظةٍ على الإنسان الّذي تحالف وتعاهد مع إبليس وملائكته وكأنّ دم المسيح ذهب هدرًا ورُخصًا. يا ألله اغفرلنا نحن الخطأة وارحمنا.

٣٣٧. لقد أصبحنا في بُعدٍ مُظلِمٍ عن واقعِ مسيحِنا وخوفُنا يعبِّرُ فقط عن بُعدِنا ويجب على البعيدين عن المسيح حتّى من المسيحيّين أن يؤمنوا بالمسيح ويعرِفوه معرفةً شخصيّةً. إلى متى سنبقى في غربةٍ عن إيمانِنا؟ حتّى متّى سنُدنِّسُ مسيحيَّتنا؟ حبّذا لو نُصغي بكلّ قلوبِنا إلى هذه الرّسالة الَّتي تُخيفُ الإنسان الّذي لا يعرف المسيح، أمّا الّذي يعرفه ويؤمن به، فلا سبب للخوف والاضطراب، بل للفرح والرّجاء والقيامة.

٣٣٨. يقول السّيّد المسيح في الإنجيل المقدّس: «ليس كلّ مَن يقول لي يا ربّ يا ربّ، يدخل ملكوت السّماوات» (متّى ٧: ٢١). إلى متى سنبقى مستهترين بمسيحيّتنا، نفهمها كما يحلولنا ونريد أن نعيشها كما نريد نحن: «سيروا في النّور لأنّكم أبناء النّور» (يوحنّا ١٢: ٣٥) وإلا ستبقَون أبناء الظّلمة والموت.

٣٣٩. لا يُمكن أن أكون مسيحيًّا دون السّير مع الله حتّى نحو المجهول. مع العلم أنّ هذا المجهول لا يكونُ مجهولاً مع الله، إذ إنّه يتحوّل ليكون طريقًا واعدةً ونيّرةً نصِلُ من خلالها إلى القداسة الَّتي دعانا إليها الله.

٣٤٠. أن تكون مسيحيًّا حقيقيًّا فهذا يعني أن تخلع عن روحك، نفسك وجسدك خصال الإنسان «العتيق»، أن تمزِّق الثّياب الّتي لبستها في الخطيئة، وأن تخيط، يومًا بعد يومٍ، الثّياب البيضاء الجديدة المجيدة، الّتي للإنسان «الجديد»، لآدم الجديد، الّذي هو يسوع المسيح، ربّنا وإلهنا وخالقنا، الّذي ننتظره ونتوق إليه ونطيعه في الحبّ، في محبّته هو، المحبّة ذات الطّابع السّماويّ، وليس في ممارسة الأهواء البشريّة المسمَّاة محبّة، إذ المحبّة قد شُوِّهَت في الإنسان.

٣٤١. التّكاسُل يُميت الحياة الرّوحيّة في الإنسان، لا بل يُميت الله في الإنسان. إذا تركنا التّكاسُل يأخذ مجراهُ في حياتنا فنحن نخسر حلاوة الإيمان، حلاوة اللّقاء مع الحبيب يسوع. فإنّنا بهذا نعيش إيمانًا ناموسيًّا، أي أنّنا نتوقّف عند أبعاد النّاموس.

٣٤٢. لا نُريدُكم أن تُمجّدوا الله بأفواهكم فقط، ولا أن تُمجّدوا الله بأقوالكم فقط، نريدكم أن تمجّدوا الله أيضًا في أعمالكم ونيّاتكم ولسانكم الدّافئ ومحبّتكم الدّافئة وفي احتضانكم للإنسان الآخر، وفي اقتبالكم للإنسان الآخر. إذا لم نبنِ مُجتمعًا مسيحيًّا جديدًا، فإنّ مسيحيّتنا في هذه البلاد سُرعان ما تزول بما أنّنا مجتمعٌ يأكل بعضه بعضًا.

٣٤٣. نوعان من الأحاسيس يهزّان الاطمئنان الدّاخليّ والتّناغم، ويقودان، بالتّالي، إلى فقدان التّركيز الرّوحيّ، هما الغضب والشّهوة الجسديّة. ينصح القدّيس مكسيموس المعترف: «لا تُلوّث فكرك بالتّشبّث بأفكارٍ مليئةٍ بالغضب أو الشّهوة الجسديّة، وإلاّ ستخسر قدرتك على الصّلاة النّقيّة وتقع ضحيّة شيطان الفتور».

٣٤٤. إنّ إنكار قوّة التّقوى هو الفتور الّذي يحوّل الكنيسة إلى نُسقٍ نمطيٍّ معهودٍ (أي روتين)، ويُخضع كلّ شيءٍ فيها للعقلانيّة، ويركّز على فضائل الجسد بدلاً من فضائل الرّوح، ويكتفي بالانشغال بالنّاس بدلاً من الانشغال بالله. باختصارٍ، **الفتور الرّوحيّ هو تعاطي القداسة من الخارج لا من الدّاخل**.

٣٤٥. بولس الرّسول لم يكُن شاهدًا على صلب المسيح، إنّما اختباره مع المسيح القائم لم يجعله قادرًا إلّا على أن يرى المسيح المصلوب أوّلاً ثمّ أن يرى المسيح القائم. كذلك الأمر معنا، نحن لا نستطيع أن نرى المسيح القائم دون أن نرى المسيح المصلوب وأن تتحوّل حياتنا إلى صليب. عندما يُزرع عود الصّليب في حياتنا وقلوبنا فإنّه يزهر ويعطي ثمارًا بفضل الدّم والماء اللّذان خرجا من جنب المسيح.

٣٤٦. الله في داخلنا، ولكن نحن في كثيرٍ من الأحيان نقتله ونميته ونطفىء شعلته لكي نعيش حياتنا كما نريد أو كما يفرض علينا المجتمع أن نعيشها.

٣٤٧. قلبنا ميّالٌ إلى الزِّنى، بالمعنى الإيمانيّ العميق للكلمة. لهذا السّبب سمّى الفادي البشر «الجيل الفاسد الخاطئ»، وهو عادلٌ دائمًا. البشريّة السّاقطة تتعلّق بقيَمٍ عابرةٍ، وتلتصق بملذّات هذا العالم وثرواته الخادعة ومجده الوهميّ.

٣٤٨. لولم يكن العالم لِلدُّود والصّدأ والعثّ والنّتانة والفساد والألم والموت لكانَ جحيمًا حيًّا. يرغب البعض في أن يكون العكس صحيحًا: لولم يكن على الأرض ألمٌ وحزنٌ لكانت «الملكوت»، لكنّها أقرب إلى الجحيم. قابليّة الجسد الأرضيّ للخطيئة تغطّيها الأحزان العالميّة.

٣٤٩. ملح الألم المبارَك يحفظ النّفس البشريّة من الاضمحلال والموت الأبديّ. إنّه يحفظها في البشر الّذين يفهمون «طريق المسيح الضّيّق» ويقبلونها.

٣٥٠. حياتنا تمُرّ، وسِنُونا تمُرّ، ولكن علينا أن نكنز كنوزًا صالحةً، علينا أن نكنز كنوزًا لا تفسُد ومسكنها في السّماء (متّى ٦: ١٩-٢٠).

٣٥١. هل نحنُ على مثال المرأة النّازفة الَّتي خَرَقت الجموع لِتَصِل إلى المسيح وتلمُسَ هُدبَ ثوبه وهي خجولةٌ؟ هل نحنُ على مثال مريم المجدليّة وقد رأينا المسيح القائم في حياتنا؟ هل نحنُ على مثال مريم، أخت لعازر، الَّتي جلست عند أقدام يسوع لتسمع كلامه؟ وقد عبّر بطرس في إنجيل يوحنّا الفصل السّادس: «إلى مَن نذهب يا ربّ وكلام الحياة الأبديّة عندك؟»، فإلى أين يصحّ لنا أن نذهب؟.

٣٥٢. جلست مريم عند قدمَي يسوع وكانت تسمع كلامه. أجلست نفسها بشكلٍ طوعيٍ مع تصميمٍ اختياريٍّ واعٍ. ويحاول يسوع أن يُفهِم مرتا أنّ الجهاد الحقيقيّ والأصعب هو أن يُبقي الإنسان نفسه في هذه الجلسة عند قدميه.

٣٥٣. إنّ المجال مفتوحٌ وواسعٌ للهرب من هذه الدّائرة الضّيّقة إلى دائرةٍ أوسع، ولكنّ الصّعوبة تكمن في تدريب أنفسنا على أن نكون انضباطيّين في الجلوس عند قدمي الرّبّ يسوع (لوقا ١٠: ٣٨-٤٢).

٣٥٤. يُقاوم الشّيطان هذه الجلسة محاولاً إلهاءنا بأيّ عملٍ على حساب هذه الجلسة. مرتا تعمل وتخدم، لكنّ الشّيطان لا يُقاوم خدمتها بل يقاوم الجلوس عند قدمَي يسوع. لقد نجح الشّيطان في إلهاء الكثيرين بخدماتٍ ونشاطاتٍ كثيرةٍ ومتنوّعةٍ، فأبعدهم عن هذه الجلسة الطّيّبة والهادئة والمُجديّة والضّروريّة للخلاص الشّخصيّ.

٣٥٥. ليس عند مريم أيّ كلامٍ، ولا تريد شيئًا من يسوع، بل جلست تتفرّس في جمال يسوع الأبرع جمالاً من بني البشر. كم نحن في حاجةٍ إلى هذا النّوع من الأوقات الّتي نحصر فيها تأمّلاتنا في شخصيّة المسيح. فمسيحيّتنا تدور حول شخصيّة المسيح. وعلاقتنا بالله تُبنى على علاقتنا بالمسيح. وبمقدار ما نتعرّف بهذه الشّخصيّة ونتقرّب منها ونُحبّها، نسمو في حياة الإيمان ونحلّق.

٣٥٦. ندرس الكثير من الكتب ونجمع الكثير من المعلومات وندّخر لأنفسنا الكثير، ولكنّ الأهم من هذه كلّها أن نتعرّف في العمق بشخصيّة المسيح. فالمؤمن الرّوحيّ لا يُقاس بمعرفته الكتابيّة أو بصلواته أو بخدماته، بل بعلاقته الحميمة بالرّبّ، وسماع صوته الإلهيّ العذب.

٣٥٧. الحياة الأبديّة، إذًا، هي محبّة الله، هي حياة الله، هي أن تكون لنا شركةٌ مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح (١ يوحنّا ١: ٣)، هي الله نفسه فينا. هذا ما يتحقّق في روح الحياة، في الرّوح القدس، إذ نقتني الرّوح القدس، إذ يقيم فينا الرّوح القدس إلى الأبد، إذ يستقرّ الآب والابن في الرّوح القدس فينا.

٣٥٨. تجد الحياة البشريّة أسمى تعابيرها في التّكريس الكامل لله. عندما يتحرّر الإنسان من كلّ أنواع المادّيّة يصير أكثر شفافيّة نحو الله، حتّى يسكن فيه روح الله الأكثر نقاوةً. وعندما يصير الإنسان شفّافًا بالكامل، مُتحرِّرًا من كلّ تكبّرٍ ومن كلّ اعتزازٍ خاطئٍ بالنّفس وبالعالم، يصير ما لله، أي العالم، مُلكًا له. وإذ يصير بلا أي مُلكيّةٍ، ولا حتّى هو نفسه يعود مُلكًا لذاته، سوف يمتلك كلّ الأشياء. عندها يسكن الله في الإنسان ويجعل حياته غنيّةً هادئةً. هذا التّناغم الحميم في الحياة هو ملكوت الله.

٣٥٩. إنّ تسلسل الحياة الوقتيّة مُعطى للإنسان كسلّمٍ للصّعود إلى الحياة الأبديّة. وحده الأمين على القليل (الوقتيّ) أمينٌ على الكثير (الأبديّ): «أحسنتَ أيّها العبد الصّالح الأمين، قد وُجِدتَ أمينًا في القليل فسأُقيمك على الكثير، أدخل إلى فرح ربِّك» (متّى ٢٥: ٢١). في ما نحن ما نزال هنا على الأرض، علينا أن نتعلّم أن نحيا الحياة الأبديّة. الّذين لا يثبتون في كرمة الله (يوحنّا ١٥: ٥) لا يعيشون. في صعود سُلّم الحياة الأرضيّة والقيَم الأرضيّة (أي الابتعاد عنها) ندخل في ملكوت الله.

٣٦٠. نحنُ اليوم، كمسيحيّين، بأمَسّ الحاجة، إلى أن نُعيد قراءة المسيح من جديدٍ في حياتنا وعائلاتنا وبيوتنا... نحنُ بحاجةٍ إلى إعادة تبشير المسيحيّين بقِيَم المسيح الإنجيليّة والرّوحيّة والأخلاقيّة وحتّى العائليّة، لأنّنا بِتنا نفقِدُ المسيحَ شيئًا فشيئًا، رُوَيدًا فرُوَيدًا.

٣٦١. إنّ أزمتنا المعاصرة هي بالحقيقة فسادنا الشّخصيّ. وعليه، الجواب الحقيقيّ الوحيد لهذه الأزمة هو في أن نتوقّف عن إفساد أنفسنا. علينا أن نسترجع الحِسّ بهُويّتنا الحقيقيّة وكرامتنا، بأنّنا مخلوقون على صورة الله، وبنظرتنا لأنفسنا كأشخاصٍ مقدَّسين.

٣٦٢. الإنسان الّذي يتلهّى في مسيرته، هو الإنسان الّذي يسير مع أمور العالم، هو الّذي يطمح أن يكونَ له شيئًا في العالم. هو ذاكَ الإنسان الّذي ما زال مولودَ الجسد، الّذي لم يستطع أن يتخطّى هذا الجسد ولم يترك همومَ العالم وشهوات العالم لكي يصل إلى الإيمان الرّوحيّ، ليصير «إنسانَ الرّوح» و«إنسان الإيمان». لأجل ذلك، فإنّ كلّ مسيحيّتنا، كلّ قوّتنا، كلّ تقليدنا، كلّ روحانيّتنا وخصوصًا الشّرقيّة، تتمركز حول السّهر على الذّات.

٣٦٣. إنّ اهتمام الإنسان ليس محصورًا في الزّمن بل هو موجَّهٌ بشكلٍ دائمٍ نحو الأبديّة: «إنْ كان رجاؤنا في المسيح في هذه الحياة فقط فنحن أشقى النّاس أجمعين» (راجع ١ كورنثس ١٥: ١٩).

٣٦٤. نحنُ الأصنام الّذين ينظُر إليهم المسيح في الكنيسة ويقول: «هؤلاء هُم الّذين عليهم أن يقبلوا حصاد الأثمار الكثيرة». في كثيرٍ من الأحيان نحنُ نُخيّب أمل يسوع المسيح فينا، وكثيرًا ما نكون دونَ مُستوى المسؤوليّة الّتي وكّلنا بها الله، فنكون أصنامًا في كرمته الحقيقيّة، فنذهب باحثين عن كرومٍ أخرى، نذهب ونبحث عن أراضٍ أخرى، وعن ثمارٍ أخرى.

٣٦٥. كُلّنا بحاجةٍ إلى نعمة الآب، كلّنا بحاجة لمُجالسةِ الله، كلّنا بحاجةٍ إلى أن يقوّي محبّة الآخر، وكلّنا بحاجةٍ إلى أن يُكمّل محبّة الآخر، حينها نستطيع أن نقول عن أنفسنا أنّها هي بحدّ ذاتها كنيسةٌ، وأنّها هي جماعة المؤمنين.

٣٦٦. نحنُ اعتدنا على أن تكون آذاننا منتشرةً في العالم، عوضًا أن تكون لنا أذنٌ واحدةٌ منتشرةٌ للإيمان. علينا أن نسمع كلمة الله لكي تتغذّى حياتنا، علينا أن نسمع كلمة الله لكي نعطيها للآخرين.

٣٦٧. أينَ أنا اليوم من الإيمان الحقيقيّ؟ الإيمان الحقيقيّ ليس بمزيّفٍ أوبظاهريٍّ أوبسَطحيٍّ. في بعض الأوقات تكون قداستنا قداسةً ظاهريّةً فقط، إنّما ما نريده نحن يكمن في بناء علاقةٍ داخليّةٍ بيسوع المسيح، نريدُ أن نبنيَ كنيسة القلب، نريدُ أن نبنيَ كنيسة الدّاخل.

٣) روحانيّة الصّليب

٣٦٨. هل الصّليب هو عَيْش صليب الألم والحُزن والاضطراب والموت والقلق؟

أقولُ لكم: لا، ليس هذا هو الصّليب. الصّليب هو تعزيةٌ للمرضى، هو قيامةٌ للموتى. الصّليب يعطينا الحياة في وقتٍ فقَدنا فيه الحياة. الصّليب هو صليب الفرح، الفرح بأنّنا نعيشُ مسيحيّتنا على أصولها وجذورها.

٣٦٩. الصّليب وأنواعه: هناك صليبٌ نتقبّل عنده الألم والإهانة، صابرين صامتين... وهناك صليبٌ نقبل عنده الخسارة في سبيل الحقّ والشّرف، شاكرين... وهناك صليبٌ نبذل عنده جهدنا ونضحّي براحتنا في سبيل مَن لا يستحقّون، راضين مسرورين... وهناك صليبٌ نقبل عنده تسليم إرادتنا في سبيل السّلام، طائعين مختارين... وهناك صليبٌ نُحِبّ عنده أعداءنا ونبارك لاعنينا ونبقى لأجل مَن يُسيئون إلينا، مُحسنين مُصلّين...

٣٧٠. «فليكفر بنفسه» فيها أولاً قدرة إنكار المشروع الذاتيّ الشّخصيّ وقبول مشروع الله بكامله وهذا القبول أو النّكران للمشروع الشّخصيّ وقبول مشروع الله هو التّوبة. وحياتنا هي توبةٌ مستمرّة. فالحياة تُعاش ويتحقّق معناها بالعطاء والمجّانيّة. فالمسيح لا يطلب نكران الحياة. «فليكفر بنفسه» لا تعني نكران الحياة بل استقبال الحياة في جديدها وملئها، وهو وحده قادرٌ أن يمنحها بملئها والإنسان في عمق أعماقه يميل إلى التّفكير بذاته. هذه الطّبيعة البشريّة موجودةٌ بقلب الإنسان، الميل نحو الذّات ونحو وضع شخصه في محور المصالح فيكون الإنسان مقياسًا لذاته ولا يقوّم مقياسًا لكلّ الأمور.

٣٧١. **المسيحيّ لا يبحث عن الألم حبًّا بالألم بل يفتّش عن الحبّ**، والصّليب المقبول الشّخصيّ والحرّ والواعي يصبح علامة الحبّ والعطاء الكامل. حمل الصّليب مسؤوليّةٌ وليس مسألة زينةٍ أو تبرّجٍ؛ إنّه يتصدّر كنائسنا ويعلو أقبيتها ليُرشد إلى حيث يرتشف دمه كلّ يومٍ للخلاص، إلى حيث تستمرّ عمليّة الصّليب فاعلةً إلى حين يأتي المسيح ثانيةً بمجدٍ ليدين الأحياء والأموات فيشربون كأس دمه معه كما قال «جديدة في السّماء».

٣٧٢. يعلو الصّليب قبورنا حيث نرقد في انتظارٍ مُفعَمٍ بالرّجاء المسيحيّ لسماع صوت ابن الله يدعونا للخروج إلى الحياة كما أخرج لعازر قديمًا (يوحنّا ١١: ٤٣)، ولكن إلى حياة فرحٍ أبديّةٍ للّذين باركوا اسمه في العالم وشَهِدوا له وكفروا بأنفسهم (أي استشهدوا عن العالم وما فيه من مُغرياتٍ وملذاتٍ...) من أجله ومن أجل الإنجيل، وإلى حياة عذابٍ لجاحديه.

٣٧٣. كم نرى من النّاس يقفون في الصَّفّ عند أبواب السّفارات يطلبون تأشيرات دخولٍ إلى الدّول الأخرى، ونحن، كمسيحيّين حقيقيّين - وقد خصّنا الله بسفارةٍ إلهيّةٍ هنا على الأرض، علينا أن نقف عند الجلجلة، عند أقدام الصّليب، لننال تأشيرة دخول الحياة الأبديّة الخالدة: فالصّليب هو عربون قيامتنا وميراثنا.

٤) لاهوت القلب

٣٧٤. إنّ القلب هو في مركز الحياة الرّوحيّة ويقصد به الإنسان الدّاخليّ بما فيه من عواطفَ ومشاعرَ وانفعالاتٍ ودوافعَ وإرادة، وهو الموجِّه للإنسان نحو الخير ومحبّة الله أو نحو الشّرّ والبُعد عنه. لهذا يوصينا الكتاب المقدّس بأن يكون قلبنا كاملاً في محبّته لله: «فلتكن قلوبكم بكاملها للرّبّ إلهنا لتسيروا في فرائضه وتحفظوا وصاياه» (١ ملوك ٨: ٦١)، وأيضًا: «وأنت يا سليمان ابني، فاعرف إله أبيك واعبُدْه بقلبٍ سليمٍ ونفسٍ راغبةٍ، لأنّ الرّبّ يفحص جميع القلوب، ويفهم جميع خواطر الأفكار. إذا طَلَبْتَه يَدَعُك تجده، وإنْ تَرَكتَه ينبذك للأبد» (١ أخبار ٢٨: ٩).

٣٧٥. إنّ رفع القلب إلى العلاء دليلٌ واضحٌ على قيامة الرّبّ من بين الأموات، إذ ينزل الحيُّ إلى قبرنا وجحيمنا لينتشلنا من براثن الموت، إنّه نزول النّور إلى أعماق ظلماتنا.

٣٧٦. القلب الَّذي لا يزال متعلِّقًا بالأمور الجسديّة والأرضيّة، هو قبرٌ مُظلمٌ خالٍ من حضور الرّبّ القائم؛ أمّا القلب الحقيقيّ المطلوب في اللّيتورجيّا الإلهيّة، فهو القلب المتحرِّر بنعمة الرّبّ القائم من قبضة تلك الأمور، بحيث يجد مجاله الحقيقيّ في الحدث المتواصل، حدث صعود المسيح.

٣٧٧. **إنّ القلب الإفخارستيّ هو مائدة الوليمة**، حيث شركة الثّالوث الأقدس مقدَّمةٌ لنا دائمًا في جسد المسيح، بهدف أن نتشارك فيها مع الآخرين.

٣٧٨. يُشير القلب المُصلّي إلى مكان التقاء جوع البشر وشوق الله؛ إنّه يجد مجاله الحقيقيّ في الحدث المتواصل، حدث صعود المسيح.

٣٧٩. «اجعل من قلبك مذبحًا». اللّيتورجيّا لا تقتصر على الاحتفالات، بل تمتدّ في العبادة الوجوديّة.

٣٨٠. على مذبح القلب يصير الاحتفال بليتورجيّة الإيمان الصّافي. فهناك القبر الّذي تدفعنا إليه ذكرى الحنين إلى الرّبّ، حيث يكشف الرّوح لنا أنّ الرّبّ قام من بين الأموات؛ هناك القبر حيث تودِع الصّلاةُ جسدَ المسيح الدّائم المتألّم، في اليقين بأنّ مُبدع الحياة سيُقيمه من الموت؛ هناك القبر حيث ينزل الحيّ إلى جحيمنا لينشتلنا من براثن موتنا، لأنّ ليل صلواتنا هو، في الحقيقة، نزول النّور إلى أعماق ظُلُماتنا. فإذ نُدفن، مرّةً وإلى الأبد، مع المسيح، فنحن لا ننفكّ نعيش في الصّلاة القلبيّة، هذا الدّفن الّذي نبزغ منه دائمًا أكثر اتّحادًا بالمسيح وحياةً للآب.

٣٨١. مذبح الكنيسة ومذبح القلب مرتبطان بشدّةٍ: الأوّل هو قلب المَقدِس، والثّاني هو أعمق ما في الشّخص البشريّ، مقدِسه الدّاخليّ. على هذا المذبح الحيّ الّذي يمثّله القلب، يقدِّم المسيحيّ تقادمَ روحيّةً مرضيّةً لدى الله بواسطة يسوع المسيح. يقدِّم جسده كقربانٍ حيٍّ ومقدَّسٍ ومقبولٍ لدى الله.

٣٨٢. المسيح هو صُلب عمل الكنيسة؛ والمذبح، رمز المسيح، هو صلب مبنى الكنيسة.

٣٨٣. إنّ الله عندما يضع في قلوبنا روح ابنه يجذبنا إليه من داخل نفوسنا ومن عمق كياننا. ونعمته الّتي يغدقها علينا هي البهاء الإلهيّ الّذي يُشرق في قلوبنا ليقودنا إليه وإلى العمل بحسب إرادته. فلا إرغام ولا كره ولا شرائع تُفرض علينا من الخارج، بل حياة بنوّةٍ ومحبّةٍ في الرّوح القدس.

٣٨٤. القلب هو مكان الشّركة مع الله.

٣٨٥. إنّ غاية حضور الكنيسة في التّاريخ كما أعطاه المسيح تكمن في استرجاع الشّركة بين الله والإنسان في القلب.

٣٨٦. يكتسب القلب النّقيّ استنارة الرّوح القدس.

٣٨٧. بدون الاستنارة من الله لا تستطيع محبّتنا أن تتخطّى موقفنا الأنانيّ ونقصنا. تبقى محبّتنا ناقصةً وزائفة. بالاستنارة يصبح الإنسان هيكلاً للرّوح القدس، معافًى روحيًّا.

٣٨٨. لا يحيا القلب الإنسانيّ على «الخبز» فقط، بل يحتاج بالأكثر إلى «كلمة الله». ليس الإنسان مجرّد مستهلكٍ للعالم، بل خالقٍ ثانٍ بمعنى «الخلاّق». وفنّه هذا هو روحنة العالم. فالقلب الطّاهر يطِّهر العالم.

٣٨٩. العالم كلّه هو مكانٌ لممارسة روحانيّة الإنسان، «خطيئته» الأساسيّة هي الحوار مع الدّنيا دنيويًّا، «وحياته» في أصالتها يجب أن تكون حوارًا مع الله من خلال العالم روحيًّا. هذه هي الرّغبة الحقيقيّة للقلب البشريّ.

٣٩٠. لا بدّ، في بعض الحالات، وبخاصّةٍ على ضوء تقبُّل الإنسان لنعمة الله، أن يتحوّل طريق الخطيئة إلى طريق توبةٍ حقيقيّةٍ، ودرب العالم الأرضيّ إلى درب الملكوت السّماويّ.

٣٩١. إنّ العشق الحقيقيّ الأصليّ للقلب البشريّ هو الإلهيّات وليس الدّنيويّات. وتعلُّق الإنسان بما هو «دونيّ» هو دليلٌ على تضليلٍ للقلب مسبَق.

٥) المسيحيّ بين العالم الرّوحيّ والعالم المادّيّ

٣٩٢. نحن لا نعيش العالم، نحن نعيش في هذا العالم ولكنّنا لا نتبع له إنّما لعالمٍ هو أكثر إنسانيّةٍ وأكثر روحانيّةٍ وهو أكثر صلابةٍ في الإيمان ونحن نستطيع أن نحوّل هذا العالم من عالمٍ مليءٍ بالعدائيّة والكبرياء والنّميمة والأنانيّة والحقد إلى عالمٍ مسيحيٍّ مثاليٍّ يكون المسيح في وسطه هو سلامنا.

٣٩٣. عالم المادّة هو عكّاز النّفس المريضة، مرساتها؛ أمّا نقطة ارتكاز العالم الرّوحيّ فهي عكّازٌ يساعدنا على الصّعود إلى الله، إذا عرفنا استعماله. كلّ ما في العالم مخلوقٌ أو مُتاحٌ لخير الإنسان وهو قادرٌ على تحويل حتّى أكثر مظاهر الحياة الأرضيّة تجربةً وألمًا إلى دربٍ للملكوت.

٣٩٤. من أكثر ما يعذّب الفكر الإنسانيّ اليوم هو الفصل بين الجسد والنّفس، وتهويل الصّراع بين المادّة والرّوح. ويبدو أنّ الجسد عدوّ الرّوح، والعكس بالعكس! وعلينا أن نقهر جسدنا «لكي نحيا بالرّوح». وهذا الفصل، لا بل الصّراع، بين ما هو روحيٌّ وما هو ماديٌّ آخذٌ في الازدياد في أيّامنا هذه.

٣٩٥. **العالم الجديد:** «فلستُم بعد غرباء ولا نزلاء...» الأرض تحوّلت سماءً، الإنسان تحوّلَ إلهيًّا، الإنسان الضّعيف يتحوّل إلى إنسانٍ قويٍّ في المسيح، الأرض الَّتي تعبّر عن منفى والغربة أصبحت سماءً لأنّ الله تجسّد فيها. لأنّ الله قد ترك عرشه ونزل من علياء سماواته بشخص المسيح يسوع ليقول لنا بأنّكم مدعوّون إلى الحياة الحقيقيّة الَّتي فقدتموها في الخطيئة وقد أرسلتُ ابني الوحيد ليخلّصكم كفّارةً عن خطاياكم ليعطيكم التّطهير الحقيقيّ.

٣٩٦. إنْ أردنا أن نبحث في إنشاء عالم الغد، علينا أن نتفّهم قبل كلّ شيءٍ الأهواء الشّخصيّة والقوى والإمكانيّات الفرديّة، وأن نسيطر عليها ونخلق منها أهواءَ وإمكانيّاتٍ أسمى وأنبل، وأن نوجّه القوى الشّخصيّة إلى غاياتٍ رفيعةٍ جديرةٍ **بقُدسيّة الإنسان**.

٣٩٧. نعم إنّ الشّخص هو مشكلة اليوم. لذا، فنحن اليوم بأشدّ الحاجة إلى روحانيّةٍ عميقةٍ خلّاقةٍ تجدّد نفوسنا وتبعث فيها الرّاحة والطّمأنينة. نحن بحاجةٍ إلى تيّارٍ روحيٍّ عميقٍ يقلب زوايا أنفسنا المتحجّرة ويبعث فيها حياةً جديدةً.

٣٩٨. نحن بحاجةٍ ماسّةٍ لأن تقوم في مجتمعاتنا، كنائسنا، أبرشيّاتنا، رعايانا، حركاتنا الرّسوليّة، عائلاتنا وبيوتنا، وحتّى على الصّعيد الشّخصيّ للفرد، يَقَظَةٌ روحيّةٌ توقظ فينا، أي في نفوسنا وقلوبنا وعمق كياننا، حالةً من الصَّحوة المسيحيّة الحقّة، وتنقلنا من الشّكّ إلى الإيمان، ومن اليأس إلى الأمل، ومن روح الانتقام إلى روح المحبّة: هذه هي المسيحيّة الصّميميّة الّتي تغمر وُجداننا وشعورنا، ونشعر أنّنا نحيا بها ولها نعيش. عند ذلك نستطيع أن نكتشف سرّ الحياة الأبديّة وطريق السّلام الخالد.

٣٩٩. أيّها الإنسان، لا تؤجّل الشّفاء، أي استعادة علاقات الله بالإنسان إلى ما كانت عليه، إلى الحياة الآتيّة أي بعد الموت. إنّ الشّفاء يُنجَز في التّاريخ. المؤمن، من خلال وجود عمل الله في داخله، يصبح «هيكلاً لله» ويمتلك الأبديّة ضمن الحقيقة الأرضيّة. فيعيش في ما بعد التّاريخ كما في التّاريخ. إنّه يصير إنسانًا سماويًّا كالقدّيسين.

٦) الحياة الدّيريّة والرّهبانيّة

٤٠٠. الرّهبنة ليست هربًا من مسؤوليّات الحياة، أو هربًا من المواقف الانفعاليّة الّتي تواجه الشّخص فى العالم , وليست الرّهبنة نوعًا من السّلوك السّلبيّ وإلاّ كانت الرّهبانيّة سلوكًا مرضيًّا. الرّهبنة هدفها العمل النّاجح والتّفرّغ للتّعبّد وانقطاع الإنسان للرّياضيّات الرّوحيّة والعقليّة , هي انصراف للتّأمّل والتّصوّف , وخلود إلى السّكون , والوجود الدّائم فى حضرة الرّبّ الإله والتّفكير الدّائم فيه والاتّحاد به وفي إرضائه والتّفكير في عمل الخير دائمًا.

٤٠١. الدّير هو أنقى مثالٍ للشّركة. لذا، فإنّ المجتمع الرّهبانيّ الدّيريّ يشير بطبيعته إلى الأخوّة المتلألئة الّتي لا طبقات فيها (راجع غلاطية ٣: ٢٨).

٤٠٢. الرّاهب ليس أبدًا إنسانًا من طينةٍ مختلفةٍ. هو إنسانٌ كغيره من النّاس، له ضُعُفاته، وله خطاياه، وله صعوباته، وله مخاوفه. ولكن، الفرق بين الإنسان الّذي يكرّس نفسه بالكامل للحياة في المسيح والإنسان الّذي لا يكرّس نفسه للحياة في المسيح هو أنّ الأوّل يطلب أن يسلك بأمانةٍ في وصايا الله، ويطلب وجه الله، في كلّ حينٍ. همّه أوّلاً وأخيرًا، أن يتنقّى، وأن يتقدّس، وهو لا يقول أبدًا: «أنا لا أستطيع أن أحقّق هذا كلّه، لأنّي إنسان!» إنّه يعرف حدوده، ويعرف قصوره، ويعرف ضعفاته. لكنّه يعرف أيضًا ما تكلّم عنه الرّسول بولس، حين قال: «أستطيع كلّ شيءٍ في المسيح الّذي يقوّيني» (فيلبّي ٤: ١٣).

٤٠٣. الكنيسة، قديمًا وحديثًا، تنظر إلى الأديرة وإلى الرّهبان باعتبار أنّهم معلّمو الحياة الرّوحيّة بامتياز، إذ لا يمكن لأحدٍ أن يعلّم طريق الله، إن لم يكن هو نفسه قد سلك فيها.

٤٠٤. إنّ المدعوّين هم بشرٌ مثل الآخرين. لذلك يجب أن يكون لدينا معرفةٌ عميقةٌ «للمادّة» الإنسانيّة الّتي يجب أن نتعامل ونشتغل معها. يجب أن نعترف بالعَظَمَة والإمكانات الرّائعة الموجودة في كلّ كائنٍ بشريّ، فهو صورةٌ حيّةٌ لله، قدَّسَها المسيح؛ إنّه كائنٌ روحيٌّ قادرٌ على فهم حقائق الأشياء وعلى الانفتاح على اللّانهائيّ؛ يملك ديناميكيّةً دائمةً نحو التّسامي وتحقيق المثال الّذي يدعوه دائمًا إلى السَّير والتَّقدّم نحو الأفضل.

٧) الإنسان كائنٌ نُسكيّ

٤٠٥. الرّجاء يعني الشّوق والتّوق إلى السّعادة السّماويّة.

٤٠٦. ليست الصّحراء بالضّرورة القفار الجافّة في سيناء أو في صحراء يهوذا (حيث دير القدّيس سابا المتقدّس). كثيرون من الكُتّاب الرّوحيّين علّموا أنّ الصّحراء يمكن أن تكون في أيّ مكانٍ، حتّى في وسط الحضارة المدنيّة. يمكن إيجاد الصّحراء في أعماق المنزل أو مكان العمل. قضاء بعض الدّقائق منسحبًا من الضّجيج وهيجان العمل يمكن أن يقود الإنسان إلى الوحدة التّأمليّة. إنّها مكانٌ للانسحاب حتّى نجد الله في الصّمت والصّلاة... مكانٌ نستجمع فيه الشّجاعة ونعلن كلمات الحقيقة متذكّرين أنّ الله هو الحقيقة... مكانٌ ننقّي فيه أنفسنا ونهيّئها للعمل وكأنّها لامست الجمرة المحرِقة الّتي وضعها الملاك على شفتَيِ النّبيّ أشعيا (أشعيا ٦: ٧).

٤٠٧. الصّحراء مكان وحدةٍ لا مكان انعزالٍ. لا تكتمل خبرة الصّحراء بمعزلٍ عن الشّركة مع الكنيسة والمساهمة في الأسرار الإلهيّة والصّلوات والعبادة. حتّى النّسّاك، أي المسيحيّون الّذين يعيشون اليوم التّوحّد في الصّحراء والكهوف، هم أعضاء في أخويّاتٍ رهبانيّةٍ ويخضعون لنظام ديرهم وممارساته.

٤٠٨. البريّة هي تلك الأمكنة الّتي تمنح العزاء والعزلة لقلب الإنسان. إنّها المكان الّذي يضع قلب الإنسان في حالة الوحدة، أيّ الحالة الّتي تؤدّي إلى التّأمّل والصّلاة والصّوم والتّفكير في وجودنا العميق وفي علاقتنا مع حقيقة الله الجوهريّة.

٨) الإنسان كائنٌ إفخارستيّ

٤٠٩. كلّ لحظةٍ من حياة المسيحيّ هي استعدادٌ للقاء الله الّذي يتحقّق أسراريًّا في المناولة الإلهيّة.

٤١٠. إنّه هو نفسه... في المسيح نفسه تقوم العبادة الحقيقيّة بمعناها الصّحيح، وهو الاقتراب من الله وتمجيده. ففي مقابل جرزيم وأورشليم، لا تقوم القدس أو روما أو غيرها، ولكن يقوم المسيح نفسه.

٤١١. كما أنّ الله هو الخالق، الإنسان هو مُستخدِمٌ، وكما أنّ الله واهبٌ ومُحِبٌّ، الإنسان هو شاكرٌ وإفخارستيٌّ.

٤١٢. الشّكر هو وعيٌ لعطايا الله المجّانيّة للإنسان: اندفاعٌ لا شائبة فيه للنَّفس الَّتي امتلأت بالدّهش من جُود الله عليها؛ عرفانُ الجميل أمام العظمة الإلهيَّة؛ وردَّةُ فعلٍ دينيَّةٍ عميقةٍ للخليقة الَّتي تكشف شيئًا من الله ومن عظمته ومجده. ففي العهد القديم، الشّكر هو عرفانٌ للجميل بقدر ما هو تَوقٌ نحو المستقبل ونحو نعمةٍ أكبر.

٤١٣. التّملّك الإفخارستيّ يعني كلّ ما يمكن أن يحمل الإنسان على شكر الله، والنّاس الّذين من خلالهم الله يعطي. هذا الامتنان يتضمّن الإيمان بالله والاعتراف بأنّه سيّد الحياة. الإفخارستيّا هي التّعبير الأكثر كمالاً عن الامتنان على الحياة وعلى كلّ شيءٍ آخر. وبهذا الامتنان يصعد الإنسان إلى حياةٍ جديدةٍ، إلى ملكوت الله. قيَم هذا العالم اللّامتناهيّة في الصِّغَر، مُمَلَّحَةٌ بالامتنان لله، تصير ملكيّة الإنسان الإفخارستيّة وتبقى خاصّته إلى الأبد كشيءٍ جديدٍ وعظيمٍ منقولٍ إلى خلف مداخل الأبديّة.

٤١٤. مبارَكَةٌ هي المُلكيّة القائمة على محبّة الله والقلب الحر. المُلكية المُهداة تجلب معها البركة. المُلكية المُغتَصَبة تستنزل اللّعنة. التّملّك قد يكون جشعًا أو نزيهًا؛ **التّملّك الجشع أنانيٌّ، بينما النّزيه إفخارستيٌّ.** التّملّك الإنسانيّ الحقيقيّ موجودٌ في الخاصيّة الإفخارستيّة، الّتي تأتي من الله وتعود إلى الله عِبْر الإنسان. وحده هذا التّملّك المستنير روحيًّا الّذي لا يُثقِل النّفس، ولا يُسمّرنا إلى الحياة الوقتيّة ولا يشدُّنا إلى الخطيئة، يمكن أن نسمّيه مبارَكًا.

٤١٥. إنّ صدى بركة الله الَّذي يَهَب خليقته الحياة والخلاص هو البركة الَّتي يشكر بواسطتها الإنسان خالقه: «باركوا الرّبّ إلهَ الآلهة، يا جميع مُتّقي الرّبّ، سبِّحوه واحمَدوه لأنّ للأبد رحمته» (دانيال ٣: ٩٠).

٤١٦. إذا دخلنا في ذهنيّة «الرّوحانيَّة القربانيّة» أي دخول القربان بمعانيه ومفاعيله الحيويّة في حياتنا الرّوحيّة الشّخصيّة، فإنّنا نجده مرتبطًا بالفضائل الإلهيّة الثّلاث، أي الإيمان والرَّجاء والمحبّة، ارتباطًا يدفعنا إلى العيش بمقتضا ها.

٩) العبادة بالروح والحقّ

٤١٧. الإيمان يؤدّي إلى الفرح، فرح الوصول إلى الحقّ بدون لمس الوقائع. هذا هو سرّ الإيمان.

٤١٨. بإعلانه العبادة «بالرّوح والحقّ»، لا يبحث يسوع في الكشف عن أوجه التّفاوت بين العبادة الخارجيّة والعبادة الدّاخليّة. فالتّفاوت بين العبادة في أورشليم أو على جبل جرزِّيم، والعبادة بالرّوح والحقّ هو جزءٌ لا يتجزّأ من الثّنائيّة اليوحنّاويّة المألوفة بين ما هو أرضيٌّ وما هو سماويٌّ، الولادة الجسديّة والولادة الرّوحيّة «من فوق»، بين الجسد والرّوح.

٤١٩. إنّ عبادة الآب لا تتحقّق إلاّ إذا كانت عبادةً بالرّوح. ويُمكن أن يُعبَد الله كآبٍ فقط من قِبَل أولئك الّذين يمتلكون الرّوح الّذي يُصيِّرهم أبناء الله: «لم تتلقَّوا روح عبوديّةٍ لتعودوا إلى الخوف، بل روحَ تَبَنٍّ به ننادي: أبّا، أيّها الآب! وهذا الرّوح نفسُه يشهد مع أرواحنا بأنّنا أبناء الله» (رومة٨: ١٥-١٦)، وهو الرّوح نفسُه الّذي من خلاله يَلِد الله أبناءه «من عَلُ» (يوحنّا ٣: ٣). فهذا الرّوح هو الّذي يرفع المؤمنين فوق المستوى الأرضيّ، مستوى الجسد، ويُمكّنهم من عبادة الله بصورةٍ صحيحةٍ كما ينبغي أن تكون العبادة الحقيقيّة.

٤٢٠. إنّ الحقّ أداةُ تكريسٍ وتقديسٍ، وهو يخوّل المؤمن أن يعبد الله بصورةٍ صحيحة. فيسوع هو الحقّ بمعنى أنّه يكشف حقيقة الله للإنسان. أمّا الرّوح فهو روح الحقّ الّذي يقود الإنسان إلى الحقيقة، وإلى المعرفة الإلهيّة.

٤٢١. إنّ العبادة «بالحقّ» تعني «العبادة الحقيقيّة»، وبالتّالي، فإنّها تُشير إلى «واقع العبادة المسيحيّة» في تعارضها مع واقع عبادة الشّريعة القديمة. فيوحنّا، من خلال تعبير «الحقّ» يدلّ على الوحي المسيحانيّ، الوحي الّذي يُحدِّد رسالة وشخص الكلمة يسوع: «أنا الطّريق والحقّ والحياة. لا يمضي أحدٌ إلى الآب إلاّ بي» (يوحنّا ١٤: ٦).

٤٢٢. عمل الرّوح هو الّذي يجعل «حقيقة المسيح» هذه حاضرةً وفاعلةً في قلب المؤمن (٢ يوحنّا ٢)، وبالتّالي، يتحوّل «الحقّ» إلى يُنبوعٍ سرّيٍّ يفيض في حياته المسيحيّة.

٤٢٣. إنّ الصّلاة في الرّوح هي صلاةٌ متأصِّلةٌ في قلب المؤمنين من خلال الرّوح القدس: «وكذلك فإنّ الرّوح أيضًا يأتي لنجدة ضُعفنا لأنّنا لا نُحسن الصّلاة كما يجب، ولكنّ الرّوح نفسَه يشفع لنا بأنّاتٍ لا توصف. والّذي يختبر القلوب يعلم ما اهتمام الرّوح، فإنّه يشفع للقدّيسين بما يوافق مشيئة الله» (رومة ٨: ٢٦-٢٧). فلا أحد يستطيع أن يعبد الله بالرّوح إلاّ إذا أصبح مستنيرًا بالرّوح القدس.

١٠) هل العاطفة الدّينيّة هي إيمانٌ حقيقيٌّ؟

٤٢٤. الإيمان الحقيقيّ والشّعور الدّينيّ: يختلط الإيمان في كثيرٍ من الأحيان بالشّعور الدّينيّ الّذي لا يُعبِّر دائمًا عن أصالة الإيمان الكنسيّ الصّحيح، فيغدو بطابعه هذا دخيلاً على ما يجب على المسيحيّ المؤمن أن يعيشه ويحياه.

٤٢٥. إذا كان الشّعور الدّينيّ نابعًا من إيمانٍ ذي جذورٍ عميقة، فهذا هو الهدف المنشود، ولكن، إذا كان هذا الشّعور نابعًا من مجرّد طقوسٍ وشعائرَ دينيّةٍ مُفرغةٍ من معانيها الرّوحيّة، فهنا تكمن المشكلة، إذ إنّ هذا الشّعور يكون مجرّد عاطفةٍ زمنيّةٍ عابرة، تذهب مع الرّيح (لوقا ٨: ٤-٨، ١١-١٥)، إذ لا أساسٌ روحيٌّ لها.

٤٢٦. إنّ الصّلوات الطّقسيّة والأصوام والسَّجَدات قادرةٌ فعليًّا على فعل تحوُّلٍ داخليّ، بتطهير فكرنا وروحنا وتوجيهما نحو الواحد الّذي هو الحاجة (لوقا ١٠: ٤٢). لكنّ هذه الممارَسات ليست أهدافًا بحدّ ذاتها. كما يعلّم الرّوح القدس بتبرداد، إنّها موجودةٌ لغايةٍ واحدةٍ هي قيادتنا إلى المسيح الّذي هو وحده يشفي تهشيمنا، ويغفر خطايانا، ويجذبنا إلى الشّركة الأبديّة مع الله ومع بعضنا البعض.

٤٢٧. إن أحد الأسباب الرّئيسيّة «للميوعة الرّوحيّة»، هو عدم السّير في الخطّ الّذي رسمه المسيح للإتّباع، ألا وهو حمل الصّليب كلّ يومٍ. نحن نريد مسيحًا نعتزّ به، ولكن دون صليبٍ نفخر به ونحمله؛ ونودّ أن نتمتّع بجميع امتيازات الإيمان، دون أن نتحمّل مسؤوليّة الإيمان. هذا يعني أنّنا نريد أن نُفصِّل مسيحًا على مقياسنا، أو أن نعيش جزءًا محدَّدًا من المسيح، يتلاءم ونظرتنا لواقعنا المُعاش. هذه هي المسيحيّة الأرستقراطيّة أو الإنتهازيّة.

١١) روحانيّة المسبحةُ الشّرقيّة، «صلاة القلب»

٤٢٨. المسبحة الشّرقيّة (١٠٠ حبّة) منسوجةٌ من الصّوف الآتي من الخروف «الحمل». وهذا يُذكّرنا بأنّنا فعلاً خراف الرّاعي الصّالح يسوع المسيح، ويُذكّرنا أيضًا بحمل الله الرّافع خطايا العالم (يوحنّا ١: ٢٩). وبالمقابل فإنّ الصّليب الّذي في المسبحة يُحدّثنا عن ذبيحة المسيح على الصّليب، وعن انتصار الحياة على الموت، وانتصار التّواضع على الكبرياء والتّعالي، وبذل الذّات على الأنانيّة، والنّور على الظّلام.

٤٢٩. تُعرَف صلاة هذه المسبحة بِ «صلاة القلب». ففي كلّ وقتٍ من أوقات الفراغ، وبدون أن يرانا الآخرون، أي بعيدًا عن أنظار النّاس في الخفاء، نمسك المسبحة ونتابع حبّةً بعد حبّةٍ، بصوتٍ خفيضٍ وبدون تشويشٍ، مردِّدين في داخلنا الصّلاة القلبيّة: «يا ربّي يسوع المسيح، ابن الله الحيّ، ارحمني أنا الخاطئ وخلِّصني». إنّها صلاةٌ تُذكّرنا بمثل الفرّيسيّ والعشّار، حين «وقف العشّار عن بُعدٍ ولم يُرِدْ أن يرفع عينيه إلى السّماء، بل كان يقرع صدره قائلاً: أللّهمّ ارحمني أنا الخاطئ» (لوقا ١٨: ١٣).

٤٣٠. إنّ صلاة المسبحة هي دعوةٌ للصّلاة مستديمة، على حدّ ما ورد على لسان القدّيس بولس الرّسول القائل: «صلّوا بلا انقطاع» (١ تسالونيكي ٥: ١٧).

٤٣١. المسبحة هي إحدى الأشياء الّتي تُعطى للرّاهب الشّرقيّ (الأرثوذكسيّ) عند إبرازه نذوره الرّهبانيّة وقصّ شعر رأسه. وكجنديٍّ للمسيح تُعطى له سيفًا روحيًّا ليُحارب به ضدّ العدوّ العقليّ الّذي هو الشّيطان. هذا السّيف يستعمله مستدعيًّا اسم سيّدنا وإلهنا ومُخلّصنا يسوع المسيح، ضارعًا إليه وطالبًا رحمته ومعونته في الشّدائد والضّيقات والتّجارب.

٤٣٢. ما يجعل هذه الصّلاة عمليّةً هو أنّنا نستطيع أن نردّدها في كلّ حينٍ، وفي كلّ مكانٍ، في الغرفة، في البيت، على الطّريق، في المكتب وفي الكنيسة... يمكن أن نصلّي ونحن ماشين، واقفين أو جالسين: إنّها الممارسة الشّخصيّة الحرّة للصّلاة خارج إطار الممارسة اللّيتورجيّة الجماعيّة.

٤٣٣. إنّ ما يهمّنا في الصّلاة ليس الوقت الطّويل والصّلوات الكثيرة، بل البحث عن نوعيّة الوقت في مَحضر الله ونجاعة الصّلاة وثمارها المرجوّة في حياة المُصلّي.

١٢) الحقّ الّذي فيك!

٤٣٤. الكلمة الّتي تخرج من الفم تعبّر عمّا بداخل الإنسان. الكلمات هي شرحٌ مفصَّلٌ ودقيقٌ لشخصيّة المتكلِّم، فمن القلب الصّالح تخرج كلمات البناء، ومن القلب الشّرّير تخرج الكلمات الهدّامة. هذا ما قاله السّيّد المسيح في الإنجيل المقدّس: «وإنّما يتكلّم الفم من فَضْل ما في القلب. الرّجل الصّالح من كنزه الصّالح يُخرج الصّالحات، والرّجل الشّرّير من كنزه الشّرّير يُخرج الشُّرور» (متّى ١٢: ٣٤-٣٥).

٤٣٥. لا تقوى الضّمائر البشريّة على القبول إلى الأبد بقوى الشّرّ مسيطرةً إلى الأبد. تأتي ساعةٌ تُبعَث فيها الحياة في البشر، حياة الضّمائر الثّائرة الّتي خنقت صوتها زمنًا طويلاً سكوتًا عن حالاتٍ سيّئةٍ، ثم ما لبثت أن صاحت بالحقّ، تبتغي الحقّ، لأنّها لم تستطع أن تنسى حتّى النّهاية ما كان والّذي ما زال يحزّ كلّ يومٍ في نفوسها، صوت الحقّ الدّاعي إلى الكمال كما الآب السّماوي كامل.

• صلاة

يا نبعَ الفضائل كلّها، خُذني من إنساني القديم وجدّدني بفضائلك الرّوحيّة. إنّي أتطلّع لأن أكون شبهكَ في كلّ شيء... أصقُل روحي بالعفّة، والاعتدال، والإحسان والاجتهاد والصّبر واللّطف والتّواضع. يا ربّ، أُلقي بنفسي أمامَ عرشِ النّعمة لتنزَعَ منّي كلّ سيّءٍ ومُهينٍ لكَ. ألتِمسُ رضاكَ عنّي وحضوركَ الدّائم في كلّ حذافير حياتي. أسبّحُك في كلّ حين.

آمين

الباب السّابع

العلاقة مع الله

يفسّر هذا الباب ماهيّة وأهميّة العلاقة بين الإنسان والله الثّالوث؛ فإنّ هذه العلاقة هي فريدةٌ من نوعها لكَونها علاقةً أبويّةً بنويّةً مقدّسةً وطاهرةً تختلفُ كلّ الاختلاف عن علاقاتٍ أخرى. إنّها العلاقة المُترفّعة عن أيّ أمورٍ دنيويّةٍ تُفقِدُ الإنسان سلامه، فهنا، من خلال هذا الباب، سنفهم وطأة هذه العلاقة.

١) «أَمِلْ قلبي إلى شهادتِكَ» (مزمور ١١٨: ٣٦)

٤٣٦. العلاقة مع الله لا تبدأ إلاّ بالإيمان الَّذي يؤدّي إلى تدفُّق الحياة الأبديّة في حياة الإنسان.

٤٣٧. الحياة في الله تُحدِث تحوُّلاً في النّفس وكشفًا لله. هي أن نذوق وننظر ما أطيب الرّبّ.

٤٣٨. الحبّ الإلهيّ يُعيد البشر إلى العلاقة الصّحيحة مع الله عبر الإيمان الَّذي هو عكس الخطيئة.

٤٣٩. لا تُقاس القداسة بالاختبار الدّينيّ أو بالشّعور الإيمانيّ العاطفيّ.

٤٤٠. القداسة هي اشتراكٌ بموت الرّبّ وقيامته، إكمالٌ للمعموديّة، دخولٌ في تدبير الفداء وسرّه.

٤٤١. القداسة هي رسالة الله للنّاس بواسطة نفسٍ مُحِبَّةٍ له ولهم. إنّها ارتداد النّفس إلى الله، صعودٌ وانفصالٌ عن العالم وسكنى في ديار الرّبّ: «ما أحبّ مساكنك يا ربّ القوّات، تشتاق وتذوب نفسي إلى ديار الرّبّ، ويهتزّ قلبي وجمسي لإله الحيّ» (مزمور ٨٣: ٢-٣).

٤٤٢. «فكونوا كاملين كما أنّ أباكم السّماويّ هو كامل» (متّى ٥: ٤٨). إنّ الكمال الّذي دُعِيَ إليه أبناء الله هو كمال المحبّة، وهذا السّعي في طريق الكمال يحتاج منّا إلى جهادٍ وسهرٍ روحيٍّ وسعٍ مستمرٍّ وحثيثٍ في طريق الفضيلة والبِرّ (راجع أفسس ٦: ١٣-١٨).

٤٤٣. ما يحرّك الألم عند مَن يعاني من هذا المرض هو الخوف من الفشل والإحساس بالواجب. إنّهم يجاهدون ليكونوا في المكان الأوّل بكلّ الطّرق والمساعي دون أن ترضيَهم إنجازاتهم. إنّهم يؤمنون بأنّ هناك صفةً خاصّةً لاكتساب الكمال. التّعبير الّذي لا عيب فيه عن صفةٍ ما، كالذّكاء أو التّطبيق الخالي من الخطأ لبعض المهارات، هو الطّريق الوحيدة لاكتساب احترام الذّات وتحقيق معنى التّميّز.

٤٤٤. هذه الكماليّة قد تقود البعض إلى الاعتقاد بأنّهم يسودون على عواطفهم وسلوكهم. وعندما تقابلهم ظروفٌ مفاجِئةً ومتّحديّةً هذه الإدراكات الحسّيّة غير الواقعيّة، يصير المرء ناقدًا للذّات ويختبر القلق والعِدائيّة ويصبح قابلاً للإحباط وحتّى للانتحار بسبب انهيار احترامه لذاته.

٤٤٥. لقد عالج الكتاب المقدّس موضوع الكمال. يسجّل القدّيس متّى حوارًا بين يسوع وتلاميذه، حين يسألون «مَن يستطيع إذًا أن يخلُص؟» (١٩: ٢٥)، ويُجيب يسوع بأنّ «ما هو غير مستطاعٍ عند النّاس مستطاعٌ عند الله» (١٩: ٢٦). هذا الجواب هو صخرة ثقة كلّ المسيحيّين في جهادهم لبلوغ الكمال الّذي هو القداسة والاتّحاد بالله أي التّألّه.

٤٤٦. الكمال يأتي من الله ونحن نثق به. الاعتقاد ببلوغ الكمال أو القدرة على ذلك بالجهد الذّاتيّ هو وهمٌ غير واقعيّ وباطل. الاتّحاد بالمسيح كهدفٍ يمكن فقط أن يتحقّق كمِنحةٍ، كنعمةٍ من الله.

٤٤٧. الله صادقٌ، وكلمته ثابتةٌ لمن يؤمن به، لا بل هي حقيقيّةٌ أبديّةٌ. هذه هي نقطة الانطلاق في علاقة الإنسان بالله.

٤٤٨. الرّحمة هي الشّعور بالنّعمة الإلهيّة ومحبّة الله.

٢) علاقة الله بالإنسان والإنسان بالله

٤٤٩. الإنسان، بكونه صورة الله ومثاله، قادرٌ بالرّوح القدس أن يتفهَّمَ الحقيقةَ الإلهيَّة، وأن يدخُلَ في شَرِكَةِ الحياة الإلهيَّة من خلال المعرفة، الحكمة، الحقّ، القداسة، الوداعة والحبّ.

٤٥٠. لم يُقدِّمْ لنا الآباءُ دراساتٍ أكاديميَّةً للكتاب المقدّس، إنّما قدَّموا لنا من خلال حياتهم الكنسيَّة تفسيرًا نابعًا عن إيمانٍ شخصيٍ وصلاةٍ تأمّليّةٍ مبنيّةٍ على روح التّوحُّد والوحدة، الخلوة مع الذّات بحضور الله، السّكينة والهدوء القلبيّ والصّمت اللّسانيّ، إذ إنّ الوحدة المنشودة ليست مكانًا جغرافيًّا، بل حالةً روحيّةً. فالصّحراء الحقيقيّة موجودةٌ في عمق القلب.

٤٥١. بيد أنّه «لا ينعس ولا ينام» ذاك الّذي يحفر في الإنسان العطش والإنتظار، إذ إنّه العطشان الأوّل أساسًا. وهو الّذي يَجِدُّ السَير بحثًا عنّا، إلى أن يلتقيَنا على خرزة آبارنا السّخيفة التّافهة. فعند خرزة البئر ينتظرنا الرّبّ. والحوار معه ينتهي دائمًا، عبر تهرّبنا وعدائيّتنا، إلى السّؤال الّذي لا مفرّ منه عن الهيكل، أي عن مكان لقاء الله والإنسان، وعن الماء والعطش.

٤٥٢. ما أجمل أن نوجِّه الصّلاة إلى الله باعتباره «الآب»، إذ قد دخلنا معه في هذه العلاقة العجيبة السّامية «علاقة الأب بالابن». فلفظة «أبانا» تفيد المحبّة والصّلاح، ثم إنّ عبارة «الَّذي في السّماوات» تفيد القوّة والإمكانيّة: الرّفعة والسّلطان. فهو أبٌ لا نظير لمحبّته ولصلاحه، وإلهٌ لا حدود لقوّته وإمكانيّاته.

٤٥٣. لا يمكن أن نفهم علاقة الله بالإنسان، أو علاقة الإنسان بالله أفلاطونيًّا وفلسفيًّا وفكريًّا، وإنّما الأساس في فهم العلاقة هي طريقة تعاطيهما الواحد مع الآخر من خلال العالم! كيف يتعاطى الإنسان مع العالم هو الأمر الَّذي يحدِّد نجاح أو فشل علاقته مع الله.

٤٥٤. إنّ أزمة الحياة الرّوحيّة اليوم، وصعوبة لقاء الإنسان بالكنيسة باليوم هي تمامًا هذه الازدواجيّات المرهِقة الَّتي تخلق نوعًا من الانفصام في الشّخصيّة؛ حيثُ أنّ العالم يفرضُ على الإنسان الانخراط في منظومته المُشبَعَة بالماديّات الّتي تخدمُ استمراريّته في محيطه، ومن جهةٍ أخرى نرى أنّ هذا، بشكلٍ طرديٍّ، يُسبّب ابتعادًا عن الكيان الكنسيّ بما أنّ الأخيرهو كيانٌ يخدمُ الرّوح والوجدان. تسعى وتحاول بعض الحلول والشّرائع أن تقلّص الهوّة بين الطّرفين، ولكن نراها بالواقع تزيد منها لتناقض أهداف وتطلّعات المنظومتين.

٤٥٥. إنّ الحياة الدّينيّة، بالأسلوب القديم المُلتزِم، لم تعُد ممكنةً لإنسانِ هذا العصر، الَّذي يرفض كلّ سلطانٍ لأيّ مبدإٍ أو إلهٍ لا يراه يُغذّي مركزيّته الشّاملة نفسه وإنجازاته الدّنيويّة الحُرّة، والّتي هي أولويّة الأولويّات.

٤٥٦. من حقّ العالم اليوم ألاّ يكون متديّنًا (بالمعنى الظّاهريّ للكلمة)، ما دام الدّين لونٌ من ألوان علم الاجتماع أو التّعليم والوعظ. ولكن من واجبنا أن نُحيي الحياة اللّيتورجيّة كطريقة تواجدٍ وحياة «شركةٍ» كنسيّةٍ لا تؤزّمها هذه المتناقضات، حيث يجد فيها الإنسان ذاته وعلاقته مع الله والقريب في حريّة الرّوح.

٤٥٧. إنّ تبدّل النّظرة إلى علاقة الله بالإنسان والإنسان بالله واختلاف الرُّؤيا نحو العالم، بسبب الفلسفات المعاصرة وسيطرة العلمنة في بعض مرافق الكنيسة، كلّها أدت وتؤدّي إلى انحسار المُثُل المسيحيّة في العالم. وبدأت الكلمة الإلهيّة وحضرة الله في العالم تبدوان منفصلتين عن الحياة. وأصبح يسود جوّ التّمييز، وأحيانًا بشدّةٍ، بين ما في العالم وما في السّماء.

٤٥٨. العالم ليس كيانًا مستقلاً عن علاقة الإنسان بالله، بل العكس تمامًا، إنّه الموضوع والمادّة الَّتي يعبّر فيها الإنسان وبواسطتها عن مفهومه للعلاقة مع الله. إيماننا ليس ماورائيًّا، بل ليتورجيًّا. وتعاطي الإنسان مع العالم كعلاقةٍ مع الله يجعله يأخذ دوره الإفخارستيّ الكهنوتيّ، وهذه هي اللّيتورجيّا.

٤٥٩. يسود في البشريّة وفي الكون الانفصام. الانفصام في كلّ شيء، في الإنسان داخليًّا، ومع الله، ومع القريب، ومع الملائكة ومع الكون. لذلك هذه الحركة للوصول إلى الاتّحاد بالله تبدأ من جمع المتفرّقات. أو بكلمةٍ أخرى، إنّ درجات الصّعود حين تتمّ تُحقِّق اتّحاد هذه العرى المنفصمة.

٣) الالتزام أحد أركان العلاقة الصّحيحة مع الله

٤٦٠. الالتزام هو تجاوبٌ مع محبّة الله الباذلة... إنّ العلاقة بيننا وبين الله تقوم على المحبّة الباذلة المسؤولة من الله نحو الإنسان، لقد خلقنا الله وافتقدنا بالأنبياء وأخيرًا أتى إلينا متجسِّدًا ليقدِّم لنا الفداء والخلاص ويهبنا نعمة البُنوّة له بالإيمان.

٤٦١. الالتزام المسيحيّ ليس فروضًا أو واجباتٍ بل هو أن نبادل الله المحبّة (راجع ١ يوحنّا ٤: ١٩).

٤٦٢. الإلتزام يعني أنّ على الإنسان الرّوحيّ، الّذي يعمل كي ينال خلاصه الأبديّ ويحيا البنوّة لله، أن يحيا حياة التّلمذة لله وطاعة وصاياه في حياة الجهاد للوصول الى حياة الفضيلة والبِرّ، ثابتًا في الله ومُنقادًا بروحه القدّوس .

٤٦٣. الالتزام هو الحرص والسّهر على خلاص النّفس والحفاظ على الإيمان القويم والانتماء للكنيسة وإيمانها والشّركة مع الجماعة المؤمنة بالرّوح الواحد مع الشّهادة الحسنة للمسيح الّذي دعانا أن نكون نورًا في العالم وملحًا في الأرض.

٤) جديد العلاقة بين الله والإنسان: يسوع المسيح

٤٦٤. في البشارة حصل اتّحاد الله بالبشر، ومن خلال الاتّحاد صارت أبواب السّماء مفتوحة، وعادت علاقة النّاس بالله إلى مجراها الأوّل في بكر المصالَحين مع الله، ألا وهي العذراء الّتي نسميّها في صلواتنا «باب السّماء».

٤٦٥. إنّ المسيح قد هدم الجدار الفاصل بين الإنسان والله. لقد دشّن حياةً جديدةً لا دينًا جديدًا. المسيحيّة هي هذا اللّقاء وهذه العلاقة الشّخصيّة ما بين الإنسان والله. فهلمّوا جميعًا نُعلن تدشين حياتنا الجديدة على ضوء حدث قيامة يسوع المسيح من بين الأموات غالبًا ومنتصرًا. له المجد كلّ المجد إلى دهر الدّاهرين.

٤٦٦. الاتّحاد بالمسيح ليس ذا معنًى نظريّ ولكنّ المسيح مركزٌ واقعيٌّ حقيقيّ. أن نحيا في المسيح منذ المعموديّة هو بالتّالي أن لا نحيا في ذواتنا، في جوّنا، بل في ذات المسيح الجالس عن يمين العَظَمَة. إنّها غير حياتنا على الأرض. ليس المسيح إذًا غاية حياتنا فحسب، لكنّه أيضًا حياتنا ذاتها، إذ إنّه يحيا فينا بالرّوح القدس.

٤٦٧. علينا أن نتخطّى اللّيتورجيّا الصّنميّة الحرفيّة، علينا أن نصل إلى اللّيتورجيا المُعاشة كما تعيشها الكنيسة المنتصرة في السّماء. ولكن هل لإنسانٍ أن يتخطّى اللّيتورجيّا الصّنميّة إذا لم يتعرّف على يسوع المسيح شخصيًّا؟ هل للإنسان أن يتخطّى حدود الحرف القاتل إذا لم يُقِم علاقةً شخصيّةً وفريدةً ومميّزةً ولقاءً حيًّا ومباشرًا مع يسوع المسيح؟ لا أعتقد أنّنا قادرون أن نُقيم هذا البناء الرّوحيّ دون العلاقة ودون اللّقاء.

٤٦٨. «فأجابَها يسوع: كلُّ مَن يشربُ من هذا الماء يعطشُ ثانيةً، أمّا مَن يشربُ من الماء الّذي أُعطيه أنا فلن يعطشَ أبدًا. فالماءُ الّذي أُعطيه يصيرُ فيه نبعًا يفيضُ بالحياة الأبديّة». يا ليتَنا نلتقي بينبوع حياتِنا ونطلب منه أن يُعطينا الماء الحيّ الّذي يجري في عروقِنا وقلوبنا، ليخلقنا من جديدٍ ويعلّمنا محبّة يسوع لنا: إنّه الحبيب.

٤٦٩. كما سكن يسوع في حشا مريم فأضحت سماءً، كذلك يستطيع أن يسكن في قلوبنا حتّى تتحوّل قلوبنا إلى سماءٍ، وبذلك نعبّر عن حضور الله الشّافي، المُخلّص، حضور الله الفادي في حياتنا وحياة الآخرين الّذين وُجِدوا من أجلنا، ونحن بدورنا وُجِدنا من أجلهم.

٤٧٠. في كثيرٍ من الأحيان تقف أموالنا حاجزًا، وظيفتنا تقف حاجزًا، مركزنا الإجتماعيّ يقف حاجزًا، ثرواتنا وخيراتنا الّتي لها أن تمجّد الله تقف حاجزًا بيني وبين المسيح، فأضطرب أنا وأصبحُ غير قادرٍ على الاختيار وأفتقر إلى وجود الرّوح القدس، ليس لديَّ نور المسيح: «يا الله دلني عالنّور». ولكن لا أملك حتّى أن أطلب من الله أن يدلّني على النّور، لأنّني متعلِّقٌ بالحياة، بممتلكات الحياة، وبثروات الحياة، وفي النّهاية يأتي صوت الله: «لِمَن هذا يا جاهل؟ اللّيلة تُطلَب منك نفسك» (لوقا ١٢: ٢٠).

٤٧١. القلب هو موضوع العلاقة مع الله. تمامًا مثلما يلتقي النّاس في بيوت بعضهم بعضًا... لدينا أيضًا بيتًا مهجورًا منذ سنين طويلةٍ، إنّه قلبنا. لقاء يسوع معنا في قلوبنا يحوّلها إلى كنيسة، إلى هيكلٍ، إلى مذبحٍ يقدّم فيه نفسه ويعلّمني أنا أن أقدّم نفسي ذبيحةً قربانيّةً من أجل الآخرين، عندها أستطيع أن أدخل من باب الكنيسة لأعيش الإفخارستيّة الحقيقيّة، لأعيش اللّيتورجيّة الحقيقيّة.

٤٧٢. ما زلنا إلى اليوم نعيش حالة اضطرابٍ وانتظارٍ وخوفٍ واللّاسلامِ والمُنازعات والمُناحكات لأنّنا ما زلنا نعيش خارج نطاق الحياة الرّوحيّة. نحنُ نهتمّ بكلّ شيءٍ، بقشور الدّنيا وبالعالم والجّسد، ولا نهتمّ بأهمّ شيءٍ وهو الجلوس عند قدمَي الرّبّ يسوع لنسمع صوته ونُصغي إلى كلامه: «الكلام الّذي أكلّمكم به هو روحٌ وحياة» (يوحنّا ٦: ٦٣).

٤٧٣. اليوم يوجّه لنا المسيح السّؤال الأهمّ: مَن أنا في نظركم؟ المسيح لا يريد أجوبة المدارس والجامعات والكُتب؛ إنّه يريد أجوبة الاختبار الإيمانيّ الّذي عبّر عنه القدّيس يوحنّا في رسالته الأولى: «ذاك الّذي رأته عيوننا وسمعته آذننا ولمسته أيدينا به نُبشّركم»، نبشّركم بإلهٍ نحنُ نعرفه، نبشّركم بإلهٍ نحنُ اختبرناه، وعشنا معه ورأيناه ولمسته أيدينا.

٤٧٣. عندما نكون مع الله نفقد مفهوم الزّمن؛ كالحبيب مع حبيبته فهُما ينتظران موعد اللّقاء. المسيح يريد أن يلتقي بنا لكن نحن مَن يخترع الأسباب لنلغي اللّقاء أو نُقدِّم له الأعذار (راجع متّى ٢٢: ١-١٤)؛ من الطّبيعيّ أنّه عندما لا نحبّ لقاء شخصٍ معيّن، فإنّنا لا نحبّ ملقاه. الحياة مع الرّبّ بحاجةٍ إلى عزلةٍ. خروج الانسان من الحياة الرّوتينيّة والاعتزال (الاختلاء) بالرّبّ.

٤٧٤. أمّا صحّة الانسان فتكون في تخطّيه لذاته عبر اتّجاهه الى وجه خالقه وتقديمه له السُّبح النّقيّ والشّكران. وهذه الحقيقة الإنسانيّة الرّوحيّة عبّر عنها آباء الكنيسة حين عرّفوا الإنسان «**بالكائن الهِيمنولوجيّ**» (التّسبيحيّ)، أي أنّ معنى وجوده قائمٌ في أن يكون الله الّذي يليق به كلّ تسبيحٍ محورَ حياته. فيحيا «بكلّ كلمةٍ تخرج من فمه» (متّى ٤:٤)، ويجد ذاته المشتّتة، حين يتّجه الى المسيح، يجد ذاته تلتئم لتشكّل صورة الله. وفي صورة المسيح المصلوب ليدفُن الصّورة القديمة الّتي فينا، نجد قيامة صورتنا من الفساد.

٥) العلاقة الشّخصيّة بالرّبّ

٤٧٥. الصّليب ليس خشبةٍ أو خشبتين، واحدةً عاموديّةً والثّانيّة أفقيّةً... الصّليب يعبّر عن اتّحادي أنا الشّخصيّ بشخص المصلوب وليس بخشبة الصّليب... هنالك شخصٌ على خشبة الصّليب. الخشبة هي مادّةٌ زائلةٌ... وأنا أريد أن أتّحد بالمصلوب وهذه الخشبة سأَصلِبُ عليها الذّات وأتبنّى طريقًا جديدًا وحياةً جديدةً بفضل دم يسوع المسيح الَّذي يطهّرني من كلّ نجاسةٍ ومن كلّ خطيئةٍ ومن كلّ مَعثرةٍ. هذا هو الصّليب.

٤٧٦. قبول النّعمة الإلهيّة يمنح الإنسان الفرصة ليدخل في علاقةٍ مميّزةٍ مع المسيح ويشاركه حياته الإلهيّة؛ كما ويُعطي يسوع الإنسان أيضًا «الاشتراك في حياة الله الخاصّة».

٤٧٧. يسوع يحثّ مستمعيه كي يؤمنوا بابن الإنسان الَّذي يُعطي نفسَه، من خلال موته، حتّى يحيَوا هم. وهذه هي ثمرة الإيمان، الحياة الأبديّة الَّتي ما هي إلاّ إقامةٌ متبادلةٌ: الابن في المؤمن والمؤمن في الابن.

٤٧٨. كانت كلمة الله في العهد القديم دائمًا مُحيِيةً (تُعطي الحياة)؛ وهذا هو الحال مع يسوع أيضًا؛ فكلماته ليست مجرّد معلوماتٍ عن الله، بل إنّها تتضمّن سرّ الله والحياة في الله. فعندما يُصغي الإنسان بانفتاحٍ ويقبل كلماته بإخلاصٍ، سيختبر هذا الإنسان حضور الله ويُشاركه حياته الخاصّة.

٤٧٩. كلمة الله المتسامية كلّ التّسامي والمتميّزة عن الإنسان والخارجة عنه، تُصبح شيئًا فشيئًا كلمة الإنسان الشّخصيّة والمندمجة في عمق كيانه.

٤٨٠. ليس الإنسان كالشّمع الَّذي يتشكّل بأيّ تأثيرٍ خارجيٍّ، بل إنّه لا يفهم إلاّ ما يستوعبه ويدمجه ويجعله شخصيًّا: فما هو عامٌّ يُصبح خاصًّا، وما هو بعيدٌ يصبح قريبًا، وما هو خارجيٌّ يصبح داخليًّا، وما هو غريبٌ يصبح شخصيًّا. من هنا نقول إنّ العلاقة كلمة الله/وجود الإنسان لا تُمثِّل للمسيحيّة مشكلةً، وذلك بفضل التّجسّد.

٤٨١. العشاء السِّرّيّ هو مناسَبةٌ لتوطيد الاتّحاد الرّوحيّ مع الرّبّ القائم، وهو أيضًا اشتراكٌ في الوليمة السّماويّة، وتعبيرٌ عن الشّراكة في جسد المسيح.

٤٨٢. محبّة يسوع سوف تجلب أتباعه إلى علاقة التزامٍ معه: «أجابه يسوع: إذا لم أَغسِلْكَ فلا نصيبَ لكَ معي» (يوحنّا ١٣: ٨)، ويُمكننا إعادة صياغة هذه الآية بقولنا: «إذا لم أَمُتْ من أجلك، لا يوجد لك نصيبٌ معي». ليكون لك نصيبٌ «مع يسوع» يعني أن تكون في علاقةٍ شخصيّةٍ معه، وبالتّالي، في علاقةٍ مع الله.

٤٨٣. الحياة الروحيّة: كلّما شبعنا منها، عدنا إلى الجوع لها لأنّها لذيذةٌ ومُحيية: «ها إنّها ستأتي أيّامٌ يقول السّيّد الرّبّ أُرسل فيها الجوع على الأرض، لا الجوع إلى الخبز ولا العطش إلى الماء، بل إلى استماع كلمة الله» (عاموس ٨: ١١).

٤٨٤. الاتّحاد الوثيق والعميق بيسوع المسيح يأتي بكامله ليُقيم فينا، ونحن بكاملنا نقيم فيه، على حسب ما وعدنا به الرّبّ نفسه.

٤٨٥. بالدّخول في شراكة المسيح، تزداد فينا حياة النّعمة الجديدة، وتُشفى أمراض الخطيئة، ونتقوّى لمقاومة الخطيئة.

٦) يسوع الثّائر والحرّ

٤٨٦. ثارَ يسوع ضدّ التّقاليد الّتي أبطلت كلمة الله، والّتي بها كان فريقٌ من اليهود يخرقون وصيّة الله متعدّين النّاموس ومحبّة الله فصاروا «يكرّمون الله بشفاههم وقلبهم بعيدٌ منه» (أشعيا ٢٩: ١٣). لقد وطدّ يسوع علاقته مع الّذين كانوا مبغَضين، ومع العشّارين والخطأة والمضطَهدين والمنبوذين. لم يكن في وارد يسوع على الإطلاق رفض إنسانٍ أيًّا كان وكيفما كان، فالكلّ مدعوٌّ إلى فرح ملكوت الله. وهذه هي الثّورة الحقّة الّتي وضعت حَدًّا لنبذ إنسانٍ ما لسببٍ أو لآخر.

٤٨٧. لقد ردَّ يسوع للبشريّة بهاءها الأوّل فانتفضَ على كلّ ما يستعبد الإنسان محرِّرًا إيّاه جذريًّا من الخطيئة والموت، ودعا إلى ملكوته كلّ البشر الّذي شاءَهم أحبّاء لأبيه السّماويّ. المسيح المحرِّر هو اللّقب الأصحّ مع عمل المسيح الخلاصيّ.

٤٨٩. يسوع هو محرّر الضّمير من كلّ أشكال العبوديّة: عبوديّة الحرف، عبوديّة الخضوع لإلهٍ مجهولٍ أو بعيدٍ، عبوديّة ظالمٍ، عبوديّة البؤس والخوف، عبوديّة الانغلاق على العالم والآخر، وعلى الله.

٤٩٠. الرّسالة الخلاصيّة الَّتي جاء بها الرّبّ المخلِّص هي عودة الخاطئ عن خطيئته بتوبته الحقيقيّة الَّتي ما هي إلاّ فتح صفحةٍ جديدةٍ في العلاقة بين الإنسان والله.

٤٩١. التّحرّر يتطلّب منَ الإنسان ثورةً وانتفاضةً وانقلابًا على الذّات، على عاداتها السّيّئة، على القيم الفاسدة الَّتي شوّهت مفهوم العلاقة الصّحيحة مع الله. ساعتئذٍ، يتدخّل الله إلى جانب قرارنا الشّخصيّ هذا ويُزيح الحجر الكبير الَّذي وُضِعَ على باب قلوبنا، والَّذي جعل منها مكانًا للموت والعبوديّة، مكانًا تفوح منه رائحة الموت النَتِنة، قبرًا يحوي ذواتنا المنفصلة عن محبّة الله.

٤٩٢. عُرض على يسوع التّملّك والحريّة والسّيادة على هذا العالم. لم يتنكّر لأبيه ولم يؤخَذ بالمظاهر الخارجيّة ولم يستغلّ بنوّته الإلهيّة، إنّما ظلّ محافظًا على الأمانة. مَن يكون أمينًا في ما يعمله لا يمكن أن يصل إلى حالة النّكران.

٤٩٣. بعد أن أنكر بطرس يسوع ثلاث مرّاتٍ، نظر إليه، وهي النّظرة الّتي جعلت بطرس يكتشف عِظَم فعلته، فأخذ يبكي بُكاءًا مُرًّا. ولكن، على الرّغم مِن نكران بطرس، نرى في الإنجيل يسوع يسأله ثلاث مرّاتٍ، كي يذكّره أنّه أنكره ثلاث مرّاتٍ وليقول له أنّه لن يعاقبه وثقته به كبيرة وكما وعده سيكون صخرة الكنيسة.

• صلاة

ربّي، إنّي أقفُ حائرًا أمام عنايتكَ لي... أنتَ فقط يا ربّ مَن يصُبّ التفاتةً في وحدتي، أنتَ الّذي تُظلّل صحراء حياتي بحنانِك وعطفكَ. إلهي القدير، لقَد بحثتُ كثيراً، في كلّ مكانٍ، لأجدَ شيئاً مِن راحتي، إنّما ما لبثَت صحرائي إلّا وتكبُرو تهزع يومًا فيومًا. أشكركَ لمُلازمتكَ إيّاي، أشكركَ لأنّك وإن تركني الكلّ تبقى أنتَ وحدكَ الأمين والصّادق... أنتَ الّذي تُسربلُني بثوبِ دفئك كلّ ليلةٍ، وبشمسِ صباحكَ توقظ روحي وإن غابَت عن بصري.

يا ملكي، كلّل نفسي بحقّكَ، فأنا أضعف ما خلقتَ يا الله، أنا لستُ بأهلٍ حتّى لأن تنظُرَ إليّ. أشكركَ لأنّكَ معي. أقدّمُ لكَ حياتي ذبيحةً عن كلّ زلّاتي، فافتح لي ذراعَيكَ وخبّئني عندكَ لأتجدّد بحُبّك الّذي ليسَ له مثيل.

يا سيّدي الحبيب! عيناك بالحبّ تنظران إليّ، كما إلى المولود أعمى! ورثنا عن أبينا آدم عمى البصيرة، فلم نَعُدْ نتمتّع بجمال بهائك! هوذا الكثيرون حتّى من بين الّذين حولك يدينونَني! أمّا أنتَ فبحبِّك تطلب شفاء قلبي وبصيرته! أنت هو النّهار الّذي لا يَكُفّ عن أن يعمل؛ أنت النّور الّذي يبدِّد الظّلمة الّتي فيّ! لتُشرق عليّ بنورك، فأصير ابنًا للنّهار، ولا تغرب عن عينيّ يا شمس البرّ! أنت الخالق، جبلتني من التّراب، وبالطّين تهبني نورًا لعينيّ. على كلمتك آتي إليك. أغتسل بدمك، فتنفتح بصيرتي؛ أرى أبواب السّماء مفتوحةً أمامي ترحِّب بي! ملّت نفسي الحوار المستمرّ مع القريب والغريب. لم يَعُدْ لكثرة الكلام مكانٌ في قلبي. أعمالك مُشبعة، تشهد لإمكانيّاتك الإلهية. حبّك العمليّ يُبكم الألسنة المقاومة! نورك مشرقٌ في داخلي، لن تقدر قوّات الظّلمة أن تقاومه. مع المولود أعمى لا أخشى الطّرد، إذ يرفضني الجميع تتراءى أنت لي. وإذ أُطرد خارجًا، أجدك حاملاً الصّليب خارج المحلّة. أنت إله المطرودين والمرذولين. لينشغل الكلّ بالحوار الكثير. أمّا أنا فأسجد أمامك، وأتمتّع بشركة بهائك، وأنعم ببهجة سماواتك الّتي لا تنقطع!

آمين.

الباب الثّامن

ديناميكيّة العمل الرّعويّ

يُطلِعُنا هذا الباب على تحرّكات العمل الرّعويّ الدّائم، الّذي يتطلّب صلابةً أحيانًا وليونةً في أحيانٍ أخرى. فيشرح لنا جوهر وروحانيّة هذه الوظائف الرّعويّة الواقعة على كهل كلٍّ من الكاهن ومن الرّعيّة.

١) صعوبات الواقع الرّعويّ وتحدّياته

٤٩٤. الرّعاية علاقةٌ بين طرفين، إذ لا راعي بلا رعيّةٍ، ولا رعيّة بلا راعٍ.

٤٩٥. الرّعاية فنٌّ وعلمٌ في وقتٍ واحدٍ: فهي فنٌّ لأنّها ترتكز على الموهبة الّتي يزرعها الرّوح القدس في كلٍّ من المعنيّين؛ وهي علمٌ لأنّها طبٌّ إذا صحّ أداؤه يؤدّي إلى الشّفاء الرّوحيّ والخلاص. الرّعاية عمل جماعةٍ تحيا معًا في المسيح، إلى أن تقف كفردٍ أمامه.

٤٩٦. إنّها مسؤوليّة الإكليروس ألّا يفرض على الشّعب ما ليس أصيلاً، من جهةٍ، ومسؤوليّة الشّعب ألاّ يُلزِم الإكليروس بمواقف تتعارض مع ما يؤمنون به ويعلّمونه، من جهةٍ أخرى. من أجل هذا وجب على الرّعاة أن يعلّموا كي لا يستنسب لهم الشّعب ما يفعلون، كما وجب على المؤمنين أن يتحقّقوا ممّا يفعلون قبل طلبه.

٤٩٧. أكثر الجنازات والذّكرانيّات فيها ما يخالف التّقليد ويرضي التّقاليد. فهنا عائلةٌ تريد قدّاسًا مسائيًّا، وهناك عائلةٌ تريد كاهنًا من غير طائفةٍ، وهنا وهناك مَن لا يرضى بجنازةٍ أو بذكرانيّةٍ من دون مطرانٍ وكثيرٍ من الكهنة.

٤٩٨. يترأس الفيديو الخدمة في الأكاليل والعمادات. أصحاب العرس أو العمادة يتعاقدون مع المصوّرين ثمّ يأتون إلى الكنيسة يطالبون بتأمين الكهرباء والتّسهيلات، والويل للكاهن إن اشترط على المصوِّر موقعًا أو حركةً لا تُعرقل الخدمة الأسراريّة.

٤٩٩. الكنيسة هي المكان الّذي يجب أن يكون فيه الجميع سواسيةً؛ إنّها المكان الّذي لا تحكمه قوانين رفض الضّعيف والمُهمَّش والمسكين والمُشرَّد: بمعنى آخر، إنّها المكان الّذي تشعر فيه هذه الطّبقة من النّاس أنّها مكرَّمةٌ ومُحتضَنةٌ.

٥٠٠. سيُواجه الكاهن العديد من النّاس الَّذين لا يقدِّمون أيّة خدمةٍ ولا يحملون أيّة مسؤوليّةٍ في الكنيسة، لكنّهم لا يفتأون يعترضون ويناوئون ويتّهمون الآخرين ويدافعون عن أنفسهم. يدينون أعماله وأقواله بحقٍّ ودون حقٍّ غالبًا. وسيُشيّعون أنّ الكاهن أو الأسقف يضرّ بالكنيسة أو يسلب منها مالاً كان للفقراء... الكلُّ يطلبون من الكاهن كلَّ شيءٍ، حتّى النّاس الَّذين لا يساهمون بأيّ عملٍ ولا يشاركون بأيّة مسؤوليّة.

٥٠١. إنّ رسالة الكاهن هي أقسى عبوديّة.

٥٠٢. الرّعيّة هي جماعةٌ والمسيح في وسطها. من هنا، لا ينبغي بالكاهن أن يضحّي بما هو أساسيٌّ حفظًا للعلاقة مع أبناء الرّعيّة الّذين قد يطلبون استثناءاتٍ تُنمّي بذور التّمييز بين إنسانٍ وإنسانٍ في الرّعيّة، وكأنّ الكنيسة أصبحت مكانًا يتميّز فيه الغنيّ عن الفقير، والقويّ عن الضّعيف، والمتمرِّد عن المُطيع والخاضع لسلطة الكنيسة.

٥٠٣. لا نسترضينّ مَن لا ينبغي إرضاؤه لتجنّب الصّليب وتأمين راحتنا. لا نسعيَنّ لإيجاد وسائدَ تافهةٍ نريح عليها ضميرنا المُذنِب. إذ عندها تسمح إرادة الله بأن نعانيَ من تجاربَ قاسيةٍ ونخسر المكافأة في السّماء.

٥٠٤. هناك حالاتٌ كثيرةٌ يُحرَج فيها الكاهن ويكون مخرجه مخالفة القانون بحجّة التّدبير. لا يليق أن يصبح التّدبير القاعدة والقانون الشّواذ. الكاهن حاملٌ لوديعةٍ تتطلّب منه أن يكون أمينًا عليها، لأنّها ستُطلب منه يوم الدّينونة، عندما يقف أمام منبر الدّيّان العادل. إن خَشِيَ الكاهن من أن «يَحرد» أبناؤه عن غير حقٍّ، يكون سالكًا في ضعفٍ مُعطِّلاً النّعمة الَّتي تلقّاها يوم السّيامة والَّتي تكمّل كلّ ضعفٍ: «وأمّا إن حابيتم الوجوه، فإنّكم ترتكبون الخطيئة، والنّاموس يحجُّكم كمتعدِّين» (يعقوب ٢: ٩).

٥٠٥. إنّ العلاقة الصّحيحة الّتي يجب أن تربط الأسقف بالكاهن وأبناء الأبرشيّة، من جهة، والكاهن بأبناء رعيّته، من جهةٍ أخرى، تكمن في **العلاقة الكنسيّة وليس في العلاقة الشّخصيّة**. فالعلاقة الشّخصيّة قد تؤول إلى الفشل، وبالتّالي، قد تمنع الإنسان من المجيء إلى الكنيسة، لأنّ الكاهن الفلانيّ هو الّذي يحتفل بالأسرار، لأنّها **علاقةٌ بشريّةٌ تحكمها ظروف الإنسان وطِباعه ومزاجيّته**؛ أمّا العلاقة الكنسيّة، فحتّى ولو باءت بالفشل، إلاّ أنّ فُرص إعادة بنائها أكبر، لأنّها علاقةٌ تعرف المغفرة والمصالحة والتّسامح: إنّها **علاقةٌ روحيّة، تحكمها المحبّة والانفتاح على عمل الله**.

٥٠٦. تجد الخدمة الرّعويّة جذورها في كلمة الله، وقوّتها في قداسة خدّامها، ونموّها في حياة الرّوح المتّقدة بالإيمان والغيرة الرّسوليّة، وامتدادها من خلال تعاليم وثائق المجامع المسكونيّة، والإرشادات الرّسوليّة، وسلطة الكنيسة التّعليميّة، والتّوجيهات الرّعويّة للرّؤساء الكنسيّين.

٥٠٧. على الكاهن والرّعية معًا أن يفهموا أنّ الكاهن ليس موظّفًا كنسيًّا، وإلاّ لهانت السّيمونيّة عليه (هي نوال أيّ درجةٍ كهنوتيّةٍ عن غير استحقاقٍ عن طريق الرّشوة، وهي نسبةٌ إلى سمعان السّاحر، راجع أعمال ٨: ١٨-٢١).

٢) أصالة الطّقوس الكنسيّة

٥٠٨. الطّقوس هي مَعْبَرٌ للقداسة.

٥٠٩. أمّا بخصوص الخدمة الإلهيّة فيجب أن تعلم أنّه لا يكفيك الوقوف في الكنيسة بالجسم، بل ينبغي أن تشترك بالصّلاة بعقلك ونفسك وتُوجِّه قلبك وعقلك نحو الأسرار الطّاهرة بكلّ ورعٍ متعبّدًا لله بخوفٍ ورعدةٍ.

٥١٠. ما يجري في الكنيسة هو صلاةٌ وليس استعراضًا أو فيلمًا سينمائيًّا. الخفّة في التّعاطي مع اللّيتورجيّا تُبعد النّعمة الأسراريّة المؤلِّهة للطّبيعة البشريّة السّاقطة في الخطيئة.

٥١١. تُعلِّم الكنيسة المقدّسة في اللّيتورجيّا العقيدة السّليمة وتُعبِّر عن الإيمان القويم، لأنّ اللّيتورجيّا هي العقيدة والعقيدة هي اللّيتورجيّا ونحن نُصلّي ونرتّل بما نؤمن وبما علّمت به الكنيسة المقدّسة، حافظة الإيمان المسلَّم والشّاهدة للوحي وجسد المسيح الإله-الإنسان ومكان التّألّه.

٥١٢. إنّ هدف الممارسات الطّقسيّة في الكنيسة، وبخاصّةٍ الشّركة الإفخارستيّة، هو تحقيق التّحوّل الجذريّ للشّخص، من جسد الموت إلى جسدٍ ممجَّدٍ، جسد التّقديس. عالقًا في معركةٍ مُحتَدِمةٍ بين رغبته بالرّبّ و«ناموس الخطيئة» الّذي يأسره، يصرخ الرّسول بولس: «ويحي أنا الإنسان الشّقيّ! مَن ينقذني من جسد هذا الموت؟» (رومة ٧: ٢٤).

٣) أسرار الكنيسة المقدّسة

١. ماهيّة الأسرار

٥١٣. الرّبّ يسوع هو السّرّ «المكتوم في الأزمنة الأزليَّة» (رومة ١٦: ٢٥) وقد تجسَّد في ملء الزّمان وخلّص الإنسان وافتداه، وعندما صَعِدَ إلى السّموات بعد قيامته لم يتركه «لن أدعكم يتامى» (يوحنّا ١٤: ١٨) بل أرسل الرّوح القدس (يوحنّا ١٤: ٢٦) وأسَّس الكنيسة وأقامها جسده الحامل الحياة و«عمود الحقّ ورُكنه» (١ تيموثاوس ٣: ١٥).

٥١٤. الكنيسة جسد المسيح الحيّ والمُحيي تحتضن المؤمنين بالرّوح القدس الفاعل فيها (راجع يوحنّا ١٤: ١٦).

٥١٥. الأسرار أفعالٌ مقدّسةٌ تقيمها الكنيسة بقوّة الرّوح القدس وتمنح بها المؤمنين نعمة الرّوح بعلاماتٍ محسوسةٍ لتقديسهم وجعلهم أبناءً حقيقيّين لله بعبادةٍ فريدةٍ، بحيث يضمّهم هو إلى ذاته وإلى الكنيسة جسده فينمون هم في النّعمة والقامة صائرين أشخاصًا كاملين على «قياس قامة ملء المسيح، كنيسةٍ مجيدةٍ لا عيب فيها ولا دنس ولا شيء مثل ذلك» (أفسس ٤: ١٣، ٥: ٢٧).

٥١٦. في حياة الأسرار يمارس المؤمن حياة «التّجلّي» و«التّجديد». دور الكاهن ليس التّعليم والقيادة الإداريّة فقط، بل بالأحرى وأوّلاً إحياء الحياة الطّقسيّة والأسراريّة وجَعْل المؤمنين يمارسون العبادة المسيحيّة بوعيٍ ومشاركةٍ حقيقيّةٍ. في هذا المحيط يحيا المسيحيّ حياة التّوبة والتّجديد والنّموّ الرّوحيّ.

٢. اللّاهوت الأسراريّ

٥١٧. إنّ الكنيسة هي مركز ومكان شفاء الإنسان الرّوحيّ والجسديّ. فالكنيسة، جسد المسيح الإله-الإنسان، هي مكان عمل الرّوح المُحيي، مكان الشّفاء والتّألّه، إذ إنّ يسوع المسيح هو طبيبُ النّفوس والأجساد، يشفي المؤمنين من خلال الأسرار الكنسيّة المقدسّة، وبخاصّةٍ في سرَّيِّ التّوبة ومسحة المرضى.

٥١٨. المعموديَّة هي الباب الّذي به ندخل إلى الحياة في المسيح يسوع. لقد سقط آدم فتغرّب عن الحياة الحقيقيّة والوجود، أي الله، واندسّ في الإنسان الموت الرّوحيّ وكلّ نتائجه مثل البلى والفساد والميل إلى الخطيئة وموت الجسد.

٥١٩. المعموديَّة اشتراكٌ في موت المسيح وقيامته (رومة ٦: ٥-٦). في المعموديّة يلبس الإنسان المسيح، ويخلع الإنسان العتيق، يموت عن الخطيئة والإثم، ويتجدَّد بالبِرّ والقداسة، فلا يعود هو الّذي يعيش، بل المسيح هو الّذي يحيا فيه (غلاطية ٢: ٢٠).

٥٢٠. إنّ المعموديّة هي سرّ تجدُّدٍ، وعبورٌ من حياةٍ قديمةٍ محورها إبليس إلى حياةٍ جديدةٍ مركزها يسوع المسيح، وإعادة خلقٍ، وفصحٌ شخصيٌّ، وعنصرةٌ شخصيّةٌ، واندماجٌ في شعب الله، وظهورٌ لملكوت الله.

٥٢١. المعموديَّة، في جوهرها، سرٌّ فصحيٌّ. لأنّها الولادة الثّانيّة الّتي فيها يدفن المعتمد مع المسيح ويقوم معه. والفصح هو القيامة والغَلَبَة على الموت، وحتّى عبارة «أنتم الّذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم» تبطن معنى القيامة لأنّ ذاك الّذي لبسناه ودُفِنّا معه هو الّذي قام وأقامنا معه.

٥٢٢. دعوة الإنسان قبل سقوطه كانت أن يملك على الخليقة (راجع تكوين ١: ٣٨) من خلال تقديم هذه الخليقة ذبيحةَ شكرٍ لله، ومن خلال إشراكها في قداسته. لكنّ سقوط الإنسان أدى إلى انحرافه عن هذه الدّعوة، فتحوَّلت علاقته بالخليقة إلى علاقة مستَهلكٍ، يسود عليها من أجل نفسه، فيستفيد هو منها بدل أن يقرّبها لله. لذا تأتي المعموديّة تصحيحًا لهذا الآنحراف، كونها تغرسه في موت الرّبّ يسوع وقيامته، اللّذين من شأنهما إصلاح البشريَّة السّاقطة.

٥٢٣ . إنّ ليتورجيّا الفصح هي بالتّحديد ليتورجيّا للمعموديّة، لأنّ هذه الأخيرة كانت تُقام ليلة الفصح بالذّات (أي في سبت النّور). لذا، فإنّنا نلاحظ أنّ القراءات الكتابيّة الّتي تُتلى على مسامع المؤمنين مساء الفصح عن عبور البحر الأحمر أو الفتية الثّلاث في الأتّون أو يونان في بطن الحوت، تُمثِّل أقدم صور المعموديّة.

٥٢٤. المعموديّة بدايةُ عرسٍ روحيٍّ، تصير به النّفس عروسةً للمسيح، يزيّنها الجمال الإلهيّ ويحبّها العريس حبًّا كاملاً لا حدّ له، إذ إنّه هو الّذي أعطى ذاته للموت من أجلها.

٥٢٥. يخرج الإنسان من جرن المعموديّة مولودًا جديدًا لا من لحمٍ ودمٍ ولا من مشيئة رجل، بل من الله (راجع يوحنّا ١: ١٣)، ويعود إلى جماله الأول وكيانه الحقيقيّ ويشترك في موت المسيح وقيامته، ويتجدّد بالبِرّ والقداسة ويتجنّد للمسيح، ويتعهّد «ألاّ يرتبك في شؤون الحياة بل أن يُرضي مَن جنَّده» (٢ تيموثاوس ٢: ٤)، وأن يُنهيَ طريق استنارته وتألّهه «على صورة خالقه» (كولسّي ٣: ١٠). ثمّ يُمسَح بعد ذلك بالميرون المقدّس فيحصل على ختم الرّوح القدس ويَنعم بمواهبه الإلهية، ويشترك بعد ذلك بجسد الرّبّ ودمه الكريمَين في الإفخارستيّا مع الجماعة المؤمنة.

٥٢٦. وهكذا، يكتمل انتماؤه إلى جسد المسيح، الكنيسة. فبالمعموديّة يُولد الإنسان في المسيح، وبالميرون يحصل على مواهب الرّوح الّتي تقوّيه لينمو في الحياة الجديدة، وتُرشده إلى كلّ الحقّ لكي يصير شاهدًا لاسم الرّبّ، وبالإفخارستيّا يشترك بمائدة الرّبّ الّتي تمنحه الحياة الأبديّة: «مَن يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبديّة، وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يوحنّا ٦: ٥٤)، ويصير شريك الطّبيعة الإلهيّة (٢ بطرس ١: ٤)، ويصبح بالتّالي غصنًا من كرمة الحياة.

٥٢٧. نلاحظ أنّ المسيحيّين في زماننا الحاضر باتوا يهتمّون في سرّ المعموديّة المقدّس من ناحية الأمور الدّنيويّة (المطعم، اللّباس..)، كما نرى حالةً متجذّرةً من اللّامبالاة والفوضى، ناهيك عن أنّ اختيار العرّاب أو العرّابة لا يُعبِّر عن الدّور المطلوب منهما كنسيًّا، إذ إنّهما لا يفقهان شيئًا من أُسُس الإيمان المسيحيّ، حتّى إنّهما لا يعرفان قانون الإيمان ولا حتّى الأبانا. فأيّ دورٍ روحيٍّ تتوقّع في هذه الحالة؟ كيف يُمكن للأهل تنميّة الإيمان والنّعمة في قلوب أبنائهم إذا كانوا هم غير مُدركين فاعليّتها في حياتهم؟ هذا هو وضعنا الحزين اليوم.

٥٢٨. الإفخارستيّا الحقيقيّة هي اختبارٌ حياتيٌّ وإيمانيٌّ، وإصغاءٌ إلى كلمة الله، ودعوةٌ نوجِّهها إلى يسوع ليمكثَ معنا، ودخولٌ في شركةٍ معه ليتسنّى لنا أن نُعلن الأخبار السّارّة للعالم أجمع.

٥٢٩. الإفخارستيّا الإلهيّة هي «شركة قدّيسين» بامتياز؛ إنّها أَوْج التّقديس، ليس فقط لأنّها تمنح الإنسان الشّركة الأكثر كمالاً وملئًا (جسديًّا وروحيًّا) مع القدّوس الواحد الوحيد، بل لأنّها أيضًا تشكّل التّصوير الأكثر كمالاً للملكوت...

٤) سلطة الكنيسة التّعليميّة والتّدبيريّة

١. الأسقفُ في الكنيسة

٥٣٠. كلّ الأدوار في الكنيسة تنشأ من الخدمة الإفخارستيّة. الأسقف هو شخصٌ إفخارستيٌّ. دوره القياديّ ينبع من ترأُس القدّاس الإلهيّ، وكلّ مهامه الأخرى من تعليميّةٍ وإداريّةٍ تُفسَّر على ضوء دوره كمقيمٍ للذّبيحة.

٥٣١. على الرّعيّة أن لا تنسى، كاهنًا ومؤمنين، أنّ الأسقف هو القاطع كلمة الحقّ بصواب، وأنّه هو صورة المسيح. علاقة الرّعيّة به لا تُحصر بزيارةٍ في عيدها إضافةً إلى بعض الجنّازات أو الخِدَم الأسراريّة، بل تتعدّاها إلى حياةٍ تُتبادل وتُعاش.

٥٣٢. الرّعيّة تجسّد حقيقة الكنيسة: حيث الأسقف هناك الكنيسة. والأسقف يتابع مهمّة الرّسل، والحركة في الرّعيّة هي حركةٌ كنسيّةٌ أي رسوليّةٌ: أساسها الرّسل وتعليمهم. من هنا تنميّة حسّ الانتماء إلى الكنيسة والافتخار بهذا الإنتماء.

٥٣٣. يجب على الأسقف أن يَقْتَنِيَ شخصيًّا النّعمة الإلهيّة وأن يكون ذهنه مستنيرًا بالرّوح القدس، ليتصرّف بموجب السّلطان الإلهيّ، بعيدًا عن التّصرّف وَفقًا لدوافعَ بشريّةٍ محضةٍ؛ ويجب ألاّ يتعارض أيضًا تصرّف الأسقف في إدارة شؤون أبرشيّته مع القوانين، أي مع مشيئة الكنيسة.

٢. السّلطة (القيادة) في الكنيسة، خدمةٌ وتضحيّةٌ

٥٣٤. ليست الكنيسة مؤسّسةً دينيّةً يُمارس الله فيها سلطته على البشر من خلال الإكليروس، بل هي جسد المسيح بكامل أعضائها، مكرَّسين وعلمانيّين، لأنّها شعب الله الجديد الّذي جمعه الرّبّ يسوع المسيح وخلّصه وافتداه.

٥٣٥. إنّ كلّ سلطةٍ في الكنيسة يجب أن تكون مقبولةً باعتبارها شكلاً من أشكال بقاء يسوع مع خاصّته الّذين ما زالوا في العالم، بحيث لا يُمكن لهذه السّلطة أن تُمارَس بعيدًا عن روح التّواضع وخدمة المحبّة (١٣: ١-٢٠) وفقًا لمثال الرّاعي الصّالح (١٠: ١١-١٨).

٥٣٦. يجد القائد المسيحيّ في إنجيل يوحنّا، الإصحاح الثّالث عشر، القوّةَ الدّافعة إلى خدمة الآخرين وكسر قيود الذّات والأنانيّة المناوئة لروح الخدمة.

٥٣٧. يجب أن يكون القائد المسيحيّ عظيمًا في شخصيّته. إنّها شخصيّة «الرّاعي الصّالح الّذي يبذل نفسه عن الخراف»، أي إنّها قيادةٌ على غرار عمل المسيح.

٥٣٨. إنّ هذا النّوع من القيادة لا يكتمل بمجرّد إصدار الأوامر لشعب الرّبّ، بل بالعمل الّذي يتضمّن روح التّضحيّة والبذل والعطاء السّخيّ في سبيل الآخرين والمحبّة الّتي قد تصل إلى حدود الصّليب، على مثال المعلّم الصّالح، يسوع المسيح (راجع يوحنّا ١٣: ١٥-١٦؛ ١٥: ١٢-١٣).

٥٣٩. لقد علّم يسوع تلاميذه أنّ القيادة في ملكوته هي درب آلام، «حتّى الصّليب». قال يسوع إنّ مَن يريد اتّباعه عليه أن يميّز ما بين «الرّغبة» و«الواجب،» فيُنكِر نفسه ويحمل صليبه في كلّ يومٍ. يسعى الإنسان عادةً ليتمِّم رغبته أكثر من واجبه. لكنّ واجب القيادة الّذي يضعه المسيح ليس مطلبًا اعتباطيًّا، بل هو مبدأٌ أساسيّ قائمٌ على الخدمة وبذل النّفس فدية.

٥٤٠. إنّ سلطة الكنيسة منفتحةٌ على قدرة الله، وهي بالتّالي مصدررجاءٍ لنا. ولهذا السّبب، فإنّ الإلتزام الدّاخليّ بسلطة الكنيسة في فعلِ طاعةٍ عميقةٍ هو القرار الأساسيّ في الوجود الكهنوتيّ.

٥٤١. إنّ السّلطة هي مشارَكةٌ في رسالة المسيح، يجب أن تُعاش وتُمارَس في التّواضع والتّضحيّة وبروح الخدمة: «فإنّ ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم بل ليَخدُم ويبذل نفسه عن كثيرين» (مرقس ١٠: ٤٥).

٥٤٢. إنّ أكثر ما تحتاج إليه الكنيسة في القرن الحادي والعشرين هو **قائدٌ خادمٌ**، ذلك أنّ تعاني الكنائس من مشكلة الافتقار إلى قادة خدّام. فلقد استبدلت معظم الكنائس المعاصرة «المنشفة والمَغسل» (يوحنّا ١٣: ٤-٥) كرمزَين للقيادة بالرّئاسة والسّلطة الفارغة من مضامينها الإنجيليّة (راجع مرقس ١٠: ٤٢-٤٤).

٥٤٣. القيادة المسيحيّة هي أكثر من مجرّد مفهومٍ يُعرَّف؛ إنّها دعوةٌ تُطاع، وتكليفٌ يُنفَّذ. إنّها دعوةٌ إلهيّةٌ إلى القائد المسيحيّ، لكي يمارس مواهبه في خدمة فريقٍ محدّدٍ من النّاس، بهدف تمجيد المسيح.

٥٤٤. لذا من واجب القائد المسيحيّ أن يكون مثالاً يحتذي به باقي أعضاء جسد المسيح. وهو عندما يتبع مثالَ المسيح في حياته وخدمته، سريعًا ما يدرك أنّ الخدمة ينبغي أن تكون أولويّةً في حياته، وأنّ فوزه قد تمّ على الصّليب وفي القيامة، وأنّ نجاحه يُقاس بالخدمة ليس إلاّ.

٥٤٥. من هنا، فإنّ المحبّة يجب أن تكون دافع القيادة المسيحيّة، والخدمة أسلوبها، والفداء هدفها.

٥٤٦. تختلف القيادة في ملكوت الله عن مثيلاتها في العالم. فالقادة المسيحيّون يتبعون مثال المسيح وينسجون على منواله، ويُسَرّون بلقب الخادم ومهامّه، لكي يمجّدوا الله ويؤهِلوا آخرين للخدمة مكوّنين بذلك فريقًا متجانسًا.

٥٤٧. تسطع النّجوميّة في الكنيسة المسيحيّة بالخدمة المضحِّية، وليس بالرّئاسة المتفرِّجَة. إنّ القائد المسيحيّ هو عبدٌ متألِّمٌ، يضع نصب عينَيه المبادئ الأساسيّة التّاليّة:

١. التّواضع (لوقا ١٤: ٧-١١)؛
٢. اِتِّباع المسيح وليس البحث عن مركزٍ (مرقس ١٠: ٣٢-٤٠)؛
٣. نبذ الحقوق الذّاتيّة في سبيل خدمة مصالح الآخرين (مرقس ١٠: ٤٢-٤٥)؛
٤. الاتّكال على الله المسيطر على الحياة (يوحنّا ١٣: ٣)؛
٥. الاتِّزار بالمنشفة لتسديد احتياجات الآخرين (يوحنّا ١٣: ٤-١١)؛
٦. مشاركة المسؤوليّة والسّلطة مع الغير للوصول إلى أسمى الغايات (أعمال ٦: ١-٦)؛

٧. مضاعفة المهامّ بتكليف الآخرين بالقيادة وتدريبهم عليها (خروج ١٨: ١٧-٢٣).

٥٤٨. تختلف القيادة في ملكوت الله عن مثيلاتها في العالم. فالقادة المسيحيّون يتبعون مثال المسيح وينسجون على منواله، ويُسَرّون بلقب الخادم ومهامّه، لكي يمجّدوا الله ويؤهِلوا آخرين للخدمة مكوّنين بذلك فريقًا متجانسًا.

٥٤٩. ينسى النّاس أنّ **القيادة الكتابيّة** هي امتيازٌ يحمل مسؤوليّة تليها محاسبةٌ: امتيازٌ بسبب الصّفات الذّاتيّة الّتي يسعون لامتلاكها، ومسؤوليّةٌ تجاه الله والرّعيّة وباقي الخدّام، وحسابٌ يقدّمونه أمام كرسيّ المسيح عن خدمتهم وعن الّذين يخدمونهم (عبرانيّين ١٣: ١٧).

٣. أساس القانون الكنسيّ: خير النّفوس

٥٥٠. لمّا لم يكن النّاس جميعًا من الطّينة ذاتها، ولم تكن الأمور دومًا على نفس الدّرجة من التّحديد والوضوح، نشأ مبدأ التّدبير. فالشّرع والقوانين في الكنيسة ليسوا جامدين، خاصّةً أنّ الهدف ليس الصّحّة القانونيّة بقدر ما هو الصحّة والكمال الرّوحيَّين. من هنا نجد أنّ بعض الاستثناءات للقوانين ممكنةٌ، في حال عدم تعارضها مع شُرعة الضّمير، وتصبّ، في الوقت عينه، في مصلحة الجماعة كلّها.

٥٥١. الشّرع الكنسيّ هو قانون النّعمة قبل كلّ شيءٍ، واهتمامه الأوّليّ هو خير النّفوس، كما أعلن يومًا الرّبّ يسوع في الإنجيل المقدّس: «إنّ السّبت جُعِلَ للإنسان لا الإنسانُ للسّبت. وابنُ البشر هو ربُّ السّبت أيضًا» (مرقس ٢: ٢٧-٢٨).

٥٥٢. الكنيسة، كونها الجسد السّرّيّ للمسيح، عندها وسائلها لتحقيق خلاص أبنائها. عدم احترام القوانين يُعرقل عمل الكنيسة ويشوّش على الخلاص. ومع أنّ الكنيسة هي مؤسّسةٌ بشريّةٌ وإلهيّةٌ في وقتٍ واحد، فإنّ وجهها الأرضيّ يسود عليه الرّوح.

٥٥٣. وطالما أنّ الكنيسة ما زالت مجاهدةً في هذا العالم، فإنّ تقليدها القانونيّ والتّشريعيّ يبقى جزءًا أساسيًّا من حياتها الأرضيّة يؤمّن لها وسائل الأمان والحماية الّتي في إطارها تنمو الحياة في الرّوح وتُحفَظ. مَن أراد الحفاظ على الكنيسة وخلاص أبنائها يحفظ قوانينها.

٥٥٤. يُعبِّر القانون عن مشيئة الكنيسة، إذ إنّه بمثابة تطبيقٍ للإيمان، ولأساسيّات السّلوك المسيحيّ على مستوى الفرد والكنيسة ككلّ. وقوانين الكنيسة هي نموذجٌ لاتّجاه الكنيسة الدّائم للتّعبير عن تعليمها العقائديّ والكنسيّ والرّعويّ، ولتطبيع تدبيرها بحسب احتياجات ومستجدات العصر.

٥٥٥. الآباء القدّيسون وضعوا قوانين الكنيسة لأنّهم يعرفون أنّ النّفس البشريّة جانحةٌ إلى الخطأ. حبّذا لو أنّ الشّعب يتعاطى مع قوانين الكنيسة كما مع قوانين الدّول فيطلب تطبيقها قبل أن يطلب التّدبير، وحبّذا لو أنّ الإكليروس يتمسّك بالقوانين وتوجيهات الأسقف مميّزًا بين التّدبير والتّحليل.

٥٥٦. يمارس القائد السُّلطة في الكنيسة وليس عليها. على هذا الأساس يجب أن يمارس القادة الرّوحيّون، الكهنة وخاصةً الأساقفة، دورهم القياديّ في الكنيسة. فهم أصحاب سلطةٍ إلهيّةٍ للقيادة والتّعليم والإرشاد والتّنظيم، ولكن على طريقة المسيح أي في المحبّة والخدمة، وليس في أيّ اهتمامٍ شخصيٍّ أو رغبةٍ أخرى.

٥٥٧. مشكلة المشاكل اليوم في كنيستنا تكمن في أنّ كلّ مسؤولٍ صار يعتبر «التّدبير» من صلاحيّاته، فصارت أغلب القوانين هي الشّواذ وصار القانون ما يستنسبه هذا الأسقف أو ذاك الكاهن.

٥٥٨. صحيحٌ أنّ الحرف يقتل والرّوح يُحيي، وصحيحٌ أنّ هناك أيضًا إمكانيّة الاجتهاد في تفسير القوانين، لكنّ الأصحّ هو أنّ شيئًا لم يوجد من دون هدفٍ، وأنّ ما نسمّيه قوانين وُجد ليفعّل روح الكنيسة في المحبّة والحكمة الّتي من دونها يصبح اللّجوء إلى القوانين شرًّا أكبر. من هنا ضرورة أن يأخذ كلّ شخصٍ مكانه.

٥٥٩. في الوقت ذاته، يُذنِب «اللّاهوت المسيحيّ» حين يفقد أصالته، يفقد رسالته الرّعائيّة والتّبشيرية وإمكانيّة شفاء الانسان وبلسمة جراحه. **لا يعود اللّاهوت ذاك السّامريّ الشّفوق** الّذي ينحني ليرفع الانسان من وهدة جراحه. يُضحي صِيَغًا فكريّةً عقيمةً لا تُسلّي سوى المُتَحَذلقين عوض أن يكون منهاجًا لشفاء الانسان لتكون له حياةٌ (بالاستنارة) وتكون له أفضل (بالتّمجيد) (راجع يوحنّا ١٠: ١٠).

٥) العلمانيّ في الكنيسة

١. العلمانيّ عضوٌ في شعب الله

٥٦٠. مفهوم «شعب الله» رئيسيٌّ في الكتاب المقدّس، الّذي يشهد أنّ الله قد اختار شعبًا واحدًا من بين العديد حتّى يكون أداته الخاصّة في التّاريخ، ويتمِّم قصده ويُهيئ، فوق كلّ شيءٍ آخر، لمجيء المسيح مخلِّص العالم. لقد دخل الله مع هذا الشّعب الواحد في «ميثاق»، في عهدٍ أو اتفاق من الانتماء المتبادل. فالعهد القديم، من ناحيةٍ ثانيةٍ، ليس سوى تحضيرٍ للعهد الجديد.

٥٦١. في المسيح، امتدَّت امتيازات «شعب الله» واختياره إلى جميع الّذين قبلوه وآمنوا به وهم على استعدادٍ أن يقبلوه كإلهٍ ومخلِّصٍ. هكذا، الكنيسة أو جماعة المؤمنين بالمسيح، أصبحت شعب الله الحقيقيّ (Laos) وكلّ مسيحيٍّ (Laikos) أصبح عضوًا في شعب الله.

٥٦٢. الكنيسة، جسد المسيح السرّيّ، هي في وجهها المنظور جماعةٌ منظّمةٌ مؤلّفةٌ من معمَّدين نالوا موهبة النّعمة من الله الّذي دعاهم لرسالةٍ وخدمةٍ في الكنيسة ومن أجل الكنيسة. ليست الموهبة مُعطاةً للشّخص فقط، بل للكنيسة أيضًا، وهي، بالمعموديّة وبسائر الأسرار، تشرك المؤمنين في وظيفة المسيح المثلّثة: النّبويّة والكهنوتيّة والملوكيّة، وتوليهم حقوقًا وواجبات، ما يستدعي وجود شرائع ومؤسّسات.

٥٦٣. الكنيسة جماعة إيمانٍ ورجاءٍ ومحبّةٍ، وفي الوقت عينه، شركةُ أشخاصٍ منظورةٌ تراتبيّةٌ تؤلّف جسد المسيح السّرّيّ، وهي بالتّالي مؤلّفةٌ من عنصرين إلهيٍّ وبشريٍّ، روحيٍّ وزمنيٍّ، في وحدةٍ لا تنفصم. ولهذا لا بدّ من قوانين وضعيّةٍ تؤمّن حفظ الشّريعة الالهيّة الموحاة والشّريعة الطّبيعيّة والشّريعة الخُلُقيّة من أجل صلاح الأفعال البشريّة، وتنظيم المسلك المسيحيّ، وخلاص النّفوس.

٥٦٤. إنّ العلمانيّين مدعوّون إلى الالتزام بالبُنى الكنسيّة وعدم الاكتفاء بالانتساب السّوسيولوجيّ (الاجتماعيّ) الطّائفيّ، بل التّعمّق في الإيمان الحيّ من خلال الحياة الإيمانيّة الأصيلة والتّنشئة المستمرّة، والاستعداد لوضع مؤهّلاتهم في خدمة الكنيسة. وهكذا **يتمّ الخروج من مفهوم الكنيسة الإكليريكيّة إلى مفهوم الكنيسة الشّركة**.

٥٦٥. هل العلمانيّ مكرَّسٌ أم أنّ التّكريس مقتصرٌ على المُنتمين إلى الحياة الرّهبانيّة والكهنوتيّة؟ نجد الإجابة عن هذا السّؤال في سرّ الميرون المقدّس الّذي يلي المعموديّة. لماذا يوجد سِرّان وليس واحدًا فقط للدّخول في الكنيسة؟ لأنّه إذا كانت المعموديّة تُجدِّد فينا طبيعتنا البشريّة الحقيقيّة الّتي أظلمت من جرّاء الخطيئة، فإنّ المَسح بالميرون يمنحنا القوّة الإيجابيّة والنّعمة كي نصير مسيحيّين، ونتصرّف كمسيحيّين، ونبني معًا كنيسة الله ونكون مشاركين مسؤولين في حياتها. لذلك نُصلّي كي يصبح المعتَمِد الجديد: «عضوًا كريمًا لكنيستك، وإناءً مقدَّسًا، وابنًا للنّور، ووارثًا لملكوتك، وبعد أن يحفظ موهبة روحك القدّوس ويُنميَ وديعة النّعمة يأخذ جائزة الدّعوة العلويّة ويُحصى مع الأبكار المكتوبين في السّماء».

٢. الاستعمال الخاطئ للسّلطة

٥٦٦. لا يمكن للكاهن أن يكون أَحاديّ الرّأي والقرار، ولا يمكن بالتّالي للعلمانيّ في الكنيسة أن يكون كذلك. على الكاهن والعلمانيّ التّوافق في الرّؤية والعمل لأجل مصلحة الرّعيّة العُليا.

٥٦٧. كنيستنا لا تشرّع «السّلطة السّياديّة» وإن كان هناك مَن يمارسها، إنْ من الإكليروس أو من العلمانيّين وبخاصّةٍ أولئك الّذين يُشاركون في حياة الكنيسة الوظائفيّة.

٣. دور العلمانيّ السّلبيّ في الكنيسة

٥٦٨. قيودٌ روحيّة

أ. **الانتقاد:** عددٌ غير قليلٍ من العلمانيّين يسهل عليهم الانتقاد، فهم لا يعجبهم العجب مع أنّهم لا يريدون أن يعملوا أو يدفعوا، أو يعطوا من وقتهم، بل منهم مَن دخل مؤسّسات الكنيسة وخرج وهو لا يعرف ما هي الخدمة، وظنّ الأمر سلطةً ومناصب.

ب. **التّعصّب الأعمى:** مرضٌ خطيرٌ يُصاب به الكثيرون، ولا يريدون أن يشفوا منه. هم يصرخون ويكيلون الشّتائم ويغضبون ليحافظوا على تعصّبهم الأعمى للطّائفة والطّقوس... ويعتبرونه أمانةً للتّاريخ.

ت. **سوء تقدير الأولويّات في الكنيسة:** سواء كان الأمر عن قصدٍ أو عن جهلٍ فالنّتيجة واحدةٌ هي أنّ لدى بعض علمانيِّينا نظرةً خاطئةً في تقدير الأولويّات في الكنيسة . فهم يريدونها بيزنطيّةً قبل أن تكون مسيحيّةً؛ ومنهم يريدونها للأنشطة والحفلات والتّسليّة قبل أن تكون مكانًا مميّزًا للصّلوات والتّأملات ودراسة الإنجيل؛ ومنهم يريدونها غنيّةً مادّيًا قبل أن تكون غنيّةً بالرّوح والفضائل.

ث. **التّباهي بالحَسَب والنّسب:** البعض يقيّمون الأمر بالحَسَب والنّسب، وينسَون أنْ لا أساس لهذه الاعتبارات عند الله. فإنْ كنت من عائلة فلان الكبيرة العدد أو القادرة مادّيًا أو القديمة في التّواجد بالكنيسة، فهذا ليس جواز سفرٍ لك لكي تتكبّر وتنتقد وتهمّش الآخرين. في الكنيسة، يكون الخادم الأمين في المقدّمة عند الله، والإنسان المتواضع المتفاني ينال الرّتبة الأولى وليس عائلة فلان أو فلان، مع تقديرنا الكامل لكلّ عائلةٍ في حضورها وتميُّزها وأخلاقها وخدمتها المتفانية.

ج. **التّنظير مع روح السّلبيّة والاتّكاليّة:** تسمع من معظم العلمانيّين الكلام الكثير والأفكار العديدة لكن وهم يضعون قدمًا على قدم، لكن لا تُطالبهم بالعمل. هم خلقهم الله كما يعتقدون لكي يوزّعوا النّظريّات وخاصّةً بعض أعضاء المجالس الرّعويّة أو القادة في المؤسّسات أو المسؤولين في الكنيسة.

٦) الشّراكة الرّوحيّة في الرّعيّة: احتضانٌ وتحوُّل

٥٦٩. توجد الشّراكة الرّوحيّة الحقيقيّة كي يكون الآخر آخَرَ، كي يَكبُر أيضًا باتّجاه الحرّيّة الدّاخليّة ويُنمّي مواهبه. هذه الشّراكة هي عطاءٌ من القلب ليكون الآخر. هي تكريسٌ للنّفس وتضحيّة؛ إنّها عطاءٌ غير مشروط.

٥٧٠. وهكذا فإنّ الشّراكة الرّوحيّة لا تعني أبدًا انطواء النّاس على بعضهم بل على العكس تُعطي الحرّيّة والحياة لكلٍّ منهم. الشّراكة الرّوحيّة الحقيقيّة توصل الفرح والحبّ والحنان والحرّيّة الحقيقيّة للآخرين.

٥٧١. إنّها اتّحاد الواحد مع الآخر في التّواضع وعطاء النّفس. إنّها **لحظةٌ من السّرمديّة** في عالمٍ يتشابك فيه العمل، الضّجيج، العدوانيّة والحاجة الشّخصيّة لتثبيت الذّات والسّعي لتحقيقها. هذه هي الحياة الرّعويّة الحقيقيّة: **اِحتضان الآخر في آخريّته وغيريّته**.

٥٧٢. مع أنّنا عالقون في عالم الخطيئة، سالكون في «جسد الخطيئة» خاضعون للموت والفساد، إلاّ أنّنا مدعوّون لأن نشترك بشكلٍ كاملٍ في مجد المسيح القائم.

٥٧٣. الرّوح القدس هو الّذي عرّاب هذا التّحوّل فينا، من جسدٍ للموت إلى جسدٍ ممجَّد.

٥٧٤. هذا التّحوّل يتطلّب أن نوحّد ذواتنا مع «اللّيتورجيّا الكنسيّة»، أي العبادة المستمرّة. وهذا بدوره يُوحّدنا مع «اللّيتورجيّا الكونيّة»، أي العبادة الأبديّة لكلّ الّذين مَرُّوا في شركة القدّيسين.

٥٧٥. لا بدّ للإنسان من أن يتغذّى، يتغذّى جسديًّا، لتمتّع بالحيويّة والطّاقة، لكنّه يحتاج أيضًا **لغذاء القلب والفكر**.

٧) لاهوت الخدمة الرّعويّة

٥٧٦. حين يشعر المنتمي إلى الحركات الرّسوليّة بخصوبته، وكيف يستطيع إعطاء الحياة للآخرين، يرغب في العطاء أكثر فأكثر. لا شكّ أنّ لدى كلّ إنسانٍ طاقاتٍ أنانيّةً ومخاوف، لكن حين يكون لديه **غذاءٌ روحيٌّ، فإنّ المقدرة على الحبّ تتدفّق**. هكذا يجب أن تكون روحانيّة الحركة الرّسوليّة الأصيلة: **إنّها اكتشافٌ للذّات الحقيقيّة ونموٌّ إنسانيٌّ وروحيٌّ على حدٍّ سواء**.

٥٧٧. الانفتاح ليس رخاوةً ولا تسامحًا بدون الاهتمام بالحقيقة والعدالة. ليس التحامًا بأيديولوجيّة الآخرين. إنّه توسيع الملجأ، الّذي هو قلبنا، من خلال الحوار الهادّف والبنّاء، الشّراكة، التّفاهم، المصالحة، السّلام والوحدة.

٥٧٨. الحركات الرّسوليّة لها أن تُفعِّل الحياة الرّوحيّة وخدمة المحبّة في الرّعيّة، تفضيل الأوقات الرّعويّة العامّة والمشتركة: إنّها حركاتٌ من أجل الرّعيّة ولا سمح الله أن تكون يومًا ما رعيّةً داخل رعيّة: عليّ أن أنقص ولها أن تنمو (روحانيّتها الرّعويّة).

٥٧٩. يجب مراعاة الاحتراس من ممارسة الخدمة الرّعويّة بصورةٍ تقليديّةٍ متحفِّظةٍ، وبطريقةٍ ثابتةٍ ومتجمِّدةٍ، حتّى لا تكون أنشطتها وليدة الظّروف العشوائيّة، والفِراسة الشّخصيّة، والمهارة الفرديّة. فكم من الأنشطة الرّسولية الرّائعة باءت بالفشل؟ وكم من البرامج الكنسيّة الهادفة لم تحقِّق أغراضها؟ وكم من الخطط الرّعويّة الجيّدة لم يُكتَب لها النّجاح؟ وذلك بسبب الفتور الرّوحيّ، وسوء التّخطيط، وافتقاد القيادة الحكيمة، والمتابعة الدّوريّة. لهذا يجب أن يتلاءم تجديد الخدمة الرّعويّة في رعايانا مع المطالب العصريّة،

ويتّفق مع التّطلُّعات الحديثة لأبناء كنيستنا، شعب الله الجديد، وذلك في ضوء تعاليم «**الكتاب المقدّس» وتوجيهات سلطة الكنيسة التّعليميّة**.

٨) المسيح نموذج الخدمة الرّعويّة ومفتاحها الأساس

٥٨٠. في أثناء تأديّة عمله ورسالته، تعرّض السّيّد المسيح للجوع (متّى ٤: ٢)، والعطش (يوحنّا ٤: ٧)، والتّعب (يوحنّا ٤: ٦)، والحاجة إلى النّوم (مرقس ٤: ٣٨)، والرّفض (متّى ٨: ٣٤؛ لوقا ٤: ٢٩؛ ٩: ٥٣؛ يوحنّا ١: ١١)، والافتراء (مرقس ٣: ١٢-٢٢؛ يوحنّا ٨: ٤٨)، والحزن (متّى ٢٦: ٣٨)، والمتاعب والمضايقات الكثيرة (متّى ١٣: ٥٧؛ مرقس ٥: ١٧؛ لوقا ١١: ٥٣-٥٤؛ يوحنّا ٦: ٦٧)، ولكنّه تحمّل كلّ هذه الأوجاع والآلام، واستمرّ يعمل نهارًا وليلاً، بدون كللٍ أو ملل.

٥٨١. الخدمة الرّعويّة ليست عظاتٍ مجرّدةً، أو أقوالاً نظريّةً، أو تعليماتٍ وتنبيهاتٍ شفهيّةً فحسب، ولكنّها ترجمةٌ عمليّةٌ عميقةٌ لوصيّة المحبّة، وحياة الإيمان، ودعوةٌ لخدمة جميع البشر، ومعاونة كلّ المحتاجين، على مثال خدمة السّيّد المسيح وعمله. لذلك تتضمّن الخدمة الرّعويّة أعمال المحبّة والرّحمة والإحسان والسّخاء، وخدمة المتألّمين والمعوزين روحيًّا وماديًّا واجتماعيًّا وعائليًّا...

٥٨٢. الجماعة الفاترة رمالٌ تتحرّك فتخنق الإنسان الحارّ ذا القلب المُضطرم والضّمير الحيّ الّذي لا ترى فيه إلاّ إنسانًا متزمّتًا ومتطرّفًا.

٥٨٣. مفتاح الحرارة، عند الفرد أو الجماعة، هو طاعة المسيح (راجع ٢ كورنثس ١٠: ٥).

• صلاة

أيّها الكاهن الأعظم، أعطِ قوّةً لكهنتنا لكي يتمّموا مشيئتك بالعمل الدّؤوب والإخلاص. يا ربّ، إحفظهم في قلبك المُقدّس من أشراكِ الشّيطان. إنّهم هُم مَن صَلَبوا كلّ ما لهم إمتنانًا لحُبّك، مُكرّسين نفوسهم لكَ، فلا تحجُب وجهَكَ عنهم. قدّسهُم وأبعِد عنهم كلّ دنسٍ، وكلّ شرٍّ أو شبهه. نرفعهم أمامكَ بالصّلاة، وبإيمانٍ تامّ أنّك لا تترُك خاصّتك فترعاها على الدّوام لأنّك صالحٌ للكلّ وتبرّر الكلّ. نعظّمكَ،

آمين

الباب التّاسع

الدّعوة الكهنوتيّة وأبعادُها

يشرحُ هذا الباب معنى الدّعوة الكهنوتيّة؛ تعامل الله مع الإنسان المدعو، وبالتّالي تعامل الإنسان مع دعوة الله له. كذلك، سنرى من خلال هذا الباب الصّورة الكهنوتيّة الّتي على الكاهن أن يتبنّاها في ذاته بمساعدة الرّوح القُدُس.

١) الدّعوة بين مبادرة الله وقبول الإنسان

٥٨٤. النِّعمة الإلهيَّة الممنوحة بسرِّ الكهنوت هي عينها الّتي وهبها الرّبّ يسوع لرسله، فإنّ الرّسل وخلفاءهم أقاموا في الكنائس كهنةً وأساقفةً (أعمال ١٤: ٢٣) بالقوَّة الإلهيَّة عينها الّتي أخذوها من الرّبّ يسوع: «فاحذروا لأَنفُسِكم، ولجميع القطيع الّذي أقامكم فيه الرّوح القدس أساقفةً، وارعَوا كنيسة الله الّتي اقتناها بدمه الخاصّ» (أعمال ٢٠: ٢٨).

٥٨٥. لا يُمارِس الخدمة الكهنوتيّة إلاّ مَن حصل قانونيًا على نعمة الكهنوت، فلا يستطيع أحدٌ أن يقيم نفسه كاهنًا «وكَيفَ يُبَشِّرونَ إِن لم يُرسَلوا؟» (رومة ١٠: ١٥)، «وما مِن أَحَدٍ يأخذ لنفسه هذه الكرامة، بل مَن دعاه الله كما دعا هارون. كذلك المسيح أيضًا لم يُمجِّد نفسه ليصير حَبرًا (عظيم كهنة)، بل مجّده الّذي قال له: أنتَ ابني وأنا اليوم وَلدتُكَ « (عبرانيّين ٥: ٤-٥).

٥٨٦. **الدَّعوة هي مبادرةٌ إلهيّةٌ**؛ هي دعوةٌ موضوعيّةٌ وحقيقيّةٌ من المسيح. في كلّ واحدٍ من الَّذين يميلون إلى الدّعوة الكهنوتيّة، تُعاد قصّة الرّسل الَّذين دعاهم المسيح مؤكِّدًا لهم: «ليس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتُكم» (يوحنّا ١٥: ١٦). وبالواقع، ففي أحد الأيّام، وبطرقٍ مختلفة، كلّ واحدٍ منهم شَعَرَ بصوتٍ داخليٍّ يقول له: «تعال اتبعني» (مرقس ١٠: ٢١).

٥٨٧. إعلانُ الحبِّ الإلهيّ، يتطلَّب أيضًا جوابَ حبٍّ من قِبَل الَّذي تمّ اختياره. فالله عندما يدعو، يحترم الإنسان وحريّته. فالله يتكلَّم بوضوح، ولكنّه لا يَضغط ولا يُكرِه؛ إنّما يقترح، يخلق اضطرابًا وقلقًا، يحضِّر روح الشّاب، يدعو برقّةٍ في عمق أعماق الضّمير، ولكنّه يريد أن تستجيب النّفس بكلِّ حريّةٍ وحبٍّ صادقٍ حقيقيّ. لأنّ الله لا يُريد أبدًا، كاهنًا يتبعه مرغَمًا «وظائفيًّا» خاليًا من الحبّ.

٥٨٨. كلّ دعوةٍ هي حوارُ صداقةٍ حقيقيّ بين المسيح الفادي والإنسان، الَّذي، ومنذ الأزل، بحبٍّ، اختاره من بين جميع البشر (راجع إرميا ١: ٥).

٥٨٩. «المختار من بين النّاس»، المدعوّ إلى الكهنوت هو أيضًا مواطنٌ في عالَمَين. يملك القدرة ليسمع الدّعوة الإلهيّة، ولأن يتجاوب معها بحريّةٍ وبكلِّ نُبلٍ، ويرحِّب بالنّعمة الَّتي ترفعه لكي «تؤلِّهه»؛ ولكنّ هذه القدرة محكومةٌ بمحدوديّة وجوده الَّذي له نهاية.

٥٩٠. الكاهن هو أوّلاً وقبل كلِّ شيء، شخصٌ اختاره الله، أي ليس هو مَن يُعطي الدّعوة لنفسه، ولا هو الَّذي يحدِّد مسيرته. وعندما يختار الله، فهو يختار لهدفٍ معيَّن ورسالةٍ محدَّدة، طالبًا تعاون المدعوّ في إتمام مخطَّطه الخلاصيّ.

٥٩١. الكاهن هو الّذي يُحقِّق حضور المسيح في وسط شعبه (راجع أعمال ١: ٢١-٢٢). إنّه ليس مقاولاً أو رجل أعمال للسّيّد المسيح، إنّما هو مختارٌ ليُرافقه، ومرسَلٌ ليُحقِّق حضوره وسط العالم.

٥٩٢. هذه مسألة حبٍّ، هل تُحبّني؟ وكلّما تزيد المسؤوليّة تزيد الحاجة إلى الحبّ. فالكاهن ليس موظّف الطّقوس والأسرار، إنّما، قبل كلّ شيءٍ، هو المُرسَل إلى العالم بتقديس ذاته بالحبّ. وعليه أن يحمل حبّ المسيح هذا لكلّ إنسانٍ في العالم (راجع ١ كورنثس ١٣).

٥٩٣. معرفة الدّعوة يجب أن تجد طريقها إلى قلب الشّاب الَّذي يُصغي، وأن تدخل في عمق تفكيره، وإحساسه وإرادته، حتّى يكون لها تأثيرٌ على تصرّفاته واستعداداته الأخلاقيّة.

٢) صفات الكاهن

٥٩٤. **البتوليّة:** العفّة عند المتبتّلين هي دعوةٌ ساميّةٌ ونادرةٌ تعكس أوّلاً الطّهارة الشّخصيّة والخروج من الذّات الأنانيّة والأمانة نحو الله، إلهِ السّيّدة مريم الكلّيّة الطّهارة والدّائمة البتوليّة.

٥٩٥. هذه الدّعوة (البتوليّة) هي دعوةٌ كنسيّةٌ بما تعكس من تكريسٍ للذّات والاتّحاد الكامل مع الكنيسة للمحافظة على العهد الّذي يقطعه المتبتّل في أن يكون لله وحده، وهذا مستطاعٌ إلى حدٍ ما عند النّاس إن عرفوا أنّ الهدف هو واحدٌ ألا وهو المكوث في الخدر الّذي يزيّنه الحبيب الواحد يسوع المسيح في رباطٍ أبديٍّ لا يفسخ ولا ينتهي، في عرس الحمل الّذي هو العروس والذبيحة معًا (رؤيا ١٩: ٩؛ ٢٢: ١٧).

٥٩٦. إنّ أسمى عطيّة للرّوح القدس هي الحبّ الإلهيّ، والهدف من الحياة المسيحيّة هو اقتناء هذا الحبّ. والتّسليم الكلّيّ لله هو فقط الّذي يُمكّننا من تحقيق ذلك. ولهذا السّبب يجب أن يُمارِس الكاهن إنكار الذّات والتّخلُّص من الأهواء.

٥٩٧. **طهارة القلب**: أيُّ قلبٍ طاهرٍ يجب أن يقتنيه الكاهن، وأن يكون مُتغرّبًا عن جميع المجاذبات الدّنيويّة، وذلك لكي يكون إناءً حاملاً للحبّ الإلهيّ المقدّس، الحبّ المُتّقِد للبشريّة كلّها، ولكي يُقدّم لله الذّبيحة غير الدّمويّة (الإفخارستيا) من أجل العالم كلّه.

٥٩٨. ينبغي أن يكون قلب الكاهن أكثر طهارة حتّى يَحوي ويشعر بحلاوة ومجد وبهاء الاسم المجيد. وكم يجب عليه أن يتجنّب **بلا انقطاعٍ المسرّات الجسديّة حتّى لا يصبح جسديًّا** يمتنع روح الله أن يسكن فيه.

٥٩٩. ينبغي للكاهن أن يكون ملاكاً بلا هوى، ينتمي بكلِّيّته إلى السّماء، لهيبًا من الحبِّ لله وللبشر.

٦٠٠. **طهارة الشّفاه:** وكم يجب أن تكون شفتا الكاهن طاهرةً، تلك الّتي تنطق كثيرًا باسم الثّالوث الأقدس.

٦٠١. **الرّعاية:** الرّاعي، أي الكاهن، يُرعى ويَرعى. ورعاية الكاهن ليست مسؤوليّة الأسقف وحده، بل للرّعيّة أيضًا دورٌ هامٌّ فيها. أن يتقدّم المؤمنون من الكاهن ليعطوا ملاحظة أو يتساءلوا أو يُسائِلوا بمحبّةٍ واحترامٍ بنويّين، وأن يقبل الكاهن كلّ ملاحظةٍ ويُجيب عن كلّ سؤالٍ ويوضِّح أيّ تساؤلٍ بتفهُّمٍ ومحبّةٍ أبويّين، يعني أنّ العلاقة في نصابها الصّحيح.

٦٠٢. **الأخوّة:** إنّ الكاهن هو «**الأخ الشّامل**»، الّذي يحمل في ذاته روح الكنيسة وانفتاحها واهتمامها بالشّعوب والبشر جميعًا، وبخاصّةٍ الصّغار منهم والمُعوزين. بذلك يتخطّى الحدود والانقسامات العِرقيّة والطّقسيّة والإيديولوجيّة (عقيدة، مُعتقد، فكر): إنّه، في العالم، آيةٌ لحبّ الله، الحبّ الّذي لا ينبذ أحدًا ولا يحابي أحدًا.

٦٠٣. **الحضور التّمثيليّ للمسيح الرّأس:** لا يُسلِّم الرّبّ يسوع سلطته لتلاميذه وللكهنة من بعده، وكأنّه صار غائبًا وأنهى دورَه. أيقونة العنصرة تضع الرّسل يمينًا ويسارًا وتترك للمسيح غير المنظور موقع الرّأس والوسط، حيث الرّوح القدس النّازل على التّلاميذ يشهد له ويجعله حاضرًا في الكنيسة.

٦٠٤. إنّك، أيّها الكاهن، تقف في الكنيسة كممثِّلٍ للإيمان بالله، فأنت كاهنٌ مُمثِّل للرّبّ نفسِه، فيجب أن تكون صورةً للرّقّة والشّجاعة والجَلَد والصّبر وسموّ الرّوح.

٦٠٥. **الغَيرة والمَثَل الصّالح:** حياة الكاهن هي الدّافع الأساسيّ الَّذي يُشعِل غَيرة أبناء الرّعيّة. الكنيسة هي جسد المسيح، وعلى المرشَّح للكهنوت القادم للخدمة أن يتأكّد أنّ سيرته الأخلاقيّة لا يمكن بأيّ شكلٍ من الأشكال أن تؤثّر سلبًا على أعضاء هذا الجسد.

٦٠٦. **المعرفة الشّخصيّة:** إنّ معرفة مَن نخدمهم، ومَن نقوم بالرّسالة في وسطهم، ومعرفة ظروفهم ومشاكلهم واحتياجاتهم، تُشكّل عنصرًا أساسيًّا لنجاح الخدمة الرّعويّة. هذه المعرفة تُثمر عن علاقةٍ حميمةٍ، وصداقةٍ عميقةٍ، وثقةٍ متبادلةٍ بين الرّعاة وأبناء رعاياهم: «أنا الرّاعي الصّالح وأعرف خاصّتي وخاصّتي تعرفني» (يوحنّا ١٠: ١٤؛ راجع أيضًا يوحنّا ٢٠: ١٦).

٦٠٧. **المحبّة:** المحبّة الكاملة للرّعيّة تأتي كإشعاعٍ عن محبّته لمن اشتراها بدمه الكريم، لأنّه هو مَن قال لبطرس» أتحبّني، اِرعَ حملاني». وهذه المحبّة للرّعيّة هي محبّةٌ لكلّ فردٍ منها دون استثناءٍ أو تمييزٍ، وبدون أيّ تردّدٍ بسببٍ من خطايا البعض، فمن هم خطأةٌ من أجلهم جاء المسيح ومن أجلهم نتقدّم إلى الكهنوت.

٦٠٨. من خلال محبّة الكاهن لتقديس ذاته يصبح معلّمًا بطريقةٍ حقيقيّةٍ وقائدًا في حياة رعيّته إلى مراعي السّلامة. بهذه الطّريقة يصبح نموذج حياة الكاهن مُلكًا لأبناء رعيّته.

٦٠٩. **المغفرة:** الكاهن رجل مسامحةٍ ومصالحةٍ بين النّاس بعضُهم مع بعض، كما المثال الأوّل لهم في تطبيق وتحقيق ذلك. مثالٌ حيٌّ للكاهن، الرّبّ يسوع في مسامحته لصالبيه.

٦١٠. **رجلُ صلاةٍ:** النّاس اليوم هم في أمسّ الحاجة إلى أن يرَوا في الكاهن أو الأسقف رجل صلاةٍ وروحانيّةٍ.

٦١١. **السُّلطة الكهنوتيّة سلطةُ خدمةٍ وبذل ذات:** إنّ السّلطة وكما أرادها المعلّم الإلهيّ يجب أن تكون سلطةَ خدمةٍ نابعةٍ من قلبٍ مؤمنٍ وصادقٍ، وتواضعٍ منسحقٍ، وعطاءٍ مجّانيٍّ دون شروطٍ أو مقابلٍ، وخروجٍ من الذّات في سبيل الآخرين عامّةً والمؤتمنين على رعاية شؤونهم الرّوحيّة خاصّةً. هذا ما يؤكّده القدّيس بطرس قائلاً: «وأمّا الكهنة الّذين فيكم فأُحرِّضهم... أنِ ارعَوا رعيّة الله الّتي أُقمتم عليها، لا قَسرًا بل عن رضًى بحسب مشيئة الله، لا طمعًا في مكسبٍ خسيسٍ بل عن بذل ذات، لا كمتسلّطين على نصيبٍ خاصٍّ بل كمَن يكون مثالاً للرّعيّة... ومتى ظهر رئيس الرّعاة تنالون إكليل المجد الّذي لا يذوي» (١ بطرس ٥: ١-٤).

٣) الأبوّة الكهنوتيّة الرّوحيّة «الأب الرّوحيّ»

٦١٢. كان موسى ينقل رغباتِ شعبه إلى الله من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى ينقل مشيئةَ الله إلى شعبه. وبهذه الطّريقة حرّر شعبَه من العبوديّة في مصر وقادَه إلى أرض الميعاد. هذا هو العمل الأساسيّ للأب الرّوحيّ، الّذي يُشبه موسى، الّذي قاد شعبه من عبوديّة مصر إلى أرض الميعاد.

٦١٣. مصر بالنّسبة إلينا هي أرض الأهواء. وأرض الميعاد هي اللّاهوى والشّركة والوحدة مع الله. بين أرض العبوديّة وأرض الميعاد هناك صحراء. وهذه الصّحراء في غالبيّة الأحيان تكون صعبةً وقاسيّة. فكما تألّم موسى كثيرًا في قيادة شعبه، كذلك كلّ أبٍ روحيٍّ سَيتعَب ليساعد أبناءه الرّوحيّين ويقودهم إلى حالة اللّاهوى (أي ضبط الإنسان لشهواته وأهوائه).

٦١٤. الأب الرّوحيّ مدعوٌّ لأن يصير أداةً للرّوح القدس. هو مَن عَبَر مراحل التّطهّر واستنارة الذّهن والقلب بالرّوح القدس.

٦١٥. إنّ عمل الأب الرّوحيّ هو إعادة الولادة أي تجديد الإنسان. هذا ما يؤكّده لنا القدّيس بولس الرّسول بقوله: «لأنّه ولو كان لكم رِبواتٌ من المعلِّمين في المسيح، فليس لكم آباءٌ كثيرون؛ إذ إنّي أنا قد ولدتُكم في المسيح يسوع، بالإنجيل» (١ كورنثس ٤: ١٥).

٦١٦. ما من سببٍ لوجود الأبوّة الرّوحيّة غير قيادة الإنسان من حالة العبوديّة على حرّيّة ابن الله. بالمعموديّة المقدّسة، نصير بالنّعمة أبناء الله، وبالاعتراف نصون نعمة التّبنّي الإلهيّ هذه.

٦١٧. كلّ أبٍ روحيٍّ لا يكون مستعدًّا أن يذهب إلى الجحيم، إنِ اقتضى الأمر، محبّةً بخلاص أبنائه الرّوحيّين، لا يُسمّى أبًا روحيًّا.

٤) الكاهن، المعلِّم والواعظ

٦١٨. على التّعليم أن يكون نبويًّا، لهذا يجب أن يخرج من فم الكاهن متميّزًا أوّلاً بالقوّة والمبادرة، وصادرٌ من القلب من خبرةٍ ذاتيّة، وبقناعةٍ شخصيّةٍ لدى الكاهن أنّ كلمة الله نداءٌ قويٌّ وقوّةٌ فاعلة.

٦١٩. يرفض الكاهن مديح سامعيه عندما يعجبون بكلمة الله الصّادرة من فمه، لأنّ الهدف هو بناء حياتهم الرّوحيّة وليس المجد الذّاتيّ.

٦٢٠. على الكاهن ألاّ يتردّد عن الوعظ مهما كان الواقع يدعو لليأس أو مهما كانت لامبالاة سامعيه أو تعليقاتهم مسيئة. التّعليم والوعظ هما مسؤوليّة الكاهن وعمله، وذلك بغضّ النّظر عن النّتائج. فرح الكاهن يأتي من إتمام دوره هذا أمام الله ولا يَهُمُّه أن ينتظر الثّمار، إذ إنّ «الخطيئة ليست ألاّ تُقنع الآخر بل ألاّ تَعِظَه».

٦٢١. يجب ألاّ يَخلِط الواعظ بين تأنيب الخطيئة وتأنيب الخاطئ. غاية العظة هي رفع قدرة المستمعين على التزام الحياة المسيحيّة، وأن تسكب في قلوبهم النّعمة الَّتي تقودهم إلى التّوبة والرّجاء. الواعظ ليس حاكمًا، بل «معزّيًا». من الجيّد أن نتذكّر دائمًا أنّ الشّعب الحاضر في الكنيسة جاء إليها ينتظر تعزيّةً ولا يطلب شيئًا آخر.

٦٢٢. الكاهن معرَّضٌ كمعلّمٍ لأحد الاحتمالَين التّاليَين: الأوّل: ألاّ يؤدِّب بل يستمرّ في المديح ويربح رضا الجميع؛ والثّاني: أن يكون خادمًا صادقًا للكلمة ويعلنها كما هي دون رياء، عندها سيخسر محبّة البعض وسيتعرّض لعداوة الآخرين.

٦٢٣. إنّ المعلّم يعرف حاجة أبنائه فلا يخضع لرغباتهم عندما تسيءُ هذه إلى تنشئتهم. لكنّ التّفسير والشّرح والتّعليم سيجلب نتائج أكثر سلاميّة ويذلّل الخلافات بالرّأي.

٦٢٤. التّعليم النّبويّ يجب أن يُرفَق بالمحبّة الصّادقة، عندها على الأرجح سيصير مقبولاً ولو كان قاسيًا. يوبّخ المعلّم الخطيئة، لكنّه يحترم ويُحِبّ الخاطئ.

٦٢٥. قوّة التّعليم يجب أن تترافق مع الوداعة. المعلّم النّبويّ صارمٌ ولكنّه أيضًا بالوقت ذاته حنونٌ.

٦٢٦. بالصّلاة والمطالعة يستعدّ الكاهن للوعظ والتّعليم. وفوق ذلك فهو كشفيعٍ يصلّي من أجل رعيّته. هذا ما كان يفعله أيّوب مع أولاده لتطهيرهم من خطاياهم الجسديّة، فكم بالحريّ يرفع الكاهن تضرّعاتٍ من أجل النّموّ الرّوحيّ لأفراد رعيّته.

٦٢٧. عمل الكاهن هو أن يدخل إلى القبور ليقيم موتى الخطيئة.

٦٢٨. دور الكاهن ليس التّعليم والقيادة الإداريّة فقط، بل بالأحرى وأوّلاً إحياء الحياة الطّقسيّة والأسراريّة وجَعْل المؤمنين يمارسون العبادة المسيحيّة بوعيٍ ومشاركةٍ حقيقيّة. في هذا المحيط يحيا المسيحيّ حياة التّوبة والتّجديد والنموّ الرّوحيّ.

٦٢٩. صوت الكاهن هو ذلك الصّوت المُفرح، الّذي ينادي أولئك الّذين تسلّط عليهم إبليس، وماتوا موت الخطيئة. إنّه صوتٌ مملوءٌ بالفرح، لأنّه يحمل معنى الحياة، ويحمل قوّة القيامة: «مغفورةٌ لك خطاياك... قم آحمل سريرك وآمش» (راجع مرقس ٢: ١-١٢).

٥) الكاهن والأسرار

٦٣٠. إنّ المسلكيّة الرّوحيّة والإعداد الدّاخليّ للكاهن يدخلان أساسًا في صُلب كيانه الَّذي يجب أن يكون في حالة النّعمة والقداسة؛ وبما أنّ الكاهن هو خادم سرّ خلاص الإنسان، فيتوجّب عليه بالتّالي أن ينفصل عن عالم الخطيئة ويتَّجه نحو الله.

٦٣١. بدون سّر الكهنوت لا يوجد هناك أسرارٌ ولا قداسةٌ. إنّ كلّ مؤمنٍ هو بحاجةٍ إلى هذا البُعد الأسراريّ الّذي يتجلّى في خدمة الكهنوت المقدّس وخاصّةً في سرّيِّ الإفخارستيّا والمصالحة.

٦٣٢. كما يحتاج كلّ إنسانٍ إلى طبيب، هكذا يحتاج الإنسان المؤمن إلى خدمة الكهنوت.

٦٣٣. إنّ عمل الكاهن الأوّل قبل احتفاله باللّيتورجيّا الإلهيّة يكمن في أن يؤهّب نفسه بشكلٍ صحيحٍ، نظرًا لطبيعتها السّامية.

٦٣٤. الكاهن إنّما يتمّم خدمة الملائكة. لأجل ذلك يجب على كلّ الحائزين على درجات الكهنوت المختلفة أن يتصوَّروا وهم يكمِّلون الخدمة أنّهم واقفون مع الملائكة في السّماء أمام الله. ولذلك يُطلَب منهم أن يكونوا طاهرين أنقياء كالملائكة.

٦٣٥. بما أنّنا شركاء الملائكة في الخدمة وممثِّلون لهم بصورةٍ سريَّةٍ صوفيّة، فعلينا أن نجرِّد أنفسنا من اهتمامات الأرض ونوجِّهها نحو الله، لأنّنا مزمعون أن نستقبل ملك الكلّ، الَّذي تحفّ به الطّغمات الملائكيّة.

٦٣٦. إنّ عَظَمَة الخدمة الكهنوتيّة الخاصّة بالاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة تُحتِّم على الكاهن، إذًا، أن يكون في حالة يَقَظَةٍ ملائكيّةٍ أثناء الاحتفال العظيم بسرّ الحمل الفصحيّ، الإفخارستيّا، لئلاّ يشرد الذِّهن تائهًا في متاهات العالم وتفاهات العمر.

٦٣٧. **الكاهن هو رجلٌ إفخارستيٌّ بامتيازٍ**: للكهنوت طابعٌ قدسيٌّ فائقٌ ولأسبابٍ عديدة. إنّ «سلطة» إتمام القدّاس الإلهيّ والذّبيحة غير الدّمويّة هي أهمّ شيءٍ أُعطي هديّةً للبشريّة وعند الكهنة. لم يُعْطَ ذلك ولا حتّى للملائكة.

٦٣٨. ذبيحة المسيح قُدِّمت مرّةً واحدةً ولن يُصلَب المسيح ثانيةً، ولكنّ الإفخارستيّا هي ذبيحةٌ لا ينقطع تقديمها إلى الأبد. هذا ما يجعلنا نُشير إلى أنّ الكهنوت والإفخارستيّا ينحدران أصلاً من الأبديّة، من الله، من وراء الزّمن والتّاريخ.

٦٣٩. المسيح القائم نفسه هو الكاهن المحتفِل بالإفخارستيّا.

٦٤٠. على الرّغم من حصول الكاهن على كرامة درجة كهنوت المسيح ونعمته الإلهيّة، إلاّ أنّه يبقى إنسانًا خاطئًا أمام الله، وأنّه بحاجةٍ مستديمةٍ إلى طلب رحمة الله حتّى بعد أن يكون قد عبّر عن ندامته أمام الله (راجع رومة ٣: ٢٣).

٦٤١. كلّما اقترب الكاهن من المذبح المقدّس، كلّما اكتشف أنّ قلبه ما زال بعيدًا من أن يكون مذبحًا حقيقيًّا يُقدِّم عليه ذاته ذبيحةً وقربانًا... وكلّما دنا من نور المسيح، كلّما أدرك حالتَه الرّوحيّة المُظلمة والّتي بحاجةٍ إلى استنارةٍ بالأنوار الإلهيّة وليست أنوار العالم والنّاس الّتي ستنطفئ يومًا ما... وكلّما اقترب من قداسة الله، كلّما شعر بداخله بضُعفه وبهيمنة الخطيئة على حياته وفي قلبه... هذا ما يجعل الكاهن مكشوفًا وعُريانًا أمام الحقيقة الإلهيّة الّتي قد لا يختبرها أحدٌ من المؤمنين أكثر منه، وهي سببٌ كافٍ لرهبة سرّ الكهنوت وعَظَمَته.

٦٤٢. يستطيع الكاهن أن يدعو النّاس إلى التّوبة، فيبعث فيهم الرّجاء، وتنتعش أنفسهم، وتتشدّد أرجلهم. فتجري أرجلهم في طريق السّلام، وتنطق أفواههم بتسابيحَ وتماجيدَ سماويّة.

٦٤٣. **الحُلّة الكهنوتيّة:**

١. هي علامةٌ مرئيّةٌ لنعمة الله الخفيّة الَّتي تلقّاها الكاهن من خلال سرّ الكهنوت المقدّس. إنّ الإنسان الَّذي يتّشح بالثّياب الكهنوتيّة لم يَعُدْ يُمثِّل إنسانًا عاديًّا، بل إنسانًا مقدَّسًا: إنّه عريس يسوع المسيح وخادمه وكاهنه، وهو الَّذي يمنحه القوّة والنّعمة للاحتفال بالذّبيحة غير الدّمويّة، اللّيتورجيّا الإلهيّة.

٢. ليس الكهنوت زيًّا يرتديه الكاهن، أو لقبًا يتزيّن به، إنّما الكهنوت ممارسةٌ حقيقيّةٌ للمصالحة مع الله، والمناداة بالتّوبة. الكهنوت هو خدمة المصالحة، وهذا يستلزم أن يقدِّم الرّاعي تعبًا وسهرًا ودموعًا من أجل رعيّته.

• صلاة

إلهي! أيّها الحقّ الأزليّ، هبني أن أكون حقيقيًّا، ونجّني من مظاهري! لا تسمح يا إلهي، أن أتكلّم عن الفضيلة ولا أعيشها، ولا أن أَعِظَ الآخرين من دون أن أتّعظ بمواعظي. لا تسمح أن أتكلّم عن الفقر وأنا لا أزال متعلِّقًا بالعالم، أو عن الطّاعة، وأنا لا أزال مقصِّرًا فيها، أو عن العفّة، وأنا لا أزال أُهاجَم بها، أو عن التّواضع وأنا لا أزال متشامخًا ومعتدًّا بذاتي.

لا تسمح يا إلهي، أن ألبس زيّ التّكرُّس، وأتزيّن به، وأعتدّ بتكرّسي، وأنا غير أهلٍ له بعد، ولستُ من مستوى الّذين لبسوه قبلي ولا بعدي. ولا تسمح أن أُسمِّي نفسي مكرَّسًا ومجاهِدًا، وأنا لا أزال كتلةً من الأهواء والرّغبات، ولا تزال صراعاتٌ شتّى تعتبرك في داخلي.

إلهي، نجّني من مظاهري ومن ازدواجيّتي، ومن ريائي. علّمني الحقّ، فأعيشه، والبساطة في المظهر والكلام والتّعبير، فأنجو من التّبجُّج والكبرياء والادّعاء.

علّمني، يا إلهي، أن أكون حقيقيًّا في كلّ ما أُظهِر وأقول وأعمل، فأنجو من دينونة الفرّيسيّ والعبد الكسلان، ولا يلحقني لوم صاحب الوزنة الواحدة، ولا أسمع الحكم الّذي صدر على الغنيّ الجاهل المعتّد بغناه، بل أن أكون أمينًا لك، وفيًّا لتعاليمك، ثابتًا في وصاياك، فأعمل كلّ ما يُرضيك، وأمجِّدك وأسبّحك إلى الأبد.

آمين

الباب العاشر

مُخطّط الله للإنسان: التّألّه

يشدّد هذا الباب على أهمّية اتّباع الإنسان لمخطّط الله له. فإنّه، أيضًا، يرشدنا إلى كلّ ما نحتاجه من أجل اتّباع المخطّط الإلهيّ، والأمرنسبيٌّ، بما أنّ الله قد خصّص كلّ إنسانٍ بالخلق والرّوح.

١) ماهيّة التّألّه

٦٤٤. حين خلق الله آدم وحوّاء، خلقهما في حالة قدرةٍ أن يختارا إمّا الخير أو الشّرّ. وسعي الإنسان نحو الألوهة ليس شيئًا خاطئًا، بل هو هدف خلق الله للإنسان.

٦٤٥. إنّما الخير والشّرّ يكمنان في طريقة تتميم هذا الهدف: التّألّه بالنّعمة الإلهيّة، أي أن يعرف الإنسان محدوديّته وكونه خارجًا من الله ومتعلِّقًا به، ينال ألوهيّته من ألوهيّة خالقه، أو أن يسعى للتّحرُّر عن الله جاعلاً نفسه إلهًا خارجًا عن الله، فيَفصِل الجدولُ نفسَه عن الينبوع، فينضب ويجفّ.

٦٤٦. إنّ الدّعوة الكيانيّة المزروعة في قلب الإنسان هي أن يُصبح إلهًا بالله خالقه، فيشترك في حياة الله ومحبّته ويُعاين الجمال الإلهيّ حتّى يبلغ ملء الكمال الّذي دُعِيَ إليه.

٦٤٧. نستنتج أنّ السّعي إلى الألوهة هو هدفٌ مقدّسٌ جعله الله في الإنسان، إنّما الخطيئة تكمن في كيفيّة اكتساب هذه الألوهة.

٦٤٨. الحرّيّة والإرادة عمودان أساسيّان في تقديس الإنسان وتأليهه.

٦٤٩. يتمّ التّألّه دومًا بنعمةٍ من الله وبمبادرةٍ منه.

٦٥٠. لقد اختار الإنسان بسقطته وخروجه عن طاعة الخالق مصيره المحتوم وشاء بملء حرّيّته واختياره الخروج عن مخطّط الله الأزليّ له.

٦٥١. بحرّيّته يختار الإنسان الوجودَ الحقيقيّ الّذي خُلِقَ ليُتمّمه، أو العدم، أي عدم الاشتراك في الطّبيعة الإلهيّة.

٦٥٢. إلاّ أنّ محبّة الله للإنسانيّة قد أعطت آدم إمكانيّةً جديدةً للبدء من جديد في مسيرة التّألّه هذه بواسطة تجسّد المسيح كلمة الله.

٦٥٣. المبادرة الأساسيّة كانت تجسّد كلمة الله، الّذي اتّخذ إنسانيّتنا كيما يجعلها جسرَ عبورٍ بين اللّاهوت والنّاسوت، ويُضحي الاشتراك مستطاعًا، ذلك أنّ الله قد ملأ بتجسّد المسيح الهوّة الّتي تفصل الإنسان عنه حُبًّا، وصار بمقدور الإنسان العبور إلى الله.

٦٥٤. لقد أضحى بمقدور الإنسان الاتّصال والمشاركة في الجمال والحبّ الإلهيَّين، فلا يدخل في صميم الشّمس الإلهيّة، بل يتّصل بجمال النّور ودفء الحرارة المنبعثَين من الشّمس.

٦٥٥. التّجسّد الإلهيّ هو فاتحة خلاص التّأليه.

٦٥٦. إذ كان تأليهنا ثمرة التّجسّد ومن عمل الرّوح القدس، فهو يتحقّق باشتراكنا في حياة الصّليب الّذي يُشركنا في مجد القيامة.

٦٥٧. التّألّه هو أن نجعل من حياتنا استمرارًا لحياة المسيح ابن الله القائم من بين الأموات.

٦٥٨. إنّ الخلاص المسيحيّ يقوم في تأليه الإنسان، أي في ترميم صورة الله المنقوشة في عمق أعماق كيان الإنسان.

٦٥٩. إنّ خلاص التّأليه يحصل بفضل تجلّي كمال الله في شخص السّيّد المسيح.

٦٦٠. إنّ الحصول الشّخصيّ على التّأليه يجري بواسطة تمثّل حياة الله الّتي يهبها السّيّد المسيح في أقواله وأعماله ومماته وقيامته، أي في فعل التّضحيّة الاسمى الّذي به افتدى ضعف الإنسان وأهّله للانعتاق من حتميّة السّقوط والخطيئة والشّرّ والموت.

٦٦١. يشترك الإنسان المسيحيّ في حياة الله بقوّة الرّوح الإلهيّ الّذي يُعين الإنسان المؤمن على التّخلُّق بأخلاق المسيح والاهتداء باقواله وأفعاله والاتّحاد به اتّحادًا روحيًّا صوفيًّا.

٢) الإنسان بين مخطّط الله ومخطّطِه الخاصّ

٦٦٢. في الحقيقة، لقد خلقنا الله كثمرةٍ لحبّه اللّامتناهي، ولذلك فإنّ العيش بحسب مشيئته هو السّبيل لاكتشاف هُويّتنا الحقيقيّة، حقيقة كياننا، بينما الابتعاد عن الله يبعدنا عن أنفسنا ويدفعنا نحو الفراغ.

٦٦٣. إنّ الطّاعة في الإيمان هي الحرّيّة الحقيقيّة والخلاص الحقيقيّ اللّذين يمكّناننا من الاتّحاد بمحبّة المسيح من خلال الجهد الّذي بذله من أجل الامتثال إلى مشيئة الآب.

٦٦٤. إنّ الخلاص هو دائمًا هذه العمليّة الّتي تحمل مشيئة الإنسان وتضعها بمشاركةٍ كاملةٍ مع المشيئة الالهيّة.

٦٦٥. مشروع البناء المسيحيّ يبدأ عند لحظة ولادة الشّخص هُنا في أرض العبوديّة.

٦٦٦. ما أجملَ أن تتلاقى رغبة الله الخلاصيّة مع تجاوبنا ومع مشيئتنا الشّخصيّة!

٦٦٧. يعتقد الإنسان أنّه قادرٌ على أن يعمل كلّ شيءٍ بيديه لوحده ناسيًا كلمة الله ومشروع الله في حياته، ناسيًا إرادة الله في حياته، ومُعتقِدًا أنّه يستطيع أن يقوم هو نفسه بمشروع هذا الإله العظيم.

٦٦٨. مع الوقت تنضج فينا المفاهيم ونلمس أكثر فأكثر عمل الرّوح ونفهم مخطّط الله. كما فعل مع يعقوب في حلمه فقال: «حقًّا، إنّ الرّبّ في هذا المكان، وأنا لم أعلم» (تكوين ٢٨: ١٦).

٦٦٩. لكلّ إنسانٍ يوجد سُلّم أولويّاتٍ، وكثيرون منّا (حتّى من الملتزمين في الكنيسة) يختلف سُلّم أولويّاتهم عن سُلّم أولويّات المسيحيّة والإيمان. فاهتماماتُ البعض ومشاريعهم تختلف عن تلك الّتي تُمجّد الله. إنّنا نُفضّل أن نتبعَ برنامجنا الحياتيّ الخاصّ لأنّه يُشبع رغباتنا ويُرضينا، بينما نتجاهل مُخطّط الله الّذي سبقَ وقد وضعه الله لنا لنحيا حياةً فيها «كلّ الأشياء تعمل معًا من أجل الخير.

٦٧٠. إنّنا لا نستطيع أن نرى عدوّ الخير بأمّ أعيننا، ولكنّنا نرى مظاهر أعماله ونتائج خططه الخبيثة الّتي يُحاول بها أن يُناوئ خطّة الله السّرمديّة لخلاص الإنسان. إنّ الشّيطان المترئِّس على عالم الشّرّ هو عدوّ المسيح (الرُّؤيا ١٢). إنّه يضمر الحقد والكراهيّة له ولجميع أتباعه القدّيسين من المؤمنين المسيحيّين.

٦٧١. الإنسان، بقرارٍ شخصيٍّ، واعٍ ومسؤولٍ وحرٍّ، أراد أن يسير عكس ما خطّطه الله له من شركة حبٍّ وحياة معه إلى تعاهدٍ مع قوى الظّلام والشّرّ (الخطيئة)، ليدخل بالتّالي الموت، كنتيجةٍ حتميّةٍ للخطيئة والمعصية، إلى حياة الإنسان المخلوق لحياةٍ أبديّةٍ خالدةٍ فيُحوِّله إلى إنسانٍ مائتٍ ليس على الصّعيد الجسديّ فقط (الموت)، إنّما على الصّعيد الرّوحيّ (العلاقة مع الله) أيضًا.

٦٧٢. إنّ «الأنا» في الإنسان دائمة التّمرُّد على كلّ ما يمكن أن يهدِّد حريّتها. إذ إنّها لا تعرف قيودًا، بل تسعى دائمًا في سبيل تحقيق رغباتها الذّاتيّة حتّى لو كانت مناقضةً للإرادة الإلهيّة. لهذا فالاختبار المسيحيّ وحده القادر أن يخلق «أنا» جديدةً في داخل الإنسان بحيث تنسجم رغبات هذه «الأنا» وأشواقها، وأحلامها وأمانيها مع إرادة المسيح.

٦٧٣. إنّ إرادة الإنسان الرّوحيّ خاضعةٌ لإرادة المسيح، وهو وحده الّذي يجري تلك العمليّة الجراحيّة في القلب، فيستأصل منه كلّ داءٍ. إنّه هذا الانسجام الّذي يُولِّد في النّفس السّلام الحقيقيّ. فالمسيح يتناول المتناقضات: يحلِّلها، ويزيل منها الشّوائب، ويصوغها من جديدٍ فتخرج من البوتقة إبداعًا رائعًا في الانسجام والتّناسق مع إرادته.

٦٧٤. نحنُ ما زلنا في حالة امتحانٍ، ما زلنا في حالة اشتياقٍ روحيّ: «كما يشتاقُ الأيّل إلى المياه كذلك تشتاقُ [نفوسنا] إليكَ يا الله». علينا أن نخرُجَ من ذواتنا ونضع أنفسنا في خدمَة مُخطّط الله الخلاصي بأن نكون في حالة السّهر الرّوحيّ هذه.

٣) الطّاعة

٦٧٥. ما من نموذج طاعةٍ أفضل من نموذج المسيح في رسالته الخلاصيّة، ولا سيّما عمله الفدائيّ الّذي فيه «أطاع حتّى الموت» (فيلبّي ٢: ٨).

٦٧٦. إنّ الطّاعة لا تخلو من التّواضع والانسحاق أمام مخطّط الله الخلاصيّ في حياة الإنسان الشّخصيّة؛ بمعنى آخر أن نكون كمسيحيّين «أبناء الطّاعة» (١ بطرس ١: ١٤). هذا ما أعلنه القدّيس بطرس والرّسل في سِفر أعمال الرّسل: «إنّ الله أحقُّ من النّاس بالطّاعة» (٥: ٢٩).

٦٧٧. تميّزت طاعة المسيح بتلك الصّفة غير المتغيّرة؛ صفة التّوافق الكامل مع إرادة الله الآب، إذ «كان طعامه أن يعمل مشيئة الّذي أرسله ويُتمِّم عمله» (يوحنّا ٤: ٣٤)، «وكان يحيا بكلّ كلمةٍ تخرج من فم الله» (متّى ٤: ٤)، «هوايَ أن أعمل بمشيئتك يا الله، شريعتك في صميم أحشائي» (مزمور ٤٠: ٩). هذه كانت لغة قلبه على الدّوام، وإرادته لم تَسِر إلاّ في اتّجاهٍ واحدٍ فقط، وعلى ذلك كانت إرادة الابن على الدّوام في اتّحادٍ كاملٍ متوافقٍ مع إرادة الآب.

٦٧٨. نلاحظ أنّ القدّيس بولس في شهادته عن طاعة المسيح، يستعمل كلمةً تُعبِّر عن خضوع الابن لإرادة الآب تعبيرًا فائقًا. فكلمة «أطاع» في اللّغة اليونانيّة تُعبِّر عن «عادة الإصغاء المقرونة بنيّة الطّاعة»، ولذلك فهي تدلّ على انقياد المسيح انقيادًا كاملاً لِما كان يسمعه من الله. قال الرّبّ: «لأنّي أفعل ما يُرضيه كلّ حين» (يوحنّا ٨: ٢٩)؛ وأيضًا: «ولست أفعل شيئًا من عندي، ولكن كما علّمني الآب كذلك أقول» (يوحنّا ٨: ٢٨)؛ وأيضًا: «أعلمتُكُم بكلّ ما سمعت من أبي» (يوحنّا ١٥: ١٥).

٦٧٩. الطّاعة الّتي يطلبها الله من الإنسان هي الخضوع الطّوعيّ للإرادة الإلهيّة؛ إنّها طاعةٌ شخصيّةٌ، كتابيّةٌ، قائمةٌ على الصِّلة بالله الحيّ.

٦٨٠. إنّ كلّ ما عمله الله في الماضي عمله بتدبيرٍ خاصّ حتّى يكون كأساسٍ مُسبَقٍ يبني عليه الإنسان رجاءه وأمله في ما هو عتيدٌ أن يعمله الله في مستقبل الزّمان من أجل تكميل خلاصه.

٤) مريم بين الحريّة والطّاعة، خليقةٌ متألّهة

٦٨١. الطّاعة في الإيمان هي الخضوع الحرّ للكلمة المسموعة، لأنّ حقيقتها في كفالة الله الّذي هو الحقيقة ذاتها. إبراهيم هو نموذج هذه الطّاعة الّذي يقدّمه لنا الكتاب المقدّس (راجع تكوين ١٢: ١-٤؛ ٢٢: ١-١٩). والبتول مريم هي تحقيق هذه الطّاعة الأشدّ كمالاً.

٦٨٢. مريم العذراء تُحقّق طاعة الإيمان على أكمل وجهٍ. في الإيمان تقبّلت مريم البشارة والوعد من الملاك جبرائيل، مُؤمنةً أنْ «ليس على الله أمرٌ عسيرٌ» (لوقا ١: ٣٧)، ومُعلنةً رضاها الكامل وتبنّيها الطّوعيّ لإرادة السّماء: «إنّي أَمَةُ الرّبّ فليكن لي كما قلت» (لوقا ١: ٣٨). وأليصابات سلّمت عليها قائلةً: «طوبى للّتي آمنت بأنّه سيتمّ ما قيل لها من قِبَل الرّبّ» (لوقا ١: ٤٥) ومن أجل هذا الإيمان تطوّبها جميع الأجيال، ذلك أنّ الله قد نظر إلى تواضعها وانسحاقها (لوقا ١: ٤٨).

٦٨٣. مريم قالت «نعم» لمشيئة الله في حياتها ومخطّط الله لحياتها. قالَت «نعم» رغم كلّ المصاعب الّتي تستلزمها الطّاعة هذه، الدّينيّة منها (الخوف من الرَّجم) والاجتماعيّة (أن تظهر للعيان حُبلى وهي غير متزوّجةٍ)، الّتي قد تتعرّض لها بسبب حبلها الّذي كان بقوّة الرّوح القُدُس، فآمنت بالرّبّ ووثقت به فتمّمت ما كان على أمّنا حوّاء القيام به.

٦٨٤. إنّ جواب مريم «نعم، أنا أَمَةٌ للرّبّ» هو تعبيرٌ ساطع الضِّياء عن طاعة مريم الكاملة في الحبّ. إنّها مثالٌ حيٌّ لكلّ مؤمنٍ يريد أن يكون أداةً طيّعةً لخدمة مشروع الله.

٦٨٥. إنّ قبول مريم الرّوحيّ والحرّ لإرادة الرّبّ قد جسّد الكلمة في عقلها فاستنار، ثمّ في روحها فتقدّست، وعندها تمّ التّجسّد في جسدها.

٦٨٦. بتأمّلنا في سرّ التّجسّد، ليس بإمكاننا أن نَحول من دون أن ننظر إليها (العذراء) وأن نمتلئ دهشةً وامتنانًا وحبًّا عند رؤيتنا كيف أنّ إلهنا، بمجيئه إلى هذا العالم، أراد أن يعتمد على القبول الحُرّ لإحدى خلائقه. ولم يتمّ ذلك إلّا عندما أجابت العذراء الملاك: «ها أنا أمةٌ للرّبّ. فليكن لي بحسب قولك»، فبدأت مذّاك حياة كلمة الله الأبديّة في التّاريخ البشريّ.

٦٨٧. إنّه لمؤثّرٌ رؤية كيف أنّ الله لم يحترم حريّة الإنسان فحسب، بل كان بحاجةٍ إليها أيضًا. كما أنّنا نرى كيف أنّ بداية حياة ابن الله على الأرض قد تميّزت ب»نعم» مضاعفةٍ لمشيئة الله المخلّصة: «نعم المسيح» و «نعم مريم». هذه الطّاعة للآب هي الّتي تفتح أبواب العالم إلى الحقيقة والخلاص.

٦٨٨. لقد حلّ في مريم الله الكلمة، فاتّحدت بالألوهة إذ حلّ في جسدها ابن الله المتجسّد، وصار جسدها هيكلاً للرّوح القدس وخباءً حقيقيًّا حلّ فيه الله.

٦٨٩. « نعم» العذراء مريم هي «نعم» العالم بأسره، لأنّ فمها هو فم الخليقة. حوّاء المرأة الأولى رفضت الطّاعة لأمر الله. أمّا مريم، فقبلت قول الله وخضعت لتدبيره وأتاحت لكلمة الله أن يتجسّد فيها ويَظهَر منها للعالم.

٦٩٠. «نعم» العذراء أسهمت إسهامًا فاعلاً في تحقيق القصد الإلهيّ لخلاص البشر. إنّ مساهمة مريم لا تعني قطعًا أنّ إرادتها حدّدت التّصميم الإلهيّ، إلاّ أنّ طاعة مريم شكّلت خطًّا واضحًا من خطوط هذا التّصميم، فالطّبيعة الإنسانيّة الّتي رفضت الله وانفصلت عنه بمعصيّة آدم وحواء وقالت «لا» تعود وتقول لله من جديدٍ بفم مريم «نعم»، «نعم لوجودك يا ربّ في حياتنا وقلوبنا»، «نعم لإعادة إحياء علاقتنا الإيمانيّة بك يا ربّ»...

٦٩١. لقد كانت حرّيّة مريم في كلّ هذا حاضرةً. لا بل إنّ مريم بطاعتها قد اكتسبت حرّيّتها المعنى الحقيقيّ للحرّيّة الإنسانيّة: حرّيّة أبناء الله.

٦٩٢. إنّ الله يحترم الحرّيّة في الإنسان، حتّى الخاطىء؛ فالله لم يُرِد أن يخلّص العالم من دون موافقة العالم نفسه. مريم بموافقتها الحُرّة ساهمت مساهمةً إيجابيّةً في العمل الإلهيّ. فإنّ التّوافق التّام بين الإرادة الإلهيّة والإرادة البشريّة الممثَّلَة لنا في طاعة العذراء مريم للكلمة الإلهيّة، هذا التّوافق جعَل الخلاص ممكنًا إذ «اتّخذ الله طبيعتنا وضمّها إليه».

٦٩٣. بحرّيّة الإنسان قد قُطِعَت العلاقة مع الله، وبحرّيّة مريم ابنة الإنسان قد انفتحت الأرض على السّماء. إنّها باب السّماء الّذي منه دخل المخلّص تاريخنا المتألّم، وبه يعود الأبوان الطّريدان إلى البيت الأبويّ.

٦٩٤. نقولُ إنّ مأساة الحرّيّة الإنسانيّة هذه تُحلُّ بقول مريم: «هاأنذا أَمَةٌ للرّبّ» (لوقا ١: ٣٨). ذلك أنّ الخطيئة هي أكبر شاهدٍ على حرّيّتنا الّتي ميّزنا بها الله عن بقيّة الخلائق.

٦٩٥. إنّ النّعمة الإلهيّة لا تنفي دور الحرّيّة الإنسانيّة في السّعي والسّير نحو الألوهة، بل إنّ الحرّيّة هي صورة الله في الإنسان؛ وهذه الحرّيّة الإنسانيّة، الّتي هي هِبةٌ من الله، تقدر أن تختار الخير أم الشّرّ، أي العيش في الله والسّعي إلى التّألّه، أو للعيش خارجًا عن الله، لأنّ القلب يقدر أن يختار النّور أو الظّلمة.

٥) الإنسان والتّبنّي الإلهيّ

٦٩٦. التّبنيّ هو مشروع الله للإنسان، ولكنّ هذا الأخير فضّل تبنّي مشروعًا آخر. الإنسان وقع في سقطته وخطيئته ولكنّ الله بقيَ أمينًا في وعوده، إذ إنّه أراد أن يجدَ ثانيةً في الابن الوحيد أبناءه التّائهين الضّائعين. وفي هذا الابن الوحيد، ابن محبّته، كشف لخلائقه عمق محبّته الأبويّة. وعلى الأبناء السّاقطين في الخطيئة والعبوديّة أن يستعيدوا بنوّتهم الكاملة بتشبّههم بالابن الوحيد.

٦٩٧. الابن الوحيد هو ابنٌ بالطّبيعة، وهو ابنٌ منذ الأزل؛ أمّا نحن المؤمنين، فلكوننا حصلنا في ذاتنا على ابن الله، قد نلنا سلطانًا أن نصير أبناء الله (راجع يوحنّا ١: ١٢-١٣)، من خلال الإيمان وحياة الأسرار.

٦٩٨. إنّ البُنوّة هي نعمةٌ إلهيّة ولكنّها، في الوقت عينه، اختيارٌ حرّ. وبالتّالي، فإنّها «إلهيّةٌ» و«إنسانيّةٌ».

٦٩٩.البُنوّةُ تتضمّن مرحلتين هامّتين: نقطة انطلاقٍ مفروضةٍ – المجيء لهذا العالم ليس خيارًا، لأنّنا لم نُسأل إذا أردنا أن نولد - وجوابٌ حرٌّ من الابن أو الابنة، بقبول البنوّة - «يمكننا أن نُنضج تصرّفاتٍ حرّةً تجاه الحياة: يمكننا استضافتها كنعمةٍ، وبمعنى آخر، «أن نصبح» ما نحن عليه: أبناء».

٧٠٠. علاقة البنوّة بين الإنسان والله: فبالنّسبة لله نحن أبناء بالتّساوي. لأنّ الله مصدر وجود كلّ مخلوقٍ، هو أبُ كلّ إنسانٍ، بشكلٍ مفردٍ: له علاقةٌ فريدةٌ وشخصيّةٌ معه.

٧٠١. إنّ الإنسان مدعوٌّ في علاقة البنوّة مع الله لأن «يولد من جديد»، عن طريق «الإيمان»: عبر طريق «النِّعَم» العميق والشّخصيّ لله كأصلٍ وأساسٍ لوجوده؛ وهذه الولادة الجديدة ليست سوى المعموديّة.

٧٠٢. إنّ التّبنّي لله الآب لا يتمّ إلاّ في الابن، يسوع المسيح، وبقوّة الرّوح القدس، الّذي ينقل بنوّة المسيح إلى المؤمنين، فلا يعودون بعد مولودين من امرأةٍ بحسب الجسد، بل مولودين من الله (راجع يوحنّا ١: ١٢-١٣؛ غلاطية ٤: ٤-٧).

• صلاة

إنّي أعلمُ، يا وليّ أمري برُمّتِه، أنّك تُدبّر كلّ أمور حياتي ومستجدّاتها بحذافيرها لأنّك قلت: «لا تسقط شعرةٌ من رؤوسكم إلّا بإذني». فأشكُركَ لأنّك تبنيّتني وعاهدتَني بحُبّكَ المُعتني والباذِل من ذاته. سلّمتُكَ ماضيّ وأسلّمكَ حاضِري ومستقبلي، فأنتَ قد رسمتَ طريقي بتدبيرك الإلهيّ. عليكَ اتّكل قلبي يا إلهي.

آمين

الباب الحادي عشر

الرّوح القُدُس وعمله

يرفع هذا الباب السّتارة عن سرّ نجاح الحياة مع الله. فإنّ عمل الرّوح القُدُس هو عمود الأساس لكلّ إنسانٍ مسيحيٍّ يصبو بنظره إلى السّموات.

١) الرّوح القدس في الكتاب المقدّس

٧٠٣. من صفات الرّوح القدس: الأزليّة والسّرمديّة (تكوين ١: ٢؛ عبرانيّين ٩: ١٤)؛ كلّيّ العلم والمعرفة (١ كورنثس ٢: ١٠)؛ كلّيّ الوجود (يوحنّا ١٤: ١٦-١٧)؛ القدير (تكوين ١: ٢؛ أيّوب ٣٣: ٤؛ زكريّا ٤: ٦؛ يوئيل ٣: ١-٢؛ متّى ١٢: ٢٨؛ يوحنّا ٣: ٥؛ أعمال ٢: ٤، ١٦-٢١؛ رومة ١٥: ١٩؛ ١ كورنثس ١٢: ٨-١١).

٧٠٤. أعمال الرّوح القدس متعدِّدةٌ ومتنوّعةٌ تطال الإنسان بكلّيّته وحياة الكنيسة: يُعلِّم ويذكّر المؤمنين بتعاليم المسيح (يوحنّا ١٤: ٢٦)؛ يُمجِّد المسيح (يوحنّا ١٦: ١٤)؛ يُجدِّد حياة الإنسان روحيًّا، أي الولادة الجديدة في المسيح (يوحنّا ٣: ٦-٨)؛ يمنح التّبنّي (رومة ٨: ١٥)؛ يُقدِّس (رومة ١٥: ١٦)؛ يُرشد (يوحنّا ١٦: ١٣)؛ يمنح المواهب الرّوحيّة للمؤمنين بالمسيح (١ كورنثس ١٢)؛ يشهد للمؤمنين بالمسيح أنّهم أبناء الله (رومة ٨: ١٦)؛ يُبكِّت ويوبِّخ على الخطيئة (يوحنّا ١٦: ٨)؛ يمكث مع المؤمنين (يوحنّا ١٤: ١٦)؛ يمنح المؤمنين قوّةً وشجاعةً للشّهادة (أعمال ١: ٨)؛ يُعزِّي (أعمال ٩: ٣١)؛ يُقوِّي المؤمن (رومة ١٥: ١٣)؛ يسكن في المؤمنين (٢ تيموثاوس ١: ١٤)؛ القدرة على إقامة الموتى (رومة ٨: ١١).

٧٠٥. أسماء الرّوح القدس: «روح الحكمة»، «روح السّلام»، «روح المحبّة»، «المعزّي» (يوحنّا ١٤: ٢٦)، «روح الحقّ» (يوحنّا ١٤: ١٧؛ ١٥: ٢٦)، «روح القداسة» (رومة ١: ٤)، «روح الحياة» (رومة ٨: ٢)، «روح المسيح» (رومة ٨: ٩)، «روح التّبنّي» (رومة ٨: ١٥)، «روح الابن» (غلاطية ٤: ٦)، «روح الموعد القدّوس» (أفسس ١: ١٣)، «روح الحكمة والوَحي» (أفسس ١: ١٧)، «روح يسوع المسيح» (فيلبّي ١: ١٩)، «روح المجد» (١ بطرس ٤: ١٤)، «روح الرّبّ» (أعمال ٥: ٨)، وروح الله (رومة ٨: ٩؛ ١ كورنثوس ٢: ١١).

٢) طبيعة الرّوح القدس وعمله

٧٠٦. الرّوح القدس هو «كنز الصّالحات»، إنّ أعمال المحبّة تُنسَب هي الأخرى إلى الرّوح القدس، وأعظم فعل محبّةٍ يكمن في تقديس النّفوس بالنّعمة الّتي تُعطي الحياة الفائقة الطّبيعة، بداية حياة الله في النّفوس. لذلك يتميّز بأنّه «واهب الحياة»، أي الحياة الإلهيّة للإنسان من خلال إشراكنا في الطّبيعة الإلهيّة.

٧٠٧. **إنّ ثمرَ الرّوحِ هو علامة التّفاعل بين المؤمن وسكنى الرّوح القدس فيه.**

٧٠٨. الرّوح القدس غير مُدرَكٍ بالطّبيعة، ولكنّنا نستطيع إدراكه من خلال عذوبته. هبوب الرّوح غنيٌّ جدًّا يشبه نبعًا لا يَنضُب، ومُحيطًا لا يُسبَر غوره يمنح الحياة والنّعمة.

٧٠٩. من الواضح بأنّ الله لم يكوّن كلّ الأشياء لكي تصير إلى الفناء، بل لكي تُشكّل معًا «أرضًا جديدةً وسماءً جديدةً» (أشعيا ٦٥: ١٧)، ولهذا السّبب يستمرّ الله في نشر نعمته بواسطة روحه القدّوس.

٧١٠. يلتفت الله بمحبّته الخاصّة تجاه الإنسان لأنّه على صورته الإلهيّة، ونظرًا لضعف طبيعته السّاقطة، يقول الرّسول بولس إنّ «الرّوح القدس يأتي ليَعضد ضعفنا» (رومة ٨: ٢٦) في الحالة الّتي نحن فيها: في الخطيئة، في المرارة والحزن، في الخبث، في البؤس. فمهما كان الوضع الّذي نعيش فيه يأتي الرّوح القدس المُعين والمحامي والمعزّي لينحني علينا، ويساعدنا على مقت ضُعُفاتنا، وتحمّل أمراضنا، ومواجهة تجاربنا وخطايانا الّتي نبسطها كفراشٍ ليّنٍ أثناء فترة إقامتنا على الأرض المبنيّة على الرّخاوة وأمجاد العالم الباطل.

٧١١. الرّوح القدس يهيّئ خلاصنا، ويقرّبنا إلى الله ويقدّسنا. وكما تجسّد المسيح من العذراء بالرّوح القدس، هكذا يتجسّد الرّوح القدس روحيًّا في داخلنا جاعلاً إيّانا «جيلاً مختارًا وكهنوتًا ملوكيًّا وأُمّةً مقدّسةً وشعبًا مُقتنًى» (١ بطرس ٢: ٩).

٧١٢. لا يتوقّف عمل الرّوح القدس على الولادة الجديدة فقط إذ إنّنا في حاجةٍ إليه مستديمة. والرّبّ يسوع أدرك ذلك تمامًا، فجعل روحه يسكن فينا وأصبحنا «هيكل الرّوح القدس» (١ كورنثس ٣: ١٦-١٧).

٧١٣. إنّ المركز الرّئيسيّ الّذي يدور حوله عمل الرّوح القدس في الإنسان هو تطبيق ما عمله السّيّد المسيح من أجل الفرد في حياة المؤمن، أي تحقيق حضور ملكوت الله في حياتنا.

٧١٤. إنّ عمل الرّوح القدس هو عملٌ حيٌّ ينمو من درجةٍ إلى درجة (٢ كورنثس ٣ : ١٨) فهو ليس عملاً متعدّدًا ولكنّه عملٌ نامٍ يبدأ فينا حتّى قبل أن نقبل المسيح، إذ يبدأ بفتح أعيننا على حالتنا السّاقطة ويرشدنا إلى الطّريق، إلى الحياة، الّتي في المسيح، ثمّ يستمرّ معنا في حياتنا لينير أذهاننا وقلوبنا تدريجيًّا حتّى نصبح يومًا ما كاملين وذلك عند مجيء المسيح الثّاني.

٧١٥. إنّ عمل الرّوح القدس لا يقتصر على المواهب الخاصّة، بل يشمل الحياة المسيحيّة في جميع مرافقها. ويمكننا رؤية عمل الرّوح في وصف سفر أعمال الرّسل لحياة الكنيسة الأولى. فالمواظبة على تعليم الرّسل، والشّركة في الصّلاة وكسر الخبز، أي القربان المقدّس، والشّركة في توزيع الخيرات، كلّها من عمل الرّوح القدس الّذي كان يملأ المسيحيّين الأولين.

٣) الرّوح القدس باني الكنيسة ومهندسُها

٧١٦. بعد أن أتمّ يسوع في شخصه كلّ تدبير الله الآب الخلاصيّ بالآلام والموت والقيامة في اليوم الثّالث والصّعود إلى السّموات والجلوس عن يمين الله، ابتدأ زمنٌ جديدٌ في الكنيسة هو زمن الرّوح القدس.

٧١٧. إنّ العنصرة هي الهدف والغاية الأخيرة للتّدبير الإلهيّ على الأرض. يعود الابن إلى الآب لكي ينزل الرّوح (يوحنّا ١٦: ٧).

٧١٨. ليست العنصرة استمرارًا للتّجسّد الإلهيّ، بل هي تَتِمّتُه ونتيجته: بالعنصرة صارت الخليقة أهلاً لتقبُّل الرّوح القدس، فينزل إلى العالم ويملأ بحضوره الكنيسة المُفتداة والمغسولة والمطهَّرة بدم المسيح.

٧١٩. عيد العنصرة هو عيد «موهبة الرّوح المعطاة للكنيسة باعتبارها العطيّة الخالدة»، الّتي نجدِّد قبولنا إيّاها في اليوم الخمسين للفصح، وفي كلّ يوم، لتُعمِّق وعينا لحضور الرّبّ القائم بيننا وفينا إلى الأبد ولمسؤوليّتنا عن إعلان هذا الحضور المخلّص.

٧٢٠. في صبيحة العنصرة، وَلَدَ الرّوح القدس، ومن غير زرعٍ، «جسد المسيح» المنسوج من بشريّتنا: الكنيسة. لقد أُفيض الرّوح المنبثق من الآب بالحمل المذبوح، وظهرت اللّيتورجيّا الأبديّة في عالمنا، وبرزت إلى الوجود خليقةٌ جديدةٌ هي جسد المسيح، لا الموجود بين البشر فحسب، بل الّذي بدأ يستجمع جميع البشر.

٧٢١. إنّ الرّوح القدس هو مهندس الكنيسة وبانيها، وكلّنا مبنيّين بالرّوح القدس في جسد الكنيسة.

٧٢٢. هذا معناه أنّ ميلاد الإنسان الجديد محصورٌ في ميلاد الكنيسة، وطبيعة الإنسان الجديدة لا بدّ وأن تشمل في صميم جوهرها ارتباطًا حيًا وصلةً وثيقةً بالكنيسة... لا توجد فرديةٌ في الخليقة الجديدة!! نحن نأخذ طبيعة الإنسان الجديد من الكنيسة، وليس يمكن لأحدٍ أن يولد من الماء والرّوح ويصير خليقةً جديدةً في المسيح يسوع خارج الكنيسة. العنصرة إذًا عيد الكنيسة، ذكرى ميلادها... إنّها عيد الحياة بالرّوح للّذين يعيشون حقًّا في المسيح...

٧٢٣. زمن العنصرة هو زمن الكنيسة الّتي تواصل رسالة المسيح: فهي بكيانها وأعضائها ومؤسّساتها مرسلةٌ لتعلن إنجيل الخلاص، وتشهد لمحبّة الله ورحمته، وتحقِّق وتنشر ملكوت الله، أي سرّ الشّركة بين الله والنّاس. إنّنا في هذا الأحد، أي أحد العنصرة، نكتشف هويّة الكنيسة ورسالتها، وهما بالتّحديد هويّة السّيّد المسيح ورسالته. الهويّة هي مسحة الرّوح القدس، والرّسالة مثلّثة الأبعاد: إعلان إنجيل الخلاص، وتحرير الإنسان وهدايته ومعاملته بالرّحمة، وبدء زمنٍ جديدٍ لمجتمعٍ بشريٍّ يقوم على الحقيقة والعدالة والمحبّة والحرّيّة.

٧٢٤. إنّ الشّركة الكنسيّة تشمل كلّ زمانٍ ومكانٍ وكلّ الأجيال. فبفضل عمل الرّوح القدس، لمسَت جماعة الرّسل الأولى الرّبّ القائم من بين الأموات. وكذا تفعل الأجيال المتتالية، حيث يُنقَل الإيمان ويُعاش في العبادة وفي شركة شعب الله في حجّته ومنذ البدء، أراد يسوع أن يشمل عمله الخلاصيّ العالم أجمع وبالفعل... أوكل الرّبّ القائم من بين الأموات إلى الرّسل مَهمّة تلمذة كلّ الأمم، معطيًا إيّاهم بارقليط حضوره الشّخصيّ معهم.

٧٢٥. إنّ التّقليد الّذي وصل إلينا بكلّ دقّةٍ وأمانة، ويُعتبر كمحرّكٍ للكنيسة، يشير إلى حضور الرّوح القدس الفاعل والمُحيي في جسد المسيح الّذي هو الكنيسة.

٧٢٦. إنّ حضور يسوع الّذي يتحقّق بشكلٍ متواصلٍ - من خلال عمل الرّوح وخدمة الكنيسة الرّسوليّة وشركتها الأخويّة - هو ما نعنيه بال«تّقليد». فليس التّقليد مجرّد عمليّة نقلٍ أو توارثٍ لأمورٍ معيّنة، وإنّما حضور الرّبّ الفعّال الّذي يرافق ويوجِّه الجماعة المجتمعة. أمّا الرّوح القدس فيغذّي هذه الشّركة، مؤمّنًا الرّابط بين الإيمان الرّسوليّ الّذي عاشته جماعات التّلاميذ الأولى وخبرتنا اليوم للمسيح في كنيسته. فلنفرح ولنتهلّل بحضور المخلِّص الّذي يأتي للقائنا وفدائنا وتقديسنا من خلال خدمة كنيسته!

٧٢٧. لم يكن وجود الرّوح القدس في الكنيسة، يومًا، مجرّد انتقالٍ من جيلٍ إلى جيل، إنّما هو يعمل من أجل تجديد المؤمن وإحيائه. يفيض الرّوح القدس في جسد المسيح السّرّيّ، كما يفيض أيضًا في كلّ مكانٍ يعمل فيه، في التّاريخ وفي الكون. الكنيسة حاضرةٌ أبدًا بشكلٍ سرّيٍّ بحضور الرّوح القدس فيها.

٤) المسيحيّ، كائنٌ پنيڤماتولوجيّ (روحيّ)

٧٢٨. يقتبل الإنسان الرّوح القدس من خلال النّعمة، أي بالمشاركة في حياة الله.

٧٢٩. العضوّ الحيّ في جسد المسيح هو ذاك الّذي يسكن في داخله الرّوح «بأنّاتٍ لا تُوصَف» (رومة ٨: ٢٦). هذا الإنسان بارّ، إنّه «هيكلٌ لله» (١ كورنثس ٣: ١٦). الإنسان الرّوحيّ هو حامل الرّوح القدس، وهو الّذي يخصّ المسيح فعليًّا كعضوٍّ حقيقيٍّ في جسده. يتبنّى الآباء التّمييز البولسيّ في الحديث عن الشّخص «الرّوحيّ – الطّبيعيّ – الجسدانيّ»، في إشارتهم إلى الإنسان «الّذي بحسب الجسد»، «فوق الطّبيعة» (فالإنسان، بحسب اللّاهوت الأرثوذكسيّ، مدعوٌّ إلى التّألّه فالرّوح القدس لا يخلق من العدم بل يُحوِّل: إنّه يؤلّه، راجع فيلبّي٣: ٢١) أو «ضدّ الطّبيعة».

٧٣٠. عندما يكون الذّهن (النّوس. إنّه مَلَكَة التّأمّل الّتي بها يتّجه الإنسان نحو الله) في حالة «ضدّ الطّبيعة»، ينسى الإنسان عدالة الله ويكون في عداوةٍ مع إخوته البشر عندما يُخالفونه (= الإنسان الجسدانيّ). بينما عندما يكون الذّهن في حالةٍ «طبيعيّة» (بحسب الطّبيعة)، يكتشف ذلك الإنسان أنّه هو ذاته مولّد الأفكار الخاطئة. يعترف هذا الشّخص بخطاياه مدركًا تمامًا لسبب أهوائه (= الإنسان الطّبيعيّ). مع هذا، عندما يبلغ الذّهن حالة «ما فوق الطّبيعة»، يكتسب مواهب الرّوح القدس، ويدرك هذا الشّخص أنّه عندما يبدأ بتفضيل الاهتمام الأمور الجسدانيّة، لا يمكنه أن يحافظ على الرّوح (= الإنسان الرّوحيّ).

٧٣١. لا يسعني هنا إلاّ أن أستذكر شعار حَبريّة البابا الطّوباويّ يوحنّا بولس الثّاني حين قال: «لا تخافوا أن تفتحوا أبواب قلوبكم للمسيح»، ذلك أنّ عمل المسيح لا ينفصل أبدًا عن عمل الرّوح القدس: يخلق المسيح وحدة جسده السّرّيّ (أي الكنيسة) بالرّوح القدس، والرّوح القدس يُعطي ذاته للأشخاص البشريّين بالمسيح.

٧٣٢. إنّ النّفس الّتي لم تختبر عمل الرّوح القدس داخلها هي نفسٌ فقيرةٌ وعريانة. فبدون عمل الرّوح القدس لا يستطيع الإنسان أن يختبر بهاء الحياة الجديدة في المسيح وجمالها الرّوحيّ.

٧٣٣. ها نحن الآن نعيش عهد النّعمة (تُشير إلى كلّ غنى الطّبيعة الإلهيّة في انتقالها للبشر)، إذ إنّنا نتمتّع بشركة الرّوح القدس منذ أن آمنّا بالمسيح وقبلناه ربًّا ومخلّصًا. في حين نجد أنّ التّلاميذ أنفسهم لم يفهموا ما قاله لهم يسوع، لأنّ أقواله تضمّنت إعلاناتٍ سماويّةً مثل القيامة من الأموات أو إقامة جسده، أو إنّهم حتّى لم يُدركوا معنى معجزات السّيّد ولا إلى أيّ شيءٍ كانت تشير، وذلك لسبب ثقلٍ في الفهم والتّمييز عندهم، «لأنّ الرّوح لم يكن قد أُعطِيَ بعد» (يوحنّا ٧: ٣٩؛ راجع أيضًا ١٤: ٢٦؛ ١٦: ١٣-١٤).

٧٣٤. عندما يصير الرّوح القدس حيًّا في النّفس، تزداد شفافيّةً وإنسانيّة، وينشأ عندها إحساسٌ بحضور الله وفعله في حياة البشر والعالم.

٧٣٥. إنّ الحياة النّاجمة عن الولادة الجديدة ليست وليدة الجهود الذّاتيّة للإنسان (الجهاد الرّوحيّ، الاستشهاد اليوميّ، المثابرة والمواظبة، الكفاح الرّوحيّ...)، مع العلم بأنّها أيضًا أساسيّة، لأنّ الانسان لا يمتلك تلك القداسة الّتي يقتضيها الله للدّخول إلى السّماء، فلكي تحيا حياة الله ينبغي أن تمتلك طبيعة الله. إنّ الولادة الجديدة بكُليّتها هي عمل الرّوح القدس.

٧٣٦. إنّ الرّوح الّذي تكلّم بواسطة الأنبياء والّذي هزّ كُتّاب أسفار العهد القديم هو عينه الرّوح الّذي أيقظ يسوع وأنهضه من الموت (راجع رومة ٨: ١١)، وهو عينه الرّوح الّذي مُنِحَ للمؤمنين بفضل قيامة المسيح المصلوب كعربون ضمانٍ لاشتراكهم في الخلاص.

٧٣٧. في مطاوي أسفار العهد القديم كانت الكنيسة النّاشئة تُصغي إلى كلام المسيح وكلام روحه القدّوس.

٧٣٨. الرّوح القدس هو العربون، أي الضّمان لنا نحن بخصوص ميراثنا. فكما أنّ الختم يضمن للمالك حقّ الملكيّة، فكذلك العربون يضمن لنا الميراث: «فهذا الرّوح عينه يشهد مع روحنا بأنّا أولاد الله. أولادٌ، فإذًا ورثةٌ أيضًا؛ ورثة الله، ووارثون مع المسيح» (رومة ٨:١٦-١٧). فنرى أنّ الله يضمننا لنفسه، إذ ختمنا بروحه القدّوس، ونحن نضمن الميراث إذ أعطانا عربون الرّوح.

٧٣٩. الرّوح القدس يتراءى فيّ: به أُعرَفَ مُتَّحدًا بيسوع المسيح، وبه أُعرَف أيضًا ابنًا لله، فلا بدّ أن يشاهد العالمُ الرّوحَ النّازلَ والمستقرّ عليَّ.

٧٤٠. إنّه ليس بمقدوري، نتيجة محدوديّة طبيعتي البشريّة، أن أعي تبنّي الآب لي بدون عمل الرّوح القدس في حياتي. لا أقدر أن أدعوه «أبّا أيّها الآب» إلّا إذا كان الرّوح يعمل فيَّ. صحيحٌ أنّني لا أُدعى مسيحيًّا بدون إيماني بالمسيح، ولكن لا أُدعى مسيحيًّا، أيضًا، بدون الرّوح القدس العامل فيّ.

٧٤١. الرّوح القدس هو الّذي يجعلنا أبناء لله، فالرّسول بولس يقول: «إنّ الّذين ينقادون لروح الله يكونون أبناء الله حقًّا. لم تتلقّوا روح عبوديّةٍ لتعودوا الى الخوف، بل روح تبنٍّ به ننادي أبّا، أيّها الآب!» (رومة ٨: ١٤-١٥).

٧٤٢. غاية الحياة المسيحيّة هي أن يصير الإنسان ابنًا لله، وهذا أصبح ممكنًا بفعل الرّوح القدس الّذي يناله المؤمن بالمعموديّة ويبقى معه طالما هو ممارسٌ للصّلاة والعبادة. وثَمّة عبارة ذات أهميّةٍ قصوى للقدّيس إسحق السّريانيّ فحواها: «عندما يسكن الرّوح القدس في قلب الإنسان، لا يستطيع هذا الأخير أن يتوقّف عن الصّلاة، لأنّ الرّوح القدس لا ينفكّ يصلّي فيه».

٧٤٣. الحياة الأبديّة تمتلئ وتُعاش بكلّ جوانبها بفعل الرّوح القدس، وبالتّالي، فإنّ فقدان شركة الرّوح القدس هو في الواقع فقدانٌ للحياة الأبديّة.

٧٤٤. الرّوح القدس لا ينفي واقعكَ البشريّ. لا ينفي حبّك البشريّ، حبّ الزّوج والزّوجة لا ينفي الحبّ الجسديّ والعاطفيّ، لا ينفي الحبّ البشري بجملته. يتكلّم يسوع في إنجيل يوحنّا عن الوصيّة الجديدة. وصيّة الحبّ، أن نحبّ بعضنا بعضًا كما هوَ أحبّنا. مع أن وصيّة الحُبّ قديمةٌ جدًّا، لكن بالنّسبة ليسوع هي وصيّةٌ جديدةٌ لأنّها تُعاش جديدةً في الرّوح القدس، أي أنتَ تختبر حبّ الله في حياتك فيَنبع منك حبٌّ منطلقٌ من اختبارك لحبّ الله.

٧٤٥. يُثمر قلب الإنسان نوعين من الثّمار. النّوع الأول، ثمارٌ صالحة، أمّا النّوع الثّاني فثمار الحمأة (الرّذيلة). يذكر القدّيس بولس الرّسول برسالته إلى غلاطية هذين النّوعين؛ النّوع الصّالح هو الثّمر الّذي يُنتج أفضل قوى الإنسان الرّوحيّة بنعمة واستنارة الرّوح القدس (٥: ٢٢-٢٣). فهذا الثّمر هو الفضائل الّتي تحلّي النّفس البشريّة وتعمل فيها لتجعلها متلألئةً ولامعةً من العظمة الإلهيّة. أمّا النّوع الآخر فهو أعمال الجسد؛ الشّرور المختلفة الّتي تنمو في قلب الإنسان عندما تغيب عنه نعمة واستنارة الرّوح القدس، وعندما يعيش مُقادًا بحسب ميله وشهواته وأهوائه؛ وهذه الأعمال هي أدنى قيمة من الإنسان وممتلئة نتانةً خانقة (٥: ١٩-٢١).

٧٤٦. يقول الرّبّ لنا: «الرّوح القدس يذكّركم بكلّ ما قلته لكم»، أي يجعلكم قادرين أن تسمعوني اليوم، أن تحقّقوا مشيئتي اليوم، أن تعملوا عمل الخلاص اليوم، التّأوين والتّأويل. التّأويل، أي الأوّل، والتّأوين، أي الآن. الرّوح القدس يجعل المسيح حاضرًا الآن فيك حضورًا شخصيًّا حقيقيًّا.

٧٤٧. الرّوح القدس يخرجك من الظّلمة إلى النّور، بمعنى أنّه يعلّمك كلّ شيء. إنّه يجعل كلّ شيءٍ في حياتك مُضاءً، يخرجك من عالم الظّلمة. إنّه عملٌ فصحيّ.

٧٤٨. الرّوح لا يناقض الكنيسة، لأنّ الكنيسة تعيش في الرّوح، ولأنّ الرّوح يعمل في الكنيسة ويتكلّم فيها. من هنا مهما كنت مؤمنًا بأنّ ما تعيشه هو نتيجة عمل الرّوح، هذا لا ينفي بأيّ شكلٍ من الأشكال **طاعتك للكنيسة**. الخطر يكمن في أن تنسب أنتَ للرّوح القدس قناعتك ومزاجك وأحكامك وحكمتك وتقول إنّ الرّوح كشف لي هذا وذاك.

٧٤٩. هنالك فرقٌ كبيرٌ بين العودة إلى الجذور الّتي هيَ النّفخة الأولى للرّوح القدس، وبين الانحباس بالجذور. الرّوح يقول لك: اِنفتح، اِذهب، اِشهد، بشِّر، أعلن... كُن أداةً طيِّعةً يُحرّكها الرّوح حيثما يشاء.

٧٥٠. اِختبر وحي الرّوح عبر تأمّلك بكلمة الله، الكتاب المقدّس. يصعب تمييز الرّوح من الأرواح، أو روح الله من روح العالم، على حدّ تعبير القدّيس يوحنّا الرّسول: «أيّها الأحبّاء لا تُصدّقوا كلّ روحٍ بل اختبروا الأرواح هل هي من الله، لأنّ أنبياء كذبةً كثيرين قد خرجوا إلى العالم» (١ يوحنّا ٤: ١).

٧٥١. الرّوح القدس هو الرّوح الّذي لا يقدّم لك الأشياء حسب رغبتك وإرادتك؛ بينما يتّضح أنّ الأرواح الإبليسيّة هي الّتي تُقدِّم لك الأشياء بحسب رغبتك وبالتّحديد رغبتك الآنية، حاصرةً إيّاك برؤيتها من منظارها، وكأنّها الحقيقة المنشودة. هذا الرّوح الَّذي لا يمتّ بصلةٍ إلى روح الله السّاكن فيك، يُصوّر لكَ توافق العالم مع رغباتكَ.

٧٥٢. يُميّز الكتاب المقدّس جيّدًا بين ارتباك النّاس الأخيار بالمادّيّات وبين نسيان الخيرات؛ عندما نتعب لجمع الخيرات المادّيّة ونضطرب، ننسى النّعمة ونفقد عطايا الرّوح؛ أمّا إن أُضيفت محبّة المسيح إلى النّعمة، فهذه تحرّرنا من كلّ الشّرور، وتجعلنا أناسًا عجائبيّين، ونُمسي في عداد صفوف معسكر المسيح، حيث الغنى الحقيقيّ وعظائم الله الرّهيبة.

٧٥٣. نحن، كمسيحيّين مُختبِرين حياة الإيمان في المسيح، لا نعرف روحًا آخر غير ذاك الّذي جرى من جنب المسيح على الصّليب والّذي أقام يسوع من بين الأموات. هذه هي نعمة التّمييز.

٧٥٤. روح العالم يؤكّد لكَ صوابيّة الخطيئة، بينما روح الله يبكّتك عليها، ويشدِّد على العدل وعلى البرّ.

٧٥٥. إنّه الرّوح القدس الّذي يُعلن للمؤمن ويضع السّلام في قلبه وحياته ويجعله موقنًا أنّ الله قد برّره ويعطيه اليقين بالسّلام والمصالحة مع الله. فالتّبرير اذًا ليس فقط عمليّةً إلهيّةً سماويّةً نعرفها بالايمان بل هو حقيقةٌ يقينيّةٌ يقنعنا بها الرّوح القدس.

٧٥٦. **مسيحيّةٌ واستقرار؟** لا مجال، إلاّ إذا فهمنا بالاستقرار الثّبات على الإيمان الّذي يعطيك ثباتًا داخليًّا. إنّي مسيحيٌّ في كلّ الحالات: في صحّتي وفي مرضي، أنا قدّيسٌ بغناي وأنا قدّيسٌ إن كنتُ أعيش بفتات خبزٍ عن مائدة الأغنياء. هذا هوَ الاستقرار؛ أن تقبل أن تقول «أنا بألف خير»، طالما أنّك مُنقادٌ إلى الرّوح الّذي يهبّ حيث يشاء، وأن تعتبر أنّ كلّ استقرارٍ خارج الرّوح هو كاستقرار الجثث في القبور. وإذا كان الآب يعمل والإبن يعمل مثله، كذلك فإنّ مَن ينقاد للرّوح، لا يمكنه إلاّ أن يعمل عمل الإبن.

٧٥٧. للرّوح القدس اليد الطُّولى في عمليّة النّمو الإيمانيّ المستمرّة، ولولاه لمَا استمرّت. لكن، في نفس الوقت، ينبغي أن يكون هناك تعاونٌ أساسيٌّ وحقيقيٌّ من الفرد المؤمن، إذ ليس من المعقول أن يقف متفرّجًا أو محايدًا لا يفعل شيئًا، لأنّ المطلوب هو بناء الجسور الإيمانيّة بين الرّوح وبين الانسان المؤمن، بين الرّوح القدس، روح الله، والرّوح البشريّ، روح الإنسان.

٧٥٨. روح الحياة هو الّذي يعتق الإنسان من ناموس الخطيئة والموت، وبالتّالي يستطيع أن يتمّم مشيئة الله المقدّسة الّتي كان عاجزًا عن إتمامها من قبل. إنّ روح الحياة هو نفسه الرّوح القدس الّذي يعطي الإنسان الحياة، أي نعمة الإنسان الجديد والخليقة الجديدة، وبذلك يحرِّر الإنسان من الخطيئة ومن الموت.

٧٥٩. في هذا المخاض، مخاض الإنسان الجديد، يبدأ روح يسوع دائمًا بأن يكشف لنا خطيئتنا. خارجًا عنه، قد نشعر بذنبنا. أمّا فيه، وفيه وحده، فنحن نُقرّ ونعترف بأنّنا خطأة. وكلّما حوّل قلبنا بتوحيده مع مشيئة الآب، اِكتشفنا ذواتنا أنّنا مفتقرون إلى حبّه الغفرانيّ المحرِّر، لأنّ المسيح قد حمل خطايانا وجراحاتنا وآلامنا في موته الخلاصيّ على الصّليب.

٧٦٠. مِن هذا الحبّ المصلوب يتفجّر روح الشّركة، لأنّ هذا الرّوح هو شخصيًّا «غفران خطايانا». هذا ما أكّده لنا المسيح في أوّل لقاءٍ جمعه مع تلاميذه بعد القيامة، حين قال لهم: «خذوا الرّوح القدس. مَن غفرتم خطاياهم تُغفَر لهم، ومَن أمسكتم خطاياهم تُمسَك لهم» (يوحنّا ٢٠: ٢٢-٢٣).

٧٦١. حيثما كانت العلاقة مفقودةً ومقطوعة، يَفيض الرّوح، «حنان الآب»، ويعود من جديدٍ رباطًا للمحبّة حيًّا موحِّدًا الأشخاص. إنّه دم الشّركة الّذي يُحيي الأعضاء بحياة الآب.

٧٦٢. الرّوح هو الّذي يقوّي المؤمن في الإنسان الباطن: «لهذا السّبب أجثو على رُكبتيّ لأبي ربّنا يسوع المسيح، الّذي منه تُسمّى كلّ أُبُوّةٍ في السّموات وعلى الأرض، ليُعطيَكم على حسب غنى مجده أن تتأيّدوا في القوّة بروحه في الإنسان الباطن» (أفسس ٣ : ١٤-١٦). هذه هي الوجهة الايجابيّة، فهو لا يحرِّر الإنسان الباطن للمؤمن فقط، بل أيضًا يُعطيه القوّة ويؤيّده بها. هذه القوّة تستطيع أن تعمل الكثير وتجعل من الإنسان إناءً صالحًا لسكنى المسيح (راجع أفسس ٣ : ١٧-١٩).

٧٦٣. النّموّ في المحبّة هو نموٌّ في الرّوح القدس.

٧٦٤. إذا أصغَينا إلى إلهامات الرّوح القدس، نكتشف من جديدٍ نضارة الكنيسة عند الشّفاء من خطيئتنا، ونلتقي من جديدٍ وجه الرّبّ فيما وراء أصنام ضميرنا الأخلاقيّ وكبريائنا الجريح، فندخل إلى فرح الآب، فيجعله رجوعنا إليه يهتزّ ابتهاجًا مع ملائكته وشركة قدّيسيه.

٧٦٥. يؤكّد الكتاب المقدّس أنّ ثمر الرّوح في الحياة المسيحيّة يختلف عن كلّ ما نراه في العالم (رومة ١٤ : ١٧، وأيضًا ١٥ : ١٣)؛ فالعالم بضوضائه ودُنيويّته وفساده، أي «أعمال الجسد»، كالزّنى والنّجاسة وعبادة الأوثان... (راجع غلاطية ٥: ١٩-٢١) لا يستطيع أن يرث الفرح الحقيقيّ والسّعادة الدّاخليّة والإيمان والوداعة والعفاف... ثمر الرّوح الحيّ في قلوب المؤمنين بالمسيح (راجع غلاطية ٥: ٢٢-٢٣). هذه هي الحياة الحقيقيّة الّتي يمنحها الرّوح القدس وثمره فيها مجيد.

٧٦٦. نلاحظ أنّ الكتاب المقدّس لا يذكر « ثمار الرّوح» بالجمع بل بصيغة المفرد «ثمر الرّوح» راجع غلاطية ٥: ٢٢) ممّا يدلّ على أنّ الأصل واحدٌ والثّمر واحدٌ وهو روح الحياة الّتي تُظهر كلّ هذه الفضائل المجيدة.

٧٦٧. لولا استنارة الرّوح لا نستطيع أن نفهم أمور الله مثل بنوّة المسيح والثّالوث المقدّس والخلاص، وبالتّالي لا يستطيع أن يفهمها من ليس له روح الله.

٧٦٨. يعلن الله لقدّيسيه بالرّوح القدس عن كافّة الأمور والأسرار الرّوحيّة كالإنجيل والخلاص والحكمة الإلهيّة والتّجسّد الإلهيّ، ذلك لأنّهم قبلوا المسيح وآمنوا به، وفي قبولهم له نَمَوا في النّعمة والمعرفة ونضجوا في معرفة حكمة الله الّتي تظهر كأنّها عثرةٌ لأهل العالم. هذه الأمور الرّوحيّة العميقة يكشفها الرّوح القدس للمؤمنين لمجدهم فينمون ويستمتعون بها كطعامٍ روحيٍّ حتّى يصلوا إلى ذلك المجد حينما يأتي الرّبّ.

٧٦٩. كلمة الله هي المعرفة نفسها وليست واسطتها، أمّا الرّوح القدس فهو الواسطة الَّتي تُحيي فينا كلّ كلمة نتعلّمها أو نأخذها من الرّبّ وتساعدُنا على التّمييز بين التّعاليم الصّحيحة والتّعاليم الكاذبة.

٧٧٠. مرّاتٍ كثيرةً تكون حكمة النّاس جذّابةً للعقل البشريّ الَّذي لم يستنِر بالرّوح القدس. ولكن، شكرًا للرّوح القدس الّذي يعطي المؤمنين الاستنارة والتّمييز، فيستطيعون أن يُفرّقوا بين مَن ينادي بالحقّ والصّدق ومن ينادي بالكذب، بين حكمة الله وحكمة النّاس.

٧٧١. وسط الأرواح المضلّلة الكثيرة الَّتي تملأ العالم بتعاليم متناقضةٍ ومتراكبة، لا يمكن أن يميّز بينها إلّا المؤمن، لأنّ روح الله فيه. فهو يعطي قوّة التّمييز في هذا العالم المملوء بأبواق التّعاليم الكاذبة.

٧٧٢. إنّ عمل يسوع، نقطة تحقيق العهد القديم واكتماله في شخصه الإلهيّ ورسالته الخلاصيّة، سيستمرّ فاعلاً من خلال عمل الرّوح القدس، في كلّ زمن الكنيسة، كتحقيقٍ للتّدبير الإلهيّ.

٧٧٣. إنّ عطيّة الله الممنوحة لنا من خلال مواهب الرّوح القدس هي عطيّةٌ مجّانيّةٌ من الرّبّ تُعطى من دون مقابل، ويجب على الإنسان العمل على تنميّتها وعيشها وإعطائها بُعدها الرّوحيّ والكنسيّ. عندما يمنح الله إنسانًا ما صوتًا رائعًا، على سبيل المثال، فهو يتوقّع من هذا الإنسان العمل على تنميّة هذه الوزنة والمتاجرة بها روحيًّا من خلال ترانيمَ روحيّةٍ تجذب الإنسان إلى الله، أي ألاّ تكون هذه الوزنة خاضعةً للأنانيّة الفرديّة وحبّ الذّات وحصرها بالإنسان نفسه فقط. فالصّوت قادرٌ أن يكون شفيعًا بين الإنسان والله، ولا أعتقد أنّ مَن يُتاجر بهذه الوزنة يطلب الشّهرة لنفسه. آمين

٧٧٤. إنّ سرّ الرّوح القدس لا يتجزّأ عن سرّ صليب المسيح. فمَهمّة الكنيسة الأساسيّة اليوم تكمن في أن تكشف وتُظهر للعالم بقوّة الرّوح القدس أنّ صليب المسيح سيكون دائمًا مركز تاريخنا وقمّته.

٧٧٥. يُعطَى الرّوح القدس للأشخاص، فإنّه يطبع كلّ واحدٍ منهم بختم علاقةٍ شخصيّةٍ وفريدةٍ مع الثّالوث القدّوس صائرًا حاضرًا في كلّ شخص، وهذا هو المعنى الحقيقيّ لتعبير «المالئ الكلّ». ذلك أنّه يملأ كيان المؤمنين فيَهبهم مواهبه الرّوحيّة (راجع أشعيا ١١: ٢)، ونعمته المؤلِّهة، ويُنعِم عليهم بروح التّبنّي من خلال المعموديّة، ويمنحهم الملء الإلهيّ.

٧٧٦. علاقة الرّوح القدس ليست كعلاقة اتّحاد الجسد والنّفس في الإنسان، ولا هي على مثال الاتّحاد الكلّيّ للكلمة الأبديّ بالطّبيعة البشريّة للمسيح، ولا يُشبه اتّحادُ الرّوح القدس بنفس الإنسان اتّحادَ الشّخص الواحد مع نفسه: فالإنسان يُحافظ على استقلاليّته الشّخصيّة حتّى بعد تقديسه وتألُّهه بواسطة حضور الرّوح القدس، في الوقت الّذي يبقى فيه الرّوح القدس متميِّزًا عن الإنسان.

٧٧٧. بمجيء الرّوح القدس يسكن الثّالوث فينا ويؤلّهنا ويمنحنا قواه غير المخلوقة، ومجده، ولاهوته، وهو النّور الأزليّ الّذي ينبغي لنا أن نشارك فيه.

٧٧٨. لا يمكن أن تكون لنا علاقةٌ مرضيّةٌ مع الرّوح القدس إن كنّا غير مدركين أهدافه في العالم أوّلاً، وفي حياتنا ثانيًا. فإن كنّا نترقّب قيادة الله العجيبة في حياتنا، فعلينا ليس فقط أن نؤمن بالرّبّ يسوع ونقبل غفران الخطايا فحسب، بل علينا أيضًا أن نسمح للرّوح القدس أن يقطع جذور الكبرياء بفأس الدّينونة الحادّ.

٧٧٩. إنّ الصّلاة في الرّوح هي صلاةٌ متأصِّلةٌ في قلب المؤمنين من خلال الرّوح القدس. لا أحد يستطيع أن يعبد الله بالرّوح إلاّ إذا أصبح مستنيرًا بالرّوح القدس.

٧٨٠. عندما نأتي إلى محضر الله لا ينبغي أن نجعله ينحدر إلى مستوانا بأيّ حالٍ من الأحوال. إنّ الكبرياء يشتمّها الله كرائحة اللّحم الّذي قد أنتن. ومن خلال المسيح يمتلكني الله بقوّة الرّوح القدس، يطهّرني ويكسِر فيّ كلّ كبرياءٍ ليتمّم عمله فيّ. هذا هو سرّ القيادة بالرّوح.

٧٨١. الواقع والمؤسف أنّ كنائس اليوم مشغولةٌ بالخطط والبرامج المعدّة لصالح الإنسان. أمّا العبادة المقدّمة ما هي إلاّ عبادةٌ جسديّةٌ تتخلّلها المجاملات والعلاقات الاجتماعية وانعدام الاستماع لإرشاد الرّوح القدس وإلهامه، ممّا أدّى إلى وجود كنائسَ ضعيفةٍ غير قادرةٍ على القيام بدورها الأساسيّ في العناية بعمل ملكوت السّموات، وهكذا أصبحت، بالتّالي، كنائس على حافّة الإفلاس وموضع سخريّةٍ وتعييرٍ.

٧٨٢. العبادة الكنسيّة تتمحور حول الرّوح، لأنّ الرّوح القدس حاضرٌ أيضًا خلال العبادة، كما كانت السّحابة المنيرة حاضرةً عندما ظلّلت التّلاميذ وكلّ الجبل حين التّجلّي الإلهيّ (متّى ١٧: ٥). العبادة الحقيقيّة هي صلاة الرّوح القدس (راجع أفسس ٦: ١٨) الّتي تُنشّط القوّة داخل قلب المؤمنين، كما هي حالة القدّيسين، الّذين هم المتعبّدون الحقيقيّون لله لكونهم يشتركون في العبادة السّماويّة.

٧٨٣. **العبادة بكليّتها هي عمل الرّوح القدس**، الّذي يجمع كلّ أساسات الكنيسة. لهذا، فإنّ صلاة «أيها الملك السّماوي، المعزّي، روح الحقّ...» هي الصّلاة الّتي تُدخلنا إلى كلّ الخدم اللّيتورجيّة الّتي تُقام في كنيستنا.

٧٨٤. من أجل الكرازة للجيل الآتي، يجب علينا الرّجوع مرّةً أخرى إلى حضن الرّوح القدس «النّفحة الإلهيّة» الّذي يمدّنا بالقوّة الخارقة والحكمة والإرشاد. يجب علينا أن نتوب ونفتح آذان قلوبنا من جديدٍ لدعوته التّقديسيّة «التّأليه» واقتناء الخيرات الإلهيّة.

٧٨٥. الرّوح القدس يُصدر الأمر للعمل الكرازيّ ويرسل المؤمنين فعلةً للحصاد، لكنّه ينبغي أن يكون دائمًا الرّفيق الأعظم.

٧٨٦. إنّ روح الله القدّوس يأتي إلى الإنسان ويسكنه ويعطيه طبيعةً روحيّةً جديدةً متوافقةً مع طبيعة الله، جاعلاً إيّاه «شريكًا في الطّبيعة الإلهيّة» (راجع ٢ بطرس ١: ٤)، وينشئ فيه رغباتٍ وأشواقًا مقدّسةً لإرضاء الله، وكلّما زاد المؤمن استسلامًا لعمل روح الله داخله وطاعةً له، ازداد نموًّا ونُضجًا ونجاحًا في السّلوك بحسب مرضاته: «وإذ أنتم أبناء الطّاعة، فلا تُصوِّروا أنفسكم على مثال شهواتكم السّالفة في جهالتكم، بل على مثال القدّوس الّذي دعاكم كونوا أنتم أيضًا قدّيسين في تصرّفكم كلّه» (١ بطرس ١: ١٤-١٥).

• صلاة

يا روح الله، تعال إليّ واضرم قلبي بنارك، فأنتَ هو الرّفيق المُعلّم... أنت هو روح الحكمة والمعرفة. هلُمّ وجمّلني بفيضِ الحُبّ الإلهيّ. هلُمّ واخلِق فيّ إنسانًا يعرفُ صوتَ الله، يعرفُ صوتَ السّلام، يعرفُ صوتَ الأمان. يا عطيّة الله للإنسان، تعال يا نبعَ الحياة وهلّل ترتيلة الآب فيّ. أنتظرُ حضوركَ.

آمين

الباب الثّاني عشر

حياة القداسة

يُبلوِر هذا الباب لنا المعنى الكامل لحياة القداسة الفعليّة، فإنّه يطرحُ أمامنا نهجَ هذه الحياة الّتي تكمُن في الفضائل والعطايا الإلهيّة المُثمرة في الإنسان.

١) ماهيّة القداسة

٧٨٧. إنّ الحديث عن القداسة هو موجَّهٌ إلى الجميع لأنّ محور التّدبير الإلهيّ هو يسوع المسيح الّذي يُظهر وجه الله، وجهًا قريبًا، منظورًا، ملموسًا، ومسموعًا لكي يغرف الجميع من كمال نعمته وحقّه. وعليه، فالاقتراب من المسيح والعيش معه وفيه هو دعوةٌ إلى عيش ملء قداسته.

٧٨٨. القداسة، كمال الحياة المسيحيّة، لا تقتضي إنجاز أعمالٍ استثنائيّةٍ بل الاتّحاد مع المسيح، وعيش أسراره، وجعل مواقفه وأفكاره وتصرّفاته خاصّتنا.

٧٨٩. إنّ مقياس القداسة يُعطى من خلال درجة القداسة الّتي يبلغها المسيح فينا، من خلال مدى عملنا بقوّة الرّوح القدس على تكييف حياتنا كلّها مع حياته.

٧٩٠. القداسة هي عمل المسيح في النّفس.

٧٩١. إنّ القداسة هي ملء الحياة بالمسيح، هي العيش المشترك بين الله والإنسان.

٧٩٢. لا يمكن أن تُعزى قداستنا إلى أنفسنا، ذلك أنّ القداسة تتجاوز حدود الطّاقة البشريّة، بل إلى ربّنا يسوع المسيح، المقدِّس والمقدَّس.

٧٩٣. الحياة المقدّسة ليست بشكلٍ رئيسيٍّ ثمرة جهودنا وأعمالنا، لأنّ الله القدّوس هو الّذي يجعلنا قدّيسين، وعمل الرّوح القدس هو الّذي يُحيينا من الدّاخل، وحياة المسيح القائم من بين الأموات هي الّتي تُكشَف لنا وتبدِّلنا. وعليه فالقداسة تنشأ بشكلٍ رئيسيٍّ عن نعمة المعموديّة، عن كونها «ولوج الإنسان في السّرّ الفصحيّ للمسيح الّذي به تُكشَف لنا روحه وحياته كقائمٍ من بين الأموات.

٧٩٤. لا يمكن لإنسانٍ أن يكون قدّيسًا بدون قراءة الكتاب المقدس. القداسة هي نهج حياةٍ، مشروع حياةٍ يبدأ على هذه الأرض، وما بعد الحياة هو امتدادٌ لحياتنا هنا. قد دُعِيَ الإنسان، منذ الأزل، لأن يكون قدّيسًا (راجع ١ بطرس ١: ١٦). كلّ إنسانٍ مسيحيٍّ يريد أن يعيش مسيحيّته على حقيقتها عليه أن يكون قدّيسًا.

٧٩٥. ليست حياة القداسة الحياة بلا خطيئةٍ، بل هي حياة الجهاد ضدّ الخطيئة.

٧٩٦. القداسة للإنسان ليست حالةً طوباويّة، إنّها تعني أن يصير الإنسان كاهنًا وليس إلاّ، لأنّ القداسة هي حالة الكهنوت هذه في بهائها.

٧٩٧. لقد اختارنا الله منذ إنشاء العالم لنكونَ قدّيسين بلا عيبٍ في المحبّة (أفسس ١: ٤)، لقد اختارنا الله لكي نكون هذا «الصّوت الصّارخ في البريّة، أعدّوا طريق الرّبّ، قوّموا سُبلهُ». علينا أن نكونَ الصّوت الصّارخ في بريّة مُجتمعاتنا الّتي تعيش شريعة الغاب، بدل أن تعيش شريعة الله.

٧٩٨. المحبّة هي جوهر هذه القداسة لأنّ «الله محبّة. ومَن يثبت في المحبّة، فإنّه يثبت في الله، والله يثبت فيه» (١ يوحنّا ٤: ١٦). المحبّة هي الهبة الأولى الّتي تجعلنا نسلك في طريق القداسة، وهي ليست جهدًا بشريًّا بل هبةً من الله يفيضها الله بروحه القدّوس فينا.

٧٩٩. لكي تنمو المحبّة كبذرةٍ جيّدةٍ في الرّوح وتُثمر، ينبغي على كلّ مؤمنٍ أن ينفتح على كلمة الله، ويتمّم مشيئته بمعونة نعمته، ويشارك بكثرةٍ في الأسرار، بخاصّة في سرّ الإفخارستيّا، وفي الأعمال المقدّسة، وينكبّ بمثابرةٍ على الصّلاة، على إنكار الذّات، على الخدمة الفعّالة لإخوته وعلى ممارسة جميع الفضائل.

٨٠٠. النِّعَم للمسيح في الكنيسة هو مشروع حمل الصَّليب بطاعةٍ كاملةٍ لإرادة الآب، وهنا يشهد الإنسان للقيامة في العالم المعاصر: هناك ميلٌ إلى السَّهل والسُّهولة وخرق المواجهة، فحمل الصَّليب يُدخِلُنا في مشروع القداسة. فما أجمل أن نكون قدّيسين ولْيرحم الله ضعفنا.

٨٠١. التّطهير الحقيقيّ هو أنّ الله الآب قد طهّرنا بقوّة الابن من خطايانا، قد مسحنا بقوّة الرّوح القدس لنكون قدّيسين بلا عيبٍ في المحبّة، هذه هي رسالتنا ودعوتنا وليس لنا سواها لنلتجىء إليها.

٢) الخليقة الجديدة

٨٠٢. نحنُ وُلدنا في الخطيئة، كما يقول النّبيّ داود: «هاأناذا في الآثام حُبِلَ بي، وفي الخطايا حَمَلَتني أُمِّي» (مزمور ٥٠: ٧)، ولكن ما يهُمّ هو كيفيّة تعامُلنا مع الخطيئة: هل نستسلم لها؟ هل نتلذّذ بها وكأنّها أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من كياننا؟ هل نبقى قابعين تحت سلطتها الظّلاميّة؟ أم نثور عليها، ننتفض ضدّها، ونقاومها بنعمة المسيح المخلِّصة؟ (راجع رومة ٦: ١٥) من هنا، علينا أن ننظر إلى الأمور انطلاقًا من الواقع الجديد الّذي أدخله ابن الله إلى البشريّة السّاقطة: التّحرير أو التّحرُّر (راجع رومة ٦: ١٧-١٨، ٢٠-٢٣).

٨٠٣. العمل الّذي أتمّه المسيح يتعلّق بطبيعتنا الّتي لم تَعُدْ منفصلةً عن الله من جرّاء الخطيئة. إنّها طبيعةٌ جديدة، خليقةٌ مجدَّدة تظهر في العالم، جسدٌ جديدٌ خالصٌ من كلّ أثرٍ للخطيئة، وذلك بفضل دم المسيح الثّمين.

٨٠٤. ثوبٌ جديدٌ بالمسيح: علينا أن نعكس نور المسيح في حياتنا، مثل «الإشعاعات النّوويّة» للرّوح القدس فهو ينعكس على حياتنا وعلى وجوهنا.

٨٠٥. كيف تكون إنسانًا بارًّا وأنت تحتقر إنسانًا آخر؟ عندما نحتقر الآخرين فإنّنا نحتقر صورة الله فيهم، وبالتّالي نحن نحتقر الله نفسه (راجع متّى ١٨: ١٠).

٨٠٦. «فأُناشدكم، أيُّها الإخوة، برأفة الله أن تجعلوا من أنفسِكم ذبيحةً حيَّةً مقدَّسةً مرضيَّةً عند الله. فهذه هي عبادتُكم الرّوحيّة. ولا تتشبّهوا بما في هذه الدّنيا، بل تغيَّروا بتجديد عقولكم لتعرفوا مشيئة الله» (رومة ١٢: ١-٢). رسالةٌ تحملُ في طيَّاتها دعوةٌ إلى لبس الإنسان الجديد الَّذي هو على صورة المسيح، راجيًا أن نكون الخليقة الجديدة المتنعّمة بفرحة القيامة البهيجة. آمين

٨٠٧. جسدنا الحاليّ الَّذي لوّثته الخطيئة ويحمل في داخله بذرة الفساد لا يقدر أن يرث الحياة الأبديّة، لذا وجب تغييره بجسدٍ آخر نورانيٍّ بلا خطيئة، جسدٍ روحيّ، يستطيع أن يتمتّع بأمجاد الملكوت.

٣) قداسة الإنسان: طهارة القلب

٨٠٨. إنّ قلب كلّ مؤمنٍ يطمح بنعمة الرّبّ أن يعيش قداسة السِّيرة الشّخصيّة من خلال الكمال، والسّلام، وغفران الخطايا، والتّوبة...

٨٠٩. طهارة القلب صلاةٌ، هي أفضل من كلّ صلاةٍ تُتلى بصوتٍ مرتفعٍ، والصَّمتُ مع الضّمير الصَّافي أعلى من صوت الإنسان الَّذي يَصيح. فالصّلاةُ تكونُ صافيةً عندما تكونُ النَّفسُ خاليةً من الخطيئة، ولا سيّما ضدّ المحبّة الأخويّة.

٨١٠. أن يكون لك دائمًا ضميرٌ بلا عثرة، هو عملٌ شاقٌّ بلا شكّ، ولكنّ النّتيجة المترتّبة عليه ستشهد بأنّ لك مصدرًا مضمونًا هو الضّمير السّويّ، والحسّاس، والطّاهر النّقيّ الَّذي يحفظ لك علاقةً دائمةً مع الله في طريق البرّ. ومظاهر هذا التّدريب تبدو في عدّة ممارسات: سرّ الاعتراف المقدّس، المغفرة، الأعمال الَّتي تليق بالتّوبة والتّأمّل في كلمة الله.

٨١١. تنبع الأهواء من قلب الإنسان. قال لنا الرّبّ يسوع في الإنجيل المقدّس: «إنّ الّذي يخرج من الإنسان هو يُنجِّس الإنسان، لأنّها من الدّاخل من قلوب النّاس تنبعث الأفكار الرّديئة: الزّنى، الفجور، القتل، السّرقة، الطّمع، الخبث، المَكر، العَهارة، العين الشّريرة، التّجديف، الكبرياء، الجهل. جميع هذه الشّرور تنبعث من الدّاخل فتنجّس الإنسان» (مرقس٧: ٢٠-٢٣؛ راجع أيضًا غلاطية ٥: ١٩-٢١).

٨١٢. اليَقَظَة والتّمييز هما فضيلتان عظيمتان ينبغي أن يقتنيهما الّذين يطلبون أن يسكن المسيح فيهم ويرغبون بالتّغلُّب على قوّة الشّهوات.

٨١٣. أللّهم اخلق فيّ قلبًا نقيًّا، طاهِرًا، بسيطًا، لا يُفكِّر بالشّرّ، ولا تأوي إليه الشّهوات. قلبًا نقيًّا، يملأُه الحبّ دائمًا، وفي كلّ حين يبتغي السّلام والأمان لكلّ إنسان. قلبًا نقيًّا، يُحِبُّ الصومَ والصّلاة والسّهر وإذلال الجسد والعمل والتّعب معًا، يا محبّ البشر، ضَع فيّ مثل هذا القلب، واغرس فيه مخافتك كالغرسة النّامية. آمين

٤) تقديس الإنسان والعالم

٨١٤. إنّ دور التّدبير الإلهيّ ينتهي ببداية البداية، بالتّقديس. فالخدمة اللّيتورجيّة تدعونا إذًا للدّخول في شركة القدّيسين هذه، تدعونا للتّقديس وعالم القداسة: إنّها تُحوّل الإنسان إلى «إنسانٍ ليتورجيّ».

٨١٥. التّقديس لا يعني فقط تخصيص أو فصل المؤمن عن العالم وتكريسه للمسيح ولكنّه يعني أيضًا حركةً ونموًّا روحيًّا وأخلاقيًّا في حياة المؤمن. عمليّة التّقديس هذه أو تطهير الذّات تتمّ بعمل روح الله بالتّعاون مع المؤمن ذاته، الّذي يستطيع أن يُميت بالرّوح أعمال الجسد.

٨١٦. نحن بحاجةٍ إلى النّعمة الإلهيّة، الموهبة غير المخلوقة، والَّتي تدلّ على حضور الثّالوث القدّوس في المؤمن لتقديسه ومساعدته على أن يكون إنسانًا روحيًّا متحرِّرًا من استعباد الخطيئة. وهذا ما يمنحنا إيّاه الكاهن بالتّحديد عندما يباركنا باسم الثّالوث القدّوس.

٨١٧. لا يرفض الله تقدماتِنا وعالَمَنا، لكنّه لا يتركه كما هو! فالأشياء عندما تقدَّم في اللّيتورجيّا تقدَّم كما هي حتّى لا تبقى كما هي، بل لتتحسّن. نُقدِّم «ما هو» ليصيرَ بالتّوبة والنّعمة «ما يجب»، وهكذا في اللّيتورجيّا «يتجلّى العالم»! إنّ العالم هو خليقة الله الحَسَنَة، الحسنة جدًّا، والخطيئة هي الدّخيل (راجع رومة ٥: ١٢).

٨١٨. لا يتجدّد العالم بتحطيم القديم وإنّما بتقديسه. فليس في الدّنيا شيءٌ دَنِس. كلّ شيءٍ يمكنه – ويجب - أن يصير تقدمةً، وذلك ما دام كلّ شيءٍ يمكنه أن يتقدّس، ونحن مدعوّون لنكهن هذه القداسة. كلّ شيءٍ هو مادّةٌ للتّقديس. وتريد النّعمة أن تحلّ على كلّ شيء.

٨١٩. ليس المطلوب أن نقدِّس حياة الإنسان بمعنى أن نحرِّره من جسده ومن عناصر هذا العالم. قداسة الإنسان تتحقّق حين يلعب هذا الأخير دوره الكهنوتيّ هذا في تقديس العالم. القداسة للإنسان ليست حالةً طوباويّةً لا يشعر بها بشيءٍ من الألم الرّوحيّ أو الجسديّ!

٨٢٠. إنْ كنّا نلاحظ هنا وهناك في العالم عناصرَ وحالاتٍ وظروفًا غير مقدّسة، فهذا يجب ألاّ يقودنا إلى رفض العالم في سبيل الذّهاب إلى عالمٍ آخر «طوباويّ» نجد فيه قداسة! عالمنا كما هو، هو أداتنا وهو مادّتنا الَّتي نقدِّسها فتُقدِّسنا. لن تتحقّق قداسة الإنسان خارج العالم، تمامًا لأنّ العالم هو الواسطة والمادّة الوحيدة الَّتي ستُحقِّق قداسته.

٨٢١. لا تقبل المسيحيّة بأيّ فصلٍ بين ما هو أمامنا وما هو «ورائيّ»، بين هنا وهناك. أليست هذه هي عثرة الإنسان اليوم في الكنيسة، حين يظنّها أو يراها تختصّ بما هو «هناك» وكأنّها مؤسّسةٌ تهتمّ بما هو «فوق الطّبيعيّ» وبما هو غير منظور وبالتّالي هي ليست لحياته هنا. تُنقذنا اللّيتورجيّا الّتي لا تستخدم أيّ شيءٍ من خارج هذا العالم إلاّ النّعمة الإلهيّة، من خطر الفصل بين ما هو «مقدّس» وما هو «ماديّ».

٨٢٢. الزّمان والمكان اللّذان نعيش فيهما هما تمامًا العالم الّذي ينتظر تقديسنا له! المسيحيّة لا ترفض عناصر الحياة المكانيّة والزّمنيّة بانتظار زمانٍ ومكانٍ آخر. وهي أيضًا لا تحتقرها! هذه هي المادّة الّتي على الإنسان أن يكهنها ليقدِّس ذاته من خلال هذه الرّسالة ويقدِّسها أيضًا.

٨٢٣. كلّ شيءٍ يصير مقدَّسًا عندما يتقبّل النّعمة الإلهيّة. هذا التّقليد اللّيتورجيّ بطقوسه يجعل العبادة تصير بأعينٍ مفتوحةٍ على العالم المادّيّ كما هو أمامنا وبعناصره ذاتها الّتي نستخدمها في حياتنا اليوميّة، وليس بإغلاق الأعين ومحاولة الانسحاب من هذا المكان والزّمان لملاقاة الله في حيّزٍ ليس هنا وزمنٍ خارج زمننا.

٨٢٤. إنّ أمر التّقديس والاتّصال الحيويّ بالله لا يتحقّق إلاّ بالاتّحاد الفعليّ مع المسيح في المناولة، وبذلك نرفع كلّنا معه إلى الله، قربانًا مرضيًّا ومقبولاً.

٨٢٥. السّلام سكون عالمنا الدّاخليّ، وراحة ضميرنا، وتصافي نفوسنا. السّلام هو عطيّة الرّبّ القائم من بين الأموات الأولى لتلاميذه (راجع يوحنّا ٢٠: ١٩)، وهو «سلام الله الّذي يفوق كلّ عقل» (فيلبّي ٤: ٧).

٨٢٦. حينما يشمّ الشّعب رائحة البخور يذكر أنّه يجب أن تكون له فضائل، وأن يقدِّم نفسه ذبيحةً حتّى يكون رائحةً طيِّبةً أمام الله.

٨٢٧. إنّ الإنسان يتقدّس باتّصاله بنورٍ غير مخلوق، أي إنّه يصير بدوره نورًا ويتجاوز الحسّ والعقل معًا باختباره الأشياء الإلهيّة نفسها.

٨٢٨. الغَسل يُزيل الأوساخ من الجسم، لكنّ موت المسيح يُوفِّر التّطهير من الخطيئة، الّتي ما هي، بحسب لاهوت الإنجيل الرّابع، إلاّ انفصالٌ عن الله وكسرٌ للعلاقة القائمة بين الإنسان والله؛ فالبشر قدِ اغتسلوا أو تطهّروا من الخطيئة من خلال كشف الحبّ الإلهيّ الّذي يُعيد البشر إلى العلاقة الصّحيحة مع الله.

٨٢٩. الإفخارستيّا تظهر كأنّها سرّ إعادة الإنسان إلى مائدة الرّبّ وارتقائه إلى الملكوت السّماويّ، ذلك أنّ أوّل درجةٍ في سلّم الصّعود هذا هو في الخروج من هذا العالم الفاسق الخاطئ والدّخول في العالم الإلهيّ المتمثِّل في الكنيسة الأرضيّة، بيت الله، باب السّماء.

٨٣٠. إنّ دم المسيح هو لتقديس نفوسنا وخلاصها؛ إنّه يزيدها بهاءً ويُشعلها كالنّار؛ إنّه يُعطينا فهمًا مستنيرًا أكثر من لهيب النّار، ونفسًا لامعةً أكثر من الذّهب. إنّ هذا الدّم لَمَّا سُفك على الأرض، قد جعل السّماء في متناول أيدينا. لقد صار ثمنًا لافتداء العالم: به اقتنى المسيح كنيسته.

٨٣١. «الخطيئة» تُشكِّل عقبةً أساسيّةً للمسيحيّ في سعيه لتحقيق القداسة والكمال. لذلك يطلب المسيحيّ من الله أن يغفر له خطاياه وذنوبه، حتّى يتخلّى عن الخطيئة وينبذها ويشنّ حربًا ضدّ هذا العدوّ الأكبر بقوّة المسيح وسلاحه، أعني، الصّليب. وعليه، فإنّ المعونة الأولى الّتي يجب أن يحصل عليها المؤمن من المسيح هي النّعمة الإلهيّة، الّتي بدونها ستكون جهوده عقيمةً وغير مُجدية.

٨٣٢. إنّ الخطيئة قوّةٌ تزيل القداسة والألوهة، وكلمة الله، الّذي هو بلا خطيئةٍ وقدّوسٌ كلّه، يتّخذ الطّبيعة البشريّة الّتي أفسدتها الخطيئة، ليقدّسها ويؤلّهها، وليقودها إلى القداسة، سائرًا بها نحو الإله ونحو التّألّه.

٨٣٣. لقد خلق الله الإنسان ووضعه في الجنّة «ليفلحها ويحرسها» (تكوين ٢: ١٥) ولكي يصبح سيّد الخليقة بأسرها (تكوين ١: ٢٨؛ المزمور ٨؛ حكمة ١٠: ٢؛ سيراخ ١٧: ٢-٤). ولكنّ الإنسان لم يحتفظ بمركزه الملوكيّ والكهنوتيّ وسط العالم، وخالف إرادة الله، فقاد الخليقة كلّها إلى السّقوط. ولكنّ الرّسالة الّتي لم يقم بها آدم أُعطيت لإنسان الخليقة الجديدة، ويصفها الكتاب المقدّس بـ «خدمة المصالحة» (٢ كورنثس ٥: ١٨)، أي مصالحة العالم مع الله. فالعالم مدعوٌّ إلى أن يتحوّل، ودور الإنسان أن يكتشف قوى العالم السّرّيّة، ويحوّلها لكي يجابه معضلات الحياة اليوميّة مجابهةً فعّالة.

٨٣٩. لقد جرّ الإنسان الخليقة بأسرها إلى السّقوط والفساد عندما توقّف عن استخدامها لتمجيد الله، وطلب بركة الله بواسطتها (تكوين ٢: ١٦-١٧). ولكنّ إنسان الخليقة الجديدة، أي المسيحيّ، فهو مدعوّ إلى أن يحوّل ذاته وأعماله والعالم كلّه، إلى علاقةٍ مستقيمةٍ مع الله (راجع تثنية ٨: ١٢-١٨؛ ١ أخبار ٢٩: ١٤-١٦)، كما فعل تلاميذ المسيح بعد التّجليّ، إذ انحدروا من جبل ثابور وساروا إلى العالم ليحوّلوه، ويغدون «جددًا» و«أطهارًا» (متّى ١٧: ١-٨، ٢ كورنثس ٥: ١٧). لذلك لا ينفصل المسيحيّون عن العالم ولا يتنكرّون لمسؤوليّاتهم نحوه ولا يهجروه، فقد أوصاهم الرّبّ أن يبقَوا في العالم (يوحنّا ١٧: ١٥) ويقوموا برسالةٍ.

٨٤٠. الرّاهب الحقّ لا يحيا في انفصالٍ داخليٍّ عن العالم، ولا يتجاهل مسؤوليّاته نحوه. فهو يحيا من أجل العالم كلّه، ويشعر أنّه متّحدٌ معه بعمق. ورسالة الرّاهب وموهبته تحملان الطّابع النّبويّ وتذكّران بالملكوت، لأنّ الحياة الرّهبانيّة ليست سوى صورةً حيّةً عن الحياة المقبلة. الرّاهب بالنّسبة إلى العالم سهمٌ متّجهٌ نحو السّماء، يُظهر للعالم أنّ ثمّة حقيقة أخرى هي حقيقة السّماء. وبهذا يكمن عطاؤه العظيم للعالم. وهو عطاءٌ ضروريّ، خاصّةً في عصرنا الحالي، حيث يكاد الجميع ينجرفون نحو المادّة، ويتهدّدهم خطر الحكم عليهم بالموت.

• صلاة

ليتني أجِدُ طريق القداسة، يا أيّها القدّوس، فكلّ مرّةٍ أقرّر فيها أن أترُكَ أهوائي وشهواتي الدّنيويّة تراني أقِعُ من جديدٍ في فخاخ الشّيطان. ربّي، خُذني إلى حياة القداسة، علّمني أن أسير معكَ فقط، وأن أمشي على خُطاكَ أنتَ فقط. لوحدي لن أستطيع أن أحرّكَ ساكنًا. أحتاجُكَ لتقدّسني فأكون أهلاً للتّبنّي الإلهيّ.
آمين

الباب الثّالث عشر

الصّوم والصّلاة

يُشرق هذا الباب علينا بشعاعات الصّوم والصّلاة؛ الصّوم القلبيّ والصّلاة الفعّالة في قلب الإنسان ومن ثُمّ في قلب الله. فإنّ للصّوم أصولاً روحيّةً على الإنسان اتّباعها، وإنّ الصّلاة هي الحوار الدّائم النبضَ في قلب العلاقة الحيّة مع الله الّتي لها أصولها أيضًا.

١) الصّلاةُ الحقيقيّة عطيّة النّعمة الإلهيّة

٨٤١. الإنسان هو كائنٌ مُصَلٍّ! إنّه يحقّق إنسانيّته بالصّلاة، أوّلاً وأخيرًا.

٨٤٢. إنّ الصّلاة هي أن ينشغل الإنسان بالله، في كلّ حين (راجع لوقا ١٨: ١).

٨٤٣. يطلب الرّبّ ، أوّلاً وقبل كلّ شيء، قلبَ الإنسان، إذ إنّ الصّلاة هي، أوّلاً وأخيرًا، حركة القلب إلى فوق، باتّجاه الله. إنّها تسير عموديًّا، إلى فوق، إلى حضن الله. إنّها طلب ملكوت السّموات (راجع متّى ٦: ٣٣).

٨٤٤. لا يستطيع أحدٌ أن يعلّمك الصّلاة، لا الكتب ولا الأب الرّوحيّ ولا أحد. الأستاذ الوحيد للصّلاة هو النّعمة الإلهيّة. فقط الرّوح القدس هو الّذي يعلِّم الصّلاة. إن لم تدخل في جوّ النّعمة لا تستطيع أن تصلّي.

٨٤٥. هناك ثلاثة أوقاتٍ للصّلاة: السّؤال عند طلب غفران الخطايا؛ والاعتراف عند الشّكر للآب السّماوي؛ والمديح عند تمجيده لأجل أعماله العظيمة. النّوع الأوّل لأوقات الشدّة؛ والثّاني عند تلقّي النِّعَم والمواهب؛ والثّالث لأوقات الفرح النّفسيّ. أدعوكم إخوتي وأخواتي إلى الصّلاة لبُنيان جسد المسيح «الكنيسة». آمين

٨٤٦. الصّلاة هي اكتشاف الإنسان لذاته بالإصغاء إلى الله يتكلّم. إذًا، إنّها علاقةُ الإنسان المباشرة مع الله. فالصَّلاةُ ليست مجرّدَ كلماتٍ تُقال، ولا هي ثرثرةُ الكلام، وتبقى بعيدةً عن لائحة الطّلبات الَّتي نُريدُ من الله تلبيَّتَها؛ إنّها تعني أن أَجلِسَ بقرب الحبيب وأضعَ نفسي وقلبي في حضرته الإلهيَّة، وهو يَعلَمُ ما أنا بحاجةٍ إليه، وسيَعمَلُ بكلّ تأكيدٍ على جعلي أكثرَ اطمئنانًا ووثوقًا.

٨٤٧. إنّ الصّلاة ليست أبدًا عملاً بشريًّا وحسب، بل هي أيضًا عملٌ إلهيّ. لذلك، فإنّ ثمار الصّلاة لا تأتي منّا، ليست وليدةَ الجهد البشريّ بل عطيّة النّعمة الإلهيّة، تُعطى لنا في الوقت واللّحظة اللّذين يحكم فيهما أنّها تُفيدنا.

٨٤٨. الصّلاة هي مدرسة الإرادة والحرّيّة البشريّة.

٨٤٩. إنّ الصّلاة هي حوارٌ صامتٌ مع الله، حيث ينفتح بها القلب بصمتٍ أمام الله؛ إنّها حوارٌ قلبيٌّ مع ذاك الّذي يسكن قلوبنا وحياتنا؛ إنّها الجلوسُ في حضرة الله بخشيةٍ ومَهابةٍ وتقوى، إذ إنّها وقتُ الإصغاء إلى صوت الله وكلمته الّتي ما هي إلاّ حياةٌ أبديّة.

٨٥٠. الرّوح القدس يحثّنا على الصّلاة والسّجود وهو يعين ضعفنا في هذا الأمر. والصّلاة في الرّوح هي الصّلاة الفعّالة.

٨٥١. صلاتنا هي اشتياقُ الإنسان إلى الله، وهي تَفَرُّغ القلب لله. فهي إذًا خلوة النّفس مع الله، هي لقاءٌ مع الله، لقاء حبّ؛ هي التصاقٌ بالله، ذلك أنّها تلامس قلب الإنسان مع قلب الله وتمتّع النّفس بالله. وفي هذا قال داود النّبيّ: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرّبّ» (مزمور ٣٤: ٩).

٨٥٢. الصّمت الّذي نبتغيه في الصّلاة يقوم على عودة الإنسان إلى الذّات، ودخوله إلى غرفة قلبه السّرّيّة، لكي عندما يُصغي إلى كلمة الله الحيّة، يمكنه أن يسمع الكلام غير اللّفظيّ الّذي يُوجّهه إليه خالقه.

٨٥٣. علينا أن ندرك أهميّة الالتزام في الصّلاة من أجل جميع النّاس وعدم نسيانهم، وأهميّة أن تشمل صلاتنا أكبر عددٍ ممكنٍ من النّاس واحتياجاتهم قدر المُستَطاع.

٨٥٤. الصّلاة هي صِلَةً حقيقيّةً وعلاقةً حيَّةً وشَرِكةً روحيّةً مع الله الآب لسّماويّ بابنه يسوع المسيح كلمة الله المتجسِّد بقوّة الرّوح القدس وفعله وعمله الخلاّق في الإنسان، إذ إنّ الصّلاة الرَّبّيّة ليست عقيدةً، إنّما هي حضور الله يتجلّى من خلال عيشنا لهذا الحضور.

٨٥٥. الصّلاة هي العمل الشّخصيّ الأوّل، الّتي تسمح لنا وحدها بأن نعي أنفسنا ونتقدّم في الله ونزداد اتّحادًا بقريبنا.

٨٥٦. في الصّلاة، لا يَعُدِ الإنسان لذاته بل لله، ولا يحكم بعدُ ذاته، بل الرّوح القدس هو الَّذي يقوده.

٨٥٧. كلّ حضورٍ للإنسان أمام وجه الله صلاةٌ، ميزتها الأساسيّة الاستمراريّة كالتَّنفّس وخَفَقان القلب.

٨٥٨. إنّ مَهمّة الصّلاة الرّئيسيّة تكمن في الوقوف أمام الله، والصّراخ إليه من أعماق القلب، ذلك أنّ الله ينظر إلى القلب. وهكذا نرى أنّ ممارسة الصّلاة الرّوحيّة تقوم على إتاحة الفرصة للقلب لأنْ يضطرم بالنّعمة ساهرًا بلا انقطاعٍ على نقاوته الدّاخليّة.

٨٥٩. «لترتفع صلاتي كالبخور أمامك» (المزمور ١٤٠: ٢). هذه هي العبادة الإلهيّة: إنّه خروجٌ لرغبة الإنسان التّوّاق إلى أن يقبل الله صلاته وذبيحته. فإنّ البخور هو علامة التّقديس والنّقاوة.

٢) الصّلاة الشّخصيّة واللّيتورجيّة

٨٦٠. الرّعيّة مدعوّةٌ دائمًا أن تجسّد حالة الصّلاة الدّائمة وبهذا تؤدّي رسالة المسيح/الكاهن.

٨٦١. الصّلاة هي لقاءٌ يغذّي عواطفنا العميقة. إنّها حضورٌ ومشاركة. إنّها الغذاء الأساسيّ لكلّ شخصٍ يعيش في جماعة، لأنّها الغذاء السّرّيّ والشّخصيّ. فجماعةٌ تصلّي مجتمعة، وتدخل في صمتٍ وتعبُّد، تلتحم تحت تأثير الرّوح القدس.

٨٦٢. على كلّ مَن يريد الاقتراب من الله أن يتأمّل أوّلاً عَظَمَة الله وجلاله ومجده، عندها فقط تنشأ في النّفس مشاعر الخَشيّة الَّتي تبلغ ذروتها في تمجيد الله. على الإنسان أن يتأمّل خير الله ورحمته من أجل أن يوقظ في نفسه مشاعر الشّكر قبل أن يُقدِّم المرء احتياجاته الملائمة إلى الله. فينبغي، بالتّالي، أن تكون بداية صلاتنا بعيدةً عن مفهوم الاهتمام الذّاتيّ، وأن تتّسم بالمقابل بالكَرَم وتحمل دائمًا طابع التّسبيح والحَمد.

٨٦٣. إنّ كلّ صلواتنا الشّخصيّة واللّيتورجيّة والتّعبّديّة، مبنيّةٌ على أساس الصّلاة الّتي علّمها الرّبّ يسوع المسيح لتلاميذه، وأخصّ الآية: «لتكُن مشيئتك كما في السّماء كذلك على الأرض»، إذ إنّنا نطلب مشيئة الله ونريد أن تكون مشيئة الله هي الغالبة في حياتنا، ونُريدُ أن نسيرَ مسيرة النّور مع الله لأنّه قال: «أنا نور العالم، من يتبعني لا يمشي في الظّلام» (يوحنا ١١:١٠).

٨٦٤. كم هو جميلٌ السّجود أمامَ القُربان المُقدّس، أي أمام المسيح المتجسِّد أسراريًّا في الكنيسة! كم هو جميلٌ أن ندخل إلى مخادعنا ونُصلّي إلى أبينا الّذي في السّموات! كم هو جميلٌ أن نغلِقَ أبواب غُرَفِنا على أنفُسِنا لنحظى بحوارٍ قلبيٍّ مع الله، بلحظاتٍ مقدّسة تتعانق فيها السّماء مع الأرض، الله مع الإنسان، الكنيسة السّماويّة المنتصرة مع الكنيسة الأرضيّة المجاهدة.

٨٦٥. كم هو جميلٌ أن ندخُل إلى قلوبنا ونسمع كلمة الحياة من خلال الرّوح القدس السّاكن فينا والمُتجسّد في كلماتنا وحضورنا وشخصيّتنا. كَم هو جميلٌ أن نعيش الرّبيع في حياتنا، أن نعيش الصّحراء في حياتنا، أي اللّقاء مع الله على انفراد.

٨٦٥. أقترح أن نعتاد في صلاتنا على صلوات السّاعات «الشّخصيّة» أو الأزمنة الطّقسيّة: إنّها صلاة الكنيسة الرّسميّة الَّتي من خلالها ندخل في شركةٍ مع جسد المسيح الَّذي ينشد نشيد التّسبيح للآب في كلّ العالم، ومنها نستقي روحانيّةً ثابتة، راسخةً من دون أن أنفي أهميّة أنواع الصّلوات الأخرى.

٨٦٦. إنّ الصّلاة اللّيتورجيّة هي الصّياغة الَّتي هذَّبها الرّوح لتنمية وعيٍ كتابيٍّ خلاصيٍّ مُتكامِلٍ لتصيرأساسًا صلبًا لأيّة صلاةٍ خاصّةٍ أو شخصيّةٍ في ما بعد.

٨٦٧. مهما يكن للصّلاة والعبادات الفرديّة من قيمة، فإنّ هذه القيمة تبقى ناقصةً، إذا ما قيست بالذّبيحة الإلهيّة، الَّتي تُظهر الكنيسة طبيعةً واحدةً متّحدةً بالمسيح؛ فالكنيسة إذ تقوم بتقديم هذه الذّبيحة، تحقّق عملاً إلهيًّا باسم جماعة المؤمنين، وتنال رضى الله وبركته لكلّ مَن يشترك معها في عمل الذّبيحة، الَّتي هي القدّاس الإلهيّ.

٣) الصّلاة نحو الشّرق

٨٦٨. يُصلّي المسيحيّون المنتمون إلى التّقليد البيزنطيّ متّجهين نحو الشّرق (كان تقليدًا كنسيًّا عامًّا لكلّ التّقاليد اللّيتورجيّة)، نحو الشّمس المُشرقة، الّتي هي رمز المسيح النّاهض من بين الأموات، الّذي قام من ليلة الموت إلى مجد الآب وهو الآن يملك على الكون؛ وتتضمّن، في الوقت عينه، انشدادًا إسكاتولوجيًّا لرجاء عودة المسيح في مجيئه الثّاني.

٨٦٩. يُعلن المسيحيّون، إذًا، من خلال اتّجاههم نحو الشّرق، يُعلنون أنّ المسيح هو الهيكل الحقيقيّ، وهو حاضرُ العالم ومستقبله.

٤) الصّوم سرّ التّواضع أمام الله

٨٧٠. إنّ الأسباب الَّتي تدعو الله لعدم قبول الصّوم الَّذي يقوم به الأفراد أو الجماعات تكمن في الكبرياء، النّميمة، والصّوم الَّذي يهدف لمديح النّاس، وليس من أجل الله، والرّوحانيّة المزيّفة، والعيش في الخطيئة، وعدم اتّخاذ أيّ قرارٍ بتغيير الذّهن والحياة...

٨٧١. أمّا أنت فلا تُبدّل وجهك، بل كما أنت، هكذا اِظهَر للآخرين. لا تُبدّل مظهرك عابسًا وساعيًا وراء الشّهرة عن طريق التّظاهر بالصّوم والإمساك، لأنّه لا نفع للإحسان الَّذي يُطبَّل له، ولا ثمر للصّوم الَّذي يُشهَّر أمام النّاس، أي كلّ ما يقوم به الإنسان بُغية التّظاهر أمام الآخرين.

٨٧٢. «اِنضباط»، وهي عمليّة ضبط النّفس، عمليّة عفّة أو تَعَفُّف، وفيها يحرم الإنسانُ نفسَه عن بعض الأمور غير الموافِقة، وأوّلها الأطعمة والشُّرور والأهواء الجسديّة، فيكون الإنسان سيِّدًا على أهوائه وعلى رغباته. لذلك، وضعت الكنيسة أسابيع الصّوم لتكون فترة تنقيّةٍ ومدرسةٍ للتّوبة.

٨٧٣. إنَّ زمنَ الصَّوم المقدَّس الَّتي تحتفلُ به الكنيسةُ المقدَّسة هو زمنُ الرّجوع والعودة إلى الله تعالى يتضمَّنُه عيشٌ لفضائلَ جمَّة منها: الخشوع، التَّقوى، الصَّدَقة، مخافة الله والتَعَبُّد له. إنَّه زمنُ البكاء والنَّحيب على المنفى الَّذي يَعيشُه الإنسان في بُعدٍ عن الله تعالى؛ إنَّه زمن البكاء على الحياة الإلهيَّة الَّتي فقدناها بعصياننا أوامرَ الله تعالى والَّتي من خلالها طُرِدنا من الفردوس والنَّعيم. وبالتّالي، إنَّه زمن العودة إلى إنسان ما قبل الخطيئة والموت.

٨٧٤. إنّ الصَّوم الصَّالح هو الصَّوم الَّذي يأخذُ مكانَه الطَّبيعيّ في القلب. فالقلبُ هو مركزُ ومصدر الإحساس والعاطفة وهو بالتّالي مركزُ العلاقة بين الإنسان والله. فالإنسان الصَّائم يجب أن يجعل من قلبه هيكلاً حيًّا يَذبحُ المسيحُ عليه شهواتِه (أي الإنسان الصَّائم)، ملّذاتِه، كبرياءه، أنانيَّته وحقده، ويخلقه من جديد إنسانًا جديدًا مُفعمًا بالرُّوح: «قلبًا طاهرًا اخلُق فيَّ يا الله» (مزمور ٥٠: ١٢).

٨٧٥. إنّ هدفَ الصَّوم هو بلوغُ القداسة الَّتي ما هي إلا اِشتراكٌ بقدسيَّة الله تعالى: «كونوا قدِّيسين كما أنّ أباكم السَّماويّ هو قدُّوس».

٨٧٦. إنّ الصّوم من أجل المسيح سرّ، سرّ التّواضع أمام الله، سرّ محبّة الله الَّذي خلقنا في المسيح بمحبّته اللّامتناهية ونحن نبادله المحبّة بافتقارنا إليه. خُلِقنا صوّامين حتّى نبقى عُشّاقًا إلى الأبد (راجع تكوين ٢: ١٧).

٨٧٧. الصَّوم هو عيشُ النّهار الَّذي لا مساءَ له، وهو بالتّالي عبورٌ روحيٌّ للإنسان الصَّائم بإيمانٍ حيٍّ، من الظّلمة الدّنيويّة إلى النّور الأزليّ، ومن العدم إلى الوجود الحقيقيّ في الله، ومن الموت إلى الحياة الأبديّة. آمين.

٨٧٨. إنّ الصّوم الصّالح هو الصّوم الّذي يأخذ مكانه الطّبيعيّ في القلب، إذ على الإنسان الصّائم أن يجعل من قلبه هيكلاً حيًّا لحضور الثّالوث القدّوس.

٥) الغفران الصّياميّ

٨٧٩. لا يمكن أن يكون الصّوم كاملاً وذا معنًى ومغزًى روحيّ إلاّ إذا قمنا بتطهير لساننا عملاً بالمزمور القائل: «أقم يا ربُّ حارِسًا لفمي، ورقيبًا على باب شفتيّ».

٨٨٠. ها إنّ المسيح إلهنا معلّقٌ فوق صليب العارّيضرع عنّا إلى أبيه السّماويّ، بينما يملأ قلبك، أيّها التّرابيّ ابن التّراب، الغضب وتتآكلك النّقمة وتكويك الأحقاد! فكلّما اغْتَبتَ الآخرين وردّدتَ عيوبهم في غيابهم، جعلتَ لسانك كنّارةً يغنّي بواسطتها إبليس النّمّام أبو الكذب.

٨٨١. يبدأ الصّوم عندما يصفح الإنسان عن الزلاّت، وعندما يترك الغير وشأنه وعندما ينسى الإساءة ويتغاضى عن جرح كرامته وهضم حقوقه. حينئذٍ يكون نقيّ القلب، طاهر القصد فيستطيع أن يقف أمام الله.

٨٨٢. ما يجب عليكَ أيّها المسيحيّ أن تتعلّمه في الزّمن الصّياميّ المقدّس هو التّالي: **كُن ديّانًا لخطاياك ومُحاسبًا لآثامك (راجع لوقا ٦: ٤١-٤٢)، وسالِم قريبك واغفر له (راجع متّى ١٨: ٢١-٢٢؛ غلاطية ٦: ١-٢؛ أفسس ٤: ٢٦)، يغفر لك المصلوب خطاياك.**

٨٨٣. يبقى الصَّوم يتيمًا من دون الصَّلاة وأعمال الرّحمة والمحبّة تجاه الإنسان الآخر.

٦) الهدوء القلبيّ

٨٨٤. مناجاةٌ قلبيّة: جلَستُ عند قدمَيكَ، يا حبيبي، بانحِناءِ قلبي المفجوع، فرفعتَ جبهَتي نحوَ عينَيكَ؛ بدفءِ حُبّكَ نَشَلتَ روحي مِن خَوفها. شكرًا لك على حُسنِ محبّتك الّتي لا يَسَعُني إلّا أن أُسَلِّمَ لها ذاتي. لتَضبُط، أنتَ يا ربّ، دقّات قلبي وأنفاسه بيَدَيكَ الطّاهرتين. لك المجد والإكرام، آمين.

٨٨٥. إنّ الهدوء القلبيّ يعني الانتقال من صلاتي أنا إلى صلاة الله الّذي يعمل فيّ، إلى الصّلاة العفويّة والمتدفّقة. والصّمت الحقيقيّ أو الهدوء القلبيّ هو، في معناه العميق، مطابقٌ لصلاة الرّوح القدس غير المنقطعة فينا.

٨٨٦. إنّ الانسان الّذي يُصلّي يتحرّر من الأهواء والخطايا، ويغدو مسكنًا للثّالوث القدّوس، وهكذا يبلغ الى المحبّة الّتي هي غاية الأماني.

٨٨٧. عندما أرادَ يسوع أن يصلّي، كانَ يبتعد عن النّاس وعن تلاميذه، كانَ يصعد إلى الجبل كي يُصلّي مُنفردًا. أرادَ يسوع أن يختليَ مع ذاته؛ في كثيرٍ من الأحيان نحنُ نخاف مِن مثل هذا النّوع من الاختلاء مع ذواتنا، لأنّنا نخاف أن نقرأ أنفُسَنا وأعمالنا وأقوالنا على ضوء كلمة الله المُوَبّخة والمُهذّبة والنّاقدة؛ نخاف رؤية أنفسنا على حقيقتها من دون الأقنعة المزيّفة والشّخصيّات المُقتَبَسة الّتي نلبسها مخبّئين صورتنا الأصليّة: صورة الله.

٨٨٨. إنّ كلمة الله هي مرآة النّفس الّتي عن طريقها نرى أنفُسَنا على حقيقتها دونَ تصنّعٍ وأقنعةٍ، دونَ إلباسها شخصيّاتٍ أخرى.

٨٨٩. الإنسان الشّاطر هو الّذي يُخلّص نفسَهُ، هو الّذي يُقيّم ذاته على ضوء كلمة الله، متبنّيًا المقاصد الصّالحة في وحدةٍ عمليّةٍ وتطبيقيّةٍ للإرادة الصّالحة، الكفيلة ببناء علاقةٍ صحيحةٍ وجميلةٍ مع الرّبّ يسوع المسيح.

٨٩٠. إنّ معرفة الله هي حِسّ الحياة الأزليّة. والحياة الأزليّة هي الإحساس بالله، الشّعور بحضوره في حياة الإنسان الدّاخليّة والخارجيّة، أي في كيان الإنسان بأكمله.

٨٩١. المعرفة الإلهيّة هي مَلَكة الرّغائب كلّها. والقلب الّذي يقبل هذه المعرفة يعتبر الحلاوة الأرضيّة شيئًا تافهًا. فلا شيء يُشبه حلاوة المعرفة الإلهيّة.

٨٩٢. الحياة الأزليّة هي تعزيّةٌ إلهيّةٌ ومَن يجدها يعتبر كلّ تعزيّةٍ دُنيويّةٍ أمرًا لا قيمة له.

٨٩٣. على الإنسان الصَّائم أن يجعل من قلبه هيكلاً حيًّا يَذبحُ المسيحُ عليه شهواتِه وملّذاتِه وكبرياءه وأنانيَّتَه وحقدَه، بمعنى آخر أن ينزع عنه إنسانه العتيق، ويخلقه من جديد إنسانًا جديدًا مُفعمًا بالرُّوح: «قلبًا طاهرًا اخلُق فيَّ يا الله» (مزمور ٥٠: ١٢).

٨٩٤. يجب أن تكون لنا درايةٌ بكلام الله الّذي هو سيف الرّوح، وكلّما انشغلنا بكلام الله قادنا هذا لنكون «مصلِّين بكلّ صلاةٍ وطِلبةٍ كلّ حينٍ في الرّوح» (أفسس ٦:١٨).

٨٩٥. التّوبة، الصّوم، السّهر، وكلّ جهادٍ وإمساكٍ من أجل المسيح هو افتقارٌ إلى الله، توقٌ إلى المعشوق، إلى لقاءٍ أوفر بالحبيب الإلهيّ، إلى التَّمتّع الأقصى بالجمال الإلهيّ، إلى السّعادة الحقيقيّة الأبديّة، الاكتفاء بالمسيح وحده.

٧) الصّوم الإفخارستيّ الإنقطاعيّ

٨٩٦. يُفضَّل أن يكون انقطاعًا تامًّا عن كلّ مأكلٍ ومشربٍ قبل الاحتفال باللّيتورجيّا الإلهيّة، إذ إنّ الصّوم هو خروج الصّائم من الكيان المادّيّ، ودخوله في الكيان الرّوحيّ، ليستطيع المسيحيّ أن يُمارس الأسرار المقدّسة بأهليّةٍ واستحقاق، بالإضافة إلى الصّلاة الشّخصيّة وقراءة الإنجيل المقدّس والتأمّل بكلمة الله، الَّتي تُشكِّل مرآة النّفس.

٨٩٧. إنّ الصّوم يدخل في إطار العطاء. فالإنسان يشعر، وقد سكنت فيه شهوة الطّعام وسكتت معها أهواءٌ أخرى كثيرة، أنّه بحاجةٍ إلى العطاء. فيقتطع من أنانيّته وكبريائه ومحبّته لنفسه ليُعطي الآخرين. يقدر الإنسان الصائم أن يسامح وأن يعطي الغفران، فشهوة الحقد والتّعالي قد هدأت.

٨٩٨. يصرّحِ المسيح بأنّ الصّوم الّذي يريده هو الصّوم الدّاخليّ، ويندّد بالمظاهر الخارجيّة، وبالأشخاص الّذين يعيشون وينكّرون وجوههم ليظهروا للنّاس صائمين (راجع متّى ٦: ١٦-١٨). ملكوت الله هو في داخل الإنسان.

٨٩٩. الصّوم والقطاعة هما مقياسٌ وميزانٌ لقدرة الإنسان. فهما ممارسةٌ تبدأ بالجسد وتنتهي بالرّوح؛ وتبدأ بالصّغير لتصل إلى الشّيء الكبير. الإنسان الّذي يقدر على لجم شهوة الأكل والشّرب، والّذي يقدر أن يتغلّب على الرّغبة في اختيار ألوان الطّعام وأنواعه؛ والّذي يقدر أن يضبط شهوة الطّعام؛ يقدر أن ينتصر على شهواته وعواطفه الأخرى، ويقدر أن يثبّت ملكوت الله في داخله.

٨) السّهر والذّكر الدّائم لاسم المسيح

٩٠٠. **اِسهروا وصلُّوا**: هذا سَهرٌ من نوع آخر: السّهر الّذي تطلبه الكنيسة هو سهرُ الصّلاة والتّأمّل الرّوحيّ والكتابيّ واليَقَظَة الرّوحيّة والهدوء القلبيّ والصّمت الدّاخليّ، فحتّى وإن نِمتم، كونوا يقظين (ساهرين في الإيمان): «هوذا العروس يأتي في نصف اللّيل، فطوبى للعبد الّذي يجده ساهرًا، أمّا الّذي يجده غافلاً، فإنّه غير مستحقّ. فاحذري يا نفسي، أن تستغرقي في النّوم، لئلاّ تُسلمي إلى الموت، فيُغلق عليك خارج الملكوت. بل استيقظي صارخة: قدّوسٌ، قدّوسٌ، قدّوسٌ أنت يا إلهنا». أدعوكم لزيارة يسوع في قلوبكم، الّتي ما هي إلاّ كنيسة اللّقاء الشّخصيّ والحيّ بالرّبّ الحيّ والقائم من بين الأموات.

٩٠١. كم مرّةً في النّهار نذكر اسم المسيح؟ كم مرّةً في النّهار نصلّي؟ هل نعيش لحظاتٍ من السّكينة والهدوء والتّأمّل في كلمة الله «الإنجيل المقدّس»؟ هل يكفي قدّاس يوم الأحد لنكون مؤمنين بالرّبّ وشاهدين على قيامته ومعترفين بعظائمه؟ هل ترى أنّنا أمام تحدٍّ روحيٍّ لإيماننا الّذي بات يسير بانحدارٍ شديد؟ هل من المعقول أن نُعيد تبشير الإنسان المسيحيّ بالمسيح؟ أسئلةٌ وجوديّةٌ ومصيريّةٌ تتطلّب منّا تفكيرًا عميقًا في صُلب دعوتنا اليوم.

• صلاة

جلَستُ عند قدمَيكَ، يا حبيبي، بانحِناءِ قلبي المفجوع، فأتيتَ إليّ ورفعتَ جبهَتي نحوَ عينَيكَ؛ بدفءِ حُبّكَ نَشَلتَ روحي مِن خَوفها. شكرًا لك على حُسنِ محبّتك الّتي لا يَسَعُني إلّا أن أُسَلِّمَ لها ذاتي. لتضبُط، أنتَ يا ربّ، دقّات قلبي وأنفاسه بيَدَيكَ الطّاهرتين. لك المجد والإكرام،
آمين

الباب الرّابع عشر

الحُبّ والمحبّة

يشرحُ هذا الباب لنا معنى المحبّة الإلهيّة للإنسان، ومعنى محبّة الإنسان لله، ومعنى محبّة الإنسان لأخيه الإنسان. فكلّ ما صَنَع الله كان عامرًا بالمحبّة ومجبولاً بالحُبّ الطّاهر الخالي من أيّ شروطٍ وقيود.

١) ماهيّة المحبّة وطبيعتها

٩٠٢. المحبَة المسيحيَة هي سماويَة. هي نعمةٌ من نِعَم الرُوح القدس (راجع غلاطية ٥: ٢٢).

٩٠٣. كلّ نفسٍ بشريّةٍ لا تُقدَّر بثمنٍ عند الله. هذا هو تعريف المحبّة الإلهيّة. فإنّه على الرّغم من حالة السّقوط بسبب الخطيئة، إلاّ أنّ البشريّة أعادت ترميم صورة الله عند قبولها نعمة الفداء حتّى تصير خليقةً جديدةً راقيّةً وساميّة.

٩٠٤. المحبَة المسيحيَة الحقيقيَة تَتَمَثَل في محبَة الله للإنسان. محبّة الله ظهرت إذًا في حرص الله على خلاص الإنسان. ومَن هو هذا الإنسان الَذي قصد الله منذ الأزل خلاصَه؟ هو الإنسان الَذي طُرِدَ من الفردوس وسقط وأضحى ابنًا لجَهَنَّم وصارَ مصيرُهُ إلى الجحيم. لا خلاص لأيّ إنسانٍ في العالم إلّا بفضل دم يسوع المسيح الَذي طهَرنا على الصّليب.

٩٠٥. فيسوع المسيح أَحَبَّنا حتّى بذل نفسَهُ على الصّليب من أجلنا. الآب يبذل ابنه على الصّليب من أجلنا والابن يبذل نفسَهُ مصلوبًا ويُجرَح جنبُه فيخرجَ منه الدّم والماء. هذه المحبّة المصلوبة هي المحبّة الحقيقيّة.

٩٠٦. قدّم يسوع نفسَهُ على الصّليب ذبيحةً، والذّبيحة تُذبَح لتُؤكَل. صار من أجلنا طعامًا وشرابًا في القربان المقدَّس نتناولُهُ لِنَحيا أَبديًّا ولتُغفَر خطايانا ولِنَصيرَ أبناءَ الملكوت فننتقِل من الموت الى الحياة ومن الأَرض الى السّماء.

٩٠٧. المحبَّةُ في المسيحيَّة هي بَذْلُ الذَّات، هي الإنصلاب. إنّ بذل الذّات أمرٌ شاقٌّ لأنّ الإنسان السّاقط أنانيٌّ، منكمشٌ على نفسه، منغَلِقٌ يُحِبُّ ذاتَهُ، لهذا نحن بحاجةٍ الى الإنصلاب مع المسيح. إنْ لم يُنقِذنا صليبُ المسيح من ذواتِنا فَما من قوّةٍ في العالم تستطيع أَن تُنقذَنا.

٩٠٨. علينا أَن نذبحَ أنفسنا طوال اللّيل والنّهار لا ماديًّا طبعًا بل روحيًّا. وذلك بأن تكون حياتُنا ولحظاتُ عمرنا ألوانًا متعدِّدَةً من التّضحيات، من البَذل، من الجهاد، من النِّضال ومن الحرب على الشّياطين، على الأهواء، على الأنانيّة وعلى العيوب الّتي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

٩٠٩. المحبّة صليبٌ ولا محبّة من دون صليب. مسيحنا سمّرته محبّته لنا قبل أن يسمِّره اليهود على الصّليب. لذا كانت حياته في الجسد، على الأرض، كلُّها صليبًا (راجع غلاطية ١: ٤؛ فيلبّي ٢: ٨؛ تيطس ٢: ١٤...).

٩١٠. المحبّة هي مناخ الصّليب السّلاميّ. المحبّة هي نور الصّليب. الّذي يُصلَب ويتحرّر من الأهواء يحبّ بحقّ، ويقتني حياةً حقيقيّةً داخله. هذه المحبّة هي تعبيرٌعن القيامة الّتي تأتي من الصّلب الإراديّ (الاختياريّ والطّوعيّ): **إنّها تحوّل الجحيم إلى فردوس**، لأنّها الدّواء الشّافي الّذي يجفِّف دموعنا، ويحلّي بالنّعمة نفوسنا، ويهدّئ قلوبنا ويؤنس مزاجنا الموحش.

٩١١. حياةُ المسيحيّ هي استشهادٌ، والاستشهاد هو بذل الذّات، وبذل الذّات هو الموت مع المسيح. ولذلك فالمحبّة المسيحيّة هي الموت مع المسيح.

٩١٢. المحبّة الاستشهاديّة تتطلّب «رجولةً روحيّةً» كبيرةً نَنالُها من الرّوح القدس. ليست المحبّة إذًا كلمةً عابرة؛ إنّها حربٌ مريرة ضدّ أنفسِنا، ضدّ أهوائنا، ضدّ أباطيل هذه الدّنيا، ضدّ كلّ ما هو موجودٌ لنحصل على ما هو فوق الموجود، لنحصَلَ على الله.

٩١٣. إنّ ما يجدّد الإنسان روحيًّا أوّلاً المحبّة كمال الفضائل. فهي زهرة النُّبل لنفس الإنسان. إنّها الفضيلة الّتي تجعله يماثل الله لأنّ «الله محبّة» (١يوحنّا ٤: ٨). المحبّة عذوبة حياة الإنسان، وبلسم المأساة الدّنيويّة ودواء القلب الموجوع.

٩١٤. إنّ محبّتنا لإلهنا لا تقتصر على الكلام عنه فقط، بل أيضًا ببناء علاقة حبٍّ شخصيّةٍ مستمرّةٍ النّموّ بفضائل التّواصل الوثيق (إرميا ٢٥: ٣)، وبالتّالي يظهر غنى عمل الرّوح القدس فينا (٢ كورنثس ٩: ٨) فيَنبَلج نور الله في رحلتنا الأرضيّة (مزمور ٦٧: ١) لنكون ملح الأرض.

٩١٥. تنمو المحبّة المسيحيّة في النّفوس المتّحدّة بالله؛ والمتجدِّدة من محبّة الله، فهي زهرة المسك الطّيّبة الّتي تزرع وتسقي داخلنا نعمة الرّوح القدس، لهذا تراها هادئةً جوّادةً سخيّةً لا تنضب مطلقًا، وترى الإنسانيّة فقيرةً أمامها ومستسلمة.

٩١٦. ستَسكُب «المحبّة الإلهيّة» على الحكمة البشريّة ألوهتها. فعندما تُلغى صور الألم والنّزاعات الإنسانيّة بالرّجولة الرّوحيّة، وتصير البشريّة عائلةً إنسانيّةً بالطّهارة، ويقود العقل بالفهم الإنسانيّةَ إلى الحكمة ومعرفة الله، حينها تصير الحياة «محبّة». محبّةٌ من الله تُظلِّل محبّة الواحد للآخر.

٩١٧. تملأ المحبّة بالنّعمة نفوسنا العالميّة وتُحوِّل أرضنا إلى قطعةٍ فردوسيّة. فما هو الفردوس إن لم يكن شركة المحبّة؟ فعندما تقدّم المحبّة، تشعر بلذّةٍ روحيّةٍ لا توصف، وإن تَلْقَى محبّةً من قريبك، فأنت تتذوّق بَلْسَمها. فالإنسان دومًا رابحٌ بإعطائه المحبّة أو تلقِّيه إيّاها. فإن أحببتَ، تلين نفسك، وإن أحبُّوك تهدأ روحك وتسكن.

٩١٨. المحبّة تضفي في داخلك شعورًا من السّعادة والرّاحة، فهي التُّربة الّتي تنمو بانتظام. وهي الفضيلة الّتي تجمّل حياتنا... فالنّفس الّتي لا تُحبّ فقيرةً جدباء، يابسةً وعاقرة، موحِشةً وغريبةً عن «الله المحبّة».

٩١٩. المحبّة هي السّعادة، والسّعادة هي الحياة. لقد جاء يسوع لهذا العالم الواحد ولهذه المحبّة الوحيدة، الَّتي لا تكوِّنها رغباتٌ من الدُّنيا، بل نعمة الله الَّتي تَقلِب الإنسان كائنًا متواضعًا، مُصلّيًّا، عاملاً، فاتحًا قلبه لهبوب الرّوح القدس، ناظرًا للعالم في كونيّته ووَحدته، ودائسًا شوكة الخطيئة الَّتي تُقسِّم الكون في داخله.

٩٢٠. يجب أن توجَّه محبّتنا أوّلاً إلى الله الّذي هو نبع كلّ كمال: «أحبب الرّبّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ قُدرتك» (تثنية ٦: ٥). إلى الله الّذي تنبع من لَدُنه كلّ محبّة: «لأنّ المحبّة من الله» (١ يوحنّا ٤: ٧). إلى الله لأنّه أبونا، «أبونا السّماويّ» الّذي أحبّنا منذ الدّهور: «إنّي أحببتُكَ حبًّا أبديًّا» (إرميا ٣١: ٣)، وأيضًا: «فلنحبّ الله نحن إذ قد أحبّنا هو أوّلاً» (١ يوحنّا ٤: ١٩)، الّذي اقتبل أن يعتبرنا أبناءه «أُنظروا أيّة محبّةٍ خصّنا بها الآب حتّى نُدعى ونكون أبناء الله» (١ يوحنّا ٣: ١)، والّذي قدّم ابنه الوحيد كفّارةً عنّا وعن خطايانا: «بهذا قد عرفنا المحبّة أنّ ذاك قد بذل نفسه من أجلنا. فيجب علينا أن نبذل نفوسنا من أجل الإخوة» (١ يوحنّا ٣: ١٦). وأيضًا يقول تلميذ المحبّة: «وإنّما المحبّة في هذا أنّنا لم نكن نحن أحببنا الله بل هو أحبّنا فأرسل ابنه كفّارةً عن خطايانا» (١ يوحنّا ٤: ١٠).

٩٢١. المحبّة نحو الله ليست شعورًا عاطفيًّا. إنّما قوّةٌ فائقة الوصف تحرّك ما بداخل الإنسان. إنّها قوّةٌ تنظّم حياته وتوجِّهه مباشرةً إلى أعماله. تظهر بالطّاعة الكلّيّة لمشيئة الله.

٩٢٢. من الجميل أن تشعر أنّه يوجد مَن يُحِبّك في كلّ ظروف حياتك ومهما كانت حالتك الرّوحيّة أو النّفسيّة أو الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة أو العائليّة، سواء كنت قائمًا أو ساقطًا. فالرّبّ يُحِبّك ويريد أن يشدِّدك ويقيمك. يريد أن يقدِّم لك جميع حاجاتك الجسديّة والنّفسيّة والفكريّة والرّوحيّة، وفي محبّته لك لن تشعر بأنّك محرومٌ من الحبّ.

٩٢٣. يريد الله محبّتنا، يريد أن يكون هو السّيّد على نفوسنا والملك على قلوبنا: «يا بنيّ أعطني قلبك» (أمثال ٢٣: ٢٦). يريد أن نكون بكلّيّتنا عطاءً لله ليكون هو ملك نفوسنا العالميّة، لكي لا تتهشّم قلوبنا من رغبة هذا العالم ومحبّته، أي تعلّقنا به: «أمَا تعلمون أنّ محبّة العالم عداوةٌ لله» (يعقوب ٤: ٤).

٢) محبّة الله المتجسّدة في شخص الحبيب (يسوع المسيح)

٩٢٤. عيبنا هو قوّة الشّيطان، ضعفنا هو مصدر سُلطانِهِ؛ وعيشنا دون حُبِّ الله هو عِلّة وجوده. لقد فقد العالم اليوم حُبَّ الإله الحقيقيّ وتخبَّط في غياهب المجهول، فأرسل الله ابنه الوحيد ليعيد للإنسان حُبّه لذاته ليس في أنانيّةٍ، بل في وعيٍ أنّه صورة الله ومثاله وأنّ حُبّه يجب أن يكون كحُبّ أقانيم الثّالوث الأقدس.

٩٢٥. إنّ الآب، لفرط محبّته للبشر، أعاد إصلاح أبنائه، فأرسل إليهم ابنه يسوع المسيح، ودعاهم إلى أن يختاروا من جديدٍ وبكامل وعيهم البراءة، ويبلغوا بإرادتهم الحرّة إلى كمال المحبّة. مَن له أذنان للسّماع فليسمع.

٩٢٦. كما أنّ الله مِن دافع محبّته خرج نحو الإنسان حتّى إنّه اتّحد بجسده، فتجسّد؛ هكذا الإنسان، كردٍّ على مثل هذا الحُبّ، يندفِعُ نحو الله حتّى يُتوَّج بالنّهاية «بالتّألّه». كلّ هذه الحركة هي «اللّيتورجيّا الحقيقيّة».

٩٢٧. ولمّا أشرقت شمس الحقيقة، بتجسّد الرّبّ يسوع، غُيِّبَ ظلام الجهل الماورائيّ (الميتافيزيكيّ) وأحلّت شريعة المحبّة. وبتجسّد المسيح التقى الله بالإنسان في شخصه. فأصبحت الغيبيات أمرًا محسوسًا والفكر المبنيَّ على الفرضيّات فعلاً واقعًا وملموسًا (الّذي رأيناه بعيوننا ولمسته أيدينا) فزالت المبهمات وحلّ مكانها اليقين الثّابت. فكان توما رمز الإنسانيّة الحيرى المتلهّفة إلى مصيرها: «يا توما، طوبى للّذين يؤمنون دون أن يروا» (يوحنّا ٢٠: ٢٩).

٩٢٨. إنّ سبيل الحُبّ الإلهيّ هو السّبيل الوحيد الَّذي يقود الإنسان إلى تجاوز غربته عن ذاته وتجاوز غربته عن الآخرين وتجاوز غربته عن الله.

٩٢٩. لا تكتفي بالجلوس على ضفاف المحبّة الإلهيّة، بل أُدخُل إلى العُمقُ لكي تختبر، حقًّا، مجرى هذا النّهر الّذي لا يقودك إلّا إلى ديار الآب؛ مسكِنُ آدم الأصليّ. هناك، حيثُ الرّوح تستوفي حقّ ما خَسِرَتهُ في خطيئة هذا العالم، سترى ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على عقل بشر!

٩٣٠. غاية الظّهور الإلهيّ أن يختبر الإنسان أنّ الله يحبّه في إنسانيّته، وأنّ الحبّ هو وحده قادرٌ على إلغاء القطيعة النّاشبة بين الإنسان وذاته، وبين الإنسان والآخرين، وبين الإنسان والله.

٩٣١. أمثولة الميلاد تُعلِن لنا أنّ الحُبّ يبلغ بالله عينه مبلغ المغامرة بكيانه والدّخول في مجرى الانعطاب البشريّ، إذ لا شيء يستوقف الحُبّ حين يروم أن يُنقذ المحبوب من تجربة الشّك في صدق الحبيب.

٩٣٢. إنّ التّجسّد الإلهيّ لا يرمي إلى التّباهي بالعزّة الإلهيّة والهيمنة على الكيان الإنسانيّ وقهر مداركه وإلغاء خصوصيّته.

٩٣٣. ما يثير الاستغراب في حدث الظّهور الإلهيّ أنّ الميلاد هو سرّ الكشف عن الغنى الإلهيّ وسرّ الكشف عن الفقر الإلهيّ. فالحُبّ يغدو في الميلاد رمز الغنى الفائق ورمز الفقر المُدقع، لأنّ الله يهب للإنسان أغلى ما في كيانه، أي حبّه الصّادق للإنسان، فإذا به أفقر الكائنات في تجسّده، يتوق إلى الإنسان ليُحبّه الإنسان حُبّ الصّدق والأمانة والحرّيّة.

٣) المحبّة المسيحيّة: إخلاءٌ للذّات وعطاءٌ كامل

٩٣٤. لا يمكن أن نُصبح بشرًا تامِّين إلاّ في كوننا نُحِبّ ونستسلم للمحبّة. فالله حين تجلّى وشاء أن يُبيِّن حقًّا ما هو عليه، تجلّى محبَّةً وحنانًا ودَفقًا من الذّات ورضًى لامتناهيًّا بسواه وتعلُّقًا وتبعيّة؛ لقد تجلّى الله مُطيعًا حتّى الموت.

٩٣٥. العلاقات البشريّة في مجتمعاتنا غدت سطحيّةً هامشيّة. والإنسان بات منغلقًا على ذاته غير قادر على تخطّي حدود أنانيّتها. حتّى فضيلة الحبّ لم تَنْجُ من هذا الدّاء. الحبّ البشريّ بات ملوّثًا، حبًّا أنانيًّا خاليًا من أيّ بذلٍ وتضحيّة.

٩٣٦. نحن اليوم في قريتنا الكونيّة، الّتي تطال أطرافها أرجاء الكون بأسره، ضيّقون أكثر من أيّ وقتٍ مضى، فالانفتاح الحقيقيّ إنّما يكون في تخطّي حاجز الخطيئة الّذي يعرقل الإنسان. كلٌّ منّا رازحٌ تحت أعباء آثامه منكمشٌ عليها، وإن أقرّبها فهو يقرّ بينه وبين نفسه فقط، لأنّها من «خصوصيّاته»، أو يعترف بها «بينه وبين الله» كما يقول.

٩٣٧. كلٌّ منّا يحوّل حياته الدّاخليّة الى قدس أقداسٍ لا يَلِجُه أحدٌ ولا حتّى المسيح، لأنّ الباب بات مقفلاً بالخطيئة وحبّ الذّات.

٩٣٨. المحبّة تقدمةٌ مستمرّة، فعلُ تضحيّة. أمّا نحن فننتظر تقدماتٍ من الآخرين لنتمتّع بانشراحٍ نفسيٍّ وسعادةٍ ولا نحاول تقديم محبّتنا لأيّ شخصٍ كان بحاجة إليها.

٩٣٩. الإنسان كائنٌ «ذبائحيّ» لأنّه في الحبّ يجد حياته، والحبّ ذبائحيّ الطّابع: يضع قيمة الحياة ومعناها في الآخر وإيّاها يعطيه، وهو، بهذا العطاء، وهذه الذّبيحة، يجد لحياته معنًى وفرحًا.

٩٤٠. المحبّة تعني الاهتمام بالآخر والقلق عليه، كما أهتمّ بنفسي وأقلق عليها (راجع لاويّين ١٩: ١٨؛ متّى ٢٢: ٣٩). لهذا لا تسكن المحبّة في قلوبٍ أنانيّةٍ مُحِبَّة لذواتها؛ فالمحبّة تعني إخلاء ذواتنا، تعني حنانًا وعطفًا على الآخر. فمَن هو بجوارنا أحيانًا كثيرةً لا يكون بحاجةٍ إلى مساعدتنا المادّيّة بل يريد محبّتنا، يريد اهتمامنا به، وأن يشعر بدفء قلوبنا نحوه عندما ننتبه عليه ونفكّر به.

٩٤١. المحبّة المسيحيّة ليست بالأمر السّهل بل تتطلّب تعبًا وتضحيّة، تتطلّب جهادًا من أجل الآخر واهتمامًا ورعاية. فإن أردت أن تكون إنسان المحبّة ستُضحّي من راحتك ساعاتٍ كثيرة، ولا تعمل الّذي يروق لك ويريحك بل ما يريح الآخرين ويُسعدهم.

٩٤٢. الحُبّ هو أضعف الطّاقات في الكون يختبر كماله حين يُخلي ذاته. وما من أمرٍ أشدّ إرباكًا للعقل البشريّ من القول بالضّعف الإلهيّ في سِرّ الميلاد. غير أنّ هذا الضّعف الإلهيّ ليس هو ضعف العجز والاستقالة، بل هو ضعف الإيمان بأنّ الحُبّ هو الَّذي سيغلب في منتهى نضال الإنسان مع ذاته ومع الآخرين ومع الله.

٩٤٣. ذاك الَّذي يبحثُ على مراكزٍ ويعتقد أنّ العالمَ يدور حوله، هو ليسَ مثال المسيحيّ الحقيقيّ. إنّما الإنسان المسيحيّ هو القائل: «ولتكن أموركم كلُّها بالمحبَّة» (١ كورنثس ١٦: ١٤)، والمحبّة هي الخروج من الذّات، هي خروجٌ من الأنانيّة ومن الكبرياء، ساعتئذٍ نستطيع القول إنّنا نُحِبّ. والَّذي يُحِبّ، كما يقول القدّيس يوحنّا في رسالته الأولى، هو «مولودٌ من الله» (٤: ٧).

٩٤٤. رسالتنا هي أن نساعد بعضُنا بعضًا وأن نُحِبّ بعضنا بعضًا. وأمّا نحن فلا نستطيع أن نشترك بمحبّة المسيح بالقول أو باللّسان، بل بتقدمتنا ذواتنا قربانًا وذبيحةً من أجل الآخرين. لا يُمكننا أن نكونَ مسيحيّين من غير هذه القربانة العظيمة الَّتي نقدّمها للآخرين وليسَ لذواتنا.

٩٤٥. ماذا كُنا سنفعل لولا نعمة المحبّة؟ علينا أن نأخذ ثوب المحبّة (أي ثوب الملكوت) – المحبّة للذّات والمحبّة للآخر والمحبّة لله (١ كورنثس ١٣). بدون المحبّة لسنا بمسيحيّين حقيقيّين، وبالتّالي سنأخذ أجرًا غير كاملٍ ولن نكون عظماء في ملكوت الرّبّ.

٩٤٦. الإنسان الّذي يحبّ الله لا يعيش كما يريد هو بل كما يريد الله. ناموس الله ووصاياه مرشد وبوصلة حياته: «مَن كانت عنده وصاياي وحَفِظَها فهو الّذي يُحبّني والّذي يُحبّني يُحبُّه أبي وأنا أُحبِّه وأُظهِر له ذاتي» (يوحنّا ١٤: ٢١). إنّه يحاول دومًا أن يعيش كما يريد الله. لهذا يجاهد بصدقٍ ضدّ أهوائه وزلّاته، ضدّ إنسانه القديم، ويَبتُر كلّ رباطٍ للخطيئة الضّالة، وينظر أن يمتثل دومًا لمشيئة الله ويتقدّم في الفضيلة والكمال.

٤) الحبّ الحقيقيّ

٩٤٧. إنّ الهدف الأسمى للمسيحيّة يكمن في إظهار إلهٍ ممتلئٍ بالمحبّة للبشريّة: «هكذا أحبّ الله العالم حتّى إنّه أرسل ابنه الوحيد لا ليدين العالم، بل ليُخلِّص به العالم» (يوحنّا ٣: ١٦)، هذه هي رسالتنا الأساسيّة وهذه هي بشارتنا لكم.

٩٤٨. إنّ الحبّ شراكة والشّراكة تواصل. لذا عندما نقول إنّ التّواصل هو «سرّ البقاء في الحبّ» فذلك يعني أن نستمرّ في الشّراكة. ويحترم كلٌّ منّا ما ألزم به نفسه عندما قال «نعم» للحبّ في يومٍ من الأيام وهو قول يحمل في طيّاته التزاماتٍ متعدّدة.

٩٤٩. مَن قضى حياتَه من دون أن يُحِبّ، كانت شيخوختُه أشبهَ بزمنِ شتاءٍ تملأ الوحشة أرجاءَه. إنّه قد دفن في الأرض أثمن ما فيه مخافةَ أن يضيعَ منه ذلك الكنز، فأضاعَ، في النّهاية، كلَّ شيء؛ ما من مُحِبٍّ أتاه متفقّدًا، فغدا هجره الحبّ، يَقِفُ وحيدًا في انتظار الموت. ومَن أحبّ وجدَ في الشيخوخة زمنَ الحصاد.

٩٥٠. الحبّ الحقيقيّ هو الحبّ الَّذي يُقدِّم تنازلاتٍ للشّريك، وقد تكون في بعض الأوقات تنازلاتٍ مؤلمة.

٩٥١. إنّ الحبّ الحقيقيّ يفعلُ أقلّه أمورًا ثلاثة:

١. يُقدِّرُ القيمةَ الخاصّة والفريدة في الآخر ويعملُ على ترسيخِها؛
٢. يُسلِّمُ بحاجاتِ الآخر ويحاول أن يلبّيها؛
٣. يَغفِرُ أخطاء الآخر ويحاول أن يَنساها؛
٤. فالحبّ الَّذي نَبحَثُ عنه هو حبٌّ ينطلق من الذّات نحو الآخر، ولا يمكن لإنسانٍ لا يقبلُ ذاتَه أن يُحِبّ الآخر بفرادته واختلافه.

٩٥٢. الأقسام الثّلاثة الَّتي تُشكِّل حبَّ بعضنا البعض:

١. إذا كنت أحبّك حقًّا، عليّ قبل كلّ شيءٍ أن أُبيِّنَ لك اهتمامي بشأنك وأنّني حاضرٌ إلى جانبك وملتزمٌ بك (العطف)؛
٢. بعد ذلك عليّ أن أتابع حبّي لك فأشجعّك على أن تثقَ بنفسك، فأشجعّك على استعمال قدراتِك فتفكّر وتحلّل وتقرّر ما تشاء (التّشجيع)؛
٣. وأخيرًا، بعد أن أكون قد نجحتُ في تقديم «العطف» و«التّشجيع» لك، عليّ أن أطرح عليك «التّحدّي» لكي تعملَ على استثمار ما فيك من خيرٍ وقدرات.

٩٥٣. عندما أحاول أن أقدّم حبّي لك عليّ أن أتساءل هل ذلك الحبّ يحرّرك في الحقيقة أم هو محاولةٌ لتكبيلك وإدارة حياتك؟ ومن المفيد أن أطرح على ذاتي الأسئلة التّالية: ما الأهمّ بالنّسبة إليّ، أن تكون أنت راضيًا عن نفسك أم أن أكون أنا راضيًا عنك؟ أن تبلغ الأهداف الَّتي وضعتها لنفسك أم تلك الَّتي أريدك أنا أن تحقّق في حياتك؟

٩٥٤. الحبّ لا يستعملك ولا يحتقرك، لا يطلب منك أن تعيش على غير ما تبغي، لا يلومك ولا يحقد عليك، لا يغضب أو يحاول فرض إرادته بالصِّياح أو الدّموع. إنّه لا يقطع الحوار معك، ولا يكون قبوله لك بمثابة إنعامٍ من لدنه، ولا يتطلّب منك يومًا بعد يومٍ أن تبرهن عن صدقك ومحبّتك.

٩٥٥. يجب ألاّ نحكم على نجاحنا في حبّ الآخرين بمقياس الَّذين يقدّروننا بسبب إنجازاتنا، بل بعدد الَّذين يشعرون أنّ حُبّنا لهم أسهم في نموّهم الشّخصيّ، أي أنّهم أبصروا من خلال أعيننا جمال وجوههم وخبروا في دفء أصواتنا عمق محاسنهم. فالحبّ يعني تقويّة مَن نُحِبّ، لا امتلاكه.

٩٥٦. الحبّ يا إخوتي ليس أن أُحِبّ الإنسان الَّذي يحلو لي ولأفكاري فيصبح بالتّالي سجينًا وأسيرًا في سجني. الحبّ هو الَّذي يُحرِّر من الأسر وهو خروج الإنسان من أنانيّته وكبريائه لملاقاة أخيه الإنسان كإنسانٍ مخلوقٍ على صورة الله ومثاله. ما أجمل حبَّ المسيح للمرأة السّامرية ولزكا ولكثيرين غيرهم: **إنّه حبٌّ مغيِّر.**

٩٥٧. حين تنظر إلى الصّليب لا تركّز نظراتك على عدد المسامير ومكانها في جسم المصلوب ولا تتفرّس في إكليل الشّوك الموضوع على رأس السَّيِّد له المجد والإكرام، بل قُل في نفسك وللآخرين الَّذين لا يعلمون، كم أحبّكَ حتّى إنّه بذل نفسه ذبيحة الفداء عنك على خشبة الصّليب (راجع يوحنّا ١٣: ١).

٩٥٨. هناكَ مَن يستطيع أن يقدّر ويُدرِك هذه المحبّة الخلاصيّة، المَحبّة المُضَحيّة والباذِلة الَّتي قدّمها الله له. وهناك مَن لا يستطيع أن يرى حتّى محبّته لذاته، فكيف يقدر هذا أن يحمل صليبه ويمشي طريق الصّلب؟

٩٥٩. المحبّة ميزةٌ أساسيّةٌ من مميّزات المسيحيّة والمسيحيّين، بحيث لم يكن النّاس ليُميّزوا المسيحيّين بصليبهم أو برموزهم الدّينيّة الأخرى، بقدر ما كانوا يقولون حين يرونهم: «أُنظروا كيف يُحبّون بعضهم بعضًا» (راجع يوحنّا ١٣: ٣٤-٣٥). إلاّ أنّ المجتمع المسيحيّ اليوم بات متغرّبًا عن عيش هذه المحبّة الحقيقيّة. لا يمكن إنكار هذا أبدًا أنّ المجتمع المسيحيّ صار عرضةً للكراهيّة والحقد أكثر من المحبّة، لأنّ المسيح غير حاضرٍ في الوسط (مفقود). إذا كان المسيحُ مفقودًا فماذا بقيَ لي؟ لمن أصلّي؟ مع مَن أتكلّم؟ إلى مَن أنتمي؟ ليس ما يهمّ الأثارات والحجار المرصوفة إنّما حضور الله ومداهُ في حياتي.

٩٦٠. ما أروع هذا الحُبّ الباذِل الَّذي بذله يسوع على خشبة الصّليب، وبخاصّةٍ حينَ سال دمه الطّاهر من وجهه ويديه ورجليه وجنبه المطعون. إلاّ أنّ هناك العديد من الأسئلة الّتي تُطرح علينا اليوم: أينَ نحنُ من دم المسيح؟ (راجع عبرانيّين ٩: ١٤) أينَ نحنُ من دم المسيح هذا الَّذي ضحّى بنفسه من أجل كلّ واحدٍ منّا؟ هل نحن من الجموع الَّتي تتعجّب فقط؟ أنحنُ تلك الجموع الَّتي تقول للمسيح «هوشعنا في الأعالي» وبعد أسبوعٍ تصلبه وترفعه؟ أم نحن علامةٌ فارقةٌ وشهادةٌ حيّة؟

٩٦١. لننظر إلى طَرَفِ ثوبه... لنرى محبّته الشّفائيّة، محبّته المنتصرة، محبّته الأخويّة، محبّته الإلهيّة. في انجيل إحياء ابن الأرملة تتوّج روعة محبّة المسيح... رأى يسوع الأرملة تندب ابنها وحيدها الميّت فنظر إليها وتحنّن عليها. حنان الأم يدخل أيضًا في طبيعة الله... فإنّ محبّة يسوع لها بُعدٌ أبويّ، وفي الوقت عينه، بُعدٌ آخر أموميٌّ يُعبِّر عنه الرّبّ برحمته وحنانه واحتضانه.

٩٦٢. في كثيرٍ من الأحيان، نُحبّ أشخاصًا، وإنّما نُحبّهم على طريقتنا الخاصّة: نُحِبّ فقط مَن يُحبّنا ويُجاملنا ويمشي معنا كما نبتغي. لكنّ المحبّة هي أن نقبل الإنسان الَّذي يُريد أن يُحوّل حياتنا إلى جحيمٍ، وبمحبّتنا وقوّتنا الإيمانيّة نُحوّل حياته إلى سماء.

٩٦٣. يُريدون أن يقلبوا حياتنا جحيمًا، ونحنُ نُريد بمحبّتنا أن نقلبَ حياتهم سماء. **هذه هي عَظَمَة المحبّة المسيحيّة، أنّها محبّةٌ خلاّقةٌ وظافرةٌ ومنتصرةٌ ومغيِّرة.**

٩٦٤. إنّ التّغيير الجذريّ الّذي طال حياة زكّا العشّار (لوقا ١٩: ١-١٠) لم يكن نتيجة امتلاك يسوع لعصًا سحريّةٍ قلبت حياة زكّا رأسًا على عقب؛ بل كان نابعًا من نظرة يسوع له، نظرة المحبّة والاحتضان والقبول... وهي النّظرة الّتي لم يجدها زكّا في بيئته ومجتمعه. لذا، يا أحبّتي، لا تكمن المعجزة الكبرى في أيّامنا الحاضرة بنقل الجبال وإقامة الموتى وشفاء المرضى... بل بالمحبّة الصّادقة الّتي تُقدِّم لإنسان اليوم ما لا يستطيع العالم أن يُقدّمه له: البذل والتّضحيّة والمغفرة والرّحمة والاحتضان.

٩٦٥. «لا تقابلوا الشّرّ بالشّرّ»، فكيفَ نتجاسَر على أن نشتركَ بالذّبيحة المُقدّسة ونحنُ نضمرُ الشّر للآخر؟ كيف نتناول جسد الرّبّ ودمه ونحنُ نحمل في داخلنا قلوبًا غير صافيّة تجاه الآخرين؟ كيف نقترب من هيكل قُدس الأقداس ونحن في حالة خصامٍ مع أنفسنا ومع الآخرين؟ «قبّلوا بعضكم بعضًا بقُبلةٍ مُقدّسة».

٩٦٦. النّفس الَّتي اشتعلت بالحُبّ الإلهيّ لا تملك إلّا أن تُظهر ما بها من حقٍّ وخير، تُعلنه مهما كان شكل الظّلمة الخارجيّة، ودون أيّ اعتبارٍ للألم الوقتيّ أو حتّى للموت: «رأيت تحت المذبح نفوس المقتولين لأجل كلمة الله ولأجل الشّهادة الَّتي شهدوا بها» (رؤيا ٦: ٩).

٩٦٧. المسيحيّون الأوائل كانوا يقولون، أُنظروا كيف يحّبون بعضهم البعض. لم يكن حُبًّا مختلفًا، لكنّه كان بكيفيّةٍ مختلفة، حُبّ قادر أن يحتوي الحُبّ البشريّ ويتسامى فيه.

٩٦٨. وحدها المسيحيّة قادرةٌ أن تعيش البتوليّة المكرّسة، لأنّها تؤمن أنّ الإنسان أُعطِيَ طاقة حُبٍّ أقوى من الموت.

٩٦٩. إنّ المكرَّس لا ينبذ بتكرّسه مشروع الحبّ البشريّ أو سرّ الزّواج المقدّس، أو أصبح مكرَّسًا لأنّه فشل في علاقة حبٍّ أو مُحبَطٌ من الحياة العاطفيّة، كما يُفكّر البعض، وهو تفكيرٌ عقيم ويُقزّم معنى الحياة المكرّسة وعُمقها الرّوحيّ؛ لكنّه يؤمن بأنّ هناك حبًّا أسمى وأقوى وذا استمراريّةٍ وفاعليّة هو حبّ المسيح، الّذي يملأ قلب المكرَّس فرحًا حقيقيًّا وسلامًا داخليًّا.

٩٧٠. كلّ هذا يجعل من المكرَّس إنسانًا قادرًا على رؤية كلّ الأمور بعفافٍ ونقاوةٍ وطهارة، وهذا كلّه يُحرِّر المكرَّس من قيود الحبّ الأنانيّ والشّهوانيّ وعبوديّته وأسره، فيَضحى كائنًا حرًّا، لا يُهمّه إلاّ إرضاء وجه ربّه.

٩٧١. مَن اختبر محبّة المسيح مرّةً لا يسعه أن يتخلّى عنها أو يتنكّر لها، بل تصبح هذه المحبّة هي متعته العظمى، ينتشي بها، يتغنّى بها، ويبذل كلّ جهدٍ لكي يقدِّمها لكلّ إنسانٍ واقعٍ تحت وطأة الخطيئة والحزن والألم والإحباط، مفتقرًا بذلك إلى محبّة المسيح المُحيية.

٩٧٢. إنّ الكرازة بالإنجيل هي معركة جهادٍ روحيٍّ ضدّ قوّات الشّرّ (راجع أفسس ٦: ١٢)، تستهدف إنقاذ الأسير العاني من أقبيّة الرّعب، لكي يتمتّع بفيض المحبّة الصّافية المُخلِّصَة.

٩٧٣. كلُّ حبٍّ قائمٍ فقط على البُعد العاطفيّ «القلبيّ» هو حبٌّ سيَصِلُ بصاحبه إلى حدود الفشل والمجهول. أمّا الحبُّ العاطفيّ المبنيّ على تحكيم العقل، فهو حبٌّ سيَدومُ مع كلّ المصاعب والشّدائد والعقبات الّتي تَقِفُ أمام الزَّوجَين في حياتهما الزّوجيّة.

٩٧٤. الحبُّ الَّذي عليكم اتِّخاذه عنوانًا لحياتكم الزّوجيّة وشعارًا لمسيرتكم المشتركة هو الحبُّ الَّذي يُقدِّرُ القيمة الخاصّة والفريدة في الآخر ويَعمَلُ على ترسيخها؛ يُسلِّمُ بحاجات الآخر ويُحاوِلُ أن يُلبِّيها؛ ويَغفِرُ أخطاءَ الآخر ويُحاوِلُ أن ينساها.

٩٧٥. إنّ الحبّ يعني تقويّة مَن نُحِبّ لا امتلاكَه، إذ يُثَبِّتُ الآخرَ في «آخريَّتِه»، ويأبى أن يَملِكَه أو يُديرَه وكأنّه لعبةٌ في يديه. فمن الأهميّة بمكانٍ أن يكونَ حبُّنا سبيلاً إلى تحرير الآخر لا إلى تكبيله. بمعنى أن نسمح لِمَن نُحِبّ أن يكون ذاته. فلنعش، إذًا، الحبّ الأصيل البعيد عن الغش والخداع وتحطيم قلوب الآخرين وحياتهم.

٩٧٦. **الحبّ الاستثنائيّ**: أي أنّي عندما أختار أنا شريكي أو شريكتي، فإنّي أختارها دون سواها وأختارها إلى الأبد. بتعابير أخرى، نتكلّم عن ديمومة الحبّ واستمراريّته بالرّغم من كلّ التّحديّات والصّعوبات الَّتي قد تُواجه حبّ الشَّريكَين لبعضهما البعض؛ **فاستثنائيّة الحبّ في أيّامنا الحاضرة هي أن يدوم هذا الحبّ للأبد وليس لفترةٍ زمنيّةٍ مؤقتة.**

٥) مدرسة الحبّ

٩٧٧. كُن ڤالانتين، وقَدِّم حبَّك في خدمة إلهك الَّذي مات من أجلك على عود الصّليب وقام من أجلك. وفي هذا لا تحسب حسابًا للنّفقة، ولا تنتظر مقابلاً لحبّك. ولكن، لا تَخَفْ، فهو يُعطيك مئة ضعفٍ في هذا الدّهر، وفي الدّهر الآتي الحياة الأبديّة (راجع مرقس ١٠: ٣٠).

٩٧٨. كُن ڤالانتين، وقَدِّم حبَّك لكنيستك بكلّ عقائدها وطقوسها وخدماتها وآبائها وشعبها. اِحرص على خدمتها دون انتظار مقابلٍ لهذا الحبّ.

٩٧٩. كُن ڤالانتين، وقَدِّم حبَّك لأسرتك، الكبير والصّغير، قدِّم الحبّ لكلّ مَن هو بحاجةٍ إليه. اِحرص على عمل كلّ ما يُفرح قلوبهم دون انتظار مقابلٍ لهذا الحبّ.

٩٨٠. كُن ڤالانتين، وقَدِّم حبَّك لمجتمعك الَّذي تعيش فيه. اِحرص على دراستك، تَفَوَّق، كُن عضوًا صالحًا في مجتمعك، قدِّم الحبّ للجميع حتّى الَّذين يُسيئون إليك، ولا تنتظر شيئًا مقابل هذا الحبّ.

٩٨١. كُن ڤالانتين، وقَدِّم حبَّك لكلّ محتاجٍ للحبّ، حبًّا نقيًّا صادقًا يصل بك وبمَن تُحِبّ إلى قلب الله الَّذي أَحَبّ الجميع. قَدِّم حبّك في خدمة المحتاجين، المعوزين، المرضى. قَدِّم حبَّك للحزانى والمتألِّمين والمتضايقين. ولا تنتظر شيئًا مقابل هذا الحبّ.

٩٨٢. إنّنا نتكلّم عن مدرسةٍ للحبّ حقيقيّة، لم يكن مثلها ولن يكون. نتكلّم عن مدرسةٍ حدودها الكون وتلاميذها الإنسانيّة جمعاء، والدّراسة فيها لا تنتهي ولا تُقاس بالسّنين. إنّها مدرسة الحبّ الوحيدة في الوجود، مؤسِّسها ورئيسها وخادمها يسوع المسيح.

٩٨٣. إنّ الشّهادة في مدرسة الحبّ الّتي يُديرها معلّم الإنسانيّة الأعظم الرّبّ يسوع ليست ورقةً أعلِّقها على الحائط. الشّهادة أن أُعلَّق أنا بالذّات على خشبة الحبّ، مثل معلّمي، وأن أبذل نفسي حتّى النّهاية. هكذا أتخرّج وأنال الشّهادة، وأشهد للحبّ.

٩٨٤. يتعلّم الطّالب في هذه المدرسة الصّفح اليوميّ والغفران، الصّبر والحِلم، تقبُّل الآخر وحبّه، الإقرار بالمحدوديّة والافتقار إلى الله، التّواضع والانسحاق، بذل الذّات والتّضحية والعطاء المجّانيّ والخدمة بلا شروطٍ أو مقابل...

٩٨٥. لكي يتعلّم الطّالب كلّ هذه الفضائل، عليه أوّلاً وقبل كلّ شيء، أن يتفاعل مع كلمة الله ويقبلها بإيمانٍ وشوق، وأن يكون، تاليًا، أداةً طيّعةً للرّوح القدس الّذي يُنمّي في قلبه محبّة الرّبّ يسوع القادرة على إحداث التّغيير المنشود القائم على إتقان لغةٍ جديدة (لغة المسيحيّة الوحيدة وثوب الاشتراك في الملكوت: المحبّة) وامتلاك ذهنيّةٍ جديدة (ذهنيّة الإيمان والتّجدُّد الرّوحيّ) وتعامُلٍ جديد (المغفرة...) ونظرةٍ جديدة (التّلمذة الحقيقيّة).

٩٨٦. **يتميّز الحبّ الّذي تُعلّمه مدرسة المسيح بأنّه:**

١. **حبٌّ كاملٌ يشمل جميع النّاس بلا استثناء** (العدوّ، المختلف عنّي دينيًّا...): «قد سمعتم أنّه قيل: أحبب قريبك وأبغض عدوّك. أمّا أنا أقول لكم: أحبّوا أعداءكم وأحسنوا إلى مَن يُبغضكم وصلُّوا لأجل مَن يُعْنِتُكم ويضطهدكم» (متّى ٥: ٤٣-٤٤).

٢. **حبٌّ غافلٌ لا يحكم على أحد، بل يتقبّل ويُسامح**: «لا تدينوا» (متّى ٧: ١)، «فلا نَدِنْ بعضُنا بعضًا من بَعد» (رومة ١٤: ١٣). إنّه حبٌّ يتغاضى عن نقائص الآخرين ويُحبّهم رغم نقائصهم، لا بل يُعطيهم المزيد من الاهتمام لنقائصهم بالذّات: «أيّها الإخوة، إذا سقط أحدٌ في زلّةٍ فأصلحوا أنتم الرّوحيّين مثل هذا بروح الوداعة... اِحملوا بعضُكم أثقال بعضٍ وهكذا أتمُّوا ناموس المسيح» (غلاطية ٦: ١-٢)...

٣. **حبٌّ فاعلٌ لأنّه ليس بالنّظريّات والمشاعروحسب، بل بالعمل والحقّ** (١ يوحنّا ٣: ١٨). إنّه حبٌّ يعمل من أجل الآخرين.

٤. حبٌّ باسِل يوجِّهنا نحو الرّأس الّذي هو يسوع: «بل نَصدُق بالمحبّة فننمو في كلّ شيءٍ للّذي هو الرّأس، للمسيح» (أفسس ٤: ١٥). إنّه حبٌّ يُغيّرنا لنصير على صورة المسيح.

٥. **حبٌّ مناضلٌ يهدف إلى جعل البشريّة جمعاء تلاميذ حقيقيّين في مدرسة الحبّ**: «اِذهبوا الآن وتلمذوا كلّ الأمم، مُعمِّدين إيّاهم باسم الآب والابن والرّوح القدس» (متّى ٢٨: ١٩).

٦. **حبٌّ باذِلٌ يقوم على بذل الذّات**: «ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا: أن يبذل نفسه عن أحبّائه» (يوحنّا ١٥: ١٣)، «الحقّ الحقّ أقول لكم: إنّ حبّة الحنطة الّتي تقع في الأرض إنْ لم تَمُت فإنّها تبقى وحدها وإنْ ماتت أتت بثمرٍ كثير» (يوحنّا ١٢: ٢٤-٢٥)، «بهذا قد عَرَفنا المحبّة أنّ ذاك قد بذل نفسه من أجلنا، فيجب علينا أن نبذل نفوسنا من أجل الإخوة» (١ يوحنّا ٣: ١٦).

٩٨٧. ما أرهفَ ذاك القلب المُحِبّ الّذي لا يعرفُ للحقد طريقًا ولا يصنع أفكارًا شرّيرةً. كقلبِ يسوع المقدّس الطّاهر، هو القلب النَّضِر الّذي لا ينبضُ إلّا بالخير للإنسان وللعالم أجمع. حتّى وإن كانت جروحه في عزّ نزفها، فهي لا تنزف إلّا عطرًا إلهيًّا مقدّسًا.

٩٨٨. من خلال يسوع الفصحيّ، تحرّر العالم من الظّلمة الأبديّة، وانتقل إلى النّور الأبديّ والمحبّة الخالدة.

٩٨٩. إنّنا مدعوّون أن نكون أقرباء من الكلّ. فلا تسأل مَن قريبي؟ بل بالحريّ قريب مَن تستطيع أن تكون؟ لأنّ حركتك إلى الآخر هي الّتي تُعيِّن لك قريبك.

٩٩٠. في هؤلاء تستطيع أن ترى وجه الرّبّ يسوع يدعوك إلى أن تكون بلسمًا لجراحهم ومعزّيًا لآلامهم وسادًّا لاحتياجاتهم ومدافعًا عن حقوقهم مناديًا بصوت الحقّ (راجع مثل السّامريّ الرّحيم في لوقا ١٠: ٢٩-٣٧). ساعتها تكون «ابن أبيك الّذي في السّموات» (متّى ٥: ٤٥).

٩٩١. إنّ المحبّة هي الَّتي تحرّك الإيمان وتدفعه.

٩٩٢. القريب الحقيقيّ هو الإنسان المُحتاج إلى وقوفك بجانبه ودعمه وتشجيعه وحتّى مساندته مادّيًا. إنّه الإنسان المُهمَّش، الجريح، المتألّم، الفقير، المظلوم والمرفوض.

٩٩٣. مَن يجرؤ على الحُبّ الَّذي يمكنه أن يتصادم مع أقوياء هذا الدّهر؟ من يعتني بمرذولٍ أو يشتري كتّانًا لمصلوبٍ ويَنزل فيَلُفّه ويضعه في قبرٍ جديد؟ هناك محبّةٌ ظاهريّة، وهي محبّة الغالبيّة، تلك الَّتي تتخلّى عن اتّباعه عند الصّليب أو تلك الَّتي تضعف عندما يُحكَم على المحبوب، فتتنكّر. «المحبّة» تتجرّأ من أجل المحبوب وتعتني به وتلازمه حتّى في أقصى مظاهر ضعفه كالموت والقبر.

٩٩٤. إنّه الحضور الأبديّ، بالذّات في هذا العالم: حضورُ الحبّ الَّذي يجعل الحياة تستحقّ منّي أن أتحمّل عناءها بفعل هذه الهبة الفائقة الإدراك، المتمثّلة في حبٍّ لا تهدِّده نهايةٌ ولا تعكِّره الأنانيّة.

٩٩٥. ترفع محبّة الله من مستوى النّاس فتجعلهم أولادًا له (راجع أفسس ١: ٤-٥): إنّهم ليسوا مجرّد عبيدٍ أو غرباء أو دُخلاء لا كيانَ لهم ولا أهميّة لوجودهم، بل إنّهم أضحَوا «أهل بيت الله» (أفسس ٢: ١٩).

٩٩٦. مَن يستطيع أن يقيس محبّة الله أو يصفها؟ إنّ الكتاب المقدّس، بكلّ أسفاره، ما هو إلاّ إعلانٌ لهذه الحقيقة. لذلك عندما نعظ من الكتاب المقدّس عن العدالة، نعظ عن العدالة الَّتي تُلَطِّفها المحبّة. وعندما نعظ عن البرّ، نعظ عن البرّ المؤسَّس على المحبّة، وهكذا بالنّسبة إلى الفداء الَّذي رتّبته وأكملته المحبّة (راجع يوحنّا ٣: ١٦-١٧). عندما نعظ عن القيامة، نعظ عن أعجوبة المحبّة، وعندما نعظ عن مجيء المسيح الثّاني، فإنّنا نعظ عن اكتمال المحبّة.

٩٩٧. إنّ محبّة الله هي الّتي تقف خلف النّاموس والأحكام والوصايا الإلهيّة، وتقف أيضًا خلف كلّ قانونٍ صالحٍ للإنسان أخلاقيًّا كان أم مدنيًّا. لأنّ الله المُحبّ نقش في قلوب البشر كلّ ما يؤول لخير الإنسان الشّخصيّ والعام.

٩٩٨. لا يهمّ كم من الخطايا ارتكبتها، أو مدى بشاعة سلوكك في الماضي. فقد تكون على حافّة الجحيم، لكنّ الله يحبّك ويشدّك إليه برُبُط محبّته. إنّ قداسته تشمئز من خطاياك وشرورك المستديمة: «ورأى الرّبّ أنّ شرّ النّاس قد كَثُرَ على الأرض وأنّ كلّ تصوُّرِ أفكارِ قلوبهم إنّما هو شرٌّ في جميع الأيّام. فندم الرّبّ أنّه عَمِلَ الإنسان على الأرض وتأسّف في قلبه» (تكوين ٦: ٥-٦). غير أنّ محبّته تحيطُ بك وتسعى لخلاصك، وذلك من خلال تدخّلاته في التّاريخ البشريّ عبر الأنبياء والمُرسَلين، وفي آخر الأزمان بواسطة ابنه الحبيب، على حدّ تعبير القدّيس بولس الرّسول: «إنّ الله الّذي كلّم الآباء قديمًا في الأنبياء... كلّمنا أخيرًا في هذه الأيّام في الابن الّذي جعله وارثًا لكلّ الأشياء وبه أنشأ الدّهور» (عبرانيّين ١: ١-٢).

٩٩٩. يسوع، كونه إنسانًا، كان ينظر ككلّ النّاس، وكما تكلّم بلسانه تكلّم بنظراته. والنّظرات عنده هي نارٌ ونور، أي نارٌ تُحرق في بعض الأوقات (نظرة يسوع لبطرس بعد إنكاره له: «وفي الحال بينما هو يتكلّم صاح الدّيك. فالتفت الرّبّ ونظر إلى بطرس، فتذكّر بطرس كلام الرّبّ... فخرج إلى خارج وبكى بكاءً مرًّا»، لوقا ٢٢: ٦٠-٦٢). كان يحرق بنظراته الكتبة والفرّيسيّين «وجنّ جنونهم بإحدى نظراته»، ونورٌ يُضيء في عتمات الكثيرين. بإمكاننا انطلاقًا من هذه النّظرات أن نعبُر ونُعَبّر، لأنّ النّظرة هي عُبورٌ وتعبير، ننظر فنَعْبُر لنُعَبّر عن شيءٍ ما. أمّا بالنّسبة لنظرات يسوع فالبعض قبِلَها والبعض الآخر رفضَها.

١٠٠٠. الخطيئة هي حالة انحرافٍ للقلب وليست طبيعيّة. الخطيئة دليل العنف الممارَس على القلب، الَّذي سيبقى يشتهي حرّيّته الَّتي لن يجدها إلّا بالتقاط الحُبّ الإلهيّ عشقًا له. القلب البشريّ يمكنه أن يكون مسرحًا لعشّاقٍ عديدين، تختارهم الحُرّيّة البشريّة. لكنّ القلب المسيحيّ لا يرتاح إلّا في خالقه ومُبدعه ومعشوقه الحقيقيّ، الحبيب يسوع المسيح.

• صلاة

لقد رأيتُ، يا نبعَ المحبّة، حدًّا لكلّ محبّةٍ بشريّة، إنّما لمحبّتك الإلهيّة فلم أجد ما يحدّها. يا مَن بالحُبّ جبلتني، بنفخةٍ من روحِك صنعتني، علّمني أن أُحِبّ من جديد... فالحياة قد سَلَبتني حُبّي لنفسي وحُبّي لِمَن حولي. أنتَ الّذي خصّصتني برباط المحبّة الأبديّة لأصيرواحدًا من أبناء شعبكَ رغم عدم استحقاقي، ومَن يُعطي محبّةً كهذه سواك؟ هاتِ من عندكَ بعدُ حُبٍّ، يا ربّ، فأُعطي العالم المحتاجَ كما أعطيتني. قدّسني بمحبّتك الكاملة، زِدني حُبًّا طاهرًا. أنتَ كلّ حاجتي يا مُحِبّ البشر.

آمين

الباب الخامس عشر

إخلاء الذّات والتّجرّد

يُشرِقُ علينا هذا الباب بتفسيرٍ لمعنى إخلاء الذّات والعطاء والتّجرّد من أجل الآخرين. فإنّنا بإخلاء ذواتنا نمتلىء أيضًا من الفضائل والنِّعَم الإلهيّة. هذا الباب يقيمُ، بمُجمَلِ أقواله، إرشادًا مُعينًا في التّعامل مع الآخرين على أساس العطاء الدّائم بالمحبّة ونكران الذّات.

١٠٠١. إخلاءُ الذّات أو التّجرُّد من الذّات يَهدِفُ في أساسه إلى إعادة ترميم العلاقة المنقطعة بين الله والإنسان، وبالتّالي إلى إعادة الإنسان إلى وطنه الحقيقيّ، إلى الحظيرة الأبويّة.

١٠٠٢. إنّه التّخلّي عن مشيئته الخاصّة لإتمام مشيئة الآب مُطيعًا إيّاه حتّى الموت، موت الصّليب. فقول المسيح، في الإنجيل المقدّس، بأنّ «الآب هو أعظم منّي» (يوحنّا ١٤: ٢٨) إنّما هو تعبيرٌ واضحٌ عن تخلّيه عن مشيئته الخاصّة. وهكذا فإنّ التّخلّي عن الذّات يُظهر ويُعلن بمقدارٍ أكبر ألوهة الابن لكلّ الّذين يعرفون تبيان العظمة في التّنازل، والغنى في التّخلّي، والحرّيّة في الطّاعة.

١٠٠٣. نحن كمسيحيّين نحيا ونموتُ لأجل جميع الآخرين، الّذين نرى فيهم صورةَ المسيح. وإنّ هذا لينقلَنا من الموت إلى الحياة: «نحن نعلمُ أنّنا انتقلنا من الموت إلى الحياة لأنّنا نُحِبّ إخوتَنا» (١ يوحنّا ٣: ١٤). لحظة اللّقاء مع الآخر هي مفترق طرق، يؤدّي إلى الحياة أو إلى الموت، فهل نختارُ الحياة أم الموت؟

١٠٠٤. في آخر الأزمان، حين نقف أمام الدّيّان العادل، وهو جالسٌ على عرش مجده، لن يسألنا عن صلواتنا وأصوامنا، بل عن **علاقاتنا**، لا عن إنجازاتنا، بل عن **محبّتنا**: «جُعتُ فأطعمتموني، وعَطِشتُ فسقيتموني، وكنتُ غريبًا فآويتموني، وعُريانًا فكسوتموني، ومريضًا فعُدتُموني، ومحبوسًا فأتيتم إليّ» (متّى ٢٥: ٣٥-٣٦).

١٠٠٥. لقد «أفرغ [يسوع] نفسه تمامًا» (فيلبّي ٢: ٦-١١)، أي تخلّى عن أن يكون لذاته فدخل الدّيناميّة الصّرف الّتي تنطوي عليها عبارة «من أجل». فإنّه أمسى بذلك عينه سيّد العالم والكون كلّه الّذي يقوم بالسّجود أمامه أي بطقس الخضوع وفعله الّذي يحقّ للملك الحقيقيّ دون سواه. فلنتضّع متخلّين عن ذواتنا في سبيل أن نرتفع أمام الله فنصبح أبناء العليّ القدّوس.

١٠٠٦. **إنّ إفراغ أنفسنا من أنفسنا**، هو الخطوة الأولى صوب اقتناء حبّ الله. بعد ذلك يأتي الله ويملأنا من وجوده. إذًا الحياة تتضمّن عمليّة إفراغ لأنفسنا من أنفسنا، ومن ثَمّ الإمتلاء منه، حتّى نصير على شبهه، إذ نرسم الصّورة في نفوسنا وقلوبنا كلّ يومٍ من أيّام حياتنا. وإذ نعمل على محاربة إنساننا «العتيق»، يُرسل الرّبّ روحه القدّوس ليُعلِّمنا، بمؤازرة والدته، سيّدتنا والدة الإله، وكلّ قدّيسيه، والآباء والأمّهات في كنيسته، كيف نصير أيقونةً له، يصوِّرها ويعيد تصويرها بيده.

١٠٠٧. الحوارُ نفسُه هو رحلةٌ إلى القلب أكثر منها إلى العقل، وفيه نتخطّى الكلمات لنلتقِيَ بإنسانٍ يبوحُ لنا بذاتِه. حين أُصغي إليك، تُصبحُ أنت محورَ عالميّ ومحطّ اهتمامي.

١٠٠٨. الحوار يعني أن يكون هناك مَن يُحسِن «الإرسال» (أو التّكلّم) ومَن يُحسِن «الاستقبال» (أو الإصغاء). وهذا ليس بالأمر السّهل لأنّه يُحتّم عليّ أن أخرج من ذاتي، أن أضع جانبًا، لبعض الوقت، ما أنا عليه، لأسير نحوك وأُحاول بصدقٍ أن أدخل في صميم العالم الّذي هو عالمك وأُعرب بصدقٍ عن فهمي لك.

١٠٠٩. إنّ الحبّ «بالرّغم» يعني الاحتمال، والصّبر، والمغفرة، والتّضحية، وحتّى نكران الذّات. فبالرّغم من كلّ الصّعوبات الّتي تواجهني مع الآخر، والحواجز الّتي قد تقف عائقًا أمام انفتاحي القلبيّ عليه، فإنّي مدعوّ إلى العبور من الأنانيّة إلى المحبّة، ومن الموت إلى القيامة: إنّه الفصح، عبور الرّبّ. إنّه كذلك عبورٌ من أرض العبوديّة «الانطواء على الذّات» إلى أرض الميعاد «الانفتاح على الآخر»، أرض التّحرّر الدّاخليّ.

١٠١٠. إنّ غسل الأرجل هو بذلُ محبّةٍ اختياريّ، مرتبطٌ بالصّليب.

١٠١١. **الإيمان المسيحي هو إيمانٌ قربانيّ.**

١٠١٢. نعمة التّحويل: إنّها تعني الانتقال من الأنا للأنت لتكوين النّحن الَّتي تؤلِّف الشَّركة الحميمة في الحياة والحبّ الزّوجيّ. هذا العبور من الأنا للنّحن يتطلّب موتًا وتضحيّةً وبذلاً حقيقيًّا للذّات. فالكوب المليء لا يَسَع شيئًا آخر، عليّ أن أُفرغ منه، أُفرغ من ذاتي لِيَسَعَ الآخر. وهذا لا يصير إلاّ بنعمة تحويلٍ من قِبَل الرّبّ.

١٠١٣. لقد عبّر يسوع عن حبِّه بطريقةٍ مؤقتة من خلال غسل أرجل تلاميذه، من جهة، وبطريقةٍ كاملة عن طريق وضع حياته في الصّلب. وهكذا نُدرك أنّ التّلاميذ لم يعودوا بحاجةٍ إلى الغسل، إذ إنّ يسوع قد غسل أرجلهم، بل أصبحوا بحاجةٍ إلى المحبّة والتّضحيّة بالذّات.

١٠١٤. الله يُحِبّ، وإذا المحبوب حَسَن. هو مَن يعطي ذاته، وإذا العطيّة جميلةٌ وآيةٌ في الجمال. في هذا البدء، يحيا الله الحيّ أوّل «تجرُّدٍ» أو «إخلاء ذات»، فيه يكشف الحبّ الإلهيّ عن ذاته، ومن فيض محبّته هذه يُعطي الوجود لجميع الكائنات.

١٠١٥. يحبّون. ولكنّهم قِلّةٌ أولئك الّذين يجرؤون أن يُحِبُّوا غيرهم حُبًّا أكبر من حبّهم لذاتهم. وهذا هو الحبّ الحقيقيّ. أن نتجرّأ ونُفضِّل الآخر على ذواتنا. أن نُحِبّ، فهذا أمرٌ طبيعيّ. ولكن، أن نُحِبّ كما يريد الرّبّ، فهذا يعني أن نتجرّأ ونُحِبّ حتّى بذل ذواتنا وتقديمها على مذبح التّضحيّة قربانًا حيًّا.

١٠١٦. إنّما القربان يدفع بحبّ الإنسان الَّذي اكتسبه من يسوع إلى العطاء الكامل حتّى تقدمة الذّات ذبيحةً على مثال يسوع الَّذي قدّم ذاته. إنّها الدّرجة العليا من الحبّ. فالقربان يزرع فينا يسوع بكلّ حبّه ويجعلنا قادرين على المواجهة والجهاد للحفاظ على مسيرتنا البنويّة لله وتخطّي كلّ الصعوبات الَّتي تعترض مسيرتنا هذه.

• صلاة

يا ربّ حرّرني من ذاتي ومن أنايَ الّتي تدوس على الآخر من أجل تحقيق ذاتها. يا مُخلّصي، اجعلني قادرًا على رؤيتك في الآخرين، أن أَلْمُسَ روحكَ فيهم وأن أستدفئ بشمسكَ المتلألئة من خلالهم... غير مستهزئٍ بهم. أنتَ فقط مَن يعلمُ بنوايا قلبي... أنتَ الّذي يهمسُ في صلاتي ويطيّبُ أيّامي بكلمةٍ من حماه. يا عجيبًا في صنيعكَ، لستُ أطلُب شيئًا من أجل ذاتي ولذّاتها، بل أطلُبكَ حضنًا يضمّني... أطلبكَ صوتًا يطربني.. أطلبكَ نورًا يرشدني لأعمل عملاً صالحًا من أجل مجدكَ أنتَ، لكي أعمل مشيئتكَ أنتَ لا مشيئتي الباليّة البشريّة. لأنّك أنتَ تهَبُ عطاياك بروحك القدّوس... أنتَ المُنعِم علينا وتقودنا بروحك على الدّوام.

أشكرك أيّها الرّبّ يسوع لأنّك بذلتَ نفسك على الصّليب من أجلنا، وحرّرتنا من عبوديّة الخطيئة والموت، وعلّمتنا أن نبذل ذواتنا في سبيل إخوتنا. فنجِّنا من الأنانيّة واللامبالاة، وأعطنا أن نقتديَ بك ونحبّ الجميع من أجلك. هبنا القوّة والشّجاعة لأن نمدّ أيدينا نحو الآخرين، حين يكون ذلك أكثر صعوبة، لكن أشدّ ضرورة. ولتكن حياتنا عطاءً مستمرًا، فيشعر الآخرون بحبّك من خلالنا، ويتلمّسوا وجودك، فيؤمنوا بك، ويتعلّموا بدورهم البذل والتّضحية، فيزدهر العالم من خلال الحبّ، وتشعّ أنوارك الإلهيّة على المسكونة كلّها، فنمجّدك ونشكرك على جميع عطاياك، مع أبيك الأزليّ وروحك القدّوس إلى الأبد

آمين

الباب السّادس عشر

التّوبة والمغفرة

ينقلُ لنا هذا الباب أهميّة فعل التّوبة الدّائمة وبالتّالي أهميّة الغفران والمغفرة للذّات وللآخرين. فإنّه يعرضُ لنا صدى الإنسان التّائب الّذي على سلوكه ألّا يخلو من المغفرة والوداعة بتعامله مع أخيه الإنسان.

١) مفهوم الخطيئة

١٠١٧. الخطيئة هي رفض الإنسان لمحبّة الله، إذ يسعى إلى تحقيق ذاته دون الله، كما ويسعى إلى تحقيق ذاته دون أي إنسان آخر، ودون أيّ قيمٍ أو أخلاقٍ أو إيمان.

١٠١٨. الخطيئة هي أن يرفض الإنسان الله والقيم والخلاص والإنسان قريبه.

١٠١٩. إنّ الخطيئة لا تُدرَك بذاتها، ولا لأجل ذاتها، بل بنور محبّة الله الغافرة.

١٠٢٠. تجعلنا الخطيئة، إذًا، خارج الشّركة مع الله ومع القريب.

١٠٢١. يولد الإنسان في غربةٍ عن نفسه وعن الله. وتتعمّق هذه الغربة بفعل ما يرتكبه في حياته من خطايا. فالخطيئة هي واقعٌ إنسانيٌّ مرير (راجع رومة ٣: ٢٣).

١٠٢٢. إنّها ابتعادٌ عن الله، نسيانه والتّمرّد عليه، عدم الإصغاء لكلمته، وبالنّتيجة تركه والتّنكّر له والتّخلّي عنه وحتّى إنكار وجوده: «قال الجاهل في قلبه: ليس إله. فَسَدَت أعمالُهم وقَبُحَت، وليس مَن يصنع الصّالحات» (مزمور ١٤: ١).

٢) التّوبة عودةٌ إلى الذّات

١٠٢٣. العودة إلى الله تُعيدنا إلى ذاتنا. هذه العودة إلى الذّات هي يقظةٌ على ضعفنا، وبؤسنا ودعوتنا. في ضوء وجه الآب، نرى أنفسنا على عُريها وحقيقتها، ونفهم خطأنا وخطيئتنا. نذكر من أين سقطنا وكيف تركنا حبّنا الأوّل، وكيف قبلنا الكلام ولم نحفظه (راجع رؤيا ٢: ٤-٥؛ ٣: ٣).

١٠٢٤. العودة إلى الله هي فعل إيمانٍ بمحبّته، ورحمته، واستعداده الدّائم ليغفر ويسامح. وحده يتوب، الإنسان الّذي اكتشف الله الّذي يعفو عن الذّنب.

١٠٢٥. حقيقة خطيئتي لا تنكشف أمام ضميري إلاّ بمقدار وعيي الإيمانيّ أنّني موضوع محبّةٍ من الله. والعكس بالعكس إن لم أعترف بمحبّة الله لن أستطيع معرفة ذاتي خاطئًا.

١٠٢٦. التّوبة هي عودة الإنسان إلى ذاته ومعرفته لأعماق نفسه، لأنّها مستحيلةٌ دون معرفة الإنسان لذاته. فالإبن الشّاطر عاد إلى أبيه بعد أن رَجَعَ إلى نفسه.

١٠٢٧. العودة إلى الذّات هي **اكتشاف محبّة الله الآب العظيمة**، والعودة إلى الثّقة به والإيمان بكلامه، واكتشاف الشّخص التّائب أنّ أفكاره الّتي من صُنع العالم، ومن صُنع الشّرّير، هي باطلة.

١٠٢٨. العودة إلى الذّات هي العودة إلى الكرامة الّتي خصّنا بها الله (راجع تكوين ١: ٢٦)، والقيمة الحقيقيّة للذّات، وإلى الحرّيّة والحياة والحبّ الحقيقيّ.

١٠٢٩. العودة إلى الذّات هي عودةٌ إلى الله والآخرين (راجع لوقا ١٥: ١٧).

١٠٣٠. العودة إلى الذّات عمليّةٌ مؤلمةٌ تحتاج إلى شجاعة، وإلى تواضعٍ لأجل قبول الخطأ. هذه العودة لا تتحقّق إلاّ في ضوء الرّوح القدس ونور كلام الله في الكتاب المقدّس، مرآة النّفس.

١٠٣١. إذا مارس الإنسان العودة إلى الذّات في ضوء الرّوح القدس، فإنّها وبدون أدنى شكّ، ستؤدّي به إلى النّموّ الرّوحيّ والتّقدُّم في الفضيلة.

١٠٣٢. هناك إنسانٌ يبدو صامتًا، بينما قلبه يدين الآخرين؛ وإنسانٌ آخر يتكلّم من الصّباح حتّى المساء، ومع ذلك فإنّه يلزم الصّمت، لأنّه لا يقول شيئًا غير مفيدٍ روحيًّا.

١٠٣٣. يتميّز الإنسان الّذي يعيش حالة الاختلاء هذه بالهدوء القلبيّ والعودة إلى الذّات والصّمت الدّاخليّ والسّهر على الذّات من خلال «اليَقَظَة الرّوحيّة».

١٠٣٤. هناك فرقٌ بين «الوقوف أمام الذّات» من بعيد، وبين «العودة إلى الذّات». الوقوف أمام الذّات لا يعني المواجهة، بالضّرورة. فالعودة إلى الذّات هي عودةٌ إلى محبّة الله، لنقف أمام روحه القدّوس وإنجيله الطّاهر، ونُعيد النّظر بأفكارنا ومبادئنا وبالقيم الّتي نبني عليها حياتنا.

١٠٣٥. بالاستقلاليّة المزيّفة صار الإنسان دائم الغربة عن ذاته وعن الحقيقة الّتي في داخله، فبات يبحث عن قيمته في الكبرياء والسّلطة والمُتعة والأشياء والممتلكات، بدلاً من أن يجد قيمته في بنوّته لله. لذا، فإنّ العودة إلى الذّات هي عودةٌ إلى الاستقلاليّة الحقيقيّة، الّتي ليست انفصالاً عن الله ولا انعزالاً عن الآخرين.

١٠٣٦. التّوبةُ هي عودةٌ إلى الله نابعةٌ من الإيمان بأنّ معنى الوجود الإنسانيّ يكمنُ في أحضان الله، وأنّ انعطاف الله إلينا يفوق انعطافنا نحو شهواتنا. التّوبة هي ثمرة اللّقاء مع الله، ذاك اللّقاء الّذي يَطبَعُ الحياة بكلّ نواحيها ويُضفي عليها اليقين بأنّ حقيقة الله تفوق أيّة حقيقةٍ أخرى.

١٠٣٧. ليست التّوبة نقلةً من راحةٍ إلى أتعاب؛ بالعكس التّوبة هي تحرّر. قد تكون لحظة التّوبة قاسيّةً وذلك بمقدار عمق الأوحال، لكنّها استراحة لقاء العاشق بالمعشوق. التّوبة هي عيش الحُبّ الحقيقيّ للإنسان.

١٠٣٨. كلمة الله تنير ظلماتنا وتوقظ ضميرنا، وتديننا (يوحنّا ١٢: ٤٨) تجعلنا نلمس لمس اليد مرض قلبنا الشّرّير، فلا نعود نحاول تبرئة ذواتنا ولا تقديم الأعذار التّخفيفيّة. بل نرتمي على أقدام الصّليب صارخين مع العشّار: «أللّهمّ ارحمني أنا الخاطئ» (لوقا ١٨: ١٣).

١٠٣٩. وفي وجه إلهنا المصلوب، نكتشف في آنٍ واحدٍ رحمة الله اللّامتناهيّة وفظاعة خطيئتنا اللّامحدودة. ندرك أنّ الخطيئة هي شرٌّ أصابنا نحن والقريب، بل أصاب الله بالذّات. فلا مجال بعد للادّعاء الخادع أنّي حرٌّ بنفسي وأنّي حين ارتكب الشّرّ لا أُلحق الضّرر إلاّ بنفسي فقط.

١٠٤٠. «أللّهمّ اغفر لي أنا الخاطئ وارحمني»: تُشكّل هذه الآية الإنجيليّة دعوةً إلى التّواضع وانسحاق النَّفس وتوبة القلب أمام الله والقريب (لا يريد أن يرفع عينَيه إلى السّماء، يقرع صدره)، بعيدًا عن الرّوح الفرّيسيّة المليئة بالكبرياء الأعمى وبمركزيّة الأنا.

٣) التّوبة ثورةٌ تهزّ أعماق الكيان الدّاخليّ الإنسانيّ

١٠٤١. أفتتح هذا الباب بآياتٍ مباركةٍ من نبوءة يوئيل النّبيّ، تُعبّر بوضوحٍ كتابيٍّ لافتٍ ماهيّة التّوبة الحقيقيّة الّتي يطلبها الرّبّ من الإنسان: «فالآن يقول الرّبّ: توبوا إليّ بكلّ قلوبكم وبالصّوم والبكاء والانتحاب، ومزّقوا قلوبكم لا ثيابكم وتوبوا إلى الرّبّ، فإنّه رؤوفٌ رحيمٌ طويل الأناة وكثير الرّحمة ونادمٌ على الشّرّ» (٢: ١٢-١٣).

١٠٤٢. التّوبةُ المصحوبةُ بالصَّوم والمسوح والرَّماد، هي التَّحوُّلُ نحو الله والخضوعُ لمشيئته، الثّقةُ به والابتعاد عن كلّ ما هو غير مَرضيٍّ أمامه. هذه هي خبرة آباء الصَّحراء الَّذين بكَوا وانتحبوا ليس فقط على خطاياهم، بل على كلّ لحظةٍ أَضاعوها في غُربتهم المرَّة عن المسيح له المجد والإكرام وعدم معرفتهم به.

١٠٤٣. التَّوبة: أي تغيير السِّيرة الذاتيَّة. فالإنسان ببُعده عن شريعة الله وتطبيقها في حياته اليوميَّة أصبح غريبًا عن الله وملكوته وهو بالتّالي بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الرّجوع إلى ذاته، يُراجع حساباته ويتَّخذ القرار المناسب لحياته. هذا الرّجوع إلى الذّات يشكِّل المرحلة الأولى من حياة التَّوبة ومسيرتها الرّوحيّة.

١٠٤٤. التّوبة تعني تغييرَ الإنسان لأفكاره واعتقاداته وحياتِه، وخضوعِه لناموس الله ووصاياه وابتعاده عن المفاسد والشُّرور.

١٠٤٥. التّوبةُ الحقيقيّة ثورةٌ تهزّ أعماق الكيان الدّاخليّ الإنسانيّ وتبدِّلُه بشكلٍ جذريّ، فيصبح الله محورَ حياة الإنسان «الألف والياء، البداية والنّهاية» (رؤيا ١: ٨)، وتصير بذلك شريعةُ الله نابعةً من داخل الإنسان وليست فرضًا خارجيًّا عليه.

١٠٤٦. التّوبةُ هي اعترافٌ بأنّ الإنسان يحيا بمقدار ما يغتذي من الحبّ الإلهيّ، وبأنّه اتَّخذ الموت سبيلاً لملاقاة وجه السَّيّد، الَّذي أقامَنا مسمِّرًا الموتَ على الصَّليب وواهبًا الجميعَ قوّةَ القيامة.

١٠٤٧. إنّ التّوبة هي استنارةٌ، هي عبورٌ من الظّلام إلى النّور (راجع أشعيا ٩: ٢؛ متّى ٤: ١٦). أن نتوب هو أن نفتح أعيننا على الشّروق الإلهيّ، ألاّ نبقى حزانى في المغيب، بل نستقبل الفجر بإشراقته الجديدة، ذلك أنّ نور المسيح الَّذي يدخل في حياتنا يجعلنا نفهم خطيئتنا الشّخصيّة بشكلٍ حقيقيّ: فكلّما قَرُبَ الإنسان من الله، رأى خطيئته الشّخصيّة.

١٠٤٨. إنّ طبيعة التّوبة الحقيقيّة والمُشرقة تتجلّى بوضوحٍ في حياة الكنيسة ولا سيّما من خلال ثلاثة تعابير أساسيّة ومميّزة هي: التّعبير اللِّيتورجيّ خلال الصّوم الكبير، والأسراريّ خلال سرّ الاعتراف، والشّخصيّ من خلال موهبة الدّموع.

١٠٤٩. التّوبة الحقيقيّة ثورةٌ تهزّ أعماق الكيان الدّاخليّ الإنسانيّ وتبدّله بشكلٍ جذريّ، فيصبح الله محور حياة الإنسان «الألف والياء، البداية والنّهاية» (رؤيا ١: ٨)، وتصير بذلك شريعة الله نابعةً من داخل الإنسان وليس فرضًا خارجيًّا عليه.

١٠٥٠. القلب المنسحق هو قلب المؤمن الّذي يعترف أنّه لن يكون أبدًا «بارًّا» وأنْ ليس له مستقبلٌ سوى أن يكون خاطئًا، فينال الغفران. يعترف أنّ خطيئته أكبر من أن تُغتفر ولكن يؤمن أنّ الله بمحبّته قد غفر له. فبدّل «أصل المرارة» (عبرانيّين ١٢: ١٥) والشّعور بالذّنب الى «عذوبة المعانقة الأبويّة» وبالتّالي إلى «دموع فرحة العيد».

١٠٥١. هذا هو الفرق بين يهوذا الاسخريوطيّ وبطرس. بطرس عرف ذنبه فبكى بكاءً مرًّا (متّى ٢٦: ٧٥) وتذكّر كلمة يسوع وآمن بمحبّته. أمّا يهوذا، فعرف ذنبه واعترف أنّه أسلم دمًا بريئًا (متّى ٢٧: ٤) ولكنّه لم يَعُد إلى الله وبالتّالي لم يندم ولم يتب. بقي على مستوى حكمه الذّاتيّ على نفسه، فوقع في اليأس وشنق نفسه.

١٠٥٢. القلب المنسحق، خطيئته أمامه في كلّ حين، ولا يسعى لأن ينساها لأنّها أصبحت «عربون محبّة الله له وموضع لقائه بالله». وهذا ما يجعله يبكي دائمًا دموع التّوبة، وهو يتأمّل دون انقطاعٍ الرّفض الإنسانيّ للحبّ المصلوب.

١٠٥٣. دموع التّوبة هي أثمن شيءٍ في العالم، لأنّها مفتاح السّماء.

١٠٥٤. التّوبة المنسحقة تُضيء من خلال الالتماس الغفرانيّ. إنّها تضرُّعٌ إلى الله، العارف القلوب والكُلى، والعالِم مقياس الخطيئة الشّخصيّة، أن يصفح عن زلاّت الإنسان وهَفَواته الشّخصيّة.

١٠٥٥. نقدّم «ما هو» ليصير بالتّوبة والنّعمة «ما يجب». وهكذا، يتجلّى العالم كخليقةٍ حَسَنَةٍ، لا بل حسنةٍ جدًّا: هذه هي «التّوبة البيئيّة» القائمة على الاستخدام الصّالح والصّحيح (مسؤوليّة الرّعاية) من قِبَل الإنسان لهديّة الله الكونيّة.

١٠٥٦. في التّوبة تنمو نعمة الله أكثر فأكثر في روح الإنسان.

١٠٥٧. الكلمة الإلهيّة هي المعيار لحياة الكنيسة. التّعليم ليس دائمًا تنشئةً فحسب، بل وأحيانًا، تأديبًا، لأنّ القيمة والكرامة هي في عين الله وليست في عين النّاس. الواعظ والمعلّم هو قائدٌ للنّفوس إلى التّوبة والحياة مع الله.

١٠٥٨. الكلمة الإلهيّة هي المعيار لحياة الكنيسة. التّعليم ليس دائمًا تنشئةً فحسب، بل وأحيانًا، تأديبًا، لأنّ القيمة والكرامة هي في عين الله وليست في عين النّاس. الواعظ والمعلّم هو قائدٌ للنّفوس إلى التّوبة والحياة مع الله.

١٠٥٩. المسيح يريد أن يدخل بيتًا نظيفًا مستعدًّا ولائقًا. إنّ الحياة الرّوحيّة الحقيقيّة تبدأ بالتّوبة. وعليه، فإنّنا نُدرك أنّ التّوبة هي جهدٌ مستمرٌّ للمشيئة الّتي جعلت الله وُجهتها.

١٠٦٠. يملك الإنسان قلبًا نقيًّا وطاهرًا من خلال ألميتانويا، أي «تغيير الفكر» و«تحوُّل الذّهن»، أعني «التّوبة». إنّها «ولادةٌ ثانيةٌ» يمنحها الله بعد المعموديّة، وإمكانُ العودة إلى الآب، والخروجُ الدّائم من الذّات، وفضيلةٌ تؤول إلى تغيير طبيعتنا.

١٠٦١. إنّها حالةٌ للنّفس منافيةٌ للادّعاء و«التّبرجز الرّوحيّ» (علامة الموت الرّوحيّ) اللّذين لفريسيٍّ أو «بارٍّ» يظنّ أنّه في «حالة النّعمة» لأنّه لا يعرف نفسه (راجع لوقا ١٨: ٩). التّوبة، مثل طريق الارتقاء نحو الله، لا يمكن أن تكون لها نهاية.

٤) التّوبة سرّ شفاء

١٠٦٢. يصير الإنسان بالخطيئة أنانيًّا يتّجه به الى نفسه عِوَض أن يكون معطاءً منفتحًا على الله والآخرين. هذه الفيزيولوجيّة المعطّلة لحواس الإنسان الرّوحيّة هي تمامًا المرض الرّوحيّ. فالإنسان من حيث يدري أو لا يدري يستعمل كلّ الأشياء بأنانيّةٍ واستغلال. «أناه» تصير محور الكون. وهذا الأمر بالتّحديد هو جذر كلّ خطيئة.

١٠٦٣. إنّ التّوبة الحقيقيّة هي أن يبتعدَ الإنسانُ عن الخطيئة، وأن يلجأَ إلى الله بشكلٍ دائم، وليس فقط عند وقوعه في حادثةٍ ما، لأنّها تهدف إلى إرساءِ علاقةٍ جديدةٍ معه.

١٠٦٤. **التّوبة هي، قبل كلّ شيء، سرُّ شفاء.**

١٠٦٥. نعلم أنّ هذا الشّفاء يتمّ بالمعموديّة المقدّسة، بسرّ التّوبة المقدّس، بمسحة الزّيت المقدّسة وبتناول الأسرار المقدّسة باستحقاق: جسد المسيح، دمه، نفسه وألوهته.

١٠٦٦. بالاعتراف الصّحيح يُمحى كلّ الماضي، وينفتح بابٌ جديدٌ للحياة، وتَحِلّ نعمة الله لتغيّر الإنسان بجملته، ويختفي الاضطراب والحزن ويحلّ الهدوء والسّلام، ليس داخليًّا فقط بل وخارجيًّا أيضًا إذ ينعكس سلامه على تصرّفاته ومسلكيّته الحياتيّة.

١٠٦٧. وبالتّالي عليه أن يتصالح مع الله من جديد، الأمر الّذي يحصل بسرّ التّوبة. **فالتّوبة هي بمثابة معموديّةٍ ثانيّة**، أي سرّ مصالحة الإنسان مع الله بعد المعموديّة.

١٠٦٨. إنّ الإنسان الّذي أصبح عضوًا في جسد الرّبّ، بأسرار المعموديّة والميرون والإفخارستيا، مدعوٌّ إلى أن يُفَعِّل انتماءه هذا ويصل به إلى كماله، بأن يتحوّل كيانه كلّه إلى الله حتّى يصل بنعمة الله إلى «قياس قامة ملء المسيح» (أفسس ٤: ١٣). لكنّه مُهدَّد دومًا بالسّقوط من دعوته بميله للخطيئة، الّتي تشوّه صورة الله فيه من جديد.

١٠٦٩. كلّ الّذين لم يحفظوا نعمة الولادة الجديدة (المعموديّة) بلا عيب، وسقطوا من النّعمة الإلهيّة بسبب خطاياهم، يستطيعون أن يحصلوا ثانيّةً على رأفة الله ومحبّته برجوعهم إلى الكهنة واعترافهم لهم بخطاياهم واستحقاقهم للغفران.

١٠٧٠. لذلك أصبح على المعترف أن يفحص ذاته ويراقبها بدقّةٍ ليعرف باطنه الدّاخليّ ويكتشف أمراضه الرّوحيّة، وعلى المعرِّف (الطّبيب الرّوحيّ) أن يساعد المعترف بهذا من خلال مجموعةٍ من الأسئلة، ويوجّهه بعد أن يستعرض حياته ليسلك في حياة التّوبة المستمرّة.

١٠٧١. **التّوبة والاعتراف مدرسةٌ لشفاء الإنسان من الدّاخل**، ذلك أنّ الكنيسة هي مستشفًى بكلّ معنى الكلمة، أسّسها الرّبّ لتشفي نفوسَ النّاس وتقودهم إلى الخلاص: «اِعترفوا بعضكم بعضًا بزلاّتكم، وصلُّوا بعضكم لأجل بعضٍ لكي تُبرأوا. ما أعظم قوّة صلاة البارّ الفعّالة» (يعقوب ٥: ١٦).

١٠٧٢. المسيح يشاء بسرّ التّوبة أن يكسر طوق الانعزال الّذي يحيط بنا من خلال الخطايا. هو يدعونا الى أن ندخل في سرّ الكنيسة من جديدٍ إذ نطرح على عتباتها آثامنا ونَلِجُ لابسين حلّةً جديدةً لنشارك الابن بالعجل المسمّن (راجع لوقا ١٥: ٢٢-٢٤).

١٠٧٣. أنْ نتوب لا يعني أن ننظر إلى أسفل، باتّجاه نواقصنا وزلاّتنا وخطايانا المتعشّشة فينا، بل إلى الأعلى، باتّجاه محبّة الله العطوفة والغفورة.

١٠٧٤. إنّ المؤمن حين يلتجئ الى الكاهن وينحني بعد اعترافٍ تحت البطرشيل، يدخل في هذا السّرّ الّذي به تنفتح القلوب على نعمة الله وعلى كنيسته، فيتصالح مع نفسه أوّلاً ثمّ مع النّاس وأخيرًا مع السّماء، ويصير من جديدٍ وارثًا لفردوس آدم المفقود. الإنسان يستعيد دالّته لدى الله فتصير صلاته مسموعةً مقبولةً بل إحسانًا الى النّاس. يخرج من ركود الخطايا القابعة في القلب الى نور جِدَّة الحياة، ويلتقي مجدَّدًا الإخوة. ولعلّ هذا اللّقاء المحبّ خيرُ دواءٍ وسَلوةٍ للنّفس المتعبة والرّازحة تحت أعباء الخطيئة.

١٠٧٥. إذا كان الكاهن يغفر الخطايا فلأنّ الله أعطاه السّلطان؛ هي قدرةٌ من الله، ليس الكاهن بشخصه يغفر بل باسم الرّبّ. وحده الله يغفر الخطايا، ويجعل الإنسان يتغلّب على ضعفه لأنّ محبّة الرّبّ أكبر بكثيرٍ من خطيئة الإنسان.

١٠٧٦. التَّوبة هي سرُّ تَحَرُّر الذّات وانطلاقِها نحو الملكوت.

١٠٧٧. نور المسيح الّذي يدخل في حياتنا يجعلنا نفهم خطيئتنا الشّخصيّة بشكلٍ حقيقيّ.

١٠٧٨. التّوبة هي أن ننظر لا إلى ما لم نستطع أن نحقّقه أو نكونَه، بل إلى ما يُمكننا أن نحقّقه ونكونَه بنعمة المسيح.

١٠٧٩. لقد شَعَرَ اللّصّ بأنّه محكومٌ عليه بالعدل، وأنّه إنّما يحصد استحقاق ما فعل، هذا هو الحكم على الذّات وأعمالها (بمعنى قراءة ذاتيّة نقديّة للحياة)، وهو يُشكِّل مقدّمة الرّجوع إلى الله والواسطة الّتي بها نستطيع أن نتمتّع بخلاصه. إذًا، إنّ اللّصّ التّائب ظلّ لصًّا، لأنّه سرق الملكوت بنعمة الله بواسطة التّوبة!

٥) التّوبةُ سرّ الصّليب والقيامة

١٠٨٠. يبدو جليًّا أنّ الّذي اصطبغ بالمسيح هو الّذي يدرك أنّ السّيّد القائم لم يره العالم أجمع، بل جماعة المتألّهين فقط (راجع يوحنّا ١٤: ١٨-٢١)، أي إنّ معاينة المجد الإلهيّ تفترض تحوّلاً جذريًّا في الإنسان، بأن يتحوّل من عبدٍ أو أجيرٍ أو عدوٍّ إلى صديقٍ وحبيبٍ لله.

١٠٨١. إنّ فعل المصالحة الحاصلة بسرّ الصّليب والقيامة لا يتمّ من جهة الله فقط، بل بالمشاركة الإنسانيّة أيضًا. لذا، فإنّ الشّرط الأساسيّ للاشتراك بسرّ الصّليب والقيامة، هو صلب الشّهوات والانعتاق من الأنانيّة بالإيمان الثّابت، والخضوع التّامّ للمشيئة الإلهيّة، فيتطهّر الإنسان من الأهواء ويتقدّس القلب ويستنير الذّهن، ويُطيع الإنسان حتّى الموت، على مثال معلّمه، تلك الطّاعة الّتي تتحوّل آنذاك بنعمة الله إلى محبّة، فيتّحد الإنسان بالله، ويتألّه، ويصبح فاعلاً معه ومالكًا بنعمة المسيح.

١٠٨٢. وهكذا، تبقى التّوبة ذاك السّرّ الّذي ينسى به الإنسان ما وراء، ويمتد بكلّ نفسه إلى ما هو أمام، هاتفًا مع الرّسول يوحنّا بكلّ بثقة: «ذاك الّذي كان منذ البدء. ذاك الّذي سمعناه. ذاك الّذي رأيناه بعينَينا. ذاك الّذي تأمّلناه ولمسته يدانا من كلمة الحياة. لأنّ الحياة ظهرت فرأينا ونشهد ونبشّركم بتلك الحياة الأبديّة... ذاك الّذي رأيناه وسمعناه نبشِّركم به أيضًا... وإنّنا نكتب إليكم بذلك ليكون فرحنا تامًّا» (١ يوحنّا ١: ١-٤).

٦) المغفرة

١٠٨٣. أمام خطيئة الإنسان، لا يقطع الله الأمل بالإصلاح ولا ينزع ثقته ومحبّته، ولا يعتبر خيانة اليوم مانعًا يتنافى مع أمانة الغد. **غفران الله فعلُ حرّيّةٍ من محبّته الخلاّقة والفاديّة.** به يحفظ الله محبّته للإنسان الخاطئ لا بل يجدّدها. ومجّانيّة الحبّ تُصبح هنا رحمةً لامتناهيّة تجاه الإنسان الخاطئ.

١٠٨٤. لا توجد حدود للغفران الحقيقيّ الَّذي معه لا مجال للعدّ: «حينئذٍ دنا إليه بطرس وقال له: يا ربّ، كم مرّةً يخطئ إليّ أخي فأَغفر له. أَإلى سبع مرّاتٍ. فقال له يسوع: لا أقول لك سبع مرّاتٍ بل إلى سبعين مرّةً سبع مرّاتٍ» (متّى ١٨: ٢١-٢٢).

١٠٨٥. إنّ غفران الله للخطيئة، لا يمنع بكاء الخاطئ عليها. إنّه لا يبكي خوفًا من العقوبة. إنّما يبكي لأنّه **أحزن قلب الله بخطاياه، أحزن روح الله الّذي في داخله**، ولأنّه بخطيئته قد فَقَدَ صورته الإلهيّة، وسقط وتدنّس... يبكي متألِّمًا، كيف ضعفت إرادته هكذا، وتدنّست روحه؟ ويشعر بالخجل أمام نفسه، وبالخزيّ أيضًا.

١٠٨٦. المغفرة هي الّتي حوّلت صليب الموت إلى حياة.

١٠٨٧. المغفرة هي انفتاحٌ على الآخر من خلال محبّة المسيح.

١٠٨٨. المغفرة هي فرحٌ إلهيٌّ وغبطةٌ سماويّة.

١٠٨٩. تُساعدك المغفرة على تحقيق الشّفاء الدّاخليّ والتّحرُّر من روح الحقد والرّغبة في الانتقام ومشاعر الرّفض.

١٠٩٠. لا يُغلق الله الغنيّ بالمراحم قلبه أمام أيٍّ كان من أبنائه. إنّه ينتظرهم جميعًا دون استثناء، لا بل يذهب في طلبهم، وينزل إلى قعر هاوية رفضهم وعزلتهم وانقساماتهم، ويدعوهم إليه، لا بل يحملهم على كتفه فرحًا، ويرجع بهم إلى البيت العائليّ ويُجلسهم إلى مائدته، ويدور يتردّد في خدمتهم. إنّها فرحة الغفران والمصالحة تتحقّق كلّ يومٍ في الكنيسة في سرّ التّوبة (راجع لوقا ١٢: ٣٧؛ ١٥: ٣-٧).

١٠٩١. هكذا الله يغفر. غفرانه، ليس «محو الخطيئة» أو «غضّ النّظر عنها»، كأنّها لم تكن، بل خلقًا جديدًا كيانيًّا، وإعادة علاقاتٍ جديدة، علاقات محبّةٍ مع الله ومع الأخوة.

١٠٩٢. كما أنّ الله بادرَ وتنازلَ إلينا غافرًا لنا ذنوبَنا ومعاصينا، هكذا يجب على الإنسان أن يُبادِرَ تجاه أخيه الإنسان غافرًا ما صَدَرَ منه عليه. لا تَنتَظِروا أن يُبادرَ الآخر إليكم، بادِروا أنتم بالحريّ نحوه («فإذا قدّمتَ قربانك إلى المذبح وذكرتَ هناك أنّ لأخيك عليك شيئًا، فَدَعْ قربانك هناك أمام المذبح وامضِ أوّلاً فصالح أخاك وحينئذٍ ائْتِ وقدِّم قربانك»، متّى ٥: ٢٣-٢٤)، أَعيدوا فتح الأبواب الّتي أُغلِقَت قديمًا. أنا أعني بالأبواب هنا «القلوب»: حيث لا قيامةٌ بدون غسيل القلوب الّذي لا يتمّ إلاّ بالمغفرة والتّسامح.

١٠٩٣. لقد جاءنا غفران المسيح مجّانًا، غير مقرونٍ بشروط، ويُعبِّر عن رحمة الله اللّامتناهية. لذلك، لا يمكن أن يكون غفراننا لبعضنا البعض مشروطًا، يجب أن يكون مجّانيًّا، كما نصلّي في الصّلاة الرّبّيّة: «واغفر لنا خطايانا، كما نحن نغفر لمن أساء إلينا». إذا كنتَ لا تستطيع أن تغفر لأخيك، فالأفضل ألاّ تقول هذه الآية، فتفقد حينها صلاة الأبانا معناها الأصيل، فتغدو عبارةً عن ترداد كلاميّ لا أكثر ولا أقلّ، ذلك أنّ مغفرتنا يجب أن تكون حقيقيّةً وصادقة ونابعةً من القلب.

١٠٩٤. يقول القدّيس بولس الرّسول في رسالته إلى أهل فيلبّي: «إنّي أستطيع كلّ شيءٍ في الّذي يُقوّيني» (٤: ١٣). صدّقوني إنّ قوّتنا الحقيقيّة تكمن في أن نلبس المسيح في حياتنا، ممّا يجعلنا ندرك أنّ الغفران هو القوّة الحقيقيّة للإنسان المسيحيّ. كلّ يوم هو يومٌ مليءٌ بالأمل والرّجاء في المسيح يسوع. هذا ما يؤكّده المعلّم الإلهيّ في عظته على الجبل: «طوبى للرّحماء، فإنّهم يُرحَمون» (متّى ٥: ٧).

١٠٩٥. إنّ القدرة على المسامحة والمغفرة هي نعمةٌ إلهيّة، وهي ممكنةٌ فقط بمؤازرة الرّوح القدس. فبالعناية الإلهيّة، وبالمسيح الّذي بداخلنا، وبعمل الرّوح، يستنير القلب ويمتلئ سلامًا، فيستطيع أن يرى المسيح الرّحوم في كلّ شخص ويُحبّه، لأنّه يُحِبّ المسيح الّذي رَحِمَه (الابن الشّاطر، زكّا العشّار، المرأة الزّانيّة، المرأة السّامريّة...).

١٠٩٦. السّؤال الّذي يطرح نفسه عليّ بعد كلّ ما تقدّم ذكره عن المغفرة، وهو، في الحقيقة، مدعاةٌ لتأمّلٍ شخصيّ جادّ: هل أكون أنا على مثال العبد الظّالم الّذي نَسِيَ رحمة سيّده، وألقى برفيقه العبد في السّجن؟ (متّى ١٨: ٢٣-٣٥)، أو على مثال الابن الأكبر الّذي لم يستطع مسامحة أخيه، فجاء إلى أبيه مُعاتبًا غاضبًا؟ (لوقا ١٥: ٢٨-٣١).

١٠٩٧. الإنسان حين يعترف، يستدعي النّعمة لتجلي أدران (أوساخ) النّفس وتعيده الى حقيقة صورة الله. وإذ تبدو صورة الله في الإنسان من جديد، يعود الله ليتّخذ المكانة المركزيّة في حياتنا، ليكون «كلاًّ في الكلّ» (١ كورنثس ١٥: ٢٨)، ويصير المسيح «كلّ شيءٍ وفي الجميع» (كولسّي ٣: ١١). وعوضًا عن أن نكون عبيدًا رازحين تحت نير الخطيئة وكثافة «الأنا»، ننعتق لنصير أبناءً «وارثين لله بيسوع المسيح» (راجع غلاطية ٤: ٧).

١٠٩٨. بدون الغفران لا يمكن أن تنجح أيّ شركةٍ إنسانيّة.

١٠٩٩. تعلّمتُ من إلهي أنّ ما من حبٍّ صادقٍ بدون نسيان، وهذا هو الغفران.

١١٠٠. وحده مَن اختبر عمق الغفران الإلهيّ وشموليّته يعرف معناه الحقيقيّ. وحده مَن تلقّى الغفران يعرف أن يهبَه للآخر. وحده مَن رأى نفسه على حقيقتها يعرف أن يغفر. «جميعنا في الموازين إلى فوق» أي أنّنا كلّنا مقصّرون في نظر الله.

١١٠١. إنّ غفراننا يستند فقط على دم المسيح ومحبّته الكبيرة الّتي لا نستحقّها، فلا أحد استحقّ محبّة الله من تلقاء نفسه. لذا، إن كان لا يسعك الغفران، فاسأل نفسك عن علاقتك بالله.

١١٠٢. إنّ دور يسوع يكمن في منحه غفران الخطايا، ولكن هناك احتمال إبعاد الإنسان نفسه عن هذا «المشروع الغفرانيّ المسيحانيّ» المرتبط بالمغفرة للإنسان الآخر، الّتي اعتبرها يسوع الطّريق الرّئيس نحو نيل الإنسان المغفرة من الآب السّماويّ.

١١٠٣. الإنسان بذبيحته إنّما يقدِّم نفسه وكلّ ما لديه لله. ولأنّ الخطيئة تقف حجر عثرةٍ في الطّريق نحو الله، توسَّل الإنسانُ الذّبيحةَ نيلاً للصّفح والمغفرة. إلاّ أنّ ذبيحة الإنسان أعجز من أن تُنقذه من عبوديّته للخطيئة والموت، فقرَّر الله بمنتهى حبّه ورحمته أن يُقدِّم ابنه الوحيد ذبيحةً شاملةً لإنقاذ العالم الّذي قُرِّب فيه ابن الله، بعدما صار ابنًا للإنسان، ذبيحةً لحياة العالم.

١١٠٤. الشّركة مع الله تمرّ عبر مصالحة القريب، هذه المصالحة الّتي لا يؤجّلها أمرٌ ولا حتّى تقديم العبادة لله نفسه. ومن الثّابت أنّ الرّبّ أعطى المغفرة مكان الصّدارة في حياة الجماعة.

٧) لاهوت المصالحة

١١٠٥. إنّ التّوبة هي باطنيّةٌ تُعاش في الدّاخل: إنّها ارتداد القلب؛ إنّها إعادة توجيهٍ جذريّةٍ من الدّاخل لكلّ حياتنا؛ إنّها انسحاق القلب؛ إنّها عمليّةٌ روحيّةٌ داخليّة، عاشها المسيحيّون الأوّلون بدموعٍ غفرانيّةٍ وقلبٍ مُنسحق.

١١٠٦. مسيحيًّا هي ارتداد إلى ديناميّة المحبّة، إلى أصالة الذّات، إلى الله الحيّ. التّوبة تعني أنّ الإنسان دخل إلى ذاته فشعر بخطيئته، ونَدِم عليها وكفّر عنها وأراد الابتعاد عن كلّ المظالم والرّجوع الى صوت الحقّ والضّمير، أراد أن يبقى الله حيًّا فيه. لا يريد أن يموت الله فيه.

١١٠٧. التّوبة هي اشتراكٌ في فصح المسيح (راجع ١ كورنثس ٥: ٧)، المسيح مات على الصّليب من أجل خطايانا، بموتي عن الخطيئة أبذل نفسي عن الله والآخرين.

١١٠٨. الله صالحنا بالمسيح وصالح العالم مع نفسه: «لأنّ الله هو الّذي صالح، في المسيح، العالم مع نفسه، ولم يَحسُب عليهم زلاّتهم، وأودَعَنا كلمة المصالحة» (٢ كورنثس ٥: ١٩). كان هذا حدث الفصح: موت المسيح وقيامته. الإنسان التّائب يشترك في فصح المسيح الخلاصيّ. تنعتق طبيعته البشريّة من ضعفها ليأخذ طبيعة الله وطبيعة الحياة.

١١٠٩. لقد أَدخلت الخطيئة الإنسان إلى الموت (راجع رومة ٥: ١٢)، أمّا المسيح، فبالتّوبة يُدخل الإنسان إلى حالة القيامة والحياة.

١١١٠. هذه المصالحة هي ثمرة موت يسوع الّذي ذُبح عنّا. ذاك الّذي لم يعرف الخطيئة صار ذبيحةً عن الخطيئة من أجلنا لنصير به أبرارًا عند الله، صالحين ومقدَّسين. فيسوع هو حمل الفصح، وعبد الله المتألِّم الّذي أُسلِمَ إلى الموت من جرّاء زلاّتنا وأُقيم من أجل تبريرنا (راجع رومة ٤: ٢٤-٢٥).

١١١١. بقدرما يُقِرُّ المسيحيّون لله بعطيَّة المصالحة الّتي قبلوها، يُصبحون شهودًا حقيقيّين لهذه المصالحة في حياتهم اليوميَّة؛ والمصالحة مع الله تُبرز المصالحة مع الإخوة داخل الجماعة المسيحيَّة أو في المجتمع البشريّ. هذه المصالحة هي في الوقت ذاته عطيَّةٌ من الله، ومسؤوليَّة المسيحيّين العائشين في العالم.

١١١٢. المصالحة هي عطيّة الله المُغيِّرة للإنسان الّتي تدفعه في مسيرة الحياة الجديدة. في هذه الحياة الجديدة يكون الرّوح القدس بمثابة قوّةٍ وديناميكيّةِ هذا التّغيير (٢ كورنثس ٣: ١٨) الّذي ما هو إلاّ حدثٌ مستمرّ (راجع رومة ١٢: ٢)، وهو يُشير إلى التّجديد والخليقة الجديدة: «إذن، إنْ كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقةٌ جديدة؛ فالقديم قدِ اضمحلّ، وكلُّ شيءٍ قد تجدّد» (٢ كورنثس ٥: ١٧).

١١١٣. هذا التّجديد كمنهجٍ جديدٍ للوجود يقوم على علاقةٍ جديدةٍ للإنسان مع الله، ومع ذاته، ومع أخيه الإنسان وأيضًا مع كلّ الخليقة. فالمصالحة هي طريقة الوجود الجديدة الّتي يمنحها لنا الله (راجع تيطس ٣: ٣-٧).

١١١٤. أستشهد بمقطعٍ من حياة **القدّيس سيصويه الكبير** يتكلّم به عن التّوبة. «بعد حياةٍ طويلةٍ حافلةٍ بالنُّسك والتّوبة، وهو على فراشِ الموت، والرهبان حوله يحيطون به، لاحظوا أنّ وجهَه قد أشرقَ فجأةً واستنار، فسألوه: ما لك أيّها الأب سيصويه؟ فأجاب: إنّني أرى أبانا القدّيس أنطونيوس الكبير. ثمّ لاحظوا بعد فترةٍ أنّ وجهَه قد ازداد إشراقًا وضياءً، فسألوه: مَنْ ترى الآن يا أبانا؟ فأجاب: أرى الرّسلَ القدّيسين. بعد فترةٍ أبصروا وجهَه يزداد إشراقًا ونورًا ولمعانًا، فسألوه: والآن مَنْ ترى أيّها الأب؟ فقال: أرى سيدتَنا مريمَ العذراء والدةَ الإله. بعدها شاهدوه يُتَمتِمُ بشفتَيه كأنّه يتكلّم مع أحدٍ، فسألوه بماذا تتكلّم! فأجاب: **إنّي أتضرَّعُ إلى العذراء والدة الإله أن تتشفَّعَ لي لئلاّ أموتَ الآن، بل أن أبقى زمنًا آخر في الحياة، لكي يتسنّى لي أن أبدأ بالتّوبة**».

• صلاة

أنتَ يا ربّ مَن تواضعتَ ونزلتَ من عرش أبيكَ لتُخلّص نفسي. اِقبل اليوم عَودَتي إليكَ، واغسِلني من دَنَس الكبرياء الروحيّ. إلهي السّموح، خطئتُ إليكَ وحدَك بعدم تواضعي وبشموخ روحي. فجهلي قد أودى بي إلى أن ألتمِسَ مجدًا فاسدًا... اصفح عنّي يا ربّ. سامحني لأنّي سبّبت الجرح والأذى لأناسٍ حولي... لم أعِ، يا ربّ، أنّ كبريائي سيبعدني عنكَ ويجعلني أعمىً لا أرى سوى نَفسي السّقيمة. جهِلتُ ضعفاتي وتغاضيتُ عن وداعتك الّتي زرعتها فيّ سابقًا. أضرِمني بنارك من جديد، فأُدرِك الصّلاح والخشوع وعمق الحياة فيك. أدركني بحقّك الإلهي، إنّي فقدتُ البصروالسّمع واللمس. كوّني إناءً جديدًا رحبًا بالمحبّة والسّلام. عُدتُ إليكَ يا ربّ.. فلاقِني على باب السّماح والغفران.

أمجّدك في كلّ حين.

آمين.

الباب السّابع عشر

مسلكيّة الحياة المسيحيّة

إنّ هذا الباب هو الدّليل لمنهجيّة السّلوك المسيحيّ، فيعكِسُ لنا المسلكيّة المسيحيّة بحسب الكتاب المقدّس وأيضًا بحسب القانون الكنسيّ، ويعكِسُ لنا أهمّية اتّباعهم المُستمرّ. وإنّه يدقّق في نوعيّة التّصرّف المسيحيّ في المجتمع وفي الحياة ا لشّخصيّة .

١) المسيحيّة مسلكيّةٌ حياتيّة

١١١٥. المسيحيّة ليست دينًا بالمفهوم الدّينيّ النّاموسيّ، القانونيّ والتّشريعيّ فحسب، بل إنّها حياةٌ جديدة، مسلكيّةٌ حياتيّةٌ يوميّةٌ يحياها المسيحيّ على ضوء التّأمُّل والصّلاة بكلمة الله.

١١١٦. فالمسيحيّة حياةٌ تَنبت من الحقّ. يسوع المسيح هو الطّريق والحقّ، كما أنّه الحياة.

١١١٧. إنّ التّقديس الظّاهر يأتي من تدريب الإيمان القلبيّ، وإلاّ فهو مجرّد ثوبٍ خارجيّ. والأعمال الصّالحة هي ثمرة الإيمان الحقيقيّ الّذي هو إيمانٌ مُخلِصٌ بالحقّ. كلّ حقيقةٍ تقود نحو القداسة.

١١١٨. هذه هي العطيّة الّتي يجب علينا أن نشكر الله عليها: أنّه قدّم لنا نعمة التّبني من جديد. لذا، على المسيحيّ أن يتعلّم كيف يحيا كابنٍ للآب، قد جدّده الابن، ويُحييه الرّوح القدس.

١١١٩. عندما يضع الله في قلوبنا روح ابنه فإنّه يجذبنا إليه من داخل نفوسنا ومن عمق كياننا. ونعمته الّتي يغدقها علينا هي البهاء الإلهيّ الّذي يُشرق في قلوبنا ليقودنا إليه وإلى العمل بحسب إرادته.

١١٢٠. فلا إرغام ولا كره ولا شرائع تُفرض علينا من الخارج، بل حياة بنوّةٍ ومحبّةٍ في الرّوح القدس، ذلك أنّ الحياة المسيحيّة ليست مجرّد خضوعٍ لوصايا وشرائع تُفرَض على الإنسان من الخارج، إنّما تنبع من داخل قلب الإنسان، بعد أن يتجدّد بنعمة يسوع المسيح ويمتلئ من روحه القدّوس.

١١٢١. كُنْ أنت ذلك الإنسان الّذي يسلك بحسب الرّوح، كما قال بولس الرّسول: «إنْ كنّا نحيا بالرّوح، فلنسلكنّ أيضًا بحسب الرّوح» (غلاطية ٥: ٢٥).

١١٢٢. إنّ سلوكنا بحسب الرّوح القدس الّذي أرسله إلينا يسوع المسيح هو الّذي يُثمر فينا محبّةً وفرحًا وسلامًا.

١١٢٣. الحياةُ المسيحيّة عبارةٌ عن انفصالٍ ورغبة: اِنفصالٍ عن العالم والخطيئة، ورغبةٍ عميقةٍ في الله، وثمرة هذه الرّغبة هي السَّلام في المحبَّة، هي الحبّ.

١١٢٤. إنّ الحياة المسيحيّة هي هِبَةٌ من الله، فالابن يَهَب لنا روحه لكي نحقِّق نحن أيضًا دعوة البنوّة الّتي نحن مدعّوون إليها. والسّلوك المسيحيّ هو تجاوبٌ مع نعمة الله. يجعل الإيمان واقعًا في حياتنا اليوميّة وعلاقاتنا المختلفة. وفي تعليم المسيح، الّذي أولى فيه اهتمامًا كبيرًا لقلب الإنسان، ينبع السّلوك الإنسانيّ من داخل الإنسان، من ضميره.

١١٢٥. ويندرج تجاوب الإنسان في إطار تاريخ العلاقة الشّخصيّة مع الله، وهي تتمحّور حول عمل الله الخلاصيّ والمجّانيّ في تاريخ الفرد والمجتمع. فالإنسان يجد نفسه مدعوًّا إلى التّجاوب مع مبادرة محبّة الله، وذلك من خلال أفعاله وأقواله وسلوكيّاته تجاه الله وتجاه القريب.

١١٢٦. الله حرّيّة، وشريعة الله هي للحرّيّة وليس للعبوديّة، وهي تتطلّب تجاوبًا حرًّا ومسؤولاً، لأنّ الله يُحِبّ الإنسان ويحترم حرّيّته، ولا يريده أداةً عمياءَ غير مسؤولة وغير حرّة، بل شخصًا كريمًا وقادرًا على الحبّ والعطاء. وبالتّالي الحرّيّة هي ولادة الذّات ولادةً مستمرّةً أمام الله والآخرين، تبدأ باتّباع الوصايا وتنتهي بالحبّ.

١١٢٧. إنّ الإيمان الحقيقيّ هو شهادةٌ حيّةٌ ليسوع (مسلكيّةٌ حياتيّةٌ مسيحيّةٌ حقيقيّة) واعترافٌ شخصيٌّ بقيامته من بين الأموات، من جهة، وقيامته في قلوبنا وحياتنا، من جهةٍ أخرى، تكون نتيجته الخلاص الذّاتيّ للإنسان المؤمن.

٢) المسيحيّ، سفيرُ المسيح على الأرض

١١٢٨. على أبناء الله التّحلّي بالصّبر والتّواضع واللّطف والتّسامح ونصرة الحقّ ومحاربة الظّلم لا بالسّيف، بل بالمحبّة الصّادقة، ذلك أنّ المحبّة هي أعظم سجايا البشريّة، وأعظم قوّةٍ عرفها الإنسان، لأنّها تعني الخدمة الخاليّة من الأنانيّة والحقد والكبرياء...

١١٢٩. نحنُ مُرسَلون لنعكِس صورةَ المسيح للنّاس: إذ نحنُ مُراقبين من قبلهم، وتأكّد أنّهم يُراقبون كلّ كلمةٍ تقولها، كلّ تصرُّفٍ تتصرّفه، نعم العيون مفتَّحةٌ علينا وبدقّة، إنّنا تحتَ المجهر.

١١٣٠. بواسطة المعموديّة، الّتي تَلِدُنا لحياةٍ جديدة، يسكن الرّوح القدس فينا ويُلهب عقلنا وقلبنا: فهو الّذي يقودنا للدّخول في صداقةٍ أكثر عمقًا مع المسيح. هو روح الحبّ إذًا، الّذي يُحيي الرّسالة: يدفعنا للخروج من ذواتنا «للذّهاب» والتّبشير.

١١٣١. إنّ المسيح القائم من الموت أرسل تلاميذه ليشهدوا لحضوره المخلِّص أمام كلّ الشّعوب، لأنّ الله بحبُّه الفيّاض يريد أن يَخلُص الجميع وألاّ يهلك أحد. أُنظروا من حولكم: كثيرون هم الشّباب الّذين فقدوا معنى وجودهم. اِذهبوا! المسيح بحاجةٍ لكم أيضًا. دعوا حبّه يغمركم وكونوا أدواتٍ لهذا الحبّ الكبير ليصل إلى الجميع وخاصّة «للبعيدين». لنفتح أبواب قلوبنا للجميع ولنتحاور ببساطة واحترام.

١١٣٢. أحبّائي الشّباب، اسمحوا لقوّة روح محبّة الله أن تقودكم، دعوا هذا الحبّ ينتصر على نزعة الانغلاق في عالمكم، تشجّعوا للخروج من ذواتكم «للذّهاب» نحو الآخرين لتقودوهم نحو اللّقاء بالله.

١١٣٣. لقد أرسل يسوع تلاميذه بهذه الوصيّة: «اِذهبوا في العالم كلّه، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين. فمَن آمن واعتمد يخلُص» (مرقس ١٦: ١٥-١٦). فالبشارة هي حمل بشرى الخلاص السّارة وهذه البشرى هي **شخص يسوع المسيح**.

١١٣٤. إنّ البشارة تنطلق من اللّقاء الحيّ والشّخصيّ بالرّبّ يسوع: مَن اقترب منه واختبر حبَّه يريد فورًا أن يشارك جمال هذا اللّقاء والفرح الّذي يولد من هذه الصّداقة.

١١٣٥. إنّنا سفراء الله أمام سحابة الشّهود الّتي تراقبنا، والّتي تتحدّث عنها رسالة العبرانيّين عندما تقول: «لذلك نحن أيضًا، إذ يُحدِق بنا مثل هذا السّحاب الكثير الكثيف من الشّهود، فلنطّرِح عنّا كلّ ثِقَل الخطيئة الّتي تكتنفنا، ولنَسعَ بثباتٍ إلى الميدان المفتوح أمامنا» (عبرانيّين ١٢: ١).

١١٣٦. إنّنا سفراء الله أمام الله نفسه: فهوَ يُراقب تصرّفاتنا وأقوالنا، وأمانتنا على الوزنات الّتي وضعها بين أيدينا، والّتي سنحاسب عليها عندما نقف أمام كرسي المسيح، فهناك مَن سيُدعى أكبر في ملكوت السّماوات، وهناك أيضًا مَن سيُدعى أصغر في ملكوت السّماوات، إنّنا نجري أمامه لكي ننال إكليلاً لا يفنى كما قال القدّيس بولس.

١١٣٧. إنّنا سفراء الله أمام مملكة الظّلمة، والّتي تحاربنا ليلاً ونهارًا، لكي تُفشل كلّ خطط الله لنا، ولكي تكون مملكة النّور، أي ملكوت السّموات، ضعيفةً أمامها.

٣) مقوّمات التّربيّة المسيحيّة

١١٣٨. إنّ الكنيسة تشجّع التّربية على مسؤوليّةٍ إيكولوجيّةٍ تصون «الإيكولوجيّا الإنسانيّة» الأصيلة وتؤكّد باقتناعٍ متجدِّدٍ عدم المساس بالحياة الإنسانيّة في مختلف مراحلها وظروفها، كرامة الشّخص ورسالة الأسرة اللّابديل لها حيث التّربيّة على محبّة القريب واحترام الطّبيعة. لا بدّ من حماية الإرث البشريّ للمجتمع، إرث القيم الَّذي يجد أصوله في الشّريعة الأدبيّة الطّبيعيّة، أساس احترام الشّخص البشريّ والخليقة.

١١٣٩. حين تظهر أخلاقيّاتنا كشرائعَ «مسيحيّةٍ»، على الإنسان حفظها وتطبيقها لآمادٍ طويلةٍ دون الشّعور منه بأنّها تطابق حياته فعلاً وضروريّة لها. لذلك تبدو هذه الأُطُر والوصايا الأخلاقيّة «سجنًا». وهذا ما يجعل هذه المبادئ تسقط. عندها يسرع المهتمّون والغيّورون إلى إيجاد حلولٍ معتمدين على تقويّة الوعظ والتّعليم الدّينيّ والتّأليف وغيرها مثلها؛ وكأنّها ستكون رادعًا أمام تدهور الأخلاق.

١١٤٠. إنّ الأنانيّة والتّبجّج اللّذين نظنّ أحيانًا أنّهما في الآخرين، هما في الواقع، العكس تمامًا لحبّ الذّات الحقيقيّ، لقبول الذّات وللتّعبير عن الاغتباط بما يكون الإنسان عليه.

١١٤٢. إنّ الإنسان الّذي لا يُحِبّ نفسه ولا يُقدِّر ما أتاه الرّبّ من مواهب وعطايا ونِعَم، لا يستطيع أن يُحِبّ الآخرين ولا أن يُقدِّر فيهم مواهبهم وعطاياهم ونِعَمهم. ولكن حِذار على هذا الإنسان أن يُحِبّ نفسه وكأنّه مركز العالم، ساعتها يكون في حالة الأنانيّة والكبرياء.

١١٤٣. علينا كمؤمنين أن ندرك تمامًا أنّ الخالق قد عيّن نظامًا للكون. لماذا تريد الخليقة أن تستغلّ خالقها، محاولةً أن ترفع من شأنها لكي تتعادل أمامه؟ هذه هي خطيئة الكبرياء الّتي نتج عنها الحزن واللّعنة.

١١٤٤. السُّلطَة في الكتاب المقدّس ما هي إلاّ خدمةٌ انسحاقيّة، بدون كرامة. إنّما، نحن البشريّين، نحيا لكي نتسلّط ونحكُم لأنّ الكبرياء يُعمينا ويُأجِّج فينا حُبّ التّملّك.

١١٤٥. السّلطة تأتي من الرّبّ وعلى الإنسان أن يُسِرَّ قلب الرّبّ عند استعماله لهذه السّلطة. الله يُعطينا سلطةً للانطلاقة والذّهاب لكي ندوس الحيّات والعقارب.

١١٤٦. فإذا شَهِدتَ بفمِكَ أنّ يسوعَ ربٌّ، وآمنتَ بقلبِكَ أنّ الله أقامَهُ من بين الأموات، نلتَ الخلاص (رومة ١٠: ٩). ما أجمل أن يتحوّلَ لسانُنا من لسانٍ يهتمّ بقتل الآخرين وتبيان ضعفهم ونقائصهم إلى لسانٍ يُمجِّدُ الله في الآخرين ويُظهِرُ إيجابياتهم وإشراقاتهم. اِجتهدوا يا إخوتي في حفظ لسانكم من مكايد العدوّ وأخلاقه.

١١٤٧. عندما تشعُر بالوحدة وأنّه لا يوجد أيّ أحدٍ حولَكَ للتّكلّم معه أو لسماعك، أُنظُر إلى الأعلى لأنّك حظيتَ بإلهٍ يُحبّك أكثر من أيّ شيءٍ آخر. تذكّر الله في لحظات السّعادة؛ سبّح الله في لحظات التّعاسة؛ أُطلب الله في لحظات الصّمت؛ أُعبد الله في لحظات الألم، وثِقْ بالله كلّ لحظة.

١١٤٨. يا رب! أضئ بنورك طريقي، وأشرق بحبّك في قلبي، وساعدني أن اختار في كلّ يوم: أن أُخضِعَ لك إرادتي، وأَرفع إليك أمري، كي أستطيع أن أتحلّى بالشّجاعة وأتمسّك بالأمانة وأسلك بالاستقامة.

١١٤٩. مثلما صُلِبَ المسيح عنّي، فهو قادرٌ أيضًا أن يَصلب كلّ صعوباتي وضُعُفاتي ويُسمِّر على الصّليب كلّ خطاياي وجهالاتي، أي إنسانيَ القديم، داعيًا إيّايَ إلى اختبار فجر القيامة الّذي يجب أن يظهر في حياتي، بحيث يُصبح قلبي وكياني كلّه شمسًا ساطعةً بأنوار المسيح القائم، شمسًا أبديّة.

١١٥٠. نحن لا نستطيع أن نتعلّم كلمة الله إلاّ بإلهامٍ من الرّوح القدس. الإنسان الّذي يريد أن يتعمّق في كلمة الله عليه أن يختبر ويعيش خبرة التّوحّد وخبرة الابتعاد عن العالم. فعلى الرّغم من كون القدّيس بولس الرّسول فرّيسيًّا ومتبحِّرًا في الكتب المقدّسة، إلاّ أنّه بعد ارتداده على طريق دمشق، عاش ثلاث سنين يتهيّأ فيها للرّسالة الجديدة الّتي فرزه لأجلها المسيح الممجَّد (راجع غلاطية ١: ١٥-١٨).

١١٥١. الطّاعة مُهمّة، فإنّ المسيح نفسه أطاع حتّى الموت، الموت على الصّليب. هذا ما قاله بولس في رسالته الفريدة والبليغة إلى أهل فيلبّي؛ وهنالك كلمةٌ جميلةٌ جدًّا في الرّسالة عينها: «يسوع أخلى ذاته آخِذًا صورة عبدٍ»، هذه الكلمة الّتي تعبّر عن طاعةٍ عمياء لأنّ الله الآب مصدرها، وعن استسلامٍ كلّيّ، وعن تواضعٍ وانسحاق. كم نحن محتاجون لهذا النّوع من الطّاعة والتّواضع؛ تجرّد يسوع من ذاته، وكأنّ الله الكلمة تنازل عن ما له في السّماء ونزَل ليتّخذ طبيعتنا البشريّة السّاقطة ليُقيمها معه.

١١٥٢. مَن ينظر إلينا يستطيع أن يرى مجد الرّبّ الحيّ في حياتنا، يرى نور القيامة. يرى ابتسامةً تعبّر عن فرحٍ دائمٍ بالرّوح القدس (بالخلاص). وهنا لا بدّ أن نستذكر ما قاله أحد الفلاسفة: «حين أرى فرح القيامة على وجوه المسيحيّين، يُمكنني ساعتئذٍ أن أكون مسيحيًّا».

١١٥٣. أيّها الرّبّ الإله يسوع المسيح، يا مَن قمت من بين الأموات منتصرًا، قُم في حياتنا لنستطيع أن نقوم من جهلنا وحقدنا وكبريائنا وأنانيّتنا ولساننا البطّال. قُم في قلوبنا لنقدّم لك الشّكر الواجب بأعمالنا الصّالحة. ما أجمل أن نعيش الإيمان والانتماء والهُويّة. باركك الله جميعًا.

١١٥٤. الله يسهر علينا من علياء سماواته، يسهر على عائلاتنا وعلى أحبّائه. وبالتّالي فإنّ المطلوب منّا اليوم هو أن نسهر على ذواتنا، على أفكارنا، على أقوالنا الَّتي يجب أن تكون أقوال النّاعمة الخارجة من فمنا على مثال معلّمنا الحبيب (لوقا ٤: ٢٢)، بدل من أن تكون أداةً حادّةً نقتل بها الآخرين. كم من لسانٍ يلعن الآخرين؟ كم من لسانٍ يُثرثر على الآخرين؟ نلاحظ أنّ اللّسان الَّذي خُلِقَ لكي يُمجّد الله ونشكره على كلّ ما قدّمته لنا من خيراتٍ وعطايا، قد فَقَدَ قيمته التّسبيحيّة والصّلاتيّة (راجع يعقوب ٣: ١-١٠).

٤) بين إرضاء الله وإرضاء النّاس

١١٥٥. علينا ألّا نهتمّ بإرضاء النّاس، إنّما بإرضاء ضميرنا والله. لا ترضوا النّاس لأنّكم مهما فعلتم فإنّهم لن يرضوا، ولكنّكم بأعمالكم الصّالحة تنالون رضى الله؛ اِبتغوا مجد الله على مجد النّاس؛ آثروا مجد الله على مجد النّاس، والمسيح يفتح لكم أبوابه ويقول لكم: «ثقوا! أنا هو. فقد غلبتُ العالم».

١١٥٦. الإتّكال على البشر يُسبِّب لك خيبات أملٍ تتجدّد في كلّ يوم، أمّا الإتّكال على الله فهو السّبيل الوحيد الَّذي يُحرّرك ويمنحك إنسانيّةً أكثر لمعانًا وإشراقًا.

١١٥٧. لا تضع ثقتك في البشر ولا تتّكل عليهم ولا تجعل منهم جزءًا من حياتك، لأنّهم لا يُقدّرون ما أنت مانحهم وواهبهم؛ إنّهم متقلّبون في آرائهم وأفكارهم وسلوكهم، فقد يُمجِّدونك اليوم ويطالبون بصلبك غدًا. ضَعْ ثقتك وحياتك بيد الله الأمينة، فهو الوحيد القادر على أن يُحرّرك ويأخذ بيدك لتكون أفضل وأفضل.

٥) الآخر، صورة الله

١١٥٨. المحبّة الحقيقيّة هي خروجٌ مستمرٌّ من الذّات نحو الآخرين في عمليّةٍ لا تنتهي؛ والانطواء موتٌ لا يُحرّرنا منه سوى الحبّ.

١١٥٩. إن أردنا أن نكون مسيحيّين حقيقيّين، فإنّه علينا ألّا نفرح بظُلمِ الآخر، وألّا نفرح بأنّ الآخر بعيدًا عنّا وفي فشلٍ مُستمرّ، بل إنّ الّذي يُريدُ أن يكونَ مسيحيًّا، عليه أن يضع يده بيد الآخر ليقيمه من عثرته. الإنسان القوّيّ مسيحيًّا هو الإنسان الّذي ينظُر إلى الضّعيف ويُقيمه ويقوّيه.

١١٦٠. ليست المحبّة إلاّ امتدادًا مستديمًا نحو الآخرين (راجع ١ كورنثس ١٣: ٥). وإنّ بذل الذّات الّذي قام به المسيح هو قمّة المحبّة للقريب، الّتي يعجز أيٌّ من البشر عن بلوغها. وهو إذ بذل ذاته جعل لنا من نفسه قُدوةً (١ بطرس ٢: ٢١).

١١٦١. أشكرك أيّها الرّبّ يسوع لأنّك بذلتَ نفسك على الصّليب من أجلنا، وحرّرتنا من عبوديّة الخطيئة والموت، وعلّمتنا أن نبذل ذواتنا في سبيل إخوتنا.

١١٦٢. الرّوح القدس هو الّذي يوقظ في النّفس جوابًا على نداء محبّة الآب، فتزداد محبّةً لله والآخرين. لأنّ الّذي يشعر بحضور الله يمتلك شعورًا بالآخرين، فيرى الله فيهم، ويراهم في الله.

١١٦٣. إلهي! الآخر الّذي أمامي هو صورتك. فأعطني أن أنظر إليه هو، مُتخطّيًا تعاطفي معه أو نفوري منه، مُتجاوزًا أفكاري وأفكاره، تصرّفاتي وتصرّفاته. هَبني أن أُعاين وجهك بالذّات في أعماق قلبه، أيّها المسيح القائم، الذي يدعوني في وجه القريب، ويبتسم لي. آمين

٦) يسوع هو ضمانتنا الحقيقيّة

١١٦٤. الإنسان المعاصر مريضٌ ودواؤه الوحيد الشّافي هو الرّبّ يسوع المسيح «الماء الحيّ»، الّذي وحده يستطيع أن يُعيد للإنسان المُضطرب والقَلِق، نفسيًّا وروحيًّا، **براءة أبناء الله والحرّيّة الحقيقيّة بالرّوح القدس.**

١١٦٥. نظر المسيح إلى الشّاب الغنيّ فأحبّه، فقال له: «واحدةٌ بَقِيَت عليك: اذهب. بِعْ كلّ شيءٍ لك، وأعطه للفقراء فيكون لك كنزٌ في السّماء. ثمّ تعال اتبعني» (مرقس ١٠: ٢١). ولكنّ الشّاب، الّذي يُمثِّل شريحةً واسعةً من النّاس المتعبِّدين للآلهة المزيّفة، لم يثق بكلام يسوع. خاف لأنّه كان قد وضع في الثّروة ضمانته. وذهب حزينًا، لأنّه كان غنيًّا (مرقس ١٠: ٢٢).

١١٦٦. هناك صورتان للمُخلّع (متّى ٩: ١-٨): الأولى، تُشير إلى العَطب البشريّ، وهو الإنسان العاجز عن السّير؛ والثّانية، تُشير إلى المرض الرّوحيّ، النّاتج عن جُرح الخطيئة العميق. هذا يعني أنّني أستطيعُ الوقوف ولكنّني، في الحقيقة، مُخلّعٌ، أنّني أمشي ولكنّني عاجزٌ عن السّير مع المسيح... أمشي في طرقٍ مختلفةٍ وفي زوايا مختلفةٍ وفي أزقّةٍ مختلفة، وأستطيع أن أمشي من هنا إلى هناك، وإنّما أعجز كلّ العجز عن أن أسيرَ مع الله، وعاجزٌ عن أن آخذ قرارًا شُجاعًا في بدء مسيرة التّلمذة والاتّباع ليسوع المسيح.

١١٦٧. «قُم احمل فراشك وامشِ!». قُم فعلٌ كتابيٌّ يُعبِّر عن سلطان يسوع الإلهيّ، ويعني: لا أريدك أن تبقى مُنغمِسًا في خطيئتك! لا أريدكَ أن تبقى مُتضعضعًا في إيمانك وثقتك بالرّبّ! لا أريدكَ أن تبقى مريضًا، لا أريدُكَ أن تتلذّذ بخطيئتك وبعبوديّتك المُرّة! أريدكَ أن تنهض، أريدُ أن أرى صورة الله من خلالك ناهضةً وقائمةً من الأموات ومُرمَّمة! أريدُ أن أراكَ إنسانًا حيًّا، إنسانًا مُمَجّدًا، إنسانًا نيِّرا، لكي يضيء لك نور المسيح على وجهك وتكونَ علامةً فارقةً وشهادةً حيّةً لهذا النّور الإلهيّ في حياتك الجديدة بالمسيح!

١١٦٨. كلّ إنسانٍ يتبع ثروات الأرض يبقى ضائقًا، ومُتألّمًا، ومُضطربًا ولا يستطيع أن يُعبّر عن نشوة الظّفر والانتصار، لأنّ المسيح ليسَ في حياته. إنّ المسيح هو نشيدُ انتصارنِا، المسيح هو نشيد غلبتنا، المسيح هو نشيد قيامتنا، وبدونه لا نستطيع حتّى أن نقول بأنّنا مسيحيّون حقيقيّون.

١١٦٩. يُفكِّر الكثيرون بأنّ ضمانتهم في هذه الحياة هي خيراتهم وممتلكاتهم وأموالهم وحسابات بنوكهم و... ويتناسَون أنْ لا قيمةً حقيقيّةً لكلّ هذه الأشياء الّتي ستكون عاجزةً كلّ العجز يومًا ما عن تقديم المساعدة لنا. فعلى سبيل المثال، حين يُصاب إنسانٌ ما بمرضٍ معيّن، ويأتي الأطبّاء ليقولوا له بأنْ ليس هناك أيّ أملٍ طبيٍّ بشفائك، ماذا يقول لهم: أدفع لكم كلّ ما أملك مقابل صحّتي؛ ولكنّهم سيقولون له: الأمر ليس بالمال، الأمر أنّنا فعلنا كلّ ما نقدر عليه، والأمر الآن بيد الله.

١١٧٠. هذا ما أكّده القدّيس بولس في معرض كلامه عن «صورة المسيحيّ الغنيّ»: «أَوصِ أغنياء هذا الدّهر أنْ لا يستكبروا، ولا يتوكّلوا على أموالٍ لا ثباتَ فيها، بل على الله الحيّ الّذي يؤتينا كلّ شيءٍ بوفرةٍ، لنتمتّع به» (١ تيموثاوس ٦: ١٧).

١١٧١. في خِضمّ حياته، غالبًا ما يتناسى الإنسان، عن جهلٍ أو عن معرفة، أنّ ضمانته الوحيدة هو الرّبّ يسوع: إنّه تأمين حياتنا، وهو البنك الّذي فيه ندخّر كلّ أعمالنا الصّالحة لنجدها أمامنا في ما بعد في الحياة الأخرى، وهو الطّبيب الحقيقيّ الّذي يستطيع أن يشفيَ أمراضنا كلّها، الجسديّة والنّفسيّة والرّوحيّة. ولكن، لإتمام كلّ ما ذكرت، ينقصنا، أيّها الإخوة، التّصميم والإصرار والمثابرة، وينقصنا بالأخصّ الإيمان الحقيقيّ بالرّبّ القائل: «وكلّ ما تسألونه في الصّلاة بإيمانٍ تنالونه» (متّى ٢١: ٢٢).

١١٧٢. هذا ما يميّز يسوعنا الطّبيب؛ إنّه أملنا، إنّه رجاؤنا، هذا هو مسيحنا العذب الّذي، ونحن في شدّة مشاكلنا، وفي ضعف قدراتنا الّتي لا نستطيع أن نحرّك بها ساكنًا، وفي قمّة عجزنا، يأتي ويقول لنا: ثق يا بُنيّ، مغفورةٌ لك خطاياك! لماذا ما زلتَ قابعًا في سُباتِكَ؟ لماذا ما زلت قابعًا في خطيئتك وعبوديّتك المُرّة وأنا مَن جئتُ لأُعطيَكَ الحياة والحياة بوَفرة؟

١١٧٣. ليس من العدل القول إنّ الخاطئين في جهنّم محرومون من حبّ الله... ولكنّ الحبّ يفعل بطريقتين مختلفتين: يصير عذابًا في الهالكين وفرحًا في المغبوطين.

٧) باقةٌ منتقاةٌ من زهور المسيحيّة

١١٧٤. **السّلام:**

١. إنّ سلام المسيح هو سلامٌ أبديّ، ليس من قوّةٍ تقدر أن تنزعه عن الإنسان المتمسِّك به. إنّه عمل النّعمة الغنيّة الّتي تحفظ الإنسان في القداسة والبِرّ.

٢. سلام المسيح هو الثّقة والانتصار. عندما نثق بالمسيح نغلب، عندما نثق بالمسيح ننتصر، عندما نثق بالمسيح تصبح حياتنا ذات قيمةٍ إلهيّةٍ في ملئها الإنسانيّ، وليسَ في جزءٍ منها إنسانيّ والآخر عدائيّ، إنّما تصبح حياتنا كلّها وكأنّ إنسانًا قد لبِسَ حقيقةً المسيح بشخصه.

٣. إنّ سلام المسيح هو من جهةٍ عطيّةٌ مجّانيّةٌ وهبنا إيّاها السّيّد المسيح بمنحه إيّانا روحه القدّوس لنحيا به، ولكنّه من جهةٍ أخرى عملٌ دائمٌ يقتضي منّا جهدًا متواصلاً لنسلك على الدّوام بحسب هذا الرّوح الّذي نحيا به.

٤. سلام المسيح لن يتحقّق في العالم دون إسهامنا. وإسهامنا يكون بقدر انفتاحنا على عمل الرّوح القدس فينا.

١١٧٥. **الحرّيّة:**

١. إنّ الله يحترم إرادة الإنسان، وفي وسع الإنسان أن يختار طريقه الّتي تناسبه، ولكنّه يكون مسؤولاً عن عواقب اختياره. لذلك أكّد آباء الكنيسة القدّيسون **أنّ الخطيئة هي أكبر شاهدٍ على حرّيّتنا.**

٢. ليست الحرّيّة الحقيقيّة في الانجراف وراء ميول النّفس وأهوائها، بل هي في الانضواء الكامل تحت راية المسيح والاعتراف الصّريح بقدرته الإلهيّة اللّامتناهية وبأنّه الرّبّ والمخلّص الوحيد الّذي غلب العالم.

٣. **التّحرّر من كلّ شرٍيكون بالطّاعة لله ومشيئته.** هذا العالم هو أرض معركةٍ بين قبول الخيروالشّرّ مع تشديد الكنيسة على أنّ العالم كخليقة لله ليس شرًّا، إنّما الشّرّهو عمل الشّيطان الَّذي هو قوّةٌ متطفِّلةٌ تهاجم العالم. إلاّ أنّها ستُدمَّربقوّة الصّليب وقيامة السّيّد.

١١٧٦. **العمى البشريّ والرّؤيّة الرّوحيّة:** كم هو جميلٌ أن نكون عميانًا بالنّسبة لهذا العالم، ولكنّنا نستطيع رؤية مشيئة الله في حياتنا، على حدّ تعبير القدّيس بولس الرّسول: «نحن جُهّالٌ من أجل المسيح» (١ كورنثس ٤: ١٠).

١١٧٧. الرّؤيّة الرّوحيّة أو الدّاخليّة هي الرّؤيّة الّتي تُمَكّن الإنسان التّقرُّب من الله ومن حضرته الإلهيّة، وهي الّتي تسمح للإنسان برؤيّة صفات ورموز الله الخفيّة عن العين الطّبيعيّة.

١١٧٨. **البصيرة** هي أن نستطيع أن نؤمن بيسوع المسيح من خلال الرّوح القدس. أبناء الله لا يمكن أن يكونوا إلّا أبناء النّور والنّهار، والقيامة هي عيش النّهار الَّذي لا مساء له.

١١٧٩. **أعين الإيمان:** يحتاج المرء لأن تكون له عَينا الإيمان ليستطيع أن يتعرّف إلى الشّخص، ليس فقط على الشّخص الإلهيّ، بل أيضًا على كلّ شخصٍ بشريٍّ مخلوقٍ على صورة الله.

١١٨٠. الحجر العظيم: لم يوضَع الحجر الكبير والعظيم جدًّا على باب القبر إنّما على باب القلوب (الأنانيّة، الكبرياء، السّلطة، الجاه، المال، الملذّات...)... هذا الحجر الَّذي وضعناه نحن بإرادتنا، ليس لنا أن ندّعي بأنّ الشّيطان قد وضعه لنا... هل أجبرك الشّيطان أن تضع هذا الحجر على باب قلبك أم أنّه أتى إليك بألوان الخطيّئة الزّاهية وأنت قبلت هذا الحجر برضاك واختيارك؟

١١٨١. وعندما يوضع هذا الحجر على باب القلب لا يعود بقدرتنا وقوانا الذّاتيّة أن نحركّه، بل يتطلّب إلى جانب إرادتنا وقرارنا في العودة إلى أحضان الله، تدخُّل الله الوحيد القادر على إزالة هذا الحجر العظيم (راجع مشهد النّسوة المريمات اللّواتي ذهبن إلى القبر صبيحة فجر الأحد القياميّ في مرقس ١٥: ٣-٥). الشّيطان لا يساوي شيئًا أمام الإنسان المؤمن المتسلّح بالصّليب المُحيي والقربان المقدّس.

١١٨٢. زينة الإنسان المسيحيّ الحقيقيّة هي الاتّضاع.

١. الاتّضاع هو أن يشعر الإنسان المؤمن أنّ الله محور حياته وأنّه مخلوقٌ وحيٌّ بنعمته القدّوسة. لذا لن يجد السّلام والاستقرار، ولن يَخلُص إلاّ إذا سلّم مشيئته الشّخصيّة إلى الله بالكامل، على صورة السّيّد الّذي «أخلى ذاته آخذًا صورة عبد»، غير متّكلٍ على جهوده الخاصّة وقدراته المحدودة وغير مُستغنٍ عن الله في كلّ لحظةٍ من حياته.

٢. **إنّ الاتّضاع يعني أن نحيا دائمًا في الحضرة الإلهيّة بحسّ التّوبة العميق.** وهذا عملٌ بطوليٌّ يتطلّب منّا الجرأة الكافية الّتي تجعلنا نعترف بأنّنا خطأة لأنّ الإيمان الحقيقيّ هو فعل اتّضاعٍ يوميّ.

١١٨٣. نور الله:

١. نور الشّمس العاديّ له أن يحرق الجلد، إنّما نور الله يدخل إلى الأعماق، إذ إنّه نورٌ لا يُرى ولا يُلمس... إنّما نشعر به في داخلنا. هذه هي الشّمس العقليّة أو الرّوحيّة، الشّمس الإلهيّة. لذلك، في الأيقونات، نرى الهالات ذهبيّة، وهي ترمز إلى الشّمس العقليّة الإلهيّة.

٢. وحدها الحياة الرّوحيّة، الحياة الّتي في شركةٍ دائمةٍ مع الله، تستطيع أن تُغيِّر طبيعتنا وتجعلها شبيهةً بالطّبيعة الإلهيّة، ومشاركةً في نور النّعمة غير المخلوق، على مثال ناسوت المسيح الّذي ظهر للتّلاميذ على جبل ثابور ملتحفًا المجد غير المخلوق.

٣. لذلك، ينبغي على المسيحيّ أن يظلّ على الدّوام في حالة سهرٍ روحيٍ ويَقَظَةٍ قلبيّة وتنبُّهٍ نوسيّ (ذهنيّ)، وأن يتصرّف تاليًا كابنٍ للنّور: «لقد كنتم من قَبلُ ظلمةً، أمّا الآن فأنتم نورٌ في الرّبّ؛ فاسلكوا كأبناء النّور» (أفسس ٥: ٨). من روائع الفكر اللّاهوتيّ البولسيّ، نصٌّ آخر غايةٌ في الرّوعة الرّوحيّة: «تشكرون بفرحٍ للآب الّذي أهلّكم للشّركة في ميراث القدّيسين في النّور؛ الّذي انتزعنا من سلطان الظّلمة، ونقلنا إلى ملكوت ابنه الحبيب» (كولسّي ١: ١٢-١٣).

٤. نار النّعمة الّتي يُشعلها الرّوح القدس في قلوب المسيحيّين تجعلهم يشعّون كشموعٍ أمام ابن الله (راجع متّى ١٣: ٤٣). إنّها [نار النّعمة] قوّة القيامة، وواقع الحياة الأبديّة، واستنارة النّفوس القدّيسة.

١١٨٤. الممارسات الشّيطانيّة:

١. العهد الجديد واضح جدًّا في رفض كلّ الممارسات الشّعبيّة المستندة إلى تعويذاتٍ أو طقوسٍ مستندةٍ إلى السِّحر لإخراج القوى الشّيطانيّة من النّاس، لأنّها تقوم على تديّنٍ خُرافيٍّ يوهم النّاس. نحن، كمسيحيّين، نؤمن أنّ اسمَ يسوع يُخرج الشّياطين ويُبيد القوى الشّرّيرة، على ما جاء في إنجيل القدّيس لوقا: «ورَجَعَ الاثنان والسّبعون بفرحٍ قائلين: يا ربّ، إنّ الشّياطين أيضًا تخضع لنا باسمك» (١٠: ١٧)، وأيضًا ما ورد في سِفر أعمال الرّسل في حادثة شفاء الرّجل الأعرج من بطن أُمّه: «فقال بطرس: ليس لي فضّةٌ ولا ذهبٌ ولكنّي أُعطيك ما عندي. باسم يسوع المسيح النّاصريّ قُم وامشِ» (٣: ٦).

٢. اليوم، تلقى الممارسات الوثنيّة والصّنميّة والتّنجيميّة (قراءة الكفّ، علم الأرقام والأسماء، الفنجان، الحِجابات...) رواجًا منقطع النّظير وبخاصّةٍ في مجتمعاتنا المسيحيّة «الدّهريّة»، في «بابل الجديدة» (راجع تكوين ١١: ١-٩) الّتي استغنت عن الله وألّهت ذاتها والمادّة. إنّ أولئك المسيحيّين قد سلّموا رقابهم لا إلى مشعوذين وكذّابين ومرائين فقط، بل إلى كائناتٍ روحيّةٍ نجهل ماهيّتها ولكنّنا نعرف بالتّأكيد أنّها لا تمتثل لسلطة المسيح. هذه الكائنات الرّوحيّة الشّيطانيّة تجرّبهم على أعماق الجبّ حيث الهلاك الأبديّ!

١١٨٥. مذهب الدّهريّة:

١. **نستنتج كيف أنّ مسيحيّة هؤلاء هي مسيحيّةٌ «سطحيّة» أو «ميّتة»، وكيف أنّ «الدّهريّة» هي سيّدة هذا العالم!**

٢. «الدّهريّة» تعني ببساطةٍ أن يرتكز اهتمام النّاس في شؤون هذا الدّهر، في شؤون الأرض. معناها أن يكون هذا الدّهر قائمًا بذاته، مُكتفيًا بذاته، له غايته في ذاته، يُسيِّر ذاته بذاته وفقًا لنواميسه الخاصّة. والإنسان فيه يُسيِّر أموره بقواه الذّاتيّة، لا سيّما بقوّة عقله.

٣. لقد غرق إنسان هذا العصر في المادّيّة المُفرطة، متناسيًا أنّ الرّبّ حيّ، ما زال يعمل، وأنّه حاملٌ الكون بكلمة قدرته.

١١٨٦. موهبة النّبوّة:

١. تبغي مواهب التّنبّؤ في الكنيسة (١ كورنثس ١٢؛ بنات المدبّر فيلبّس في أعمال ٢١: ٩؛ النّبيّ أغابُس في أعمال ٢١: ١٠؛ ناهيك عن أنبياء العهد القديم الّذين أنبأوا بكلمة الله وحذّروا من خطر عصيان الوصايا الإلهيّة) الخير العامّ لبنيان جسد المسيح، أي الكنيسة، وهي ليست قوّةً شخصيّةً يتنعّم بها بعضهم من أجل النّفوذ والسّلطة أو الرّبح المادّيّ (راجع أعمال ٨: ١٨-١٩) أو لإشباع فضول بعضٍ من النّاس.

٢. **التّنبّؤ في الكنيسة هو موهبةٌ روحيّةٌ من الرّوح القدس هي لجميع البشر المؤمنين، كما يقول الكتاب المقدّس** (راجع يوئيل ٣: ١-٢؛ أعمال ٢: ١٦-١٧).

١١٨٧. دينونة الآخرين:

١. الدّينونة حقٌّ إلهيّ، فلا يجوز لأحدٍ أن يحكم على أحدٍ حتّى ولو رأى خطيئته بأمّ العينين، وذلك كما فعل الكتبة والفرّيسيّون مع المرأة الزّانيّة الّتي أحضروها إلى يسوع، ظانّين أنّه سيحكم عليها مثلهم، فكانت المفاجأة الّتي هزّت كيانهم وحقدهم وتديّنهم المزيّف (راجع يوحنّا ٨: ١-١١).

٢. نحن البشر نُنصِّبُ أنفسَنا مكانَ الله في دينونة الإنسان الآخر كما لو كنّا نحن بلا خطيئة وبلا حاجةٍ إلى رحمة الله ونعمته. إنّ إدانة الغير هي من أكثر بقايا الطّبيعة الشّرّيرة تمركزًا وعنادًا يصعب التّغلُّب عليها، والتّخلُّص من براثن تحكُّمها.

٣. العين البشريّة ترى كلّ الأشياء ما عدا نفسها، ولكنّ عين الله تراقب الجميع على السّواء.

١١٨٨. **الأخلاقيّة المسيحيّة:**

١. مَن يقبل عمل الله الخلاصيّ يُعبِّر عن هذا القَبول بالتّوبة والمعموديّة باسم يسوع. إذّاك يصير الإنسان كائنًا جديدًا مخلَّصًا متّحدًا بالله. وما الأخلاق المسيحيّة برُمّتها سوى تحقيق هذا الكيان الإلهيّ الجديد الّذي يحصل عليه الإنسان بالمعموديّة.

٢. أخلاقيّاتنا ليست شرائعَ جديدةً أو قديمة، إنّما هي طبيعةٌ حيّةٌ «لشركةٍ مقدّسة». لا تعتمد الكنيسة إذًا «مجموعة وصايا» أخلاقيّةً ثقيلةً تفرضها على النّاس، وأحيانًا نحن لا نحفظها، لتقود النّاس مقيَّدين إلى تصرّفاتٍ خُلُقيّةٍ محدَّدة، وإنّما «تجلّي» الكنيسة للنّاس «كأولاد الله» الأحرار وتنّقيهم وتحرّرهم من الرّوابط والميول الخاطئة.

٣. الأخلاق المسيحيّة هي تحقيقُ ملكوت الله على الأرض، وتحقيقُ حياة الله في حياة البشر، وهي بالتّالي تهدف إلى تحقيق تأليه الإنسان.

٤. الأخلاق المسيحيّة هي حياة الرّوح فينا، وحياتنا بحسب الرّوح (راجع رومة ٨: ١-٢، ٨-١٠؛ غلاطية ٥: ١٦، ٢٢-٢٥).

٥. من هنا تُصبح الأخلاق جنون الّذين يصيرون فقراء (الودعاء، الجياع والعطاش إلى البِرّ، الرّحماء، أنقياء القلوب، صانعو السّلام، المُضطهَدون من أجل البِرّ) زاهدين في العالم، وسائرين نحو فقر الله، منفتحين على غناه الحقيقيّ.

٦. لا تتّسم أخلاق الإنجيل بسِمة الشّرائع. فالزّمن لم يَعُدْ زمن شرائع بل زمن ملكوت الله (راجع لوقا ١٦: ١٦).

٧. ناموس المسيحيّ هو في النّهاية المسيح نفسه كقاعدةٍ حيّةٍ للمسلكيّة المسيحيّة، ذلك أنّ ناموس المسيح لا يُفرَض على المسيحيّ من الخارج، بل ينبع من كيانه الجديد، الّذي حصل عليه من خلال ولادته الجديدة بالمعموديّة.

٨. إنّ المسلكيّة التّربويّة المسيحيّة تهدف في الأساس إلى مساعدة المسيحيّين على أن يكتشفوا في أعماقهم عذوبة الحياة الجديدة في المسيح يسوع، وما تنطوي عليه من ديناميّةٍ في الرّوح القدس تحملهم على النّموّ في التّحرُّر من الأنانيّة والشّهوة وسائر أنواع العبوديّة.

٩. **الأعمال الصّالحة** ليست هي الصّوم، أو الصّلاة، أو المواظبة على حضور اجتماعات الكنيسة، أو الإحسان للفقراء، أو دفع العشور، أو إتمام الفرائض التّقليديّة وحسب. الأعمال الصالحة هي أعمالٌ خاصّةٌ سبق الله وأعدّها لكلّ واحدٍ يؤمن بالرّبّ يسوع المسيح (عبرانيّين ١١). وتختلف هذه الأعمال الّتي أعدَّها الله في حياة كلّ مؤمن.

١٠. المسيحيّ الحقيقيّ لا ينظر إلى أيّ إنسان بمنظارَين مختلفَين، حاضرًا كان هذا أم غائبًا، فقيرًا أم غنيًّا، قويًّا أم ضعيفًا. والمسيحيّ الحقيقيّ لا يَدين أحدًا، ولا يفضِّل إنسانًا على آخر، بل يحبّ الجميع ويحترم الجميع ويسالم الجميع.

١١. إنْ كنّا نشتهي شيئًا غير الله أو نخاف شيئًا غير الله، فآلهتنا كثيرة. وإنْ كنّا نظنّ أنّه بإمكاننا التّوسُّط في الأمور فنعرج بين الاثنين لنكسب مجد العالم ومجد المسيح فهذا وهمٌ وضلال: **الله واحد، فلا تعبدوا ربّين**. فلا يُمكننا أن نختار الحلّ الوسط: أن تكون مسيحيًّا وأن تَعبُدَ إلهًا آخر من وقتٍ إلى آخر! فالحلّ الوسط لا يجوز إطلاقًا في المسيحيّة، لأنّه لا شركة للنّور مع الظّلمة (٢ كورنثس ٦: ١٤).

١١٨٩. **الضّمير:**

١. كلّ إنسانٍ يألف صوته الدّاخليّ الّذي يتّهمه في بعض الأحيان ويُضيِّق عليه، وفي أحوالٍ أخرى يجلب له السّرور. هذا الصّوت الرّقيق إنّما هو شعورٌ فطريٌّ يُدعَى «الضّمير». وهو بطبيعته غريزةٌ روحيّةٌ تُفرّق بين الخير والشّرّ.

٢. لقد غرس الله في طبيعة الإنسان صورته الإلهيّة الّتي تجذب الإنسان نحو كلّ ما هو صالحٌ، وتُجنِّبه كلّ ما هو شرّير. هذا النّاموس الدّاخليّ يعمل بواسطة صوت الضّمير الّذي يُعتبر حقًّا أنّه **صوت الله في الإنسان**.

٣. الضّمير هو النّاموس الّذي حفره الله في قلب الإنسان، والهيكل الّذي ينفرد فيه إلى الله، ويسمع فيه صوت الله.

٤. كمسيحيٍّ، أعطاك الله القدرة أن تسلك أمامه بضميرٍ طاهر. وهذا هو امتيازك اليوميّ وسرُّ فرحك وسلامك الدّاخليّ.

٥. الضّمير هو مُنقّي أفكار الإنسان.

٦. الضّمير النّقيّ هو ينبوعٌ لكلّ البركات الإلهيّة. فذوو القلوب النّقيّة يتمتّعون بسلامٍ داخليّ، وهم لطفاء وأسخياء في العطاء. وهكذا يُعطيهم الله، في هذه الحياة المليئة بالمحن والعذاب، سَبْق تذوُّق الملكوت السّماويّ (راجع متّى ٥:٨).

٧. إنّها تربيّة الإنسان على أن يقوم بكلّ أعماله وهو ينظر إلى الآخرين نظرة الله نفسه، أي نظرة المحبّة.

٨. إنّ الضّمير هو القدرة على الانتباه والاستماع إلى النّفس والآخرين، وهو ما يضع المسيحيّ بنعمة الرّوح القدس على الطّريق ليُحقّق التّطويبات (متّى ٥: ١-١٢)؛ هو الدّليل الّذي يوّجه الإنسان في بحثه عن الحقيقة والخير، وهو قدس الأقداس الّذي يأخذ فيه الإنسان قراره الأخلاقيّ شرط ألاّ يناقض نفسه بشكلٍ واعٍ وإراديّ. وإذا كان للضّمير هذه المكانة المرموقة، فيجب تكوينه وتربيّته وإتاحة الفرصة له بالنّموّ والنّضوج. وقبل كلّ شيء يجب احترام كرامته وحرّيّته وقُدسيّته.

٩. إنّ تربيّة الضّمير عملٌ دائم، والحرّيّة يجب أن تُحدِّد معالمَ مسيرتها المحبّةُ (راجع غلاطية ٥: ١٣-١٤): إنّها تثقيف الإرادة والمسؤوليّة، وتربيّة العقل على إدراك الخير ومعرفته.

١١٩٠. الصّليب الحقيقيّ:

١. صليبي الحقيقيّ اليوميّ هو في النّفس أي بتنزُّهي عن المجد الباطل والشّهوات البهيميّة. ويبقى لي الحقّ الَّذي يستقرّ فيّ دائمًا بكلمة يسوع. أجل، أُعلِّق صليبًا في عنقي منذ المعموديّة وهذا يجب أن أُحافظ عليه، ولكن، ليُذكِّرَني بمعاني الخلاص ويوحي إليّ أنّ المسيح معي ليُنقذَني من الشّرّ، وأعرف أنّ مسيحيّتي تكمن في أن أُبيد الخطيئة.

٢. الصّليب هو العلامة الملموسة لمحبّة الله اللّامتناهيّة تجاه خليقته (راجع يوحنّا ٣: ١٦-١٧).

٣. إنّ انتصار المسيح على الموت، أظهر قوة الشّفاء الّتي في علامة الصّليب، وعلى الأخصّ ضدّ قُوَى الشّيطان الّتي تحاول دائمًا - ولكن عبثًا - تحطيم عمل محبّة الله.

٤. إلهنا صُلِبَ على خشبةٍ مجرّدة، بمذلّةٍ وعارٍ صُلِبَ، ليشهد ضدّ كبرياء الإنسان وأمجاد العالم.

٥. لقد جُعِلَ الصّليب مأزقًا للنّفس المتكبِّرة العاتية، وجُعِلَ الخلاص دربًا لا يكتمل إلّا عن طريق الإيمان بإلهٍ مصلوب.

٦. إنّ الصّليب هو أيضًا علامة الاتّضاع، وبَذْل الذّات، وطاعة ابن الله. والصّليب هو طريق الخلاص لكلّ مسيحيٍّ مدعوٍّ للاقتداء بالمعلِّم الإلهيّ، وبحَمْل صليبه الشّخصيّ تابعًا إيّاه.

٨. وكما صُلِب هو نفسه من أجل حياة العالم، هكذا نموت نحن أيضًا عن الأنانيّة، ونصلب الإنسان العتيق الّذي فينا، لكي يتحقَّق ميلادنا الجديد في المسيح.

٧. إنّ الصّليب هو أيضًا الرّمز والطّريق إلى القيامة، ليس فقط بالنّسبة للمسيح، بل ولكلّ مؤمنٍ على قدرما قَبِل من نِعَم الخلاص في المسيح يسوع، ولكن مع أعمال وجهادات النّسك الشّخصيّ الّذي يُعبِّرعن التصاقنا الحُرّ والطّوعيّ بمحبّة الله، وبجهادنا ضدّ كلّ العوائق الباطنيّة داخل نفوسنا الّتي تُقاوم محبّة الله.

٩. إنّ الصّليب ليس علامةَ ضُعفِ الله، وأنّ إيماننا بالمسيح المصلوب هو دعوةٌ إلى رفض الظّلم وإلى بذل الذّات حتّى الموت في سبيل نُصرة الحقّ. وإيماننا بقيامة المسيح هو إعلانٌ بأنّ الله لا يقف إلى جانب الظّلم بل إلى جانب مَن يشهد للحقّ ويمنحه الغَلَبَة والانتصار.

١١٩١. ضروريٌّ أن نحمل عار المسيح؛ ضروريٌّ أن يمزج لنا العالم كأس المرّ كتلك الَّتي مزجها للمسيح؛ ضروريٌّ أن نشربها كما فعل المسيح؛ ضروريٌّ أن يتآمر العالم لتسليمنا إلى الموت، وضروريٌّ أن نقبل ونحن نردِّد مع المسيح «اغفر لهم يا أبتاه فهم لا يعرفون ماذا يفعلون».

١١٩٢. **الصّوم:** إنّ الصّوم هو خروج الصّائم من الكيان المادّيّ، ودخوله في الكيان الرّوحيّ، ليستطيع المسيحيّ أن يُمارس الأسرار المقدّسة بأهليّةٍ واستحقاق، بالإضافة إلى الصّلاة الشّخصيّة وقراءة الإنجيل المقدّس والتأمّل بكلمة الله، الَّتي تُشكِّل مرآة النّفس.

١١٩٣. **مخافة الله:** هذا النّوع من المخافة، أمام الظّهورات والتّجلّيات الإلهيّة الرّهيبة، يجعل الأمور مختلطةً أمام الإنسان. فهو، من جهةٍ، يُشعره بصِغَرِه، لا بل بعدمه (كما نقول في القدّاس الإلهيّ في صلاة الشّكر الإفخارستيّة: «أنتَ أخرجتنا من العدم إلى الوجود») أمام قداسة وسموّ الله. مِمّا يدفع بالنّفس إلى الشّعور بضعفها وخطيئتها وبالتّالي إلى الاهتداء والتّوبة؛ ومن جهةٍ أخرى يتحوّل الشّعور بالهَيبة لديه إلى شكرٍ وتسبيحٍ وسجود!

١١٩٤. الكبرياء:

١. نرى حتّى بين المؤمنين أيضًا المولودين ثانيّةً مازالوا ممتلئين بالكبرياء - أحد جذور الشّرّ. هؤلاء النّاس يستغلّون الله ويستخدمونه عندما يحتاجونه - وكأنّه موجودٌ لهدفٍ واحدٍ فقط ألا وهو أن يُلبّي جميع طلباتهم واحتياجاتهم.
٢. إنّ الكبرياء هو أكبر عائقٍ في طريق الكمال المسيحيّ، ذلك أنّ المتكبّر يعمل إرادته، لا إرادة الخالق، فينزع إلى التّألّه بعيدًا عن الله؛ هذه هي خطيئة آدم.

١١٩٥. المسيحيّة المعاصرة:

١. أصبحت مسيحيّة اليوم أخفض مستوى من العهد الجديد... العالميّات صارت جزءًا مقبولاً إنْ لم نَقُل أساسيًّا في نهج حياتنا اليوميّة... نشاطاتنا الدّينيّة بدأت تفقد رونقها وميزتها الرّوحيّة، لتصير رويدًا رويدًا اجتماعيّةً... كنائسنا لا تُنجب قدّيسين بل دخلاء... قدوتنا رجال الأعمال النّاجحون وقادة المجتمع... عبادتنا تودُّدٌ مُصطنَعٌ... نمارس نشاطاتنا الرّوحيّة حسب أساليب العالم الدّعائيّة الحديثة... مؤتمراتنا الرّوحيّة مخيّمات نُزهةٍ وتسليات... مؤلّفاتنا الثّقافيّة باتت فُكاهةً أكثر ممّا هي فكرٌ متأصّلٌ ومتسامٍ.
٢. **المسيحيّة لم تُخفِق، بل إنّ كثيرين من المسيحيّين لم يُدركوها. فلا نلومنّ يسوع، بل علينا أن نلوم فقط مَن يدّعون أنّهم تلاميذه ويرفضون السَّير في نهجه.**
٣. لا يرضى الله بملائكته إلاّ رياحًا، ولا بخدّامه إلاّ لهيب نار، ولا يقبل بأنصاف مؤمنين قلوبهم معه لكنّها متّجهةٌ نحو العالم. إن كان العدّاء يركض بغَيرةٍ فائقةٍ لينال إكليلاً يفنى، أفلا يجدر بنا نحن أن نركض لأجل إكليل المجد الّذي لا يفنى؟ (١ بطرس ٥: ٤) وإن كان الممثّل يستعدّ أيّامًا ليقوم بتمثيل دورٍ مُصطَنَعٍ ويؤدّيه على أكمل وجه، فما أحرانا نحن الَّذين نُقدِّم حقائقَ أبديّةً أن نفوقه استعدادًا وتأديّة.

٤. بسبب مقاييسنا ومعاييرنا الارتجاليَّة اللّاواعيّة، كثيرًا ما نقع في الخطأ. فنعطي الكرامة لمن لا يستحقّها ونحرم منها مستحقّها بالفعل. ومن أحقّ باحترامنا وعطفنا، بعوننا وعنايتنا من الضّعيف والمحتاج والمظلوم والمحروم والمسحوق والمنبوذ؟؟؟ (راجع يعقوب ٢) أمَا كان باستطاعة المسيح أن يأتي غنيًّا قويًّا، يسكن في أفخم القصور ويلبس أبهى الحلل؟؟؟ ولقد ردّ على مَن اتّهمه بأنّه يعاشر الخطأة والعشارين قائلاً: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيبٍ، لكن ذوو الأسقام. فإنّي لم آتِ لأدعو صدّيقين بل خطأة» (مرقس ٢: ١٧).

٥. إنّ عالم الخطيئة سهلٌ ارتياده، زاهيةٌ ألوانه، فاتنةٌ لوحاته، لذيذٌ طعمه، مُسكِرٌ شرابه، ولكنّه في النّهاية يقدِّم لروّاده عكس ما يَعِدُ به: هو يَعِد بالجمال، فإذ بجماله قناعٌ ينكشف إلى تشوّهٍ وقبح؛ يَعِد بالارتواء والشّبع، فإذا بمواطنيه يقضون وهم في سعيٍ حثيثٍ يطلبون المستحيل. هم إذ أسكرتهم خطيئتهم باتوا يفتّشون عن الحقيقة فيما بين الظّلال وإذ عادوا إلى رُشدهم يترنّحون في شوقٍ للسّكر من جديد.

٦. مجتمعاتنا، والمسيحيّة منها، تقبل الإيمان السّطحيّ، الَّذي يُحبّ بعض المظاهر الطّائفيّة أو الاجتماعيّة المتمحورة حول بعض الأعياد والعادات، ويختم على الدّين بهذه الحدود، ويُسمّي ما بعد ذلك وما هو أعمق جهالةً ومبالغة، ولا يريد من أحدٍ أن يحرّك ساكنًا أو يدحرج أيّ حجرٍ عن «حياة الإيمان» الَّتي دُفِنَت في قلوب المسيحيّين جرّاء انتماءاتهم الطّائفيّة المدمِّرة لمفهوم الكنيسة كعائلةٍ روحيّةٍ واحدة (راجع ١ كورنثس ٣: ٤-٥).

٧. على تلاميذ المسيح أن يتبعوه ويطيعوا تعاليمه، وهكذا يكوّنون جماعةً صغيرة، ويصبحون أقوامًا غريبي الجنس والأطوار، يختلفون عن العالم مسلكًا، ومنظرًا، وكلامًا، يعيشون فيه لكنّهم ليسوا منه، بل هم غرباء ونزلاء، أحيانًا يقاوَمون ويُضطهَدون، وغالبًا ما يُحتَقرون.

• صلاة

إلهي! إنِ اقتنيتك أقتني الفرح الحقيقيّ، وليس مَن يستطيع أن ينزعه منّي. بك تتهلّل نفسي يا شهوة قلبي! ماذا يستطيع العالم أن يفعل بي؟ فى مرضي أرى يدك الشّافيّة لنفسي، وفي آلامي أدخل في حوارٍ معك أيّها المتألّم! إن حُرِمتُ حتّى من بصيرة الجسد، تَهَبَني بصيرة الرّوح فأراك! إنِ اقترب إليّ الموت تنفتح أمامي أبواب الفردوس! إنْ حرمني العالم من خيراته، اقتنيتك يا غنى نفسي! بك يكتمل فرحي. أتطلّع إلى الماضي، فأراك تُحوِّل أخطائي لخيري، وأنظر إلى الحاضر فأجدك في أحضاني، وأترقّب المستقبل بتهليلٍ إذ أنت قادمٌ إليّ حتمًا!

ربّي، ليتَكَ تُباركني بروح العفّة والوداعة والرّأفة، لأنّني بها فقط سأرى وجهَك. إنّي أحتاج قلبًا نقيًّا طاهرًا لا يظُنّ السّوء، ولا يشوّهُ صورة أخي الإنسان مهما كان مُختلفًا عنّي. يا حبيب الرّوح، قدّس قلبي للمحبّة والإستقامة. أنا لك.. صُنعُ يدَيكَ، طوّقني بعنايتك، عرّفني سُبُلَك.

آمين.

الباب الثّامن عشر

مواجهة النّفس وبناؤها

يُعالج هذا الباب التّنكّر لحقيقة الذّات، ويصيغُ لنا دربَ التّعرفِ على الذّات وأهميّة إدراك القدرات في النّفس البشريّة في كلّ إنسانٍ بتميّزه. إنّه، كذلك، يُمعِنُ النّظرفي موضوع التأمّل في الذّات.

١) فلسفة الأقنعة

١١٩٦. إنّ الشّعور بعدم الحاجة إليك أو عدم الرّغبة فيك من أقوى المشاعر الإنسانيّة المدمّرة الّتي تجلب الخَيبة والشّيخوخة والمرض. إنّ أشقى وأتعس اختبارٍ في حياة الإنسان هو في أن يشعر دائمًا أنّه خارج الجماعة لا يعرف كيف يتعامل مع النّاس، ولا كيف يستجيب لمعاملاتهم، يعيش منطويًّا على نفسه يقيس كلّ شيءٍ لاشعوريًّا حسب تفاعله معه.

١١٩٧. الأقنعة لا تخفي أشكالنا فقط، لكنّها تخفي حقيقةَ ما نشعر به، وحقيقةَ ما نفكِّر به، وحقيقةَ ما نسعى إليه. أحيانًا نضع الأقنعة، ونعلم بما نعمل، وذلك حين نكذب مثلاً، أو حين ننكر أو نخدع. لكنّنا أحيانًا لا ندرك، ولا نعلم أنّنا غير ما نقول، وغير ما نفعل. فقد نكذب حتّى نصدِّق أنفسنا، أو بمعنى أصحّ قد نكذب حتّى نخدع أنفسنا! إن كنّا نخدع النّاس فهذا عيبٌ كبير، أمّا خداعنا لأنفسنا فهو ليس عيبًا فقط لكنّه كارثةٌ علينا، لأنّه يحول دون اكتشاف النّفس ثمّ تقويم النّفس، وإصلاحها!

١١٩٨. عندما نلجأ إلى الأقنعة والتّمثيل، نقضي على كلّ إمكانيّة نموٍّ إنسانيٍّ وشخصيّ. فما دُمنا نعيشُ بعيدًا عن ذواتنا، نبقى منقطعين عن كلّ إمكانيّة نموٍّ. نحن نعيش وكأنّنا على خشبة مسرح. وعندما يُسدَل السّتار، في نهاية الرّواية، نجدُ أنفسَنا حيث كنّا عندما رُفِعَ السّتار، أناسًا يفتقرونَ إلى النّضج الشّخصيّ.

١١٩٩. المرائيّ هو الّذي يكون له على المسرح وجهٌ آخر. إنّه الإنسان القادر على أن يلبس أقنعةً كثيرةً كلّما اقتضت الحاجة إليها، ليُغطّيَ حقيقته الذّاتيّة الّتي هي على نقيض ما يظهر للعَيان. إنّه يكون على كلّ شيءٍ في أعماق القلب، ويتظاهر بوجهٍ آخر أمام النّاس.

١٢٠٠. ما أجمل أن يقبلَ الإنسانُ نفسَه؛ أن يَعيشَ ذاتَه الحقيقيّة غيرالمُقنَّعَة؛ أن يَنسى ذاتَه في الحبّ؛ أن يكونَ مؤمِنًا وأخيرًا أن يَشعُرَ بالانتماء.

٢) فلسفة المواجهة الذّاتيّة

١٢٠١. المواجهة هي اللّقاء وجهًا لوجه. ومعنى مواجهة النّفس هو أن نرى أنفسنا على حقيقتها كما لو كنّا ننظر في مرآةٍ صافية. فتبدو لنا كلّ حسناتنا، كما تبدو لنا كلّ عيوبنا أيضًا. في مواجهة النّفس نرى الجمال ونرى القبح أيضًا.

١٢٠٢. صدمة المواجهة هي أن نرى الدّليل القاطع على أنّنا مُخادعون، وأنّنا متستّرون على عيوبنا. وصعوبة المواجهة هي أن نرفع القناع الّذي اعتدنا عليه حتّى صار جزءًا منّا!

١٢٠٣. المواجهة ضرورة. ونحن نعلم أنّها ضرورة، لكنّنا لا نجرؤ عليها، لذلك نهرب منها ونؤجّلها، وكلّما تأجلّت المواجهة زاد الخوف! إنّنا نعمل ما يعمله بعض المرضى الَّذين يهربون من التّحاليل الطّبيّة خَشية أن تكشف لهم أمراضًا لم يكونوا يعرفونها! إنّهم يحسّون بأعراض المرض، لكنّهم يخافون الفحوص العمليّة، لأنّها قد تؤكّد الشّكوك وتكشف إصابتهم بأمراضٍ خبيثة!

١٢٠٤. **مواجهة النّفس هي الطّريق إلى ميلادٍ جديد.** فقد خلق الله الإنسان، وفي داخله شوقٌ للارتباط بالسّماء، وحنينٌ للحياة الرّوحيّة السّاميّة وحياة القداسة والطّهر. لكنّ جذوره البشريّة تجتذبه إلى الغواية والشّرّ. فتتلوّن حياته بطبيعة الأرض، ويمتلئ بالشّهوة والرّغبة وحُبّ الذّات، وتتعمّق فيه أصول الخطيئة، فتثمر أفكارًا وأعمالاً ونوايا وموتًا روحيًّا (راجع متّى ٧: ١٦-٢٣).

٣) أنت وذاتك!

١٢٠٥. كلّ إنسانٍ في الوجود كتابٌ مستقلّ، له موضوعه الخاصّ، وله شكله المتميّز. فقد يقرأ الإنسان الآخرين، لكنّه قلّما يقرأ كتابه الخاصّ!

١٢٠٦. من الطّبيعيّ ومن المفيد أن تتأمّل نفسك، أفكارك، فلسفتك الشّخصيّة، مواهبك، وأبعاد شخصيّتك، وهي كلّها من مكوِّنات «من أنت؟»، وأن تحاول أن تفهمها بصورةٍ أدق، وأن تعرف لماذا تفكّر وتتصرّف وتشعر على نحو ما تفعل. لتعرف إلى أيّ مدًى أنت تختلف عن غيرك؟ لتعرف لماذا أنت هو أنت؟ لتعرف كلّ شيءٍ عن نفسك؟

١٢٠٧. أنت وحدك الّذي تملك، في داخلك، كلّ الإجابات عن نفسك، فيجب أن تتحمّل المسؤوليّة الكاملة لتعرف نفسك. فلا يوجد أيّ شخصٍ يمكنه أن يعرف «عنك» أكثر ممّا تعرف أنت «عنك».

١٢٠٨. إنّ معرفتك لنفسك هي الخطوة الأولى الّتي يجب عليك أن تخطوها في طريق الحياة الصّحيحة المتكاملة والسّعيدة، فمعرفتك لنفسك تساعدك على أن تستكشف نفسك. ماذا تريد أن تقوم به في الحياة – ما تستطيع أن تتقنه، وما لا تستطيع.

١٢٠٩. اِعترف أوّلاً بما تريد أن تغيّره في نفسك فقانون الحياة يقول إنّه لا يمكنك تغيير ما لا تعترف به لنفسك أوّلاً. فلتكن استراتيجيّتك أن تكون واقعيًّا مع نفسك، في كلّ ما يخصّ حياتك، وكلّ الأشخاص الّذين تتعامل معهم فيها. وكن صادقًا في تعاملك مع الأمور غير المُجدِية في حياتك، وتوقّف عن اختلاق الأعذار، وابدأ في فحص النّتائج.

١٢١١. أنت طبيب نفسك، أي يجب أن تكون أمينًا وصادقًا مع نفسك... ويجب أن تمتلك القوّة والشّجاعة لأن تسأل نفسك الأسئلة الصّعبة، ولأن تجيب عنها بواقعيّةٍ، مثل: هل أنا كسول؟ هل أعيش بدون هدف؟ هل أُعطي وعودًا، لا أقوم بتنفيذها أبدًا؟

١٢١٢. لا تَبكِ على الماضي، ولكن تعلّم منه، وتحرّك بقوّةٍ نحو المستقبل مزوَّدًا بهذه المعرفة.

١٢١٣. القوّة هي صيغةٌ من التّصرّف والأفكار الإيجابيّة والشّعور الصّحيّ الّذي يولِّد درجةً عاليةً من القناعة، والفخر، ويقدِّم جائزةً نفسيّةً وماليّةً للبراعة والإتقان.

١٢١٤. أَعِدِ النّظر فيما حدث لك، وضَعْ تصوّرًا للمستقبل، ثم ضع يدك على تلك المعارف الّتي وصلت إليها بعد أن عقدت تلك المقارنة. ثم تخيّل نفسك وأنت تتعامل مستقبلاً مع ذلك الموقف القديم، ولكن برؤيةٍ جديدةٍ مختلفة، متغلِّبًا على قصورك ونقاط ضعفك.

١٢١٥. اِستمع إلى الميول والحنين: فعندما تستمع إلى صوتٍ بداخلك يقول «أُحِبُّ أن أفعل مثل هذا» فإنّ التّوق والحنين يدفعان بك نحو ذلك الأمر دون سواه. لكن يجب التّأكُّد من أنّ توقك لفعل ذلك الشّيء، أو حُبَّك له هو من أجل الشّيء أو الهدف ذاته، وليس من أجل الكبرياء أو الغرور.

١٢١٦. حاول جادًّا في معالجة نقاط الضّعف، ولكن إذا لم تصل إلى نتيجةٍ مُجدِية، فعليك بالتّوقّف، وتحويل بذل هذا الجهد إلى استثمار نقاط القوّة، مُردِّدًا هذا الدّعاء: «ربّي! إمنحني القوّة لقبول الأشياء الَّتي لا أستطيع تغييرها، والجرأة لأغيّر الأشياء الَّتي أستطيع أن أغيّرها، والحكمة لأعرف الفرق».

١٢١٧. متى عَرَفنا أنفسنا – ومعرفة النّفس هي من أصعب الأمور في الحياة – أمكننا معرفة الآخرين من حولنا، ومعرفة الظّروف المحيطة بنا، ومعرفة دنيانا الَّتي نعيش فيها... وبالتّالي نتفاهم بطريقةٍ أفضل، ونتمكّن من سلوك سبل السّعادة والنّجاح، وتحقيق اكتفاءٍ أوفر في هذه الحياة.

١٢١٨. من المؤسف حقًّا أنّ الإنسان، على الرّغم ممّا أصابه من علمٍ ومعرفة، ما برح يعاني من عقدة النّقص، ويتمحور على «أناه»، ظنًّا منه أنّ الذّات هذه، قادرةٌ أن تَقِيه العثرات الفكريّة والرّوحيّة واللّاهوتيّة، في حين أنّ الحلول والأجوبة الصّحيحة متوافرةٌ لديه، في كتابٍ محفوظٍ من كلّ خطأ، موحًى به من خالق الكون الَّذي أعدّ للإنسان خريطةَ حياةٍ واضحة المعالم لا يمكن للمرء أن يضيع في متاهاتها.

١٢١٩. كثيرًا ما أعتقد أنّني أرى كلّ شيءٍ ولكن في الحقيقة أنا كالأعمى، لا أرى شيئًا، لأنّني أفتقد إلى نعمة الله، لأنّ روح الله غير مهيمن عليّ. مَثَل الأعمى (يوحنّا ٩) يعلّمنا أن نرى ذواتنا ونرى عمانا الذّاتيّ الَّذي نحن أنفسنا نجهله. يوقظ هذا الإنجيل سؤالاً في نفسي: «إلى أيّ مدًى أنا ما زلتُ أعمى؟ إلى أيّ مدًى باستطاعتي أن أرى؟» ليعطينا الله القدرة على الرّؤية، وعلى الثّبات، ليعطينا القدرة على الرّؤية الإيمانيّة، الباطنيّة والقلبيّة.

١٢٢٠. علينا أن نتعلّم أن نقرأ حياتنا قراءةً نقديّةً على ضوء كلمة الله الَّتي هي المرآة الحقيقيّة.

١٢٢١. الإنسان الَّذي يستطيع أن يَسخرَ من ضعفه يتمتّع بطمأنينةٍ داخليّةٍ تنبع من قبوله لنفسه. عندما تتكوّن لديّ قناعةٌ بأنّني أتمتّع بشيءٍ من القيمة الشّخصيّة، آنذاك يُمكنني أن أُقرّ بمحدوديّتي، وأبتسم عندما يظهر ضعفي إلى العلن ويلاحظه الآخرون.

١٢٢٢. الفرق الوحيد بين الكلمتين «أنا قادر» و «أنا لست قادرًا» هو قابليّة الشّخص للتّجربة.

١٢٢٣. إذا لم يختبر الإنسان الموت كلّ يوم في حياته، فلن يعرف أن يذوق طعم الحياة ومذاقها ومعنى القيامة الَّتي هي عيشٌ للنّهار الَّذي لا مساء له. طوبى للإنسان الَّذي يعرف كيف يقوم بعد سقوطه!

١٢٢٤. الفشل لا يعني نهاية العالم؛ إنّما إدراك الفشل هو بداية النّجاح للإنسان. أن تقول «إنّي لا أعرف»، فهذه بداية المعرفة الحقيقيّة.

١٢٢٥. إذا جاءك يسوع وسألك قائلاً: «مَن أنا في نظرك؟» ماذا تُجيب؟ هل تكون أُجوبتك نابعةً من دراستك اللّاهوتيّة أو المدرسيّة (التّعليم المسيحيّ) أو من قراءتك لمقالٍ روحيّ، أم تكون أجوبةً تُعبِّر من خلالها عن اختبارٍ إيمانيٍّ حيّ للرّبّ؟ (راجع ١ يوحنّا ١: ١-٣). هذا هو التّحدّي الحقيقيّ للإنسان اليوم: معرفة الرّبّ يسوع في عالمٍ بات الجهل فيه شعارًا وعنوانًا!

١٢٢٦. يسألك الرّبّ يسوع أين أنا في وسط أهدافك؟ أَجِب عن هذا السّؤال بصراحةٍ كاملة: هل الله أحد أهدافك؟ أم هو الهدف الأوّل؟ أم الهدف الوحيد؟ أم أنّه ليس هدفًا على الإطلاق؟ أم تضعه في آخر القائمة: قد تتذكّره أحيانًا، وقد لا تتذكّره! أم أنّ الله قد تحوّل في نظرك إلى مجرّد وسيلةٍ لتحقيق أهدافك! وإن لم يحقِّقها لك: تغضب منه وتثور عليه، وقد تقطع صِلَتك به. لا يكفي إذًا أن يكون هدفك هو الرّبّ. إنّما يجب أن تظلّ محتفظًا بهذا الهدف ولا تسمح لأهدافٍ أخرى أن تدخل إليك.

١٢٢٧. يجب أن تتكوَّنَ فينا قناعةٌ راسخة بأنّ لدينا أشياء مهمّة نقدِّمها للآخرين، وأنّ لدى الآخرين أشياء مهمّة يقدِّمونها إلينا.

١٢٢٨. من علامات قبول الذّات الشّعور بالفرح والارتياح إلى ما أنا عليه. إذا كنتُ حقًّا أريد أن أختبرَ شيئًا من السّعادة فعليّ أن أتعلّمَ كيف أفرح بما أنا عليه. من المعلوم أنّ لدى كلٍّ منّا ما نسمّيه باللّاوعي وهو كنايةٌ عن مخبأ أو مدفن لتلك الأمور الّتي نخشى أن نواجهَها ومنها نتهرّب. والحقيقة المؤلمة أنّنا عندما ندفن تلك الأمور ندفنها وهي حيّة، فلا يتوقّف تأثيرها علينا.

١٢٢٩. في كلّ واحدٍ منّا علّة، وفي كلّ واحدٍ منّا مرض، ولكنّ مرض البُعد عن الله وغُربتنا عنه هو المرض القاتل الّذي يجعلنا أمواتًا ونحن أحياء، ويجعلنا عاجزين ونحن قادرون.

١٢٣٠. الوقوف بصدقٍ أمام الذّات يجعلُ المرءَ يعي أنّ في أساس وجوده دعوةً إلى الحُبّ، وأنّ وجودَه بكامله ليس سوى محاولة استجابة تلك الدّعوة. وما الاستجابة لتلك الدّعوة إلّا انفتاحًا صادقًا على الآخر يتحقّق من خلاله المعنى الحقيقيّ للحياة.

١٢٣١. حبّ الذّات ليس هو الكفاية الذّاتيّة ولا الفرديّة: فحبّ الذّات لا ينفصل الانسان عن الغير، ولا يؤدّي إلى وحدةٍ وعزلةٍ غير صحّيّة لصاحبه، والمحبّ لذاته لا يجوز له أن يبحث عن كفايّته في ذاتيّته فقط، لأنّه مبنيٌّ على احترام النّفس واحترام الغير.

١٢٣٢. في الحياة اختياراتٌ دائمةٌ واستراتيجيّةٌ تُفيد مسيرة الإنسان نحو نضجه ورُشده، واختياراتٌ أخرى عابرة السّبيل لا تُفيد الإنسان بشيءٍ سوى أنّها اختباراتٌ وقتيّة لحظيّة. الإنسان الحكيم هو الإنسان القادر على اختيار النّوع الأوّل من الاختيارات وتبنّيها واتّخاذها لنفسه كهديةٍ وعطيّةٍ مجّانيّةٍ من الله له من خلال الإنسان الآخر. فهل تفعل هكذا؟

١٢٣٣. أهمُّ لحظاتِ وجودي وأبعدُها أثرًا في حياتي، هي تلك الَّتي أَحسَستُ فيها أنّني «أبصرتُ» من جديد، مما يُعطي عالمي أبعادًا جديدةً ويُعمِّقُ مشاركتي في الحياة. هذه فضيلةٌ جديدةٌ «التَّبَصُّر» تُضاف على الإيمان والرّجاء والمحبّة.

١٢٣٤. إنّ الضّميرهو صوت الأبديّة في داخل الإنسان. الصّوت الّذي يوجِّه أنظارنا إلى آفاقٍ كونيّةٍ أبعد من حدود المادّيّات الملموسة، وأبعد من حدود العمر القصير.

١٢٣٥. إنّ الضّمير الطّاهر هو الرّادار الحسّاس الّذي يلتقط الرّسائل الّتي يبعثها روح الله القدّوس، ليفتح أمام الإنسان آفاقَ الأبديّة والخلود.

١٢٣٦. إنّه الصّوت الدّاخليّ الّذي يستخدمه روح الله ليكشف لنا طريق الحياة الأبديّة، ويوضّح لنا ما يصعب علينا إدراكه من أسرار الخلود.

• صلاة

أُفكّر بنفسي في وحدتها... وإذ بكَ تُذيبُ الجليد، يا سيّدي الحبيب، بدفء حُبّك. أتُراني جهلتُكَ أم جهلتُ نفسي؟! لا يعذّبني إلّا شوقي إليك وبُعدي عنكَ وعن ذاتي. فأرجِع إلى حقيقتي عند سماع أوّل همسةٍ منك أيّها الحقيقة المُطلَقة... إنّي أرجِع إلى نفسي يديك. كشمعةٍ تُذيبُ نفسها لتُنير ظلمتي... هكذا عهدتُكَ كلّما ظلُمَت أيّامي واغتربتُ عن ذاتي. ربّي، إنّي أنا مَن هجرَ نفسه ولَبِسَ ذاتٍ ليست لهُ، فافتَح لي درب العودة.

يا ربّ! وضعتُ على وجهي أقنعة الزَّيف، لأُخفيَ حقيقتي عن النّاس. لكنّني مَلَلْتُ التّصنّع، وكرهتُ وجه الزَّيف! أعلم أنّي خدعتُ النّاس، وأعلم أنّي خدعتُ ذاتي، لكنّك سبحانك لا تُخدَع، فأنت تراني من خلف الأحجبة. أريدُ أن أعود إليك كما أنا، فأسقط عنّي كلّ حجاب، أرني ذاتي على حقيقتي، دون غطاء! اِفضحني أمام نفسي، فلا أعود إلى الادّعاء والكذب! اِكشف لي شهوات قلبي المتخفيّة خلف ادّعاءات الطُّهر! اِكشف لي ظلام أفكاري المتخفيّة خلف ادّعاءات العلم! اِكشف لي قبح نواياي المتخفيّة خلف ادّعاءات الصّلاح! إكشف لي دَنايا أهدافي المتخفيّة خلف ادّعاءات التّديّن! أعترف لك الآن بحاجتي، فأنر أركان قلبي. طهّر عقلي من كلّ ظلام، وطهّر قلبي من كلّ خداع، واكشف لي بروحك طريق الحياة، فأولد من جديد تحت نور قداستك!

آمين

الباب التّاسع عشر

الشّهادة - الاستشهاد والجهاد الرّوحيّ

يعرّفنا هذا الباب على مبادئ الشّهادة من أجل المسيح، والاستشهاد في سبيل ازدهار الحياة المسيحيّة المتدفّقة في أفراد شعب المسيح. هذا، ويزوّدنا بتعريفٍ للجهاد المسيحيّ الكائن في المحبّة والنّضال من أجل تحقيق ذاتها.

١) المسيح، حمل الله، نموذج الاستشهاد

١٢٣٧. يسوع حَمَلُ الله الحامل خطايا العالم، هو الخروف الفصحيّ. المسيح هو فِصحُنا. كان اليهود يذبحونَ خروفًا حَوليًّا عمره سنةً واحدة في عيد الفصح، أَمَّا نحن ففِصحُنا هو يسوع المسيح له المجد وهو الضّحيَّة الكبرى.

١٢٣٨. ينبؤنا يوحنّا الانجيليّ في إنجيله أنّ يسوع صُلِبَ يوم الجمعة، أي في الزّمان الّذي كان اليهود فيه يذبحون الخروف الفصحيّ. فكان يسوع هو خروفُ الفصح الحقيقيّ، بينما الخِراف هي رموزٌ لهذا الحَمَل أي ربِّنا يسوع المسيح.

١٢٣٩. لقد أبان إنجيل يوحنّا بوضوحٍ أنّ جنديًّا طعن جنب يسوع بحربةٍ، فكان يسوع الخروف الفصحيّ الحقيقيّ المطعون في جنبه على الصّليب، نُحِرَوذُبِح. الخِراف تُنحَر، ويسوع المسيح نُحِرَ أيضًا وكان خروفَنا الفصحيّ الحقيقيّ. وبما أنّ يسوع المسيح هو خروفنا الفصحيّ المذبوح لأجل خلاصنا، فكلُّ مسيحيٍ هو ذبيحةٌ ليسوعَ المسيح. هو نفسُهُ يُقرِّب نفسه للآب ذبيحةً مُحرقةً، قربانًا في يسوع المسيح بالرّوح القدس السّاكن فينا.

١٢٤٠. كلُّ مَن اعتمد وخُتِمَ بالميرون المقدَّس هو خروفٌ مقدَّسٌ لربِّنا يسوع المسيح ويحمل الاستشهادَ في ذاته. المعموديَّة والميرون استشهاد. نحن نلبَسُ ثوبَ الاستشهاد. ولذلك الجُبن والمسيحيَّة لا يجتمعان؛ الانهزامُ والمسيحيَّة لا يجتمعان؛ الخوفُ والمسيحيَّة لا يجتمعان.

١٢٤١. المسيحيُ بطلٌ روحيٌّ مستعدٌّ دومًا للموت من أجل المسيح. لا يهرب من المعركة، لا ينهزم، لا يتضعضع، لا ينهار. وإن ضَعُفَ خَسِرَ الامتلاء من الرّوح القدس. كيف احتَمَلَ الشّهداء العذابات المُضنِيَة؟ هذا هو الرّوح القدس السّاكن فيهم هو الّذي جعَلَهم يحتملونَ كلَّ هذه الآلام المُضنيَة فكانوا في فرَحٍ وغِبطة.

٢) التّرابط بين الشّهادة والاستشهاد

١٢٤٢. الشّهادة تعني أن نُعطي القرائن الَّتي تدل على حدث قيد البحث لإعطاء الحكم إلى أيّ جهةٍ هو المنطق. تستند هذه الشّهادة على النّظر وعلى السّمع. لذلك مع ارتفاع مفهومها إلى مستوى الشّهادة المسيحيّة، وصلت الشّهادة إلى بناء علاقةٍ عميقةٍ بين الشّاهد وموضوع شهادته؛ بمعنى آخر أن يلتزم بشهادته.

١٢٤٣. تبدأ الشّهادة لله داخل النّفس، فبعد أن تتلامس النّفس مع المسيح تأتي لحظةٌ حين يُقرِّر الإنسان بعزمٍ ثابتٍ أن يُطيع وصيّة الله، ويسلك في جميع حقوقه ببساطة.

١٢٤٤. من خلال مغامرة الشّهادة يدخل الإنسان في عهدٍ مع الله، وفي علاقةٍ مع الحقّ، يختبره ويستشعره، يتفاعل معه وينمو به وينمو فيه. ولا تخلو هذه العلاقة من صراعٍ داخليّ، وجراحٍ قد تكون غائرة، وآلامٍ قد تكون مريرة. أوجاع تارة من العدوّ الشّيطان، وتارةً أخرى من النّفس غير القادرة على الاحتمال، أو من قصور المعرفة وعدم القدرة على الرّؤية والتّمييز.

١٢٤٥. إنّ الاستشهاد في المسيحيّة ما هو إلاّ شهادةٌ لبِرّ المسيح، وعمله الخلاصيّ، وفاعليّته داخل النّفس. فالنّفس الَّتي تحوي المسيح لا تستطيع أن تَخفي نوره، فتشهد لمجد وغنى وجمال عمل المسيح فيها.

٣) النّفس الشّاهدة والشّهيدة

١٢٤٦. النّفس الَّتي اشتعلت بالحبّ الإلهيّ لا تملك إلاّ أن تُظهر ما فيها من حقٍّ وخير، تُعلنه مهما كان شكل الظّلمة الخارجيّة، ودون أيّ اعتبارٍ للألم الوقتيّ أو حتّى للموت.

١٢٤٧. درسٌ واحدٌ تتعلّمه النّفس من خلال الشّهادة والاستشهاد اليوميّ؛ هو صدق الله وهذا يكفي. على هذه الصّخرة يقوم كلّ الإيمان بالمسيح، ويشتدّ الرّجاء في موعد الخيرات العتيدة، وتتثبّت النّفس في محبّة الله.

١٢٤٨. بالتّيقُّن من صدق الله تتحرّر النّفس من كلّ عبوديّة، وتتنقّى من كلّ خوف، فتتعلّم كيف تكون صادقةً مع نفسها أوّلاً ثمّ صادقةً في كلّ شيء، فيتعلّم الإنسان كيف يعمل وينطق بالحقّ بلا مانع. وهذه هي كلّ مقوِّمات الشّهادة لله.

١٢٤٩. هكذا تبدأ الشّهادة لله بالصّراع مع النّفس، وصلب الجسد مع الأهواء والشّهوات. ثمّ صراع مع العدوّ الّذي يغربل النّفس كالحنطة، مُستخدمًا كلّ الظّروف الخارجيّة، مع حرب الأفكار. وبعد ذلك تكون الحرب سافرةً (عدوانيّة) يشنّها العالم بلا هوادةٍ ضدّ كلّ الّذين يريدون أن يعيشوا بالتّقوى في المسيح يسوع.

٤) دور الرّوح القدس في الشّهادة

١٢٥٠. عندما ظلّل الرّوح القدس القدّيسة الطّاهرة مريم وملأها وظلّلتها قوّة العليّ أصبحت شاهدة حقّ، فأضحت شاهدةً على افتقاد الرّبّ لشعبه بالخلاص (زيارتها لأليصابات، لوقا ١: ٣٩-٤٠).

١٢٥١. إنّ موهبة الرّوح القدس هي الامتلاء من روح الله، بحيث لا يعود الإنسان يفكّر بأفكارٍ بشريّةٍ وينطق بأقوالٍ دُنيويّة، بل إنّ روح الله الَّذي يملأه هو الَّذي يفكّر وينطق فيه. وروح الله هو أيضًا الَّذي يعمل فيه، لذلك إلى جانب الشّهادة للمسيح نجد الرّسل يجرون آياتٍ وعجائبَ في الشّعب (أعمال ٥: ١٥-١٦).

١٢٥٢. ليست الشّهادة للمسيح من عمل الإنسان، لكنّها عمل الله في الإنسان، حسب تدبير الرّوح القدس وخطّته البعيدة المدى لبناء الكنيسة.

١٢٥٣. يجد الرّوح طريقه إلى كلّ نفسٍ تطلب الحقّ فيُشعلها بروحه، وهو لا يترك نفسه بلا شاهد، وأبناء النّور يسيرون في النّور في كلّ زمانٍ ومكانٍ بلا تباطؤ ولا وَجَل في طريقهم إلى ملكوت أبيهم.

١٢٥٤. العالم في الخارج يتربّص بالنّفس المنهكة، ولكنّ مرافقة الرّوح القدس ويده الحانيّة عندما تتسلّم النّفس تقتادها بكلّ حكمةٍ في أحراش ومخاضات وقفار هذا العالم، مُسَخِّرَة لكلّ الظّروف حتّى تعمل كلّ الأشياء معًا للخير وتنتصر الشّهادة للإله الحقّ.

١٢٥٥. الشّهادة لله ليست عملاً إراديًّا يخطِّط له الإنسان عن حماس، ولا تحتاج إلى شجاعةٍ أو مواهبَ شخصيّة، ولكنّها ظهور الحقّ الّذي فيك، حسب إرشاد و إعلان الرّوح القدس، الّذي يستخدم كلّ موهبةٍ من أجل البُنيان.

١٢٥٦. الشّهادة لله لا تعتمد على قدرةٍ شخصيّة أو مهاراتٍ ذاتيّة، كالقدرة على الإقناع والحوار، ولكنّها قوّة الله الّتي تعمل في الضعف، وتظهر ليس حسب قدرتي، بل حسب إرادته، من أجل الاحتياج، في الوقت المناسب.

١٢٥٧. الَّذي يشهد للمسيح هو الرّوح القدس، ونحن أيضًا نشهد بالرّوح القدس الَّذي يحلّ فينا. بدون الرّوح القدس والانقياد الكامل لله والخضوع للوصيّة لا يستطيع أحدٌ أن يشهد لله.

٥) الشّهادة إشراق الفجر داخل القلب

١٢٥٨. الشّهادة لله ليست بالكلام أو بالجدل ولكن بالفعل والحقّ. فالمسيحيّ الحقيقيّ يشهد لروعة وجمال وصيّة الله بأعماله عندما يُنفِّذ الوصيّة حبًّا بالله «ليُضئ نورُكم قدّام النّاس، ليَرَوا أعمالكُمُ الصّالحة ويُمجِّدوا أباكُمُ الَّذي في السّموات» (متّى ٥: ١٦).

١٢٥٩. إنّ الشّهادة لله لا يمكن أن تتحقّق بكسر وصيّة الله، لأنّ الشّهادة تتمّ على أعلى درجةٍ من الحبّ لله: «إنْ كنتم تُحبّوني فاحفظوا وصاياي» (يوحنّا ١٤: ١٥). فكسر وصيّة المسيح ليست فيها محبّة المسيح ولا تشهد له.

١٢٦٠. الشّهادة للمسيح لا تقبح ولا تكذب ولا تبغض، وليس فيها التواءٌ أو خبثٌ أو نفاقٌ وهي لا تحتاج إلى دعاية أو مهارة أو حكمة هذا العالم وافتخاره. وهي ليست وليدة انفعالٍ عاطفيٍّ أو تعصُّبٍ أو حماسٍ أو غَيرةٍ أو حسدٍ أو تهوُّرٍ أو تستهدف المطالبة بحقوقٍ شخصيّة أو أهدافٍ قوميّة.

١٢٦١. الشّهادة للمسيح أشبه ما تكون بإشراق الفجر داخل القلب، لا تلبث أن تنبلج كنور الصُّبح، مَن يستطيع أن يخفيَها، ومَن يحتمل أن يقاومَها.

١٢٦٢. الشّهادة لله تتمّ على مستوى الاستشهاد والموت، ليس عن حماسٍ أو تعصُّبٍ بل حبٍّ: «ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبّائه» (يوحنّا ١٥: ١٣).

١٢٦٣. الشّهادة لله تتمّ على مستوى الاستشهاد والموت، ليس عن حماسٍ أو تعصُّبٍ بل حبٍّ: «ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبّائه» (يوحنّا ١٥: ١٣).

١٢٦٤. الشّهادة للمسيح لا تقبح ولا تكذب ولا تبغض، وليس فيها التواءٌ أو خبثٌ أو نفاقٌ وهي لا تحتاج إلى دعاية أو مهارة أو حكمة هذا العالم وافتخاره. وهي ليست وليدة انفعالٍ عاطفيٍّ أو تعصُّبٍ أو حماسٍ أو غَيرةٍ أو حسدٍ أو تهوُّرٍ أو تستهدف المطالبة بحقوقٍ شخصيّة أو أهدافٍ قوميّة.

١٢٦٥. الشّهادة للمسيح أشبه ما تكون بإشراق الفجر داخل القلب، لا تلبث أن تنبلج كنور الصُّبح، مَن يستطيع أن يخفيَها، ومَن يحتمل أن يقاومَها.

١٢٦٦. الشّهادة لله تتمّ على مستوى الاستشهاد والموت، ليس عن حماسٍ أو تعصُّبٍ بل حبٍّ: «ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا أن يبذل نفسه عن أحبّائه» (يوحنّا ١٥: ١٣).

١٢٦٧. الفروسيّة الرّوحيّة: بما أنّ حربنا ليست مع دمٍ ولحم (راجع أفسس ١٢ : ٦)، إنّما هي مع أجناد الشّرّ الرّوحيّة، فعلينا أن نتسلّح بسلاح الله الكامل: أن نلبِسَ خوذة الخلاص، أن نحمل ترسَ الإيمان، وأن نرفع وسام شرف انتسابنا لعائلة الملكوت في وجه عدوّ الخير، فهكذا يتلاشى من أمامنا رهبةً وضعفًا، وننتصِر نحنُ باسم ربّنا يسوع المسيح، قائد جيشنا.

٦) الكنيسة المُرسَلة والشّاهدة

١٢٦٨. بقوّة الشّهادة أرسل يسوع تلاميذه بلا كيسٍ ولا مزودٍ ولا عصًا للطّريق. وقبل ذلك اختارهم من جُهّال الأرض وأرسلهم كحملانٍ في وسط ذئاب ليشهدوا له في ظلمة هذا العالم وظُلمه.

١٢٦٩. إنّ هذه الإرساليّة العجيبة الّتي لا يمكن لأحدٍ أن يتوقّع لها أيّ نجاح، شهدت وما زالت تشهد بقوّةٍ لله عبر ألفي سنة، وما زال صوت شهادتهم يدوي عبر الأجيال صارخًا من وراء الزّمن موبِّخًا ومبكِّتًا العالم على الخطيئة والبِرّ والدّينونة. «ليس قولٌ ولا كلامٌ لا يُسمَع به صوتُهم. في الأرض كلّها ذاع منطقهم وفي أقاصي المسكونة كلامهم» (مزمور ١٨: ٣-٤).

١٢٧٠. إنّ هذه المسؤوليّة الخطيرة الّتي تضطلع بها الكنيسة لتُعَرِّف بسرّ المسيح أكبر من كلّ إدراكٍ بشريٍّ. وإن كنّا لا ندرك تمامًا الآن عملها في السّماء، فإنّ عمل الكنيسة الرّئيسيّ على الأرض هو أن تشهد لله بسرّ المسيح في جيلٍ مُلْتَوٍ. لذلك أبرزنا نحن كأنّنا محكومٌ علينا بالموت من أجل «الشّهادة للآلام الّتي للمسيح والأمجاد الّتي بعدها» (١ بطرس ١ : ١١).

١٢٧١. المسيحيّ الحقيقيّ هو ملحٌ للأرض ونورٌ للعالم، أينما وُجِد يصنع صلاحًا وخيرًا، بلا التواءٍ أو عجرفة، دون تذمّرٍ أو دمدمة. الملح يوضع في الأرض فينمي الزّرع ويثمر، وهو أيضًا يحفظ من الفساد، كذلك المسيحيّ أينما وجد ينحسر الفساد ويتوارى بسبب الرّوح القدُس الحالّ فيه: «ونحن شهودٌ له بهذه الأمور والرّوح القدس أيضًا الّذي أعطاه الله للّذين يُطيعونَه...» (أعمال ٥: ٣٢-٣٣).

١٢٧٢. النّور وإنْ كان رقيقًا هادئًا وجميلاً، إلاّ أنّه قادرٌ أن يبدِّد جحافل الظّلمة. لذلك تبغض الظّلمة النّور (يوحنّا ٣: ١٩-٢٠). الحقّ هو الخير وهو النّور، عندما يشرق نبصر جماله وبذلك يكشف ظلمة الشّرّ ويشهد عليه (يوحنّا ٧: ٧). من هذا يتّضح سرّ بغض العالم للمسيح، وبالتّالي للكنيسة الّتي تشهد بسرّ المسيح في العالم.

١٢٧٣. الكنيسة الحقيقيّة تشهد للعالم بالمسيح، وشاهدة عليه كمسيحها. إنّ الشّهادة للمسيح هي أكثر ما يؤرق إبليس وجنوده، فهو يعلم أنّ في ذلك نهايته. إن كان العالم ورئيسه لا يقوى على المسيح الّذي صرعه في الصّليب، فإنّه لا يستطيع أن يُسئ للكنيسة الّتي تعمل في أرضه لحساب المسيح. لهذا يضطهد إبليس الكنيسة ويحاربها بكلّ قوّةٍ ليعيقها عن الشّهادة للمسيح، وله في ذلك أساليب متنوّعة.

٧) ماهيّة الجهاد في المسيحيّة

١٢٧٤. الجهاد الرّوحيّ هو، في الحقيقة، حربٌ مقدّسة. حربٌ لا تُبقي ولا تُذْر، ضاريةٌ في قساوتها، هدّامةٌ في نتائجها، رهيبةٌ في فاعليّتها. وهي حربٌ ليست حديثةَ العهد في أساليبها ووسائلها، بل إنّ أسلحتها لم تتبدّل ولم تتغيّر منذ سقوط الإنسان في خطيئة العصيان.

١٢٧٥. ليس الجهاد الرّوحيّ جهادًا ضدّ أبناء البشر. هو ليس جهادًا ضد الطّوائف الأخرى والأديان الأخرى، فيه تُستخدم القنابل، والصّواريخ، والطّائرات، والتّهديدات، والاضطهادات، والمظالم، وقطع الرُّؤوس، والاغتيالات كما يحدث وحدث في بلدانٍ كثيرةٍ ضدّ المسيحيّة.

١٢٧٦. الجهاد هو تفجير الذّات: أن أضعَ عبوّاتٍ ناسفةً في قلبي لأفجّر الصّخر في داخلي. وما هي العبوّات الناسفة والدّيناميت؟ هو يسوع المسيح في قلبي، هو الرّوح النّاريّ، هو الرّوح المُتّقد، هو الرّوح الّذي يعطيني أن أعيش حياةً متّقدةً بالفضائل الإلهيّة والإنسانيّة على السّواء. نار الرّوح القدس تحوّل الإنسان إلى إنسانٍ متوشِّحٍ بالإيمان.

١٢٧٧. المجاهد الحقيقيّ هو الّذي يخرج بعد كلّ تجربةٍ أكثر تواضعًا ونبلاً وعذوبةً وطيبة، ويتلقّى التّعزيّة الإلهيّة الّتي تحفظه كجنينٍ في رحم أمّه، فتنضج روحه، ويبتهج بالله ويحبّه أكثر، ويدرك، تاليًا، محبّة الله له.

١٢٧٨. كونوا مُكافحين، كونوا مُثابرين، كونوا مُجاهدين، لأنّ النّعمة الّتي أُعطِيَت لنا بالمسيح يسوع لا يُرافَعُ عليها إلّا بالكفاح والجهاد. المسيحيّة الحقّ تخلو من اللّامبالاة والإهمال، فالمسيحيّة هي استمراريّة العمل والمُثابرة والكفاح حتّى في أصعب الظّروف.

١٢٧٩. الإنسان الّذي يسقُط، حتّى وإن سَقَط في النّهار سبعين مرّة، يبقى إنسانًا قائمًا لأنّ المسيحَ أمامه. علاقتنا بيسوع المسيح هي ضمانة قيامتنا من السّقطات، لأنّ الإنسان مُعرّضٌ في كلّ لحظةٍ إلى السّقوط، لكنّ يسوع المسيح يستمرّ في مدِّ يده قائلاً: «قُم لأُقيمَكَ من سقطتكَ!».

١٢٨٠. نحن بحاجةٍ إلى إيمانٍ مُحرِّر، بحاجةٍ إلى إيمانٍ يشفي ويعطينا أن نعيش سلامًا داخليًّا بيننا وبين ذواتنا. هذا السّلام لا يأتي من اللّاشيء؛ إنّه نتيجة عملٍ ومثابرة، جهادٍ واستشهادٍ يوميّ. هو لا يأتي هكذا من السّماء... هو نعم من السّماء، وهو عطيّةٌ من الله، وهو موهبةٌ من مواهب الرّوح القدس، هو حضور المسيح في قلبي وفي حياتي. ولكنّ هذه الأمور تأتي بالعمل المستمرّ والجهاد الرّوحيّ من أجل الحصول على هذا السّلام المنشود.

١٢٨١. الشّيطان يعرف المسيحيّين ويهاجمهم، لكنّ المجاهدين منهم يميِّزون خططَه. إذ إنّه يستعمل مختلف وسائل الخديعة ليُخضِع الإنسان ويزرع التّمرُّد على الله.

١٢٨٢. لسنا نحن المبشّرين بل الرّبّ هو المبشّر فينا. ما علينا أن نصنعه هو أن نعيش حقيقتنا، نشهد للحقّ الّذي فينا وهذا كلّه يكفي لكي يُدهش الآخرين، لأنّ الحقائق نفسها تتحرّك في قلوبهم بشكلٍ صادقٍ وسليم.

١٢٨٣. لقد نَسِيَ الشّيطان أنّ المسيحيّين المؤمنين هم جنودٌ مدرَّبون يحاربون تحت لواء المسيح الظّافر. قد يسقط بعضهم إبّان المعركة، وهم الشّهداء، وقد يُزجّ البعض الآخر في السّجون، وهم المضطَهَدون، وقد يحمل الباقون سمات آلام الصّليب، وهم المجاهدون في نشر كلمة الحياة، ولكنّهم في كلّ ما يفعلون يحاربون أجناد الشّرّ الرّوحيّة.

١٢٨٤. **الجهاد المسيحيّ هو جهاد محبّة.** المسيحيّ الحقيقيّ لا يتّخذ من السّيف أو أيّ أسلوب من أساليب الضّغط السّياسيّ، أو الاقتصاديّ، أو الاجتماعيّ، أو الدّينيّ لنشر المسيحيّة. فجهاده في جوهره، هو جهاد محبّةٍ حقيقيّة. فالجهاد الرّوحيّ المسيحيّ هو: جهادٌ ضدّ القوى الرّوحيّة الشّرّيرة، والشّيطان كأسدٍ جائعٍ يحاول أن يجد مَن يفترسه (راجع ١ بطرس ٥: ٨).

١٢٨٥. لَكَم قاسى الإنسان قبل المسيح من عبوديّة الخطيئة وتذوّق صنوف عذابها، ثم تحرّر من أصفادها، عندما أقبل المسيح إليه وفكّ قيوده، وأطلق سراحه، ليصبح من ثمّ جنديًّا صالحًا يسير في موكب نُصرة فاديه ومخلّصه.

١٢٨٦. الإيمان بيسوع المسيح هو إيمانٌ حَيٌّ ومُعاش، الَّذي ليس له أن يتوقّف عند مضامين الجسد أو عند حدود العقل، وهذا الإيمان يتطلّب منّا مثابرةً، جهدًا، عملاً، استمراريّة، وبالأكثر من هذا يتطلّب منّا جهادًا روحيًّا. المسيحيّة الحقيقيّة لا تأتي دون تعبٍ وجهادٍ وقهرٍ للذّات ولطبيعتنا البشريّة الفاسدة.

١٢٨٧. حين نأخذ جسد المسيح في جسدنا، فنحن نتبنّى أيضًا رسالته الخلاصيّة في حياتنا لننقلَها إلى حياة الآخرين، إذ إنّ الرّسالة هي الوجه النّهائيّ للإفخارستيّا، وهذه هي الشّهادة الحيّة والفاعلة، ذلك أنّه لا رسالةٌ حقيقيّةٌ بدون شهادةٍ حياتيّة.

١٢٨٨. إنّنا غالبًا ما نفهم أنّ الرّسالة هي عطاء، إلاّ أنّها استقبالٌ أيضًا. فتلميذا عمّاوس قد استقبلا من الرّبّ القائم كلّ التّعاليم الَّتي تتكلّم عن المسيح. وهذه هي الهديّة الثّمينة الّتي نقلاها إلى الرّسل: المعجزة الَّتي تشهد للحياة الَّتي وُلِدَت من الموت: إلهُنا حيّ.

١٢٨٩. كما أنّ الرّياضيّ والخطيب والموسيقيّ لا يصل إلى براعةٍ ونجاحٍ وتفوّق إلاّ بعد التّغلّب على عوائقَ كثيرةٍ وبعد ممارسةٍ متكرّرةٍ وتدرُّجٍ وجهاد، هكذا ينبغي على الإنسان السّاعي إلى قمم الرّوح أن يتجدّد ويلبس الإنسان الجديد: «أن تَنبذوا عنكم من جهة تصرُّفكم السّابق الإنسان العتيق الفاسد بشهوات الغرور، وتتجدّدوا بروح أذهانكم وتلبسوا الإنسان الجديد الّذي خُلِقَ على مثال الله في البِرّ وقداسة الحقّ» (أفسس ٤: ٢٢-٢٤).

١٢٩٠. موت المسيح كان أعظم شهادةٍ على أنّ الحبّ أقوى وأمضى من الكراهيّة، أنّ العطاء أفضل من الأخذ، وأنّ سلطان وجبروت سيّد العالم حدوده القبر، إذ إنّه لن يختبر قيامة الحياة.

١٢٩١. لم يتقابل المسيح مع العالم في مسألةٍ إلاّ واصطدم بها كاشفًا الحقّ من تحت أغطيّة التّعاليم الكاذبة والتّقاليد الخاطئة. فقد اصطدم المسيح بكلّ ما في العالم من سواد، لهذا تضافرت كلّ الجهود على صلبه. لذلك، فبمقدار الذّلّ والهوان الَّذي حمله موت الصّليب، كانت عظمة الشّهادة على أنّ المسيح غلب العالم بقيامته.

• صلاة

يا ربّ، أشكرُك على ما قدّمتهُ لي على خشبة الصّليب... فإنّي، في استشهادِكَ العظيم هذا، أرى حُبّك في كلّ قطرة دمٍ سالت بطُهرِها وكامِلِ ألمِها على صليبٍ عارٍمن الرّحمة لإلهٍ ما أعطى إلّا خلاصًا من ذاته الفائقة القداسة. بثالوثِكَ الكريم، يا جابِلي، تعالَ وبدّد ضوضاء هذا الصّراع الّذي أنا عائشٌ فيه؛ أُصارِعُ يا إلهي لكي أكونَ على شبهكَ أيّها الصّالح، ولكن يأكُلُني ضعفي فتسقُط شهادتي لك. أريدُ أن تسكُنَ فيّ فيستشهِد أمام خيركَ ونعمتكَ كلّ معوّقٍ لشهادتي لك.

آمين

الباب العشرون

لاهوت الخدمة الكنسيّة واللّيتورجيّة

يورد لنا هذا الباب أُسُس الخدمة في الكنيسة، ضمن الجماعة في المحيط الرّعويّ، الّتي لها أن تُقام على أساساتٍ متينةٍ من الإيمان الحيّ، وعبادةٍ تنمويّةٍ مُستمرّةٍ تتجسّد، بدايةً، في سرّ الإفخارستيّا، ومن ثُمّ في بقيّة أسرار الكنيسة. حيثُ أنّ الخدمة الكنسيّة تتطلّب عملاً روحانيًّا وخضوعًا لتعاليمَ إنجيليّةٍ معيّنةٍ الّتي تساعِدُ في إتمامها؛ من خلال هذا الباب سنرى أنّ الإيمان الحيّ والعبادة الحقّ هما الجناحان الّتي تحلّق بهما الخدمة الكنسيّة نحو السّماء.

١) الكنيسة بين الإيمان والعبادة

١٢٩٢. إنّ الكنيسة، في جوهرها، هي وحدةٌ وانصهار شخصيّاتٍ فريدةٍ متنوّعةٍ بفعل الرّوح القدس في المحبّة والبذل والانفتاح وشركة العطاء ونكران الذّات والتّضحية. هذه هي القاعدة الذّهبيّة لكلّ عملٍ وخدمةٍ كنسيّةٍ ورعويّة.

١٢٩٣. علينا الانتقال من الإيمان النّظريّ إلى الإيمان العمليّ، ومن الإيمان الطّفوليّ إلى الإيمان النّاضج. الإيمان النّظريّ هو إيمانٌ بعيد كلّ البعد عن المسيح. إنّه إيمانٌ مائت.

١٢٩٤. أسهل ما يمكن أن يفعله الإنسان هو إقناع نفسه أنّه مؤمنٌ وفقط... يقول عن نفسه: «أنا مؤمن»، لكنّي لا آتي إلى الكنيسة؟ «أنا مؤمن» وأقوم بأعمالٍ صالحةٍ لا يفعلها حتّى أولئك الّذين يأتون إلى الكنيسة. وهنا لا يسعني إلاّ أن أُشدِّد على أنّ **الإيمان الشّخصيّ لا ينمو وينضج إلاّ في الجماعة الكنسيّة**.

١٢٩٥. «**الإيمان الإفخارستيّ**»: إلاّ أنّ السّؤال الّذي يتبادر إلى أذهاننا مباشرة هو التّالي: هل من إيمانٍ حقيقيّ بلا إفخارستيّا، وهو نفسُه القائل: «إنْ لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في أنفسكم» (يوحنّا ٦: ٥٤)؟ كيف تكون لنا حياة المسيح بدون أن نحيا حياة الإفخارستيّا؟

١٢٩٦. إنّ الإيمان، في هذه الحالة، يُعتبَر إيمانًا سطحيًّا لا أساس له ولا جذور في قلب المسيحيّ. كأنّك تزرع شجرةً في أرضك، ولا تقوم بريّها ولا الاعتناء بها من خلال حراثتها وتسميدها وتنظيفها من الأعشاب الضّارّة... فقد تكبر هذه الشّجرة، ولكن، هل تُعطيك الثّمار المرجوّة؟ (راجع يوحنّا ١٥: ٢، ٤-٦، ٨).

١٢٩٧. العبادة تجسّد الإيمان وتحوّله إلى حدثٍ جماعيّ، فيما تحفظه في الوقت نفسه وتزيده، وبهذا تساعد الإنسان على الولوج إلى عمقه أكثر.

١٢٩٨. الإيمان، ليس كإيديولوجيّا كَنَسيّة وكإخلاصٍ فرديٍّ للمسيح المخلّص وحسب، بل كتعليمٍ أيضًا، هو شرطٌ مسبَقٌ أساسيّ وغير قابلٍ لأن تُنتهَك حرمته في العبادة الكنسيّة. إنّه القوّة المحفّزة للمؤمنين المتعبّدين، يُعَبَّر عنه بأعمالٍ خارجيّةٍ وحركاتٍ تشكّل طقسها.

١٢٩٩. العبادة الإفخارستيّة هي استمرار عمل المسيح الفدائيّ، وهي تُدخِل المؤمنين في شركة سرّ التّدبير الإلهيّ.

١٣٠٠. المسيح هو «المقدِّس» الّذي يجمعنا في جسده والمؤمنون هم «المقدَّسون» الّذين يشتركون في عبادته ويتلقّون مجده. الّذين يتناولون عن استحقاق يثبتون أنّهم هيكلٌ للمسيح (١ كورنثوس ٣: ١٦)، وأنّ سرّ الإيمان يعمل في قلوبهم.

١٣٠١. لقد أعطاني الله الإيمان من خلال الجماعة المؤمنة الّتي هي الكنيسة وهو يُدخلني بالتّالي في جموع المؤمنين في شركةٍ ليست اجتماعيّةً فقط، بل متجذِّرةً في محبّة الله الأبديّة، الّذي في ذاته هو شركة الآب والابن والرّوح القدس، هو المحبّة الثّالوثيّة.

١٣٠٢. إيماننا شخصيٌّ فعلاً، فقط إذا كان أيضًا جماعيًّا: يمكنه أن يكون إيماني فقط إذا ما عاش وتحرّك داخل «نحن» الكنيسة، فقط إذا ما كان إيماننا كلّنا، إيمان الكنيسة الواحدة المشترك.

١٣٠٣. يضع الرّوح القدس المؤمنين والخَدَمَة في علاقةٍ حيّةٍ بالمسيح، كلمة الآب وصورته، لكي يُفرِغوا في حياتهم معنى ما يسمعونه ويتأمّلونه ويفعلونه في الاحتفال، ذلك أنّ الرّوح القدس هو، في الكنيسة، ذاكرتها الحيّة.

١٣٠٤. الكنيسة هي إذًا مكان الإيمان، مكان نقل الإيمان، المكان الّذي نغوص فيه، بفضل المعموديّة، في السّرّ الفصحيّ لموت المسيح وقيامته، الّذي يحرّرنا من عبوديّة الخطيئة، ويعطينا حريّة الأبناء ويقودنا إلى الشّركة مع الله الثّالوث. في الوقت نفسه، نغوص في الشّركة مع بقيّة الإخوة والأخوات في الإيمان، مع سائر جسد المسيح، مُنتشَلين من عزلتنا.

١٣٠٥. إنّ ملء السّماء من مجد الله أمرٌ مفروغٌ منه، فهو قائمٌ بالخدمة الملائكيّة. الحاجة أشدّ الحاجة لنا نحن البشر إلى أن تمتلئ الأرض من مجد الله، هذا هو عمل الإنسان الصّالح، أن تمتلئ الكنيسة من مجد الله بالعطاء والشّهادة وبالخدمة الصّالحة؛ أن يمتلئ كلّ ديرٍ من مجد الله بالتّسبيح والانسحاق والتّفاني في المحبّة الإلهيّة؛ أن يمتلئ كلّ بيتٍ من مجد الله بالتّعاون والطّاعة والقدوة الصّالحة. وهذا وذاك لن يتأتّى إلاّ من خلال إنكار الذّات على مستوى الكنيسة والدّير والأسرة لإفساح الطّريق للشّهادة المطلقة لله.

٢) الخدمة الحقيقيّة والصّامتة

١٣٠٦. نحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى الابتعاد عن المظاهر الخارجيَّة للخدمة الهادفة إلى إظهار الذّات وإبرازها على حساب الآخرين والكنيسة والرّعيّة.

١٣٠٧. الإنسان الخدوم هو الشّخص الدّائبُ على خدمة الآخرين، والذي يسعى دائمًا الى صالحهم وخيرهم. وتعبِّر صفة «الخدوم» على البذل والعطاء والحبّ للآخرين، للكنيسة، للمجتمع وللإنسانيّة كلّها.

١٣٠٨. الخدمة ليست تحقيق البطولات، بل المشاركة الصّادقة بأقصى ما يستطيع المرء أن يقدِّمه حسب طاقته، دون أن يبخل بشيءٍ أو يتردَّد في تقديمه.

١٣٠٩. إنّ الخدمة هي حربٌ ضدّ الكبرياء وحبّ الذّات، وضدّ محبّة العالم وشهواته؛ إنّها مصارعةٌ ضدّ أجناد الشّرّ، لكي يملك المسيح إلى دهر الدّهور.

١٣١٠. الخدمة ليست صناعة كلامٍ، ولا احتراف وظيفةٍ، ولا مجد نشاطٍ، بل هي روحٌ وحياة، اِمتلاءٌ بالحبّ الإلهيّ، سهرٌ وتعبٌ وجهاد، اِهتمامٌ وحكمة، نموذجٌ لشهادةٍ حياتيّةٍ حيّة، نقاوةٌ وتعفُّف، صلاةٌ دائمةٌ وانسكابٌ للنّعمة الإلهيّة، تقديرٌ واعٍ للمسؤوليّة مع شركةٍ مُفرحةٍ مع كلّ الأعضاء في جسد المسيح السّرّيّ، أي الكنيسة.

١٣١١. الخدمة هي، إذًا، دعوةٌ... اختيار... اتّباع... تسليمٌ كامل... والتزام.

١٣١٢. نحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى **الخدمة الصّامتة**: فخدمة الإنسان لأخيه الإنسان في هدوء وصمت، ليس أمرًا عفويًّا أو طبيعيًّا، إذ إنه من الطبيعي أن نفضِّل أنفسنا، ونضعها في المقام الأول. كما ويسعى الإنسان دائمًا لسماع كلمات المديح والثناء، إلا أنّ حكمة الخدمة هي في أن نضع الآخرين في الاعتبار الأول. ولذلك علينا أن ندرك احتياجنا الى أن ينمو في داخلنا اتجاه خدمة الغير، لأنه ضد بذرة «الأنا» الطبيعيّة.

١٣١٣. إنّ **روح الخدمة** هي ما يُميِّزُ الإنسانَ المسيحيَّ عن غيره. فالخدمة ليست مجرَّد تأدية أعمال مفيدة للآخرين، لكنها قبل كلّ شي هي روح الحبّ والمشاركة والعطاء والتّضحيّة والتواضع وأخيرًا إنكار الذّات؛ فروح الخدمة هو ذلك الشّيء الّذي يميِّز خدمة الأحرار عن خدمة العبيد أو الأُجراء. فالعبد قد لا يقدِّم الخدمة إلاّ إذا ضُرِب، والأجير لا يقدِّمها إلاّ إذا أخذ الأجر، أمّا الخادم الحرّ الأمين فهو يهب خدمته حبًّا وطوعًا.

١٣١٤. فلسفة الخدمة الظّاهريّة والمزيّفة في المسيحيّة. نحنُ نعتقد أنّ فلسفة الخدمة هي «الأرستُقراطيّة المسيحيّة»، نعتقد أنّه لا بدّ أن يكونَ هناك مُقابلٌ أرضيٌّ ما لخدمتنا الكنسيّة، أو أنّ على الكنيسة أن تُقدّم، بالمُقابل، تنازلاتٍ مُعيّنةً أو استثناءاتٍ مهما كانت. للأسف، نحنُ نقدّم خدماتنا للكنيسة مُعتقدين أنّها ستكافؤنا بوضعِنا في الصّفوف الأولى مُتجاهلين حادثة غسل الأرجُل في إنجيل يوحنّا (الفصل ١٣).

١٣١٥. الخدمة هي خدمة الكنيسة وليسَت خدمة الكاهِن، ولا خدمة المُتسلّطين ولا خدمة المراكز الاجتماعيّة، لكنّها خدمة المسيح الرّاعي الحقيقيّ. نحنُ نأتي إلى الكنيسة لكي نخدُم المسيح ونعبّر عن إيماننا بيسوع المسيح. الكنيسة ليسَت مكانًا يفرض فيه الإنسان فوقيّته وأنانيّته، حاشا لنا. الكنيسة هي الكنيسة، وعلينا أن نحترم كرامتها وأن نحترم رأس الكنيسة، وأن نحترم بعضنا بعضًا لأنّنا نحترم رأس الكنيسة.

١٣١٦. ليكن الله هو هدفك الوحيد. أنت من أجله تخدم. وإذا تعارضت الخدمة مع الله، اتركها. لأنّه ما أسهل على الشّيطان أن يُضلّلك حتّى في داخل الكنيسة.

١٣١٧. تأكّد أنّ الله سوف لا يأخذ من خدمتك سوى الحبّ. وهكذا ينجح في الخدمة مَن يراها حبًّا، إذ إنّ حبّ الله والنّاس يقوده إلى خدمتهم، وكلّما يخدمهم يزداد حبًّا لهم، فيزداد خدمةً لهم. فالمحبّة هي أساس الخدمة.

٣)شخصيّة الخادم الرّوحيّ الأمين

١٣١٨. الخدمة هي قلب الخادم قبل لسانه؛ هي حرارته القلبيّة قبل وسائله التّربويّة.

١٣١٩. المهمّ في كلّ مسؤولٍ أن يكون خادمًا قبل أن يكون قائدًا.

١٣٢٠. المسؤول الحقيقيّ هو الّذي يُقدِّم مصلحة الجماعة على مصالحه الشّخصيّة، ويعمل في خدمة الآخرين بتواضعٍ وتضحيّةٍ ذاتيّة.

١٣٢١. الخادم الرّوحيّ الأمين هو لحنٌ جميلٌ في سمع الكنيسة، وأيقونةٌ طاهرةٌ يتبارك بها كلّ مَن يراها، وهو سلّمٌ يصل إلى السّماء دائمًا، يصعد عليه تلاميذه إلى فوق.

١٣٢٢. الخادم الرّوحيّ الأمين هو إنجيلٌ متجسِّد، أو هو كنيسةٌ متحرِّكةٌ هو صورة الله أمام تلاميذه. هو نموذجٌ للمُثُل العليا، وقدوةٌ للعمل الصّالح، ووسيلةُ إيضاحٍ لكلّ الفضائل، ذلك أنّ مَهمّته الأولى والأخيرة تكمن في إدخال الله في الخدمة.

١٣٢٣. الخادم الرّوحيّ الأمين هو روحٌ وليس مجرّد عقلٍ، ليس مجرّد مدرِّسٍ لاهوتيّ، ولا مجرّد حامل معلوماتٍ ينقلها إلى النّاس... بل هو روحٌ كبيرةٌ اتّحدت مع الله، واختبرت الحياة معه، وذاقت ما أطيب الرّبّ، وتريد بالتّالي أن تنقل هذه الحياة إلى غيرها. إنّه يَلِدُنا للحياة الرّوحيّة الحقيقيّة.

١٣٢٤. الخادم الرّوحيّ الحقيقيّ هو مغناطيسٌ شديد الجاذبيّة: كلّ مَن يدخل في مجاله ينجذب إلى حياة الرّوح.

٤) القيادة المسيحيّة

١٣٢٥. المثال في القيادة المسيحيّة هو السّيّد المسيح له المجد والإكرام. القائد المسيحيّ، مثل معلّمه، أتى ليَخدِم لا ليُخدَم. رؤساء الأمم يسودون عليهم، أمّا القائد المسيحيّ فيَخدم ويكون أوّل الخادمين: «إنْ أراد أحدٌ أن يكون الأوّل فليكن آخر الكلّ وخادمًا للكلّ» (مرقس ٩: ٣٥)، بهذا حدّد السّيّد القيادة المسيحيّة على أنّها قيادةٌ خادمةٌ متواضعة، تغسل أرجل الباقين دون أن تتوقّع منهم

أيّ مقابل: «فإذا كنتُ أنا الرّبّ والمعلّم قد غسلتُ أرجلكم، فيجب عليكم أنتم أن يَغسِل بعضكم أرجل بعضٍ، لأنّي أعطيتكم قدوةً حتّى إنّكم كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضًا» (يوحنّا ١٣: ١٤-١٥).

١٣٢٦. يسوع هو الرّاعي الصّالح الّذي يبذل نفسه في سبيل خرافه، خلافًا للأجير الّذي يسعى إلى مصلحته الشّخصيّة (يوحنّا ١٠: ١-١٨).

١٣٢٧. فأفضل مسؤولٍ هو الّذي يتسلّم مسؤوليّته كأنّها رسالةٌ من الله، ويتّكل على قوّة الله وعطاءات الرّوح القدس.

٥) الجماعة الرّوحيّة الرّعويّة

١٣٢٨. على الفرد المنتمي إلى حركةٍ كنسيّةٍ رسوليّةٍ أن يكون حاضرًا «مع»؛ أي ألاّ يكون لوحده، ألاّ يعيش في عالمه الخاصّ، بل أن يندمج في الجماعة «مع» الإخوة الآخرين، حيث يولِّد هذا الحضور فيه الفرح والاستمتاع بحضور الآخرين ومشاركتهم.

١٣٢٩. على الفرد المنتمي إلى حركةٍ كنسيّةٍ رسوليّةٍ أن يكون حاضرًا «لأجل»؛ يصبح لدى الفرد نُضجًا ومسؤوليّةً والتزامًا بالعمل «لأجل» الآخرين، بحيث تتحوّل مقولة «الجماعة من أجلي» إلى مقولة «أنا من أجل الجماعة». إنّها نظرةٌ فيها خروجٌ من الذّات باتّجاه الآخرين، حيث تجعله يفكّر في العطاء والمزيد من المحبّة.

١٣٣٠. ثمرة الاختبار الفرديّ، وداخل الجماعة أيضًا، تظهر في التزام أبناء الحركات الرّسوليّة في أوقات الصّلوات داخل الجماعة الكبرى: ولأوقات الجماعة الرّعويّة الأفضليّة ودور الحركات هنا هو تنشيط وإحياء الصّلوات داخل الرّعيّة بالتّنسيق مع الكاهن.

١٣٣١. أبناء الحركات الرّسوليّة مدعوّون لأن ينخرطوا في المجتمع المدنيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ والسّياسيّ ببُعده الواسع وليس الضَّيّق كعلمانيّين مؤمنين بالمسيح الَّذي يعطي المعنى لكلّ شيء في هذه الحياة. فهم مدعوّون أن يتفاعلوا مع هذا المجتمع ويحوّلوه إلى فكر المسيح.

• صلاة

إلهي، سامحني لأنّني، بسبب انهماكي بالخدمة ومتطلّباتها، أنساك... وأنسى أنّك أنتَ مُحرّكُ الكُلّ وسيّد كلّ أمور الخدمة، حتّى البسيطة منها. أنظرُ إليكَ، يا يسوع، عندما غسلتَ أرجُل تلاميذك، فأخجل... أخجلُ من نفسي لأنّها تفشلُ بأن تتمثّل بكَ في إطار خدمتي. سامحني، يا ربّ، إن كُنتُ قد خطئتُ بأحدِ تلاميذك العاملين معي في ذات الخدمة، واسقِني من تواضُعِك وحُبّك فأرتقي إليكَ وإليهم. أيّها الفخّاري الأعظم، أضعُ نفسي خزفًا بين يديكَ، فاصنعني كما شئت أن أكون... بالقلب الخادم الّذي تبتغيه. المجدُ لك ولصنيعِك في كلّ حين.
لأنّ لك الملُك والقدرة والمجد،
آمين.

الباب الواحد والعشرون

سرّ الزّواج والعائلة المسيحيّة

إنّ هذا الباب هو رصفٌ لحجارة بناء العلاقة الزّوجيّة المسيحيّة. فهو الباب الّذي على كلّ زوجٍ وزوجةٍ أن يدخلوا منه لكيما يبنيانِ معًا بيتًا يمجّد المسيحيّة بسلوكها وتربيتها.

١) العائلة، كنيسةٌ مصغَّرة

١٣٣٢. إنّ سرّ التّجسّد، الّذي بواسطته يقترب الله منّا، يُظهر لنا أيضًا الكرامة الّتي لا تُضاهى لكلّ حياةٍ بشريّة. لذا فإنّ الله، في مشروع الحبّ منذ الخلق، قد أوصى العائلة المبنيّة على سرّ الزّواج، بالرّسالة الأسمى، ألا وهي أن تشكّل خليّةً أساسيّةً للمجتمع، وأن تكون الكنيسة المنزليّة الحقيقيّة.

١٣٣٣. العائلة هي الكنيسة المصغَّرة الَّتي يجب أن يكونَ المسيحُ حاضرًا فيها بشكلٍ دائمٍ بروحه القدّوس؛ ومتى كانت العائلة منفتحةً على الحياة المسيحيّة وملتزمةً في الرّعيّة والمجتمع، تكون قادرةً تلقائيًّا على الانفتاح على الصّداقة والحنان والخدمة العامّة المنزّهة عن كلّ غاية.

١٣٣٤. الكنيسة تُعلِّقُ آمالَها الرّوحيّة والانسانيّة والاجتماعيّة وحتّى الدّعوة الرّهبانيّة والكهنوتيّة على العائلة وخصوصًا الأم، لأنّه كما يقول آباءُ الكنيسة القدّيسون، فإنّ الدّعوة الرّهبانيّة والكهنوتيّة تولد من رَحِمِ الأمّ، الّتي ترغب بكلّ طواعيّةٍ في تقديم ابنها لخدمة المذابح، وما أجمل البيت الّذي يخرج منه كاهنٌ أو راهبٌ أو راهبةٌ! إنّه بيتٌ مبارَك! لذلك، فإنّي أدعوكم أيّها الشّباب والشّابات أن تُلبّوا دعوةَ الرّبّ إذا ما دعاكم لخدمة كنيسته، لأنّ «الحصاد كثيرٌ والعَمَلَة قليلون» (متّى ٩: ٣٧-٣٨).

١٣٣٥. في هذه الكنيسة الصّغيرة تظهر صورة الأب المسيحيّ الّذي يزرع تعاليم الحقّ والحياة في الأرض الطّيّبة، أي أطفاله. وفي هذه الكنيسة تبرز أيضًا شخصيّة المرأة المسيحيّة بروعةٍ أخّاذة. المرأة المسيحيّة الّتي تُثبت وجودها في بيتها فتحصّنه بعطفها وحنانها، وتلقّن صغارها طريق الحياة النّيّرة الخالدة.

١٣٣٦. العائلة هي مدرسة إيمان، تُغذّي، وتُربّي، وتنشّئ أبناءها على الإيمان بالرّبّ يسوع.

١٣٣٧. ومن هذه الكنيسة الصّغيرة يدرج إلى العالم الطّفل المسيحيّ وسط هالةٍ من طهرٍ ونور، بكلّ ما في نفسه من صفاءٍ ونقاء، وبكلّ ما في قلبه من تطلُّعٍ إلى يسوعه الحبيب الّذي كثيرًا ما حدّثته عنه أمّه، وهو في فِراشه ينتظر رواية أمّه. وإنّه ليعمل جاهدًا لكي يتبع تعاليم يسوعه الطّفل، لأنّه أحبّ كثيرًا حياته الرّائعة وتعشّق أكثر وأشدّ محبّته للعالم، فأحبّ من أجله الحياة والعالم. وإنّ هذا الطّفل المتحرّر من كلّ الأهواء الّتي تدوس كرامة الإنسان وقدسيّة النّفس الإنسانيّة، والّذي سيشبّ ويترعرع في المسيح، لهو جديرٌ أن يبرز إلى المجتمع كشابٍّ مسيحيّ، كشابٍّ أصبح بملء قامة المسيح.

١٣٣٨. العائلة المسيحيّة، داخليًّا، عشٌّ جميلٌ يلفّ أفراخه بحُنُوٍّ وعطفٍ، فيُهَدْهِد آلامهم ويخفّف من أتعابهم. ففي هذا العشّ المسيحيّ الرّائع تذوب كلّ الآلام وتنصهر كلّ المتاعب وتُبعَث الحياة، الحياة المتدفّقة، في الإنسان الجديد.

١٣٣٩. الأمّ الّتي ترضع طفلها الحليب من صدرها تُعطيه الحبّ والحنان النّابع من القلب، هكذا تعطي الإيمان إلى بنيها عندما تكون معلّمةً وأمينةً على العهد المقدّس الّذي قطعوه أمام الله في سرّ الزّواج، وأن يكونوا الوالدين أمينين أمام الله والكنيسة في الوعد الّذي اختاروه عندما قدّموا ابنهم (ابنتهم) إلى سرّ العماد المقدّس، أن يربّوهم تربيّةً صالحة، ويسلّحوهم بالإيمان بيسوع المسيح الرّبّ، موجِّهين إيّاهم نحو الطّريق المقدّس، طريق الخلاص.

١٣٤٠. كثيرٌ من الأزواج ينسَون أهميّة الصّلاة والافخارستيّا في تحصين العائلة وجعلها سورًا منيعًا ضدّ التّجارب والشّدائد والمشكلات الّتي قد يواجهونها.

١٣٤١. العائلة هي الكنيسة المصغَّرة الّتي تقوم بتربيّة جيلٍ من الأبناء ملتزمين محبّة الله وخدمة الكنيسة ومتأصّلين في مسيحيّتهم.

١٣٤٢. في الكنيسة، كلّ عائلةٍ كنيسة، ودعوة المسيح لنا هي أن نجعل عائلاتنا كنائسَ حقيقيّةً وذلك بأن نصبح: جماعاتٍ مؤمنةً تحمل بشارة الخلاص؛ جماعات حوارٍ مع الله؛ جماعاتٍ في خدمة الإنسان.

١٣٤٣. العائلة المسيحيّة تأخذ جذورها في الأسرار، وتبني ذاتها جماعة حوارٍ مع الله في صلاةٍ دائمة. ففي ذبيحة العهد الجديد الأبديّ يجد الزّوجان مصدر نِعَمٍ لقيام عهدهما الزّوجيّ ونموّه. وبالمشاركة في الإفخارستيّا يُصبح أعضاء العائلة جسدًا واحدًا. ولكي يحوّلوا كلّ حياتهم اليوميّة إلى «ذبيحةٍ روحيّةٍ ترضي الله»، يجب أن تصبح حياتهم حياةَ صلاة، حياةَ حوارٍ مع الله الآب بالمسيح يسوع وفي الرّوح القدس.

١٣٤٤. علامة الفداء والخلاص في الحبّ الزّوجيّ المسيحيّ هو الانفتاح على الآخر والاستعداد للخدمة. العائلة المسيحيّة مدعوّةٌ كي تعيش على مثال الكنيسة وصيّة المسيح الجديدة في خدمة الله والقريب.

٢) البيت المسيحيّ

١٣٤٥. البيت المسيحيّ بين الرّمل والصّخر: البيت المسيحيّ هو البيت المبني على صخرة المسيح نفسه؛ فالأُبَّهة والمال هي كالغبار تزول لأنّها تضع من شأن النّفس، فبيت المسيح ليس المكان المليء بالأثاث الفاخر والغرف الّتي لا تحصى والملابس الكثيرة، وإنّما هو المكان الّذي نعمل فيه على خلاص نفوسنا. بيتنا يكون بيت المسيح عندما يُرَبَّى الأولاد بالكلمة الإلهيّة ويعملون بها. هم وأهلهم الّذين بدورهم يجب أن يعرفوا ما معنى القيم المسيحيّة. ولكن هل يعرف الأهل اليوم التّعاليم والقيم المسيحيّة لينشّئوا أولادهم عليها؟

١٣٤٦. البيت المسيحيّ يكون في الحركة معًا نحو الله، وفي الحياة الّتي الله مركزها. إنّها الإيقونات فوق الأَسِرة، والصّلاة قبل الأكل، وقصص الكتاب المقدّس وسِيَر القدّيسين للأطفال في السّرّير والصّلاة قبل النّوم. إنّها شرح الأعياد على المائدة والحديث من القلب إلى القلب عن الإيمان والحُبّ والحياة. إنّها عيد الميلاد معًا ورأس السّنة في العائلة. وهي التّعييد لأسماء القدّيسين والشّفعاء، والمناولة معًا والتّهيُّؤ لها معًا.

١٣٤٧. البيت المسيحي هو مدرسةٌ تُعَلَّم فيه تعاليم المسيح والكنيسة، بحيث يصبح البيت كنيسةً صغيرةً بكلّ ما للكلمة من معنى، كما كان بيت أكيلا وبِرِسْكِلّة اللّذَين يذكرهما الرّسول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ويسلّم على الكنيسة الّتي في بيتهما (١٦: ١٩).

١٣٤٨. البيت المسيحيّ فيه زاويةٌ توضع فيها الأيقونات حيث تتلاقى العائلة يوميًّا للصّلاة أمامها، فتضفي جمالاً ليس فقط على ديكور بيتنا الحجريّ، إنّما أيضًا على بيتنا اللّحميّ الرّوحيّ والعائليّ. هذه الزّاوية المقدّسة يجب أن تكون المحور حيث تتوحّد العائلة بالمحبّة والصّلاة، فبهذه الطّريقة تسكن النّعمة بيتنا، لأنّ الرّبّ في ساعة الصّلاة العائليّة هذه يكون حاضرًا (راجع متّى ١٨: ٢٠). عند اجتماع العائلة في الصّلاة يدرك الجميع أنّهم تحت سِتروقاية الله وأنّه هو الفاعل في أمور حياة العائلة وهو يحفظها من كلّ شرّ.

٣) صورة العائلة المسيحيّة المشوَّهة

١٣٤٩. أدعو عائلاتِنا الشّابة إلى مزيدٍ من المسؤوليّة والرّصانة والجدّيّة في التّعامل مع متطلّبات سرّ الزّواج الّذي لا يقوم فقط على ولادة البنين بل وعلى تربيّتهم تربيّةً مسيحيّةً صالحة. فمن أين تأتي التّربيّة الصّالحة طالما يعيش الأزواج حالةَ الانحلال واللّامبالاة؟ قيّموا أنفسكم وأعمالكم إن كانت تليق بكم أو هي تُبعدكم عن الهدف المنشود.

١٣٥٠. إنّ ما تَشهده عائلاتُنا في هذه الفترة الحرجة من مشكلاتٍ وصعوباتٍ على صعيد تفكّك العائلة هو نتيجةٌ حتميّةٌ لغياب المسيح عدا الجهل العميق لتعاليمه المتجسِّدة في الإنجيل المقدّس، وتلاشي القيم الرّوحيّة والأخلاقيّة الّتي نادى بها السّيّد المسيح، وموت الانتماء إلى الكنيسة، وفقدان قيمة الصّلاة والإيمان، والآتي سيكون أعظم. إنّ غضبَ الرّبّ قريبٌ جدًّا على ذوي القلوب المتصخِّرة والّتي تُشبه القبور، من خارجها جميلةٌ ومن داخلها مليئةٌ برائحة الموت النَّتِنة.

١٣٥١. **اللّباس المُحتشم في الكنيسة.** اِسأل نفسك: هل الملابس الّتي أرتديها ومظهري الخارجيّ يُمجِّد الله أم يُثير فقط إعجاب النّاس ويلفت الأنظار «حتّى يُمجَّد الله في كلّ شيء بيسوع المسيح الّذي له المجد والعزّة إلى دهر الدّهور. آمين» (١ بطرس ٤: ١١)؟

١٣٥٢. الملابس هي انعكاسٌ خارجيٌّ لتقوًى داخليّة، إذ إنّ الجمال الحقيقيّ هو الجمال الدّاخليّ القلبيّ، على حدّ قول كاتب المزامير: «بنت الملك جميع مجدها في الدّاخل» (مزمور ٤٤: ١٤؛ راجع أيضًا نشيد الأناشيد ٦: ١٠)؛ فلا تسعَوا وراء الذّهب الخارجيّ والزّينة الجِسمانيّة، لكن اهتمُّوا بالثّوب الجديد بتزيين النّفس الّتي على حسب صورة الخالق: «فلا تكن زينتكنّ الزّينة الظّاهرة من تجعيد الشّعر والتّحلّي بالذّهب ولبس الحُلل، بل زينة إنسان القلب المستتر أي زكاء (نموّ) الرّوح الوديع السّاكن الّذي هو كثير الثّمن أمام الله» (١ بطرس ٣: ٢-٤)، وأيضًا: «وكذلك النّساء بزينةٍ لائقةٍ متزيّناتٍ على مقتضى الحِشمة والتّعقُّل لا بتجعيد الشّعر أو بالذّهب أو اللّآلئ أو الثّياب الكثيرة الثّمن، بل بما يليق بنساءٍ قد تعاهدن العبادة بالأعمال الصّالحة» (١ تيموثاوس ٢: ٩-١٠).

١٣٥٣. أدعو جميعَ أبنائي المسيحيّين باسم ربِّنا يسوع المسيح أن يحتفلوا بالمناسبات الكنسيّة والدّينيّة بروحانيّةٍ مقدّسة، ويهتمُّوا بتربيّة أبنائهم تربيّةً مسيحيّةً رصينةً ومسؤولة، لأنّ الرّبّ يسوع سيُطالبُكم أيّها الأهل الأحبّاء بتقديم حسابٍ عن تربيّتكم. علِّموا أبناءكم على التّعصّبِ لمسيحهم ودينهم بالمفهوم الإيجابي الَّذي يرتكزُ على فكرة الإنتماء إلى المسيح، من جهة، وإلى الأرض الّتي احتوت تدبير الله الخلاصيّ (النّاصرة، طبريّا، كفرناحوم، القدس الشّريف، بيت لحم...)، من جهةٍ أخرى، وعدم إلغاء الآخر المختلف عنّي دينيًّا.

٤) أصالة العائلة المسيحيّة

١٣٥٤. التّربية المسيحيّة في البيت هي عيش الإيمان، أي حفظ الأصوام والأعياد، المشاركة في أسرار الكنيسة كعائلة، والجهاد ضد الرّغبات كعائلة، والتّعلّم عن الإيمان كعائلة. إنّها اختبار المسامحة الّتي تأتي بعد الخلاف بين الإخوة، وتحسُّس المحبّة الَّتي تغلب الغضب، وممارسة المشاركة الَّتي تكون صعبةً في أغلب الأوقات.

١٣٥٥. العائلة الأرضيّة، الّتي تتآكلها قوى النّزاع والخصومة والانشقاق، وتمزّق أُلفتَها الطّبيعيّةَ أسبابٌ واهيّةٌ سخيفة، هذه الأسباب الّتي منشؤها روحيّتنا المتفكّكة ونفوسنا الجافّة. فالعائلة الأرضيّة الّتي ستصبح في ذلك الحين عائلةً مسيحيّة، ستتّحد روحيًّا لتؤلّف كنيسةً صغيرة، أساسها المحبّة والإيمان والتّفاهم المتبادل العميق على أساس التّعاون والاتّحاد في الحقل الرّوحيّ الدّاخليّ والعمل الدّنيويّ الخارجيّ. فهذا الاتّحاد الصّميميّ يولّد فيها قوّةً جبّارةً تستطيع أن تواجه الحياة بأتعابها ومشقّاتها دون خوفٍ أو اضطراب.

١٣٥٦. عند ذاك تبطل أن تكون السّلطة الزّوجيّة في العائلة تسلُّطًا بل تصبح إصغاءً للآخر وخدمةً وتفتيشًا مستمرًّا عنه واكتشافًا لقدراته وحضورًا لمواهبه بشكلٍ متوازنٍ وناضج.

١٣٥٧. العائلة مدعوّةٌ إلى التّجدّد الدّائم اليوميّ لمواجهة المُعوِقات، وإلى الأمانة الّتي توفّر الأمان؛ وهي مدعوّةٌ إلى عيش بعض القيم الجوهريّة الّتي لا قيام ولا نجاح لأيّة جماعةٍ بدونها. وأهمّها: التّضحيّة والفرح والاحترام المتبادل، والغفران والمسامحة والمصالحة، الّتي تشكّل المخرج الوحيد لتجديد الحبّ والاستمراريّة. ولا بدّ من التّركيز أيضًا على المساواة، والمشاركة، وتحمّل المسؤوليّة الموكولة إلى الزّوجين، كلٌّ حسب مؤهّلاته ودوره.

٥) الشّباب المسيحيّ

١٣٥٨. أمّا شبابنا المسيحيّ فهو جديرٌ أن يعرف الحياة ولذّاتها الحقيقيّة ما دام يتصّل بها من النّاحية الأصليّة فيها (راجع ١ يوحنّا ٢: ١٥-١٧). إنّه يعرف الحياة كفاحًا هائلاً، ولكنّ روحانيّته القويّة ونشاطه المتجدّد سيكفل له إكليل الغار والنّصر.

١٣٥٩. إنّ هذه الملاهي لن تكون في عالم الغد المسيحيّ مقبرةَ الشّباب حيث تتحطّم فيها وتغيض الحيويّة ذلك العنصر الأساسيّ في كفاحنا وسط هذا المعترك الجبّار. الشّباب المسيحيّ كلّه حيويّةٌ ونشاط، لأنّ **روحه المتجدّدة في المسيح** تجعله أعظم من أن تحطّمه الحياة ويخيفه الكفاح.

١٣٦٠. من هذا الشّباب المسيحيّ نستطيع ولا شكّ أن نخلق عالمًا من حبٍّ وخيرٍ وسلام. إنّ جميع الإمكانيّات الشّخصيّة الّتي نواجهها اليوم في سبيل تعاسة هذا العالم، تتوجّه كلّها حينئذٍ إلى إسعاد هذا العالم نفسه، وكلّ هذه القيم الاجتماعيّة الفارغة الّتي نتعبّدها اليوم، والّتي تجعل من الحياة شيئًا أجوفًا ستتحطّم غدًا وتنشقّ عن قيمٍ أعلى وأنبل.

٦) بناء المجتمع المسيحيّ الجديد

١٣٦١. بكلمةٍ موجزةٍ نقول إنّ الأهواء الشّخصيّة سترتفع وتسمو، وإنّ النّفس الإنسانيّة ستصبح صافيّةً طاهرة، والتّفكير الإنسانيّ والعبقريّة الجبّارة الّتي تدمّر العالم اليوم هي الّتي ستبني غدًا. هذا التّيّار الرّوحيّ سعادة هذا العالم ورخائه.

١٣٦٢. من هذا المجتمع النّبيل في اتّجاهاته، الرّفيع في تفكيره، نحصل على حياةٍ مُثلى. فهذه النّفوس المتّحدة مع الله أو هذه الكنيسة الأرضيّة لن يكون فيها حقدٌ ولا بغضاء. المجتمع عبارةٌ عن إخوة في المسيح. كلّنا أحبّاء وكلّنا إخوة وكلّنا واحدٌ في المسيح الواحد: «تعالَوا إليّ أيّها المتعَبون والثّقيلو الأحمال وأنا أريحكم» (متّى ١١: ٢٨). منذ أكثر من ألفي سنة، رنّ في فضاء الأرض التّعسة هذا الصّوت الإلهيّ العذب والحبيب: «تعالوا إليّ». إنّ المسيح يناديكم أيّها الجليليّون.

١٣٦٣. **أيّها الجليليّون**، لقد آن لنا أن ندفن مع المسيح الإنسان العتيق ونلبس الإنسان الجديد. إنّ الكنيسة لم تنادِكم اليوم إلى عيد، إنّها لا تناديكم ولن تناديكم أبدًا إلى بهرجةٍ وسرورٍ، إلى فرحٍ خارجيٍّ فقط. فنحن لا يهمّنا أن نعيّد بقدر ما يهمّنا أن يكون هذا العيد دعوةً صارخةً إلى حياةٍ جديدة. الكنيسة لم تنادِكم إلى عيدٍ إنّما إلى قيامة، قيامةٍ جبّارةٍ تغمر كلّ شيء، قيامةٍ نيّرةٍ تنساب حتّى أعماق القلوب، لنصبح كلّنا في المسيح والمسيح فينا.

١٣٦٤. على الأهل ألاّ يزرعوا في قلب الطّفل فكرة أنّه هو الأذكى وعلى باقي طلّاب صفِّه أن يكونوا أقلّ مستوى منه بالذّكاء والتّحصيل العلميّ. لكن، لماذا لا نستغلّ عطيّة الله لنا إيجابيًّا ومنها نُعطي ونفيد الآخر؟ لماذا لا نُعلّم أولادنا أن يقدّموا للآخرين القليل من الكثير الّذي مَنَّ الله به عليهم؟ لماذا نربّيهم أن يدوسوا على الآخرين ليصلوا إلى مرادهم؟

١٣٦٥. على سبيل المثال، كم أرغب ورغبتي شديدة في أن أرى ولدًا ذكيًّا في المدرسة يأخذ على عاتقه تعليم ولدٍ ضعيف في دروسه بدل من أن نُحطّمه أكثر وأكثر! إلاّ أنّ هذا الولد لن يقوم بهكذا مبادرة إلاّ إذا تربّى في عائلته على العطاء المجّانيّ والتّضحيّة في سبيل الآخرين!!! كم أرغب في أن أرى معلّمين ومعلّماتٍ يُضحّون أكثر في سبيل جعل ولدٍ ضعيف في مستوًى أعلى، ولا يهتمُّوا بالطّالب الذّكيّ فحسب! إنّ الله منحك مواهبَ وعطايا جمّة، فعليك تاليًا أن تُقدّمها للآخرين، إنّها ليست حكرًا عليك ولا استعمالها يجب أن يكون أنانيًّا: «مجّانًا أخذتم فمجّانًا أعطُوا» (متّى ١٠: ٨).

١٣٦٦. لا نستطيع أن نبنيَ كنيسةً واحدةً إذا كانت العائلة، الكنيسة المُصغّرة، مفسّخةً ومنقسمةً على ذاتها، ذلك أنّ العائلة هي مكان اللّقاء المفضّل للحياة وللحبّ وللسّعادة وللتّوازن الإنسانيّ، تلد أولادًا لله بالعِماد وتُربّيهم على الإيمان والصّلاة والثّقة بالله وبالإنسان. وهكذا تصير العائلة شاهدةً للقيم الإنجيليّة الحيّة وناصتةً لكلّ دعوةٍ تأتيها من الرّبّ، إذ تشارك عائلة النّاصرة وتقتدي بمثالها في خدمة الملكوت.

١٣٦٧. نريد أن نبنيَ مجتمعًا مسيحيًّا مثاليًّا، نريد أن نعلّم أولادنا محبّة الكنيسة، نريدُ أن نُعلّم أبناءنا الانتماء إلى المسيحيّة، نريد أن نعلّمهم هُويّتهم المسيحيّة وألّا يكونوا كالأولاد الّذين يجهلون مدى روعة دينهم وميزاته. إذا بقينا على ما نحنُ عليه اليوم، لن نكون بحاجةٍ إلى أيّ أحد ليدثرنا، فإنّنا نقوم بهذا بأيدينا نحن.

١٣٦٨. لتربيّة أولادنا على العطاء في الكنيسة دون مقابل.

١٣٦٩. التّحدّي الأكبر هو أن يشهد الزّوجان المسيحيّان في حياتهما اليوميّة لمحبّة الله اللّامحدودة للبشر، ولمحبّة الكنيسة اللّامحدودة للمسيح. وهذا يتطلّب استعدادًا للمغفرة حتّى سبعين مرّة سبع مرّات.

١٣٧٠. عندما يقول لكم الكاهن: «المسيح في ما بيننا»، تردّدون: «كائنٌ وسيكون» وهو معنا، ماذا نقول؟ هذا كلامٌ ينبع من اللّسان فقط. نُريد أن نقول: المسيح **بالحقيقة** في ما بيننا، وهو في داخلنا وفي قلوبنا وفي عائلاتنا، **ونحن شهودٌ على ذلك** بأقوالنا وأعمالنا. ربّوا أولادكم، وإلّا لن نلتقي في ما بعد في الكنيسة لأنّ المسيحيّة في زوالٍ مُستمرّ. وهُنا لا أقصِد الزّوال بالعدد، العدد ليس ضروريًّا، إنّما ما يهُمّ هو النّوعيّة المسيحيّة، جودة المسيحيّين اليوم.

١٣٧١. ما أروع العائلة الَّتي تلتقي ولو لمرّةٍ واحدةٍ في اليوم قبل أن تخلُدَ إلى النّوم، ولو لثلاثين ثانية، لتُصلّيَ معًا، في وحدةٍ وشركةٍ عائليّةٍ-روحيّة، الصّلاة الّتي علّمنا إيّاها الرّبّ يسوع: «أبانا الَّذي في السّموات...» وتقرأ فصلاً إنجيليًّا مُكوّنًا من سطرَينِ أو ثلاث. حتّى دقيقة الصّلاة هذه باتت مفقودةً في عالمٍ متوهِّجٍ بالدّهريّة والمادّيّة، وكأنّ الرّبّ لا يستحقّ منّا هذه التّضحية.

١٣٧٢. داخل الكنيسة وبواسطتها يتعلّم الزّوجان كيفيّة إنقاص «الأنا» كي تزداد الـ «نحن». يتدرّبان أيضًا على تفهّم الآخر وقبوله في كافّة الظّروف والأحوال. «يُصلَب» العشق كي «يقوم» حُبًّا، وذلك لأنّ الحبّ وحده يحفظ جمال العشق، ويقوده إلى الملكوت الإلهي. الحبّ فردوس؛ الحبّ تضحية؛ الحبّ اتّحادٌ يهبه الله».

١٣٧٣. داخل الكنيسة، تتجاوز العائلة كلّ عشقٍ مميتٍ وتأليهٍ للذّات، وذلك لأنّ المحبّة لا يُمكنها أن تكون مُنغلقةً أبدًا. إنّها بطبيعتها جامعةٌ ومُنفتحةٌ على الآخر.

١٣٧٤. وكما تحوّل الماء إلى خمرٍ بنعمة الله المتجسّدة في شخص يسوع المسيح، وإرادة الإنسان المتجسّدة في شخصيّة العذراء والخَدَم، هكذا يتحوّل هوى الأنانيّة إلى المحبّة المسيحيّة، وعَوَز الفرد إلى كمال الشّخص.

١٣٧٥. إنّ تسميّة الأبناء بأسماء القدّيسين هي جزءٌ من التّربيّة على الإيمان، ولا نقول إنّها كلّ التّربية. إنّها مدخلٌ إلى الفهم الصّحيح للشّفاعة واستدعاءٌ لها.

١٣٧٦. إنَّ الحبَّ، كالخمر العتيقة، يطيب ويدوم مع مرور الزّمن، يصير غير مشروطٍ ويُعبِّر عن نفسه بدون أيّة حواجز أو حدود. هنا بالذّات تُصبح الأمانة الزّوجيّة أقوى، لأنّ سرَّ الدّخول في نور المسيح يساعدني على اكتشاف الآخر كأيقونة الله، تتعمّق فيّ وتتوطّد النّعمة الفريدة الّتي تجعلني أُدرك الآخر وأدخل في أعماقه. وحتّى لو جاء وقتٌ وتغيّر فيه الشّريك، أحاول عندها أن أميّز في داخله تلك الجمالات الّتي لا تتغيّر. يصير الواحد معطىً للآخر ليس فقط في زمن الموت هذا، وإنّما في زمن القيامة والولادة للأبديّة.

١٣٧٧. إنَّ الهدية الّتي يقدِّمها أحد الزّوجين للآخر هي أن يُحِبَّا بعضهما على طريقة المسيح، أي بدون أيّة شروط. هذه المحبّة تملأ كامل كيان الزّوجين بحضور المسيح، الّذي هو المحبّة المتجسِّدة. يُكمِل هذا الحضور ويُغني محبّةَ وعشقَ الزّوجين ويجعلهما قادرين على الوصول إلى أفضل وأعمق مستويات الحياة الاجتماعيّة والصّداقة والنّضج والانفتاح على الآخر والقداسة. يُقدِّم الزّوجان لبعضهما المَعشر الحسن والثّقة بالآخر والدّعم المتبادل وكامل رباط المحبّة. هكذا على نموذج المسيح، تصل محبّتهما حتّى التّضحيّة بالذّات وبذلها الطّوعيّ إلى درجة التّخلّي عن كلّ شيءٍ لأجل الحبيب.

١٣٧٨. تستحقّ الحياة في المسيح الجهد والتّضحيّة. إنسانٌ وجد جوهرة فباع كلّ ما لديه ليقتنيها، والحياة في المسيح هي هذه الجوهرة. كلّ الَّذين تبعوا المسيح اعتمدوا وأهل بيتهم جميعًا. كلّ الآباء والأمّهات مدعوّون إلى اتّباع المسيح مع كلّ أهل بيتهم عن طريق تربيّتهم على الحياة معه. يبقى أن يُعطوا الأمر المكانة الأولى في حياتهم ويؤمنوا أنّ الحياة في المسيح شيئًا ممكنًا.

١٣٧٩. «**الرُّجولة الرّوحيّة**» (أي النّضوج الرّوحيّ) ستوحّد الرَّجل بالمرأة وستُلغي أهميّة الفوارق الطّبيعيّة فتجعلها مواهبَ وليست تمايزاتٍ في المسؤوليّة. وكذلك على صعيد كلّ الفوارق القوميّة والطّبقيّة. أَلَم يقل بولس للعبيد: «إذا آمنتم بالمسيح فأنتم أحرارٌ؟»، أَلَم يقل للمرأة: «فما أدراكِ أيّتها المرأة أنّكِ تُخلِّصين زوجَكِ؟» (١ كورنثس ٧: ١٦). كلّ هذه الفوارق هي «خِدَعٌ» بشريّةٌ أدخلتها اضطرابات العالم نتيجة الخطيئة. ولا ترفعها إلاّ حقيقة العبادة والحياة «بالرّوح والحقّ».

١٣٨٠. تستحقّ الحياة في المسيح الجهد والتّضحيّة. إنسانٌ وجد جوهرة فباع كلّ ما لديه ليقتنيها، والحياة في المسيح هي هذه الجوهرة. كلّ الَّذين تبعوا المسيح اعتمدوا وأهل بيتهم جميعًا. كلّ الآباء والأمّهات مدعوّون إلى اتّباع المسيح مع كلّ أهل بيتهم عن طريق تربيّتهم على الحياة معه. يبقى أن يُعطوا الأمر المكانة الأولى في حياتهم ويؤمنوا أنّ الحياة في المسيح شيئًا ممكنًا.

٧) سرّ الزّواج اليوم

١٣٨١. بات الزّواج، في عُرف الكثيرين، تشريعًا كنسيًّا وضميريًّا وحتّى اجتماعيًّا وأخلاقيًّا للعلاقة الجنسيّة الإباحيّة قبل الزّواج دون أدنى معرفةٍ عن أنّ الحبَّ شراكةٌ والشّراكةَ تواصل. لذا عندما نقول إنّ التّواصل هو «سرّ البقاء في الحبّ» فذلك يعني أن نستمرّ في الشّراكة. ويحترم كلٌّ منّا ما ألزم به نفسه عندما قال «نعم» للحبّ في يومٍ من الأيام.

١٣٨٢. سرّ الزّواج المقدّس باتَ في نظر الكثيرين مجرّدَ فلكلورٍ شعبيٍّ يقومُ فقط على الرّقص، المطرب، القاعة، المأكولات والمشروبات، التّعاليل، نقوط العريس والعروس، وحتّى مجيئهم إلى الكنيسة للاحتفال بهذا السّرّ العظيم، الّذي هو على صورة الاتّحاد الرّوحيّ بين المسيح-العريس والكنيسة-العروس (راجع أفسس ٥: ٢١-٣٢)، أصبح وثنيًّا بامتياز!

١٣٨٣. إنّ أبرز التّحدّيات الّتي تواجه العائلة المسيحيّة على المستوى الدّينيّ اليوم هي تلك الّتي تهدّد وحدة الزّواج وديمومته، بحيث يظنّ الزّوجان أنّهما متى أرادا، يستطيعان أن يَطلُبا الطّلاق والانفصال والهجر من الكنيسة، وعلى الأخيرة أن تَنصاعَ لرغبتهما العمياء والأنانيّة الجاحدة لأصول الزّواج ومستلزماتِه الرّوحيّة والإنسانيّة والعائليّة، ضاربَين بعرض الحائط مصيرَ أبنائهما الّذينَ سيَذوقونَ مرارة هذا الانقسام العائليّ.

١٣٨٤. لا يجوزُ للأزواج المسيحيّين، في طريقة سلوكهم، أن يسيروا على هواهم، بل عليهم أن يخضعوا لسلطان ضميرهم، على أن يكون هذا الضّميرُ في خطّ الشّريعة الإلهيّة، وعليهم أن يُذعِنوا لسلطة الكنيسة التّعليميّة الّتي تُفسِّرُ هذه الشّريعة على ضوء الإنجيل تفسيرًا صحيحًا.

١٣٨٥. ينام كثيرٌ من الأزواج معًا في نفس الفراش ويشتركون في نفس البيت ولكنّهم على بُعد أميالٍ داخليًّا من بعضهم البعض لأنّهم بنَوا جدارًا من الكراهيّة، قد تكون الحجارة الّتي بُنِيَ بها هذا الجدار صغيرةً للغاية كنسيان عيد الزّواج أو سوء فهم أو اجتماع عمل يحدث بصفةٍ طارئةٍ بعد التّرتيب لنزهةٍ عائليّةٍ معًا تنتظرها الأسرة منذ وقتٍ طويل، ولكنّ الانقسام النّاتج الّذي تخلّفه تلك الأحداث ينتج عنه كارثة.

١٣٨٦. على الزَّوجَين حلَّ مشكلاتِهما لوحدهما دون تدخُّل الأهل أو بعض الأصدقاء الَّذين قد يُعقِّدونَ المشكلة بدل أن يَحِلُّونَها. من المفضَّل هنا في حال عدم الوصول إلى حلٍّ يُرضي الطَّرفَين، طرق باب الكنيسة ورعاتها «الكهنة» الَّذين سيَقومونَ بهذه المهمّة انطلاقًا من رسالتهم الرَّعويّة ومحبَّتِهم الأبويّة للطّرفَين.

٨) من أجل زواجٍ ناجح

١٣٨٧. إنّ الفضيلة الكبرى في الإصغاء هي المشاركةُ الوُجدانيّة. إنّ مَن يُصغي حقًّا يَهدِفُ فقط إلى بلوغِ وقتٍ يَستطيعُ فيه أن يقول: «نعم إنّني أسمعُ ما تقول وأشارِكُكَ في مشاعرك. إنّني أشعرُ بما تَشعرُ به أنت». ولنتمَّكنَ من الإصغاء، علينا أن نكون حاضرين وألاّ نخافَ ممّا قد نسمع لأنّ ما نحن في صدده هو الفهمُ المتبادَل وليس الانتصار.

١٣٨٨. قد لا أقتنعُ بوجهة نظر الشّريك الآخر، ولكن في بعض الأحيان يجب التّنازل عن بعض القناعات الشّخصيّة لأجل مصلحة العائلة والبيت والأبناء، وإبقاء حالة الحوار مستمرّةً حتّى نَصِلَ إلى الهدف المنشود. ولكن، عندما يكون الشّريك غفرانًا لشريكه متجدِّدًا، فلا مجال لِما يُسمّى تنازلات.

١٣٨٩. العائلة المسيحيّة هي منبت الدّعوات المكرَّسة (الرّهبانيّة والكهنوتيّة).

١٣٩٠. العائلة المسيحيّة الحقيقيّة لا تقف أبدًا عائقًا أمام دعوة السّماء لأحد أفرادها، وهي تحصد النِّعم والبركات لأنّ الرّبّ أكرم من بني البشر.

١٣٩١. يُتوَّج العروسان دليلاً على انتصارهما في العفّة قبل الزّواج وعلى حملهما الصَّليب في الحياة الزّوجيّة المشتركة للمشاركة في انتصار المسيح والدّخول إلى الملكوت السّماويّ.

١٣٩٢. متى كانت العائلة منفتحةً على الحياة المسيحيّة وملتزمةً في الرّعيّة والمجتمع، تكون قادرةً تلقائيًّا على الانفتاح على الصّداقة والحنان والخدمة العامّة المنزّهة عن كلّ غاية.١٣٨٧. نعمة الشّفاء: إنّها تحرُّر الشّريك من كلّ ما يؤذي الشّريك الآخر من الحبّ المدعوّ حرًّا، ومن الانحرافات الأخلاقيّة، ومن وباء الطَّلاق، ومن الحبّ الزَّوجيّ الأنانيّ الَّذي يُدنِّسه تطلُّب المتعة الجنسيّة... بنعمة الشّفاء هذه يُصفَّى الحبّ الزَّوجيّ من كلّ رواسب الخطيئة، بحيث يُصبح حُبًّا طاهرًا وعفيفًا.

١٣٩٣. إنّ الأزواج اليوم يَعيشونَ حالةً مخيفةً ومُرعِبةً من الاستقلاليَّة الهدَّامة بداعي الحريّة الشّخصيّة والفرديّة، بعيدًا عن تَحَمُّل مسؤوليَّاتهم في تربيّة أبنائهم وتنشئتهم وتحفيزهم على أن يكونوا رجالَ ونساءَ المستقبل، إذ يتّخذونَ من العلم والأخلاق الحميدة والرّوحانيّة شعارًا وعنوانًا لحياتهم.

١٣٩٤. التّربية هي مسيرةُ زرعٍ وحصادٍ. مسيرةُ زرعٍ أي أنّ الأهلَ يزرعونَ في قلوب أبنائهم الفضائلَ الإنسانيّة (التّضحيّة، بذل الذّات، احترام القيمة الشّخصيّة، العطاء، الانفتاح...) والإلهيّة (الإيمان، الرّجاء والمحبّة) إلى جانب الانتماء والهُويّة، بحيث تنتهي هذه المسيرة في موسم الحصاد الّذي فيه يَحصُدُ الأهلُ ما قد زرعوه قبلاً في نفوس أبنائهم وقلوبهم.

• صلاة

يا ربّ، إنّي أُسلّمكَ أمر كلّ أزواجنا الشّابّة، هُم أبناؤكَ المُحتاجونَ لك أشدّ الحاجة لترشدهُم وتُعلّمهم بناء طريقٍ مُشتركٍ وسلميٍّ بالمحبّة المُقدّسة. فلتحفظ عائلاتنا، يا سيّد، فمنهم سنبني مُجتمعًا يُمجّد اسمكَ القُدّوس. خلّصهُم من شرور هذا العالم، واجعل من وحدتهم سدًّا متينًا في وجه مكائد الشّيطان. أعطِهِم الحكمة والقوّة ليتمّموا العهد المُقدّس الّذي تعهّدوه يومًا ما أمامك. أنتَ المُبارِك وأنت الحنّان،

لك كلّ المجد.

آمين

الباب الثّاني والعشرون

الموت والحياة في الإيمان المسيحيّ

يلامِسُ هذا الباب كلًّا من موضوع الموت وموضوع الحياة، ويشرحهما من منظار المسيحيّة والكتاب المقدّس. إنّ الموت يأتي قبل الحياة في مسيحيّتنا؛ فإنّنا نموت لكي نحيا من جديد حياةً ممجّدة في الملكوت..

١) الجنس البشريّ وواقع الموت

١٣٩٥. إنّ واقع موت الإنسان، يعود إلى سببين: أوّلهما إلى الخطيئة، وثانيهما إلى عدم التّوبة.

١٣٩٦. الموت هو بالضّبط خبرة العدم في الوجود.

١٣٩٧. إنّ الموت لا يعني فقط نهاية الحياة، ولا الجحيم هو حالةٌ روحيّةٌ في ما وراء الموت. ولكنّ الأوّل والثّاني يجسّدان حالة وجودنا المظلمة وذروة يأسنا الهالك حيث يرتجف كلٌّ منّا مع الشّعور بأنّه خسر كلّ شيءٍ وحتّى حياته نفسها.

١٣٩٨. يعتقد البعض أنّ حياتنا الحاليّة الرّاهنة هي الحياة الحقيقيّة والمستقبليّة، أمّا المسيحيّ المؤمن فهو يُفكّر عكس ذلك تمامًا، إذ إنّ الحياة الحاليّة ليست في الحقيقة إلاّ مقدَّمةٌ للحياة الأخرى الأبديّة. ليس الموت هو خاتمةٌ للحياة بل هو بداية الفصل الأوّل أو مقدّمةٌ للحياة الأخرى.

١٣٩٩. الموت ليس محطّةً نهائيّةً لحياتنا على الأرض، إنّما هو انتقالٌ ونقطة انطلاقٍ من حياةٍ مؤقّتة إلى أخرى أبديّة.

١٤٠٠. الطّبيعة البشريّة لم تتغيّر، والنّفس الأمَّارة بالسّوء ما زالت أمَّارةً بالسّوء، وإبليس سلطان هذا العالم ما فتئ متحكِّمًا بالملايين من أتباعه وقد جنَّد كلّ قواه وأعوانه لخوض معركة الحياة والموت المقبلة (راجع رؤيا ف.١٣).

١٤٠١. الهلاك لا يتعلّق بالمسيح، بل هو شأن الإنسان الّذي يبقى بعيدًا عنه؛ وهو يقوم في انغلاق الإنسان على نفسه. إنّ أقوال المسيح، بصفة كونها عرضًا للخلاص، تُوضِح حينئذٍ أنّ الإنسان الّذي يذهب إلى الهلاك قد رسم هو نفسُه الحدودَ وانفصل عن الخلاص.

٢) طبيعة الموت

١٤٠٢. **الموت الرّوحيّ (وهو موت الخطيئة)**: وقد دخل هذا الموت إلى العالم بالخطيئة الَّتي أخطأ بها جدَّانا الأوّلانِ آدم وحوّاء حينما تعدّيا على وصيّة الله وعنهما يقول الكتاب: «وحين كنتم أمواتًا بزلاّتكم وخطاياكم» (أفسس ٢: ١).

١٤٠٣. **الموت الجسديّ (وهو انفصال الرّوح عن الجسد)**: وقد دخل هذا الموت أيضًا إلى العالم نتيجة الخطيئة، فحينما أخطأ آدم منعه الله من الأكل من شجرة الحياة، حتّى لا يحيا إلى الأبد بطبيعته الملوّثة بالخطيئة، وقد تغيّرت قوّته وسلطانه بعد الفداء الَّذي قدّمه السَّيِّد المسيح لنا على عود الصّليب حتّى إنّ الرّسول بولس اعتبره ربحًا: «لأنّ الحياة لي هي المسيح والموت ربحٌ» (فيلبّي ١: ٢١).

١٤٠٤. **الموت الجسديّ وقتيّ**، لهذا يجب ألاّ نتكلّم على موتٍ وأموات، بل على نومٍ وراقدين، ولا نتكلّم أيضًا على مقابر بل على مراقد، هذا هو إيماننا في صميميّته، وقد عبّر عنه القدّيس بولس بقوله: «وآخر عدوٍّ يُبطَل هو الموت» (١ كورنثس ١٥: ٢٦). وعندما قالوا للمسيح إنّ ابنة يائيرس قد ماتت، قال الرّبّ: «إنّها لم تَمُتْ ولكنّها نائمة. فضحكوا منه لعلمهم بأنّها قد ماتت» (لوقا ٨: ٥٢-٥٣). شاهدٌ آخر من الإنجيل المقدّس هو قول السّيّد عن موت لعازر: «إنّ لعازر حبيبنا قد رَقَد، لكنّي مُنطلقٌ لأُوقظه» (يوحنّا ١١: ١١).

١٤٠٥. إنّ الموت الجسديّ قريبٌ جدًّا جدًّا منّا، لذلك لا بدّ أن يكون الإنسان مُستعدًّا لمقابلة الموت الجسديّ في كلّ لحظةٍ من لحظات حياته، لأنّه في لحظةٍ لا نعلم بها، ننتقل من هذا العالم وأعمالنا تتبعنا، ربما يكون الإنسان طفلاً أو شابًا أو كهلاً أو شيخًا طاعنًا في السّنّ حينما يفاجئه الموت، ووقتها لن تكون هناك فرصةٌ لتغيير الأوضاع، لذا وجب الاستعداد من الآن.

١٤٠٦. إذا أخطأ الإنسان المسيحيّ وعاش حسب الجسد، فينبغي له أن يعود في أقرب فرصةٍ (الآن) بالتّوبة كما يقول الكتاب: «وها هوذا الآن وقتُ القَبول الحَسَن، وها هوذا الآن يوم الخلاص» (٢ كورنثس ٦: ٢)، حتّى لا يهلك بسبب تأخيره إذا فاجأه الموت الجسديّ.

١٤٠٧. **موت الحياة بحسب الجسد**: وهو موت المسيحيّ الَّذي آمن واعتمد حينما يسلك حسب الجسد أو العالم الشّرّير (رومة ٨: ١٣). وتُعتبر التّوبة هي طريق النّجاة من هذا الموت كما يقول الرّسول بولس: «ولذلك يقول: استيقظ أيّها النّائم، وقُم من بين الأموات، فيُضيءَ لكَ المسيح» (أفسس ٥: ١٤).

١٤٠٨. **الموت الأبديّ (وهو الموت الثّاني)**: وهو الموت الحقيقيّ والخطير، وهو العقاب الأبديّ لغير المؤمنين في البحيرة المتّقدة بالنّار والكبريت كما يقول الكتاب: «وقذف البحر الأموات الّذين فيه، وقذف الموت ومثوى الأموات ما فيهما من الأموات. فحُوكِمَ كلٌّ واحدٍ على قدر أعماله. وأُلقِيَ الموت ومثوى الأموات في مستنقع النّار. ومَن لم يوجد مكتوبًا في سفر الحياة أُلقِيَ في مستنقع النّار» (رؤيا ٢٠: ١٣-١٥).

١٤٠٩. لا بدّ لنا أن نستمع إلى كلمة السَّيِّد المسيح ونؤمن به فلا يكون للموت الأبديّ سلطانٌ علينا: «الحقّ الحقّ أقول لكم: مَن سَمِعَ كلامي وآمن بِمَن أرسلني فله الحياة الأبديّة، ولا يمثُلُ لدى القضاء، بل انتقل من الموت إلى الحياة» (يوحنّا ٥: ٢٤).

١٤١٠. لا بدّ لنا أن نحفظ كلمة الله ونطبّقها عمليًّا في حياتنا، حينها لا يكون للموت الأبديّ سلطانٌ علينا: «الحقّ الحقّ أقول لكم: مَن يحفظْ كلامي لا يَرَ الموت أبدًا» (يوحنّا ٨: ٥١).

١٤١١. **موت الإيمان في حياة الإنسان**: وهو أنّه رغم ادّعاء الإنسان بأنّه يؤمن بالله إلاّ أنّ هذا الإيمان يظلّ خاليًا من أعمال المحبّة حسب إرادة الله :»فإنّه كما أنّ الجسد بغير روحٍ مَيّتٌ، كذلك الإيمان بغير الأعمال مَيّتٌ» (يعقوب ٢: ٢٦).

١٤١٢. **الموت الأسراريّ**: وهو موت الإنسان العتيق مع المسيح بالمعموديّة والدّفن معه بطريقةٍ سرّيّةٍ غير منظورةٍ عن طريق حلول روح الله القدّوس في ماء المعموديّة، يقوم بعدها المعتمد إنسانًا جديدًا (الولادة الثّانيّة) منتصرًا على الخطيئة (رومة ٦: ٣-١١).

١٤١٣. إنّ المعموديّة تغرس الإنسان في موت المسيح وتُدخله في شركة مصيرٍ مع يسوع المسيح، بما في ذلك مصير موته. غير أنّ هذا الموت هو ضمنًا مسيرةٌ نحو القيامة، بحيث إنّ التّألُّم مع المسيح والموت معه يعنيان حتمًا مشاركتَه في رجاء القيامة.

٣)بين الموت والدّينونة

١٤١٤. بالموت يخرج الإنسان إلى الواقع والحقيقة اللّذين لا يحجبُهما شيء. حينئذٍ يأخذ المكان الّذي يعود له حقًّا (مكانه الّذي يستحقّه). فقد انتهت لعبة أقنعة الحياة، ولم يَعُدْ مجالٌ للهروب وراء المواقف والأوهام. إذّاك يظهر الإنسان على حقيقته.

١٤١٥. الدّينونة إنّما تكمن في نزع الأقنعة هذا، الّذي يجلبه الموت معه. الدّينونة هي الحقيقة عينُها، إنّها تجلّيها.

١٤١٦. إنّ الحقيقة ليست شيئًا لا هُويّة له. فالله هو الحقيقة؛ والحقيقة هي الله، هي «شخص». هكذا فالله هو قاعدة الحقيقة، بالنّسبة إلى الإنسان، في المسيح ومن خلاله.

١٤١٧. الحقيقة الّتي تدين الإنسان قد جاءت هي نفسُها لتخلّصه. لقد خلقت له حقيقةً جديدة. وبصفة كونها محبّة، ذهبت هي نفسُها إليه وأعطته حقيقةً من نوعٍ خاصّ: حقيقةَ كائنٍ هو موضوع محبّةٍ من قِبَل الحقيقة.

٤) المسيحيّ، إنسان الرّجاء والقيامة

١٤١٨. الإيمان بالقيامة متضمَّنٌ في الإيمان بالله نفسه. الله نفسُه، والشّركة معه، تلك هي الحياة. الاتّحاد به، وتلقّي الدّعوة من قبله، في هذا تكمن الحياة الّتي لا تنهدم. إذًا، الإيمان بالقيامة هو إيمانٌ مرتبطٌ بشخص، بالله في المسيح. وهذا هو الطّابع الشّخصيّ للقيامة.

١٤١٩. يقول القدّيس بولس الرّسول: «وآخر عدوٍّ يُلاشى هو الموت» (١ كورنثس ١٥: ٢٦). إنّ نهاية الموت تعني سيادة الله المُطلقة والنّهائيّة، سيادةَ الحياة الّتي لا تُغلَب والّتي تُبدِّد ظلال الموت.

١٤٢٠. إنّ موت المسيح هو موتٌ «يُعطي الحياة».

١٤٢١. إنّ شخص المسيح هو القيامة، وبالتّالي، فإنّ الإنسان في المسيح هو في الحياة، وذلك بصورةٍ نهائيّة.

١٤٢٢. إنّ المسيح القائم من بين الأموات هو موضعُ الحياة الحقيقيّة. إنّه يقود الزّمن إلى نهايته بإدخاله في لحظة المحبّة. فحيثما تُعاش الحياة الإنسانيّة مع يسوع، تدخل على نحوٍ ما في «زمن يسوع»، أعني في المحبّة، الّتي تُحوِّل الزّمن وتفتح الأبديّة.

١٤٢٣. لا شكّ أنّ قيامة المسيح تبعث الرّجاء بأنّ هذا الإنسان، بنعمة الله، سيُوقَظ من جديدٍ بكامل كيانه إلى حياةٍ جديدة.

١٤٢٤. لقد نزل المسيح إلى الجحيم، إلى المكان النَّجس الّذي لا يُسبَّح فيه الله. وبنزوله هذا نزل الله نفسُه إلى الجحيم.لكنّ الموت، في الوقت عينه، لم يَعُدْ أرضَ الظّلمات الّتي تخلّى الله عنها، ومكانَ المُبعَدين إلى الأبد عن الله.

١٤٢٥. في المسيح دخل الله نفسُه مجالَ الموت وجعل هذا المكان الّذي لا اتّصال فيه مكان حضوره. ليس هذا تمجيدًا للموت؛ بل إنّ الله، بافتقاده إيّاه في شخص المسيح، قد غلبه وحوّل معناه تحويلاً كاملاً.

١٤٢٦. بنزوله إلى الجحيم، أنزل المسيح الحبَّ إلى الكائن الرّوحيّ المثقَل هناك بالحقد والكراهيّة. فهكذا الجحيم طُعِنَت وفنيَت بالنّار الإلهيّة الّتي قبلَت في قلبها المطعون في جنبه بحربة لخلاصنا.

١٤٢٧. من الآن وصاعدًا، يُصبح الموت بالنّسبة إلى الإنسان، حياةً جديدة.

١٤٢٨. لا تحزنوا بعد اليوم، أيّها المسيحيّون، فديانتنا ليست ديانة حزن ولا ديانة بؤس، نحن لا نشقى مثل الّذين ليس عندهم رجاء، ذلك أنّ المسيح انتصر وهو غالب الخطيئة والموت، وهو غالب الخطيئة في كلّ واحدٍ منّا.

١٤٢٩. إنّ مشاعر الحزن تجاه فُراق أحد الأحبّاء هي مشاعرُ ضروريّةٌ وهامّة، تمامًا حينما نحزن في وداع أحد الأحبّاء وهو ذاهبٌ في رحلةٍ طويلةٍ إلى مكانٍ بعيد، فلن نستطيع أن نراه أو نحدِّثه ونسمع صوته، وسنشعر حتمًا بألمٍ ناتجٍ عن هذا الفراق. ولكنّنا لا ينبغي أن نُفرِط في هذه المشاعر كالّذين لا رجاء لهم، فنحن نؤمن أنّ الموت هو انتقالٌ وبدايةٌ لحياةٍ أبديّةٍ سعيدةٍ مجيدة (راجع ١ تسالونيكي ٤: ١٣-١٤).

١٤٣٠. الحياة رحلة: إنّها رحلةٌ من الأرض إلى الأبديّة. لذا، فإنّ الإنسان المسيحيّ هو «**كائنٌ إسكاتولوجيّ**».

١٤٣١. أمّا مشاعرنا تجاه الموت فينبغي أن تكون مشاعر الاستعداد لا الخوف، دعونا نستعدّ حتّى ننجوَ من الهلاك في بحيرة النّار والكبريت (الموت الثّاني)؛ دعونا نتمسّك أكثر بالرّبّ، ونبني علاقةً حيّةً معه بالصّلاة والتّأمّل في الكتاب المقدس والتّوبة الحقيقيّة، حتّى إذا ما جاء نستمع إلى ذلك الصّوت المبارَك والعذب: «تعالَوا، يا مَن باركهم أبي، فرِثوا الملكوت المُعَدَّ لكم منذ إنشاء العالم» (متّى ٢٥: ٣٤).

١٤٣٢. إنّ رحلتنا في هذه الأرض ما هي إلا فصحٌ مستمرٌّ وعبورٌ مستمرٌّ من الموت إلى حياةٍ جديدة. وبين ولادتنا الأولى وموتنا النّهائيّ، تتألّف مدّة وجودنا بأسرها من سلسلةٍ من الميتات والولادات «الصّغيرة»، إذ إنّ الموت هو الَّذي يخلق فينا إمكان ظهورٍ جديد.

١٤٣٣. أسهل وأبسط صورة توضّح ما تكلّمنا عنه هي صورة ذهابنا إلى النّوم عند حلول المساء، فنتذوّق الموت مسبقًا وكلّما استيقظنا في صباح اليوم التّالي نذوق القيامة من بين الأموات، وكأنّنا خُلِقنا من جديد.

١٤٣٤. إنّ الصّليب قيامةٌ للأموات الجسديّين وحياةٌ جديدةٌ للأموات الرّوحيّين الَّذين ما زالوا في حالة بُعدٍ وغُربةٍ عن الله تعالى؛ إنّه تعزيّةُ الإنسان المتألّم، وفرحُ الإنسان الحزين، وانتعاشُ الإنسان المُحبط، وشفاءُ الإنسان المريض.

١٤٣٥. مَن هم الأموات؟ إنّهم كلّ إنسانٍ ما زال بعيدًا عن محبّة الله، لم يختبر عِظَم هذه المحبّة الخلاصيّة المجّانيّة، ما زال قابعًا في أنانيّته (مركزيّة الذّات القاتلة)، وكبريائه، وحقده، ونقمته على ذاته وعلى الآخرين.

١٤٣٦. **في وقت الألم، والحزن، والكآبة، والشّدة، والفشل، أُنظروا فقط إلى المصلوب القادر على أن يمنحكم انتعاشًا روحيًّا ونفسيًّا وجسديًّا.**

١٤٣٧. لقد سعت الطّبيعة البشريّة إلى الهرب من الموت، لأنّ الموت ليس حالةً طبيعيّةً في الإنسان، لكن في النّهاية أذعنت الإرادة البشريّة للإرادة الإلهيّة، وبالتّالي آلام المسيح طوعيّة. على الرّغم من أن مشيئته البشريّة تختلف عن الآب بالجوهر، لكنّها تتبع المشيئة الإلهيّة وبهذا تصير إرادة الله الآب.

٥) الفرح القياميّ واللّيتورجيّا الفصحيّة

١٤٣٨. القيامة هي أساس عمل الفداء والخلاص؛ إنّها ليست عمليّة دفع ضريبة لثمن خطايانا أو إبعاد غضب الله علينا أو تحرّرنا من الشّيطان وحسب، إنّها رفع الإنسان إلى مستوى الحبّ الإلهيّ والفرح في الحياة الأبديّة الّتي فقدناها بالتّعدّي والانفصال عن الله، بحيث لم يَعُد الموت، بالتّالي، نهاية هذه الحياة الحاضرة.

١٤٣٩. قيامة المسيح تعني تقديس الطّبيعة البشريّة وقيامتها، أي نصبح خليقةً جديدة.

١٤٤٠. إنّ قيامة المسيح من بين الأموات هي بعثٌ لخليقةٍ جديدة، وكأنّنا أمام «حركة إعادة خلق». فيهبط ظلامٌ شديدٌ عشيّة موت المخلِّص «كاللّيل الّذي كان يغمر الأكوان» في بدايّة الخليقة الأولى، وكما يقول الخالق: «كن، فيكون...» يسطع نور المسيح من قبره فيض الحياة الجديدة. فقيامة المسيح قد «ألبست الكون حُلّةً جديدة ونوَّرت وجدَّدت العالم»، وهي «شمسٌ جديدةٌ من كوكبٍ جديد»، بحيث تظهر الخليقة «فردوسًا جديدًا» وتكون قيامة المسيح «زنبقته الجديدة».

١٤٤١. تُرنِّم الخليقة القديمة، في الطّقس البيزنطيّ، «أناشيد التّشييع» للخالق عشيّة موته على الصّليب، لتُعيِّد مع الكنيسة، الخليقة الجديدة بأبهى مظاهر الفرح والخشوع فجر قيامته المجيدة.

١٤٤٢. المسيح هو آدم الجديد الّذي يُعيد إلى الإنسان جماله المفقود. تختصر إحدى صلوات عيد القيامة في اللّيتورجيّا البيزنطيّة مفهوم الخلاص، فتهتف نحو القائم من الموت: «أيّها المخلِّص، لقد انحدرت إلى الأرض لتُخلِّص آدم. وحين لم تجده، تابعت انحدارك إلى الجحيم لتبحث عنه، فالمجد لك».

١٤٤٣. نقرأ في أيقونة النّزول إلى الجحيم، وهي أيقونة القيامة، المعاني نفسها منسابةً في غاية البهاء والوضوح. فالمسيح ينحدر إلى جوف الأرض، وقد انشقّت بموته على الصّليب. وحالما يصل إلى الجحيم تتكسّر أبوابها النّحاسيّة لتأخذ شكل صليب، فيدوسها علامة الظّفر. وها هو الّذي تعرّى بالأمس على الصّليب كآدم الخجل من عريه يتّشح بثيابٍ بيضاءَ برّاقةٍ كالثّلج مشعّةٍ كالنّور ليُلبس آدم صورته المشوّهة حُلّة المجد. وهكذا يُنهِض الجديدُ القديمَ مع كلّ أبراره. ونلحظ في قعر الأيقونة سيّد الظّلام، أبا الكذب، إبليس الخدّاع، مقيّدًا مهزومًا، متحسِّرًا على تحرير الإنسان.

١٤٤٤. المسيح فصحٌ جديد... ودعوةٌ للولادة الجديدة... لا يخفى على أحدٍ منّا ما تحمل كلمة فصح من معانٍ عميقة. فهو «العيد الكبير» في العهد القديم، علامة التّحرُّر، «العبور» من عبوديّة الموت إلى حرّيّة أبناء الله. لقد حقّق المسيح بتقدمة ذاته ذبيحةً على الصّليب هذه العلامة ليكون «الفصح الحقيقيّ»، «الكامل الوقار... المُعتِق من الحزن». الّذي بواسطته يتصالح البشر مع الله ويدخلون «أبواب الفردوس»، «فالفصح فصح الرّبّ، لأنّ المسيح إلهنا قد أجازنا من الموت إلى الحياة، ومن الأرض إلى السّماء».

١٤٤٥. تشاهد اللّيتورجيّا ظلال قيامة المسيح في العهد القديم. فكما أُعيدت الحياة ليونان من جوف الحوت بعد ثلاثة أيّام، ينهض المسيح بعد ثلاثة أيّامٍ حيًّا من جوف الموت؛ وكما صارع دانيال الموت في قعر جُبّ الهلاك، وتحدّى يوسف الظّلام في بئر الحسد والحقد، يقوم المسيح من ظلمات الموت مولودًا

جديدًا لحياةٍ جديدةٍ يدعو إليها مَن يؤمن به، فهو المحرِّر الحقيقيّ يبهج أحبّاءه «بعصير كرمته الجديدة»، «فيشربوا شرابًا جديدًا غير مستخرجٍ بمعجزةٍ من صخرةٍ صمّاء، بل من القبر المفيض الحياة «. ألا نشاهد في هذه الصّلوات رموزًا للمعموديّة والإفخارستيّا سرّي الفصح الجديد؟

١٤٤٦. نحن نفرح بالقيامة لأنّها بداية الدّخول في النّعيم الأبديّ وفي الخلود (راجع ١ كورنثس ٢: ٩)؛ نحن نفرح بالقيامة لأنّها عربون ونموذجٌ مصغَّر للفرح المستمرّ والمجيد في الملكوت الأبديّ؛ نحن نفرح بالقيامة لأنّنا سنحيا فيها مع الله حسب وعده الصّادق: «حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضًا» (يوحنّا ١٤: ٣)؛ نفرح لأنّنا سنعيش معه في الأبديّة في أورشليم السّماويّة الّتي قيل عنها في سفر الرّؤيا إنّها مسكن الله مع النّاس (رؤيا ٢١: ٣) .

١٤٤٧. إنّ رتبة الصّلاة الجنائزيّة الّتي تُقام في الكنيسة البيزنطيّة من أجل المتوفَّين ما هي إلاّ «احتفالٌ برجاء القيامة»، كما نُعلن ذلك في قانون الإيمان: «ونترجّى قيامة الموتى والحياة في الدّهر الآتي»؛ إنّها «احتفالٌ بالقيامة»، لأنّنا لم نَعُدْ لإنساننا العتيق الزّائل والمائت، بل أصبحنا متّحدين، بالمعموديّة والإفخارستيّا، بجسد المسيح القائم من بين الأموات وبقيامته: «ومعه أقامنا، ومعه أجلسنا في السّموات، في المسيح يسوع» (أفسس ٢: ٦). وبالتّالي، أصبح مصيرنا لا ينفصل البتّة عن مصيره.

٦) لاهوت الحياة الأبديّة

١٤٤٨. إنّ الحياة الأبديّة كما يقدّمها لنا الكتاب المقدّس هي بكلّ تأكيدٍ حياة الله بكلّ مجدها وقوّتها. فالإنسان الّذي كان ميتًا بالذّنوب والخطايا، بدون رجاءٍ أو قدرةٍ ذاتيّةٍ على إحياء كيانه الرّوحيّ، قد استعاد علاقته مع الله على أساس غفران الله لخطاياه، ونال من الله حياةً جديدةً هي الحياة الّتي لا تتأثّر بالزّمن بل ولن تتأثّر بموت هذا الإنسان.

١٤٤٩. الإنسان الّذي يفتح قلبه للإيمان بالمسيح يختبر الحياة الجديدة تُغيِّر كيانه كلّه من الدّاخل. يجد نُصرةً وحرّيّةً من قيود الخطيئة، وهدفًا وبهجةً لحياته الجديدة. يعيش هذا الإنسان وقد امتلأت حياته برجاءٍ حيّ أنّه مقبولٌ لدى الله، وأنّ خطاياه قد غُفرت، لأنّ المسيح دفع أجرتها على الصّليب.

١٤٥٠. نعلم يقينًا أنّ هذه الطّبيعة الجديدة الّتي تُحبّ البِرّ والقداسة، وتكره الإثم والخطيئة، هي حياة الله الّتي وهبها لنا بسكنى الرّوح القدس في قلوبنا.

١٤٥١. إذا كانت الحياة الأبديّة هي محبّة الله، حياة الله، اللهُ نفسه فينا، فالموت الثّاني هو أن يخلوَ الإنسان من روح الله، من محبّته، من حياته ومن نوره.

١٤٥٢. **لقد جعل المسيح من حياتنا اليوميّة حياةً أبديّة (راجع يوحنّا ١٧: ٣).**

١٤٥٣. بنظر المؤمن، الموت أصبح البوّابة الملوكيّة الَّتي من خلالها يدخل إلى الحياة. لذلك، لا توجد كلمة «موت» في قاموسنا المسيحيّ، ذلك أنّنا نؤمن أنّنا أبناء الله، الحياة والملكوت، «من آمن بي وإنْ مات فسيحيا» (يوحنّا ١١: ٢٥)، ومن يؤمن بابن الله، إيمانًا حقيقيًّا، فقد «انتقل من الموت إلى الحياة» (يوحنّا ٥: ٢٤).

١٤٥٤. يجب أن نكون أُمناء في الحياة بكلّ جوانبها الإيمانيّة والرّوحيّة والاجتماعيّة كما يقول الكتاب: «... كُن أمينًا حتّى الموت، فسأُعطيكَ إكليل الحياة» (رؤيا ٢: ١٠).

٧) سؤالٌ للتّأمّل الشّخصيّ

١٤٥٥. الحياة هي لحظةٌ من الوقت... استعدادٌ لحياةٍ أبديّةٍ طويلة... طويلةٍ جدًّا. وفي هذه العُجالة من الوقت نحن مطالبون بأنْ نُجيب عن سؤالٍ هامّ، جوابه شخصيّ، هو: أين تريد أن تقضيَ أبديّتك؟

• صلاة

مررتَ في وادي ظلّ الموتِ، يا أيّها القائم، ولم تَخَف... قُمتَ في اليوم الثّالثِ مُنتصرًا أبِيًّا لإيمانِك بأبيكَ الّذي في السّمويّات. هل لي أن أدخُل، بعدمِ استحقاقي، عرشَ النّعمة أنا أيضًا؟ أشتاقُ لأن أُبصِرَ وجهَك في حياةٍ جديدة... ولكن مَن أنا لتحسبني ابنًا؟ هأنذا لم أفعلُ شيئًا لمجدكَ حتّى الآن... لم أُعطِكَ القليل حتّى، ولكن ماذا أعطيكَ وأنت مُعطي الكُلّ؟ ليس لي ما أقدّمه لك إلّا حياتي... ها هي عندكَ. خلّصني، فإنّي أنتظرُيوم اللقاء العظيم!

أنا لكَ في حياتي وفي موتي،
آمين

الباب الثّالث والعشرون

مريم العذراء، العنصرة الأولى

إنّ هذا الباب متألّقٌ بأمّ النّور، أمّنا والدة الإله المُتجسّد، مريم العذراء؛ فيتلو لنا أهميّة مريم العذراء في مشروع الله الخلاصيّ ويعرضُ لنا مسلكيّتها والخضوع والصّلاح من أجل تحقيق مشيئة الآب، لتكون نموذجًا لنا نتّبعه في مسيرنا.

١٤٥٦. **تكريمُ مريم:** يدعونا الإيمان بالمسيح الإله المتأنسّ إلى أن نكرِّم والدة الإله (راجع لوقا ١ : ٤٨)، كونها أداة تجسّده. وإلاّ فكيف نستطيع أن نشهر إيماننا بيسوع المسيح الإله-الإنسان؟

١) مريم، كنيسة الرّوح القدس وهيكله

١٤٥٧. إنّ العذراء الّتي اصطفاها الله، منذ البدء، كإناءٍ مختارٍ لتحقيق التّدبير الإلهيّ الخلاصيّ، أي التّجسُّد لخلاص العالم، بابنه يسوع المسيح، مخلّصنا، هي مريم ذاتها الّتي وقفت عند أقدام الصّليب، في مواجهة الخيبة العابرة الّتي سبَّبها موت وحيدها، دون أن تفقد ذرّةً من إيمانها؛ وهي مريم ذاتها الّتي شدّدت عزيمة التّلاميذ في ساعة الألم تلك، قبل بزوغ فجر القيامة. ومريم هي الّتي احتضنت الكنيسة ورَعَت ولادتها منذ خطواتها الأولى بعد صعود يسوع.

٢) عقيدة بتوليّة مريم الدّائمة

١٤٥٨. أنْ يكونَ الحَبَلُ بيسوعَ عُذريًّا، فذلك مُنتَهى البَداهة، فكلٌّ ما فيه يَشُعُّ مجّانيّةً وحريّة: من حُبِّ الآب، إلى قَبولِ الابن، إلى اقتبال مريم، إلى الرّوح القدس.

١٤٥٩. تهدف بتوليّة مريم، السّابقة لميلاد الابن، إلى إظهار حقيقة أنّ يسوع النّاصريّ، ابن مريم، هو المسيح كلمة الله المتجسّد، الّذي أُعلن عنه في نبوءات العهد القديم، فيُضحي حبل العذراء بيسوع، من دون أن يعرفها رجلٌ، مقياسًا للحقيقة المسيحانيّة ودليلاً على طبيعتي المسيح الإلهيّة والإنسانيّة.

١٤٦٠. إنّ ولادة مريم البتوليَّة هي علامةٌ ساطعةٌ على سرِّ البنوَّة الإلهيَّة ليسوع، إذ إنّ البُعد الكريستولوجيّ لولادة يسوع البتوليّة يقوم في جوهره على هذا: أنّ يسوع هو الابن للآب الأزليّ بطريقةٍ فريدةٍ، لدرجة أنّه لا يستطيع أن يكون له أبٌ أرضيٌّ.

١٤٦١. إنّ بتوليّة مريم المُصانة ساعةَ ميلاد الابن لها بُعدٌ كنسيٌّ وأسراريّ: إنّها عذراء في الولادة.

١٤٦٢. مريم العذراء ولدت ابنها ولادةً طبيعيّة، أي جسديّة، بشكلٍ حقيقيّ، لا رمزيٍّ أو شكليّ، ولكن بطريقةٍ فائقة الطّبيعة، فبقيت بتوليّتها مُصانةً من دون تغييرٍ روحًا وجسدًا.

١٤٦٣. بتوليّة مريم تُجسِّد مشاركة الإنسان، بشخص مريم وحرّيّتها، في عمل المسيح الخلاصيّ، ولا سيّما في ما يتعلّق بحقيقة الكنيسة الأسراريّة الحاضرة.

١٤٦٤. لبتوليّة مريم بعد الولادة بُعدان: بُعدٌ أوّلٌ كيانيٌّ كبتولٍ دائمة، لأنّها ستبقى دومًا وإلى الأبد، أُمَّ الله المتجسّد، وصورةَ الخليقة الجديدة؛ وبُعدٌ ثانٍ كنسيّ، يستقي من الحقيقة الأسراريّة ويعبِّر عن حالة الكنيسة النُّهيويّة، كعروسٍ وفيّة، حصريّةٍ وأبديّة للمسيح عروسها الأوحد.

١٤٦٥. أكّد مارتن لوثر (مؤسّس الحركات المتجدِّدة أو ما يُعرَف «بالإصلاح البروتستانتيّ») **عقيدة بتوليّة مريم الدّائمة طول حياتها**، حيث قال عنها في الثّاني من شباط سنة ١٥٤٦، يوم عيد تقدمة المسيح إلى الهيكل: **«كانت بتولاً قبل الحبل والولادة، وظلّت بتولاً حتّى الولادة وبعدها»**. لماذا نقبل بتدخّل الله من خلاله ملائكته ومرسليه وأنبيائه، ولا نقبل تدخلّه من العذراء الطّاهرة الَّتي حملت الّذي لا يسعه مكان؟ هل يمكن أن نتغاضى عن دور العذراء في تسهيل وتتميم إرادة الله الخلاصيّة من خلال دخول الكلمة في تاريخنا البشريّ؟ هل لنا أن نتناسى دور أمهّاتنا في حياتنا؟

١٤٦٦. إنّ مريم هي سورُ الدِّفاع للعذارى ولجميع الآتينَ إليها انطلاقًا من أمومتها البتوليّة.

١٤٦٧. إنّ العديد من الَّذين يُنكرون بتوليّة مريم اليوم هم من أبناء الجماعات البروتستانتيّة، ولكن نشير إلى أنّ أرباب الإصلاح البروتستانتيّ لم ينكروا بتاتًا بتوليّة مريم. فقد كان مارتن لوثر يقول: «إنّ بتوليّة مريم الدّائمة هي موضوع إيمان. فنحن نؤمن أنّ المسيح وُلد من حشا تُرك مُصانًا بكليّته».

١٤٦٨. مريم العذراء الّتي احتضنت اللّهيب ولم تحترق (رمز العلّيقة المحترقة في خروج ٣: ١-٦) هي المثال الأوّل للكائن الأرضيّ السّائر نحو التّألّه، أي نحو حلول الله في هيكله الجسديّ والعقليّ والرّوحيّ. فصارت مريم القدوة لكلّ صامتٍ، أي المتأمّل الجمال الإلهيّ والسّاعي نحو التّألّه من دون أن يخشى الاحتراق.

١٤٦٩. البتوليَّةُ هي الحياةُ الملائكيَّة بامتياز، لأنّها تَكشِفَ لنا صورةَ البشريَّة الحقيقيَّة. لأجل ذلك، تحوَّلَتِ العذراءُ إلى «علامةٍ» مستمرةٍ لكلِّ شعب الله، «كنموذجٍ» لتمرين الفضائل الإنسانيَّة (كالحكمة، المعرفة، القُدوة الحَسَنَة، الضَّمير الحيّ، الاتّضاع...) والإلهيَّة (الإيمان، الرّجاء والمحبّة).

١٤٧٠. لا يُمكنُنا أن نُدرِكَ البُعدَ الإنسانيّ والروحيّ للبتوليّة خارج إطار تدبير الله الخلاصيّ، إذ إنّها تجديدٌ وترميمٌ للحالة الفردوسيَّة وإعادتُها إلى أصلها الإلهيّ: إنّها الحياةُ الملائكيّةُ بامتياز؛ هي حياةُ الميلاد الروحيّ للإنسان؛ وأخيرًا إنّها إشتراكٌ في وليمة الحمل السّماويّة.

١٤٧١. إنّ البتوليَّةَ كما جاءتْ في عُرف وتقليد آباء الكنيسة، ليست عُقمًا، بل إنّها مليئةٌ بالثّمار.

١٤٧٢. ليست بتوليّة مريم مصدر الخلاص والتّجديد، إنّما هي علامةُ وأداةُ الخلاص الّذي تمّ بابنها، وضمانةٌ أبديّة، مثل بتوليّتها، لِمَا قد تحقّق بواسطة المسيح.

٣) «النَّعَم» المريميّة

١٤٧٣. لتكُن مريم مثالاً وقدوةً ونموذجًا للبشريّة الَّتي سقطت في الخطيئة والَّتي قامت بفضل «نَعَمٍ» إلهيّةٍ أبديّةٍ لا تنازُلَ فيها.

١٤٧٤. هذه هي المريم العظيمة، هذه هي المريم الَّتي بقوّة هذه الكلمة المؤلّفة من ثلاثة أحرف (نعم) استطاعت أن تقول باسم البشريّة كافّة: نعم يا الله، لك أن تدخل في حياتنا من جديد؛ نعم لك يا الله، أن تفتح قلوبنا من جديد؛ نعم لكَ يا الله بأن تُظلّل حياتنا من جديد. نعم لكَ أيّها الرّوح الكلّيّ قدسه، تعال وادخل إلى قلوبنا، نقِّ ضمائرنا، أعطِنا أفكارًا صالحة، أعطنا أخلاقًا وروحانيّةً مسيحيّةً عاليّة؛ نعم يا الله، أنتَ تملِكُ على حياتنا وعلى حاضرنا وعلى مُستقبلنا.

١٤٧٥. مريم هي مَن شاركت في الخلاص وفي تحقيق تدبيرالله الخلاصيّ الّذي تمّ في تاريخنا وفي زمننا، والّتي من خلالها، كحوّاء الجديدة، أصبحنا وارثين الحياة الأبديّة، ونشترك أيضًا في الطّبيعة الإلهيّة.

١٤٧٦. إنّها والدة الإله الَّتي فتحت باب التّحنّن الإلهيّ أمام البشريّة قاطبةً بقبولها لتحقيق تدبيرالله الخلاصيّ في التّاريخ.

٤) أمومة مريم

١٤٧٧. بكلّ تواضُعٍ أنجَزت مريم أهمّ مَهَمّةٍ أُعطِيَت للبشريّة قاطبة: بتسليم ذاتها لإرادة الله في حياتها، أُعطِيَت مريم أن تكون أُمًّا للبشريّة قاطبة، وأُمًّا للكنيسة المؤسّسة عند أقدام الصّليب.

١٤٧٨. إنّ أُمومةُ مريم الروحيّةُ تعودُ إلى ثمرةِ تلك المحبّة الَّتي بلغَتْ ذُروتَها عند أقدام الصّليب من خلال مشاركتِها في محبّة الابن واتّحادِها الكامل مع المسيح.

١٤٧٩. إنّ مريم هي الأمّ الرّوحيّة لجميع المؤمنين باسم ابن الله يسوع المسيح، وهذه الأُمومة لا تتوقّف بل تستمرّ في حياة أبنائها، توجّهم وتؤازرهم وتُرشدهم وتقودهم إلى المخلِّص الإلهيّ لا إلى نفسها.

١٤٨٠. العذراء مريم صارت أمًّنا لأنّها ولدت المسيح الَّذي ارتضى أن يصير بجسده أخًا لكلِّ واحدٍ منّا، ولأنها أمُّنا تنظر إلى حاجتنا وترفعها إلى السَّيِّد، لذلك تدعى بحقٍّ الشّفيعة الحارّة وملجأ العالم.

١٤٨١. للمسيحيّ ثلاث أمّهات: الأمّ الأولى هي مَن ولدتنا لهذه الحياة ولادةً جسديّة؛ الأمّ الثّانيّة هي مَن ولدتنا لحياةٍ أخرى روحيّة «الكنيسة»؛ والأمّ الثّالثة هي مَن أعادت لنا كرامتَنا ومجدَنا «العذراء الطّاهرة»، فشكرًا لله الَّذي مَنَحَنا أمهاتِنا نعمةً وبركةً ومحبّةً لا مثيل لها.

٥) قداسة مريم

١٤٨٢. في البشارة، تلقّت مريم، كما نتلقّى نحن، دعوة الله إلى القداسة. تلقّت مريم، كما نتلقّى نحنُ كلّ يومٍ، دعوة الله إلى الكمال والقداسة لكي نكون كنيسةً مقدّسةً بلا عيبٍ ونقيّة وصافيّة. في كلّ يومٍ يضع ربّ السّماء هذه الدّعوة أمامَ أعيننا، البعض يسير بها ثُمّ يعود، والبعض لا يريد أن يسير بها، والبعض الثّالث يراها صعبةً وليست سهلة المنال. ولكن هنالك مَن يصل إلى قمّتها وهذه هي قداسة مريم: أنّه رغم كلّ الحواجز وكلّ المُشكلات الَّتي قد تواجهها في مسيرتها نحو الله، استجابت لرغبة الله الخلاصيّة لكي تكون أُمًّا وحواءَ جديدةً تُعطي الحياة الحقيقيّة للعالم أجمع.

١٤٨٣. ليكُن فيكم من الأفكار والأخلاق ما هو للمسيح يسوع. مريم استطاعت أن ترثَ أفكارًا مقدّسة، وأن تكونَ تلميذةً صالحةً في مدرسة ابنها يسوع المسيح.

١٤٨٤. مريم، في حبّها وطاعتها، في إيمانها وتواضعها، ارتضت أن تكون ما كان ينبغي على الخليقة، منذ الأزل، أن تكون إيّاه: هيكل الرّوح القدس، إنسانيّة الله. لقد ارتضت مريم أن تُعطي جسدها ودمها – أي حياتها كلّها – ليكونا جسد ابن الله ودمه، وأن تكون أُمًّا للعالم بالمعنى الكامل العميق لهذه الكلمة، مُعطية حياتها للآخر، أي الله، ومكمّلة حياتها فيه.

١٤٨٥. تأتي قداسةُ مريم كنتيجةٍ لحياتها البتوليّة من جهة، ولعمل الرّوح القدس والكلمة فيها، من جهةٍ أخرى، إذ إنّ النّشيد (المدائح) يُظهِرُها «السّفينةَ المذهبّة للرّوح القدس» و«الهيكلَ المقدَّس لحضور الكلمة» و«العرشَ المقدَّسَ للجالس فوق الشّيروبيم».

١٤٨٦. إنّ الكنيسة ترى في مريم الكمال الأسمى للقداسة في شخصٍ بشريّ، النّموذج والمثال لِما يكوِّن، بنعمة الله، الإنسان الحقيقيّ. إنّها الكاملة القداسة، لأنّها المثال الأعلى للتّآزر والتّعاون بين مشيئة الله الخلاصيّة وحرّيّة الإنسان. إنّ الله الّذي يحترم دائمًا حريّة إرادة الإنسان، قد أصبح متجسِّدًا من خلال موافقة مريم الحرّة الّتي اختارها أُمًّا له. كان يمكنها أن ترفض العرض الإلهيّ، ولكنّها لم تفعل.

١٤٨٧. إنّ مريم، بحسب لاهوت الكنيسة، بريئةٌ من أيّة خطيئة؛ فلقد آمنت الكنيسة الجامعة منذ لحظات تكوينها الأولى بأنّ مريم هي عذراء نقيّة ليس فقط بجسدها، بل بروحها أيضًا، وهي بالتّالي، أصبحت بطهارتها الرّوحيّة والجسديّة «كنيسة الرّوح القدس وهيكله».

١٤٨٨. إنّ مريم هي نموذجنا ومثالنا، المرآة الّتي فيها نشاهد وجهنا الأصليّ الصّافيّ. فإذا أردنا فهم الأبعاد الكاملة للشّخصيّة الإنسانيّة، ننظر، قبل كلّ شيءٍ، إلى المسيح آدم الثّاني، وبعد ذلك، بجانب المسيح، ننظر إلى مريم حوّاء الجديدة.

١٤٨٩. هذه هي مريم: إنسانة مثلنا مثلها، إنسانة لا يتميّز فيها شيء يختلف عنّا ولكن الّذي يختلف عنّا أنّها قَبِلَت إرادة الله ومُخطّط الله وفضّلت هذه الإرادة على إرادتها الخاصّة. ونحنُ في بعض الأحيان نُفضّل إرادتنا الخاصّة عن إرادة الله ونُريد لها أن تتماشى مع إرادتنا.

٦) مريم في حياة الكنيسة

١٤٩٠. إنّ حضورَ مريم في الكنيسة (راجع أعمال ١: ١٤) تحوَّل، بالنّسبة إلى كلِّ المعمَّدين، إلى دعوةٍ مستمرّةٍ تترجمُ في الاختبار الشّخصيّ لأقوال بولس: «فما أنا أَحيا بعد ذلك، بلِ المسيحُ يَحيا فيَّ. وإذا كنتُ أَحيا الآن حياةً بشريَّة، فإنّي أَحياها في الإيمان بابن الله الّذي أحبَّني وجادَ بنفسِه من أجلي» (غلاطية ٢: ٢٠).

١٤٩١. مريم: شخصًا مخلوقًا جَمَعَ في ذاته كلّ الكمالات المخلوقة وغير المخلوقة، وتحقيقًا مطلقًا لجمال الخليقة.

١٤٩٢. في مريم أُنجِزَتْ كلُّ وُعود العهد القديم لابنة صهيون، وفي شخصها الحقيقيّ، هناك سَبقُ تَوَقُّعٍ سوف يَتَحَقَّقُ لشعب الله الجديد، الكنيسة. فكلُّ تاريخ الوحي الخاصِّ بموضوع «المرأة صهيون»، تَحَقَّقَ في شخص مريم، وهو ما زالَ مستمِرًا في الكنيسة إلى يومنا الحاضر.

١٤٩٣. إنّ مريم هي غاية وتمام تاريخ الخلاص، تاريخ الحبّ والطّاعة، تاريخ الاستجابة والرّجاء، إذ إنّها عطيّةُ العالم إلى الله، إلى جانب أنّها «اختارتِ النَّصيبَ الصَّالحَ الَّذي لن يُنزَع منها» (لوقا ١٠: ٤٢): إنّها، في الحقيقة، التّلميذةُ الأولى للمعلّم الإلهيّ والنّموذجُ الحيّ والمثاليّ في اتّباع يسوع والتّتلمذ له.

١٤٩٤. العذراء هي الصّورة الأنصع والأبهى للأمانة للعروس السّماويّ، وبخضوعها لله ومسيرتها في عمل الرّوح القدس، وهي صورةُ ما تصبو الكنيسة لأن تكونه والمثال الموضوع للمسيرة مع الرّوح القدس.

١٤٩٥. حَظِيَت مريم العذراء بمكانةٍ مرموقةٍ في حياة الكنيسة العقائديّة، واللّيتورجيّة والرّعويّة، وذلك كلّه ناتجٌ من تأمّلات الكنيسة بأحداثٍ خلاصيّةٍ تمّت في الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد. نستطيع القول إذن إنّ إيمان الكنيسة وعقيدتها حول هذه الشّخصيّة الأنثويّة الّتي لعبت دورًا أساسيًّا في وضع تدبير الله الخلاصيّ موضع التّنفيذ والتّطبيق.

١٤٩٦. إنّ لاهوت السيِّدة العذراء في اللّيتورجيّا البيزنطيَّة، لهو لاهوتٌ يُعَبِّرُ بطريقةٍ ساميّةٍ وبليغةٍ عن عَظَمَة مَن نَقِفُ خاشعين ومُنذهلين في حضرتها الإلهيَّة. فاللّيتورجيّا ليستْ حِجارةً صَمَّاءَ وعمياءَ، إنّها حياةٌ تَفيضُ من ينابيع مَن تأمَّلَ وصَلَّى الكتاب المقدَّس بكلّ عُمقٍ، وغاصَ في رِحابه، ناهلاً منه ما يجولُ في قلبه من خواطرَ ومشاعرَ روحيَّةٍ عميقةٍ تجاه مَن وَلَدَتْ لنا الحياة ذاتها.

١٤٩٧. إنّ أمجاد مريم ليست من صُنعِ بشريٍّ أو من بلاغةٍ خطابيّةٍ عند بعض آباء الكنيسة، إنّما هي أمجادٌ مُستقاةٌ من الكتاب المقدّس الّذي تنبّأ عن أنّ المسيح المخلِّص سيأتي عندما يحين ملء الزّمان من امرأةٍ ليفتدي الّذين تحت النّاموس ويمنحهم الحياة الحقيقيّة الأبديّة.

١٤٩٨. يمتدّ دور العذراء الخلاصيّ إلى الكنيسة، فالمسيح هو الوسيط الوحيد، ودور العذراء لا يحجب هذا الدّور الكريستولوجيّ (المسيحانيّ)، والكنيسة هي الخادمة لدور الوسيط، وعليها أن تكون في شفافيّة العذراء، سلطة الخدمة كما فهمها ومارسها الطّوباويّ البابا يوحنّا بولس الثّاني، وكان شعاره «مريميًّا» على مثال العذراء، مع كلمة «كلّي لكِ» الَّتي تردّد «نعم» العذراء وتشرحها: «ها أنا أمةٌ للرّبّ».

١٤٩٩. تَظهَرُ مريم كمشروعٍ إنجيليّ، كضمانةٍ لكلّ الفضائل وبخاصّةٍ المحبّة، كتمرينٍ دائمٍ يَهدِفُ إلى تعميق رابط الإنسان بجماله الأكثر نقاءً وصفاءً، وبتوازنه الدّاخليّ وصورته الإلهيّة.

١٥٠٠. خلال فترة العهد الجديد، هي امرأةٌ، من الآنَ فصاعدًا، ستُمثِّلُ بين كلِّ الخلائق، إسرائيلَ الله، ما قبل افتداء البشريَّة، وسيؤلِّهُها الله في ذاته. فمريمُ، من ثمّ، أصبحتْ تُشخِّصُ شعبَ الله الَّذي كان إسرائيل، وقد أصبحتْ، بهذه الطّريقة، صورةَ الكنيسة. وهذا هو السّبب الّذي يجعلنا ندعوها: **«مريم، الكنيسة الأولى»**.

١٥٠١. إنّ مريمَ وبحسب اللّاهوت الرّوحيّ الشّرقيّ، هي الأولى في مسيرة الارتقاء المسيحيّ. وبحسب آباء القرنَين الرّابع والخامس الميلاديَّين وتقليد الكنيسة القديم، فإنّ التَّعبيرَ الأكثرَ عُلُوًّا في الحياة المسيحيّة، بعد الاستشهاد، هو البتوليَّةُ الَّتي تتضمَّنُ، في معناها الشّموليّ، الجسدَ، القلب، النَّفس، الرّوح، القُدُراتِ الإنسانيَّةَ والحياة.

١٥٠٢. إنّ أساس العلاقة بين مريم والمؤمنين كما تَصِفُها اللّيتورجيّا البيزنطيّة تكمن في أنّ مريم بولادتها للمؤمنين الإله المتجسِّد، قد جعلتهم، من خلال هذا الحدث الإلهيّ الخلاصيّ «التّجسُّد»، يشتركون بفعاليّةٍ وديناميكيّةٍ روحيّةٍ في الطّبيعة الإلهيّة بهدف ارتقائهم نحو بلوغ حالة الاتّحاد بالله «التّألُّه».

١٥٠٣. إنّ مريم تُجسِّدُ الدّور الفريد الّذي لَعِبَتْهُ «ابنة صهيون» (زكريّا ٢: ١٤) في تاريخ الخلاص وفي سرّ العهد. وبالفعل، فإنّ «سرّ» مريم هو نورٌ للكنيسة كلّها الَّتي هي أيقونتُها، وهي، في الوقت عينه، صورةٌ لكلّ الّذين أصبحوا، منذ مشهد الجمجمة (يوحنّا ١٩: ٢٥-٢٧) «أبناءَ» مريم، وبالتّالي، أصبحوا أبناءَ الكنيسة.

٧) رموز الكتاب المقدّس تتحقّق في مريم

١٥٠٤. الألقابُ المُعطاة لمريم: ثيوطوكوس «والدة الإله»، عذراءُ، قدّيسةٌ، مباركةٌ وطاهرة. والجديرُ بالذِكر أنّه لا توجد أيّةُ إشاراتٍ تدلُّ على القداسة، الملكيّة والكرامة. هذا يعني أنّ هدفَ النّشيدِ يكمنُ في أن لا يكونَ مديحًا أو إطراءً،

بل لاهوتيًّا، مما يُوحي عُمقَ الوعي للسرّ المريمي في القرن الخامس الميلاديّ.

١٥٠٥. **مريم هي تابوت العهد الجديد**، العهد الّذي قام بيسوع المسيح كلمة الله المتجسّد، بدل العهد القديم القائم على وصايا من حجر (راجع عبرانيّين ٨: ٧-١٠).

١٥٠٦. مريم... إنّها السلّمُ الَّتي ربطتِ الأرض بالسّماء، وأعادتِ العلاقةَ بين الخالق ومخلوقاتِه. إنّها السلّم الَّتي بها عاد ممكنًا ارتقاء ناسوتنا إلى مستوى الألوهة، بعد أن انحدرتِ الألوهةُ إلى مستوى النّاسوت.

١٥٠٧. **المنارة الذّهبيّة** ترمز إلى العذراء الطّاهرة مريم لأنّها أُمُّ النّور المعجز البيان، وهي أوّلُ خليقةً اتّحدت بهذا النّور الإلهيّ وأصبحت بكليَّتها إنسانةً ساطعةً بالإلهيّات.

١٥٠٨. **الفردوس الأرضيّ** (تكوين ٢: ٨-٩؛ ٣: ١٧-١٨): في مريم تَفَتَّحَتْ أزهارُ الفضائل وثمار القداسة، فهي الفردوس الَّذي تَسقيه مياهُ النِّعمة، ويسوع هو شجرةُ الحياة الَّذي نَبَتَ في حشا مريم، إذ إنّها الخليقةُ الَّتي أدخلت إلى حضنها المختارين وجعلتهم متَّحدين بالله، وهذا هو معنى التّألُّه في اللّاهوت الشّرقيّ.

١٥٠٩. **الصَّخرة** (خروج ١٧: ١-٨): في مسيرة شعب الله من أرض العبوديّة إلى أرض الميعاد، نقصه الماء وكاد يهلك فتذمّر. وكانت كلمةُ الرَّبِّ إلى موسى أنِ اضرِبْ بعصاك الصَّخرة، فيخرجَ منها ماءٌ يروي الشّعب. من الصّخرة أعطى الله شعبَه الماء، ومن مريم أعطاه الحياة؛ من الصَّخرة أعطاه المياه الَّتي تروي الجسد وتقيه من الموت، ومن مريم أعطاه المياهَ الحيّةَ الَّتي تُحيي الجسدَ والرُّوح معًا، فلا يعود مَن يشربها يعطش.

١٥١٠. **أرض الميعاد (يشوع ٥)**: إنّها مريم، أرضُ الميعادِ الحقيقيّة لجميع الشُّعوب الرّاغبة في معرفة الله، واختباره بالإيمان الشخصيِّ المَعيش، حيث اللقاءُ مع السيّد المولود منها، وحيث أصبحتْ هي «الحليبُ والعسل» كتعبيرٍ مجازيٍّ للغذاء الروحيّ لكلِّ مَن يأتي إليه.

١٥١١. **المرأة الحكيمة**: إنّ حكمة الله الَّتي تعمل في العالم كقدرةٍ وقوّةٍ وعناية، لمّا «حان ملء الزّمان» دخلت مسيرة التّاريخ كشخصٍ. وقد «ابتَنَت» حكمة الآب الأقنوميّة لها «بيتًا» (أمثال ٩: ١)، وهو جسد العذراء الطّاهرة الَّذي اتّخذه الكلمة. فالعذراء بنقاوتها وطهارتها الروحيّة والجسديّة، أصبحت أهلاً لأن تصير كنيسة الرّوح القدس وهيكله، وهذا ما يجعلها المرأة الحكيمة ذات المعرفة الإلهيّة.

١٥١٢. من مُسَلَّمات البتوليّة المكرَّسة، هدفٌ واحدٌ ووحيد، يتمثَّلُ في إعطاء التَّسبيح والمجد للسيّد، وفي المواظبة على قراءة النّصوص الكتابيَّة وفي الصَّلاة المتواصلة المستمرّة، الَّتي تَجعَلُ العائشينَ في البتوليّة من مكرَّسينَ ومكرَّسات، مُستحِّقينَ الحصولَ على النِّعَم والخيرات الإلهيَّة الغزيرة، الَّتي أَغدَقَها العَلِيُّ على الَّذين يُحِبُّونَه ويتَّقونَه، والَّتي لا تُحصَى ولا تُعَدّ.

٨) شفاعة مريم

١٥١٣. وساطةُ مريم وشفاعتُها: يختصِرُ النّشيد (المدائح) مضمون وساطة مريم كالآتي: (١) لأنّ عِطرَ عذريَّتِها جَلَبَ المغفرة وجَذبَ اللهَ ليكونَ فيما بيننا؛ (٢) لأنّ حبلَها البتوليّ في الفرح رمَّمَ ألمَ حوّاء وأنهى الإدانة؛ (٣) الأهمّ من كلّ ذلك، أنّها أعطَتنا المرمِّم؛ (٤) مصالحة البشر مع الله من خلال حياتها البتوليّة؛ (٥) بأمومتِها، أصبحت مريمُ الينبوعَ الفيّاض للنّعمة الإلهيّة؛ (٦) بأمومتِها على المؤمنين، أصبحت مريمُ المدافعةَ عنهم في وجهِ الشيطان والمقرِّبةَ إيَّاهم من الله. لقد أصبحت مريمُ مساعِدَةَ المؤمن في مسيرته لنيل خلاص الجسد والنّفس.

١٥١٤. إنّ تفسيرَ وساطة مريم وتَدَخُّلَها يدخُلُ ضمنَ المرحلة المسيحانيّة، إذ إنّ يسوع «بدأَ» في إظهار نفسه على أنّه «المسيح»، وتلك الحقيقة، كانت نقطةَ تَحَوُّلٍ في العلاقة بينه وبين مريم، الّتي لم تَعُدْ هي نفسُها، كعلاقةٍ بين ابنٍ وأُمِّه، نظرًا لأنّ يسوع، أخذَ على عاتقه منذ الآن، دورًا آخرَ مسيحانيًّا. وما هو مهمٌّ جدًّا، في إعطاء أُمِّهِ لقبَ «امرأة»، أنّه أَدخَلَها في رسالته الَّتي بدأتْ لِتَوّها. لقد وَضَعَ يسوعُ مسافةً بينه وبين أُمِّه، ولكنّه، في الوقت نفسه، فَتَحَ لهذه العلاقة آفاقًا أُموميَّةً وعائليَّةً جديدةً أوسع وأشمل في سرِّ الخلاص.

١٥١٥. في حدث قانا الجليل نرى الاعتلانَ الأوّلَ لوساطة مريم وهي وساطةٌ تتّجه كليًّا صوبَ المسيح وتهدفُ إلى إبراز قدرته الخلاصيّة.

١٥١٦. الكلماتُ الَّتي أُرسِلَت من على الصَّليب إلى الأُم: «يا امرأة هوذا ابنُكِ»، وإلى يوحنّا: «هذه أُمُّكَ»، إنّما تُنَصِّبُها في هذه الكرامة، كرامةِ الشَّفاعةِ الوالديَّة...

١٥١٧. إنّ شفاعة العذراء هي شفاعةٌ توسُّليّةٌ بمعنى أنّها تُصلّي إلى الله من أجل المسيحيّين ليثبتوا في دعوتهم المقدّسة بالصّلاة والتّوبة والشّهادة الحيّة والأعمال الصّالحة وكم نادت العذراء الطّاهرة بوَحدة الكنيسة والمسيحيّين.

٩) مريم، فرح الله للعالم

١٥١٨. لقد أتَمَّتْ مريمُ، حالاً ودون تَرَدُّدٍ، رسالةَ الفرحِ المُوكلةَ إليها من قِبَلِ القائم إلى تلاميذه. وأصبحت، بالتّالي، الوصِيَةَ الرسميَّةَ على الرسالة الفصحيَّة، الَّتي تَتَضَمَّنُ في جوهرها تمجيد يسوع بجانب الآب.

١٥١٩. الفرح هو حالةٌ داخليّة، إنّه نتاج سلام الضّمير ووليد الحياة البارّة.

١٥٢٠. الفرح الحقيقيّ هو الفرح الّذي يعيشه ويتذوّقه الإنسان المتجدِّد روحيًّا ويقدّمه الله له. إنّه فرحٌ نقيٌّ ثابتٌ ودائم، تخلقه في النّفس محبّةُ الله ومحبّةُ المخلِّص، وكما يقول النّبيّ حبقوق: «أمّا أنا فأتهلّل بالرّبّ، وأبتهج بإله خلاصي» (٣: ١٨)، وفي هذا الشّأن أيضًا يقول النّبيّ أشعيا: «إنّي أُسَرُّ سرورًا في الرّبّ وتبتهج نفسي في إلهي، لأنّه ألبسني ثياب الخلاص...» (٦١: ١٠). هذا الفرح يستحوذ على قلوب الصّدّيقين، وأصواتٌ من فرحٍ وابتهاجٍ تُسمَع في بيوت الأبرار. هذا ما يرنّمه داود النّبيّ في مزاميره الشّريفة: «صوتُ ترنيمٍ وخلاصٍ في أَخبية الصّدّيقين» (١١٧: ١٥).

١٥٢١. الفرح بالرّبّ هو الفرح الحقيقيّ، وبهذا بشّر ملاك الرّبّ الرّعاة الأطهار في عشيّة مولد المخلِّص قائلاً: «هاءنذا أبشّركم بفرحٍ عظيم، يكون لجميع الشّعب» (لوقا ٢: ١٠). وقد تكلّم الرّبّ يسوع كثيرًا مع تلاميذه عن الفرح وقت آلامه الخلاصيّة: «كلّمتكم بهذا ليكون فرحي فيكم ويتمّ فرحكم» (يوحنّا ١٥: ١١).

١٥٢٢. افرح بالرّبّ! فالفرح أوكسجين النّفس؛ فمَن يفرح بالرّبّ، فهو ممتلئٌ بهجةً روحيّةً فائضة: «اِفرحوا في الرّبّ كلّ حينٍ وأقول أيضًا افرحوا» (فيلبّي ٤: ٤).

١٠) مريميّات

١٥٢٣. «المرأةُ» المُهَدَّدةُ من التِّنين، وَلَدَتِ المسيح، الَّذي ارتَفَعَ إلى عرش الله (رؤيا ١٢: ٥)؛ إنّها أيضًا الأُمُّ لأولادٍ آخرين، المؤمنين بالوصايا الإلهيَّة (رؤيا ١٢: ١٧). هذا المقطع، أي مريم عند أقدام الصَّليب، وُضِعَ في علاقةٍ بصورة المرأة الَّتي وَلَدَتْ بالحزن الَّذي تحوَّلَ إلى فرح (يوحنّا ١٦: ٢١)، صورةٍ تنطبقُ بكلِّ مقاييسِها على أُمِّ يسوع الواقفة عند أقدام الصَّليب: فالصّليبُ يَجلِبُ حزنًا جديدًا، لكنّه، في الحقيقة، أعظمُ فَرَحًا من الولادة الجسديّة، إذ إنّه البابُ الملوكيُّ للَّذين يَتوقونَ إلى الاتِّحاد في المسيح.

١٥٢٤. كيف يمكن لأمٍّ حَبِلَت بربّ السّماء أن يستوليَ عليها الموت؟ هل يمكن لمريم أن تموت بكلّ طاعتها واستسلامها وبكلّ ما حبِلَت به؟ الَّذي لم يسعه مكان، الَّذي لا يمكن أن يُحدّ، حَبِلَت به في حشاها وكوّنتهُ جنينًا صغيرًا، ومن ثمّ أطلقته إلى العالم، وربّته وسهرَت عليه كما تربّي سائر الأمّهات أطفالهنّ. هل يمكن أن يستولي الموت على هذه المخلوقة الَّتي تألّهت والَّتي انتقلت إلى السّماء (كما وعدنا يسوع في إنجيل يوحنّا: «من يؤمن باسم ابن الله فقد انتقلَ من الموت إلى الحياة»)؟

١٥٢٦. اِنتقالُ العذراء يُوصِدُ أبوابَ الموت، فتَختُمُ على العدم ختمًا بمهره من عَلُ، الإلهُ/الإنسان، ومن أسفل، الخليقةُ الجديدةُ الأولى النَّاهضةُ من الموت والمؤلَّهة». إنّها حقًّا الخليقةُ المؤلَّهةُ يَتَعانَقُ في وَجهِها، السَّماويُّ والبشريّ.

١٥٢٧. مريم الخادمة والمنطلقة نحو الآخر (زيارتها لنسيبتها أليصابات) تُمثِّل صورةً حيّةً للإنسانيّة المتألّهة.

١٥٢٨. إنّ العذراء الَّتي اصطفاها الله منذ الأزل، لتكونَ، في تصميم تجسُّد الكلمة، أمًّا لله، قد صارت على الأرض، بتدبيرٍ من العناية الإلهيّة، الأمَّ المحبوبةَ للفادي الإلهيّ، الَّذي أشركَها بسخاءٍ، بامتيازٍ فريدٍ على الإطلاق، في عمله، وأَمَةً للرّبّ وضيعة.

١٥٢٩. إنّ الَّذي هو مولودٌ من الآب منذ الأزل، يُجبَلُ من أرضٍ حيَّة، من كيان أُمِّه. ففي هذا الخلق الجديد، كلُّ حَبَلٍ هو حَبَلٌ عُذرِيّ.

١٥٣٠. في تَجَسُّد الكلمة، ليست مريمُ مكانًا جامدًا، ولكنّ كيانَها الشّخصيَّ مُقَدَّمٌ، موهوبٌ، مَبذولٌ للرّوح القدس، الَّذي جَعَلَها تُجَسِّدُ في شخصها الخلاصيّ العنصرةَ الأولى، العنصرةَ الخفيَّة، في النّاصرة.

١٥٣١. إنّ حوّاء، وهي بَعدُ عذراء، كانت سببَ الموت لها وللجنس البشريّ بأسره. أمّا مريم العذراء، فبطاعتها صارت لها وللجنس البشريّ بأسره سببَ خلاص. من مريمَ إلى حوّاء، هناك إعادةٌ للمسيرة عينها، إذ ما من سبيلٍ لحلّ ما تمّ عقدُهُ إلاّ بالرّجوع باتّجاهٍ معاكِسٍ لفكِّ الحبال الّتي تمّ عَقدُها.

١٥٣٢. إنّها باختصارٍ، المرأةُ المُلتَحِفَةُ بالشَّمس، شمس المسيح الكلمة، الشّارق من الآب قبل كوكب الصُّبح، والمولود في آخر الأزمان من الأُمّ الّتي لم تَعرِفْ زواجًا. يا أُمَّ النُّور الّذي لا يَغرُب، تَشَفَّعي في خلاص نفوس عبيدكِ. آمين.

١٥٣٣. مريمُ العذراء هي إنسانةٌ مخلوقةٌ بحسب قانون التّناسُل البشريّ على غرار كلّ بشريّ. وهذا ما يُعطينا اليقين أنّنا كبشرٍ، نستطيع قبولَ الإله الّذي أبعَدَتنا خطيئتُنا عنه، وبِنَعَمٍ نقولُها له كَنَعَمِ والدة الإله للملاك، نستعيد الحياة تجري في عُروقنا (المرأة السّامريَّة؛ زكَّا العشّار؛ المرأة الخاطئة...) من جرَّاء لاهوته، الّذي يَنسَكِبُ فينا خلال اشتراكنا في أسرار الكنيسة.

١٥٣٤. إنّ اختبار مريمَ الإيمانيّ هو اختبارٌ تلاقى فيه العهد القديم بالعهد الجديد، إختبارٌ نَقَلَنا من رجاء انتظار المخلِّص إلى تجسُّده وحلوله فيما بيننا.

١٥٣٥. إنّ مريم، بإيمانها الثّابت، استَطاعَتْ أن تُغيّرَوجهَ البشريَّة كلّها، ناقلةً إيَّاها من حالة البُعد عن الله والخطيئة المُرَّة والموت المُظلِم، إلى الحالة الفردَوسيَّة الأولى، حالة الشّركة الكاملة مع الله، الّتي هي الحياةُ بذاتها، إنّها أُمُّ الحياة.

١٥٣٦. هي المريم الّتي تعبّرُعن حُبّ الله للبشر. فالكلمة ما كان تسنَّى له قطّ أن يتجسَّدَ، والبشريَّةُ أن تَخلُصَ، لو لم تكن مريم، في انعطاف قلبها لمشيئة الله، أي في نقاوتها الكلّيّة، قد قالت لخالقها: «ليكن ذلك».

• صلاة

«نعم» أقول لكَ يا إلهي، كتلك الـ«نعم» الواثقة الّتي خرجت من فمِ الطّاهرة العذراء، والدتك مريم. نعم، يا ربّ، لكلّ ما رسمته لي؛ نعم لإرادتكَ في حياتي. ربّي، إنّ أُمَّك النّقيّة جادَت علينا بالحُبّ والرّأفة، إنّها أمّ النور الحنونة... أشكرُكَ لمنحِنا إيّاها، فهي شمسُنا والرّجاء. نُسبّحُ عطيّتك هذه على الدّوام.

يا لهُ مِنْ لقاءٍ أليم، مريم تلتقي ابنها الحبيب في تلك الحالة الأليمة والمُهينة، إنّها تسيرُ مَعه على طريق الآلام والخلاص، وتُشاركهُ مأساتهُ المُرّة، وتُقاسي في قلبها ما يُكابِدهُ من الآلام في جَسده؛ إنّه لقاءٌ يجعَلُ عَذابَ الابن عذاب الأم. إنّ خطايايَ الجسيمة هي الّتي تطعَنُ يسوع في جسدهِ وتطعنُكِ أنتِ أيّتُها الأمّ الحبيبة في قلبك الرّقيق، ولكنّي أعلمُ أنّ يسوع هو ينبوع الرّحمة، وأنّكِ أنتِ ملجأ الخطأة. فإليكِ ألتجئُ أيّتها الأمُّ الحَنون، بقلبٍ مُنسَحقٍ بالنّدامة فاستمدّي لي من ابنِكِ المغفرة والثّبات في المحبّة حتّى النّهاية،

أنتِ يا مريمُ، يا بهاء المسيحيّين، علّميني الطّاعة للآب، علّميني الحُبّ، علّميني أن أنشِدَ حياتي للرّبّ كما فعلتِ أنتِ. يا أُمّي، كُلّما أتيتُ إليكِ يرجُفُ قلبي... فقداستُكَ تطغى بحضوركِ ومؤانسَتِك إيّايَ في وقتي العصيب. أراكِ، يا مريمُ، ياسمينةً بيضاء لا تذبل، بعطرِكِ احرسيني في كلّ حين.

آمين.

الباب الرّابع والعشرون

الشّبيبة، بين المعنى واللّا معنى

إنّ هذا الباب هو مخاطبةٌ مباشرة موجّهة إلى الشّبيبة الصّاعدة، فإنّ شبيبتنا اليوم بحاجة إلى صوتِ ذاك الأب والأخ الحنون الّذي يتفهّم اهتماماتهم ويرشدهم متى احتاجَ الأمرُ للأرشاد والتّوعية، وكذلك العطف.

١٥٣٧. سؤالٌ محيّر للشّبيبة والعائلة المسيحيّة اليوم: عن أيّ حياةٍ تبحثون؟ ما هي نوعيّة الحياة الَّتي تطلبونها؟ هل فكّرتم في أنّ نوعيّة حياتكم قد تجلب لكم الموت والخطيئة، بينما الله خلقنا لحياةٍ لا تَفسُد؟ هل وعيتم دعوتكم لأن تكونوا الخميرة في العجين؟ هل تشبّهتم بأخلاقيّات مسيحكم؟ أم ما زلتم تفكّرون أنّ الحياة هي حياةُ اللّيل المُظلم الفاسد الفاجر المليء بالخطيئة والإثم؟ ماذا فعلتم دم المسيح الثّمين والمهراق لأجلكم على الصّليب؟

١٥٣٨. هل يُعقل ألاّ يشارك شبابنا وشاباتنا بجنّاز المسيح، مُحتفلين بدفن الخطيئة والحقد والشّهوات والملذّات والفجور والزّنى، لكي يقوموا بعد ثلاثة أيّامٍ مع المسيح إنسانًا جديدًا؟

١٥٣٩. أدعو شبابَنا وصبايانا إلى عودةٍ ذاتيَّةٍ إلى جذور أخلاقيّات مجتمعنا وعائلاتنا وتوجيه أنظارهم لا إلى مغريات العالم أو سهر اللّيل الَّذي لا يجلب إلاّ الفحشاء والخطيئة المظلمة والتّنكّر لعاداتنا وتقاليدنا الاجتماعيّة، بل إلى الرّوحانيّة والعلم والثّقافة والحضور الاجتماعيّ الرّصين والجدّيّ ليكون لكم أَثَرٌ في المجتمع وأن لا تكون حياتُكم مجرّد حياةٍ فارغةٍ من معانيها ومضامينها.

١٥٤٠. الموت الرّوحيّ. إنّه، أي الموتُ الرّوحيّ، الحياةُ الفارغةُ الَّتي بلا معنى وبلا هدفٍ مرجُوٍّ، إذ يُعيشُها صاحبُها في غُربةٍ عن هويَّته الرّوحيّة، الانسانيّة والاجتماعيّة، فتَغدوَ حياةُ الإنسان فارغةً من قِيَمِها الأخلاقيَّة. فيَميلُ إلى تَعبئة فراغه القاتم المُظلم ووَحدته المُرعبة في السَّهر اللّيليّ في المقاهي والبارات تحت شعار وغطاء «أنّ الحياة واحدة، فيجب أن نَعيشَها بكلّ لحظاتها، ضاربًا بعرض الحائط، القِيَمَ الأخلاقيّةَ والرّوحيّة والاجتماعيّة الَّتي تَدعو إلى عيش الحياة في ملئها»، وهكذا، يُصبحُ الإنسانُ صديقًا للإثم، عابدًا الخطيئة ومعاهدًا مثوى الأموات.

١٥٤١. إنّ ما نرغَبُ في رؤيته فيكنَّ يا شاباتنا يكمنُ في الأخلاق الحميدة، في الحضور الرَّاكزوالجِدّيّ، في الكلام الموزون والرّصين، في العقل الوّاعي والمثقَّف، في اللّباس المحتَشَم الَّذي يَدُلُّ على الرُّقِيِّ الأخلاقيّ، في الشَّخصيَّة الواعِدة ذات الرُّؤية الثّاقبة... وكلُّ هذا يدلُّ على جمالِكُنَّ الحقيقيّ واحترامِكُنَّ لأنوثتِكُنَّ وللقيمة الفريدة الّتي وَهَبكُنَّ إيَّاها الخالق...

١٥٤٢. لا يَسَعُني إلاّ أن أَحُثَّ شاباتِنا وأُحرِضَهُنَّ على البحث عن جمالِهِنَّ الحقيقيّ الَّذي يَنبَعُ من الدَّاخل ويقودُكُنَّ برَونقِهِ، وبهائِه، وإشعاعِه إلى إظهار جمالِكُنَّ الخارجيّ: «إنّ جمالَ بنتِ الملك هو من الدّاخل».

١٥٤٣. اِستَيقظوا أيُّها الشّبابُ من سُباتِكم المُظلِم الَّذي وَقَعتُم أسرى في مُعتقَلِه وقوموا من مثوى الأموات ليتسنّى لكم رؤيةَ المعنى الحقيقيّ والقيمة الفريدة لحياتِكم، ودَعُوا نورَ المسيح يُحرِّرُكم من الغرفِ المُظلِمَةِ الَّتي عِشتُمْ فيها عزلتَكم الوُجدانيّة ووحدتَكم المؤلِمة.

١٥٤٤. إنّكم تَبرَعونَ في فنّ التَّمثيلِ وارتداءِ الأقنعةِ الَّتي تَحجُبُ شخصيَّتَكم وهويَّتَكم الحقيقيّة عن أبصارنا وأنظارنا، وليست هذه هي الحياة؛ فالحياةُ الّتي نَتوقُ إلى تقديمها لكم هي حياةٌ تتميَّزُ بالحبّ الحقيقيّ المشجِّع: بالنُّموّ الإنسانيّ والشَّخصيّ؛ بالتّحرُّر من سجن أبراج أنفسنا «أنانيَّتنا، كبريائنا، بشاعةِ حريَّاتِنا الزّائفة؛ بالاتّصالِ المُنفَتِح والإيجابيّ على الآخر وباتّخاذ الفضائل الإنسانيّة والإلهيّة شعارًا يُنيرُ طريقكم!

١٥٤٥. إخوتي الشّباب، أخواتي الشّابات، إنّكم لستم سجناءَ الماضي، إنّما أنتم رائدونَ في التَّوق إلى صُنعِ مستقبلٍ زاهرٍ.

١٥٤٦. ثق أيّها الشّاب أنّ الله يخاطبك في كلّ لحظةٍ كما خاطب دانيال النّبيّ في القديم قائلاً: «لأنّك محبوبٌ من الله» (دانيال ٩:٢٣).

١٥٤٧. إنّه من المهمّ جدًّا أن يشعر الشّاب (هذه الصّيغة تتضمّن الشّاب والشّابة معًا) داخل أسرته وكنيسته بالحبّ من الجميع، وأن لا يكون هذا الحبّ مكافأةً على السّلوك الطيّب للشّاب، فالشّاب يحتاج أن يكون محبوبًا في أوقات الضّعف والسّقوط أكثر من أوقات القوّة والانتصار.

١٥٤٨. طُبعت الرّغبة بالفرح في قلب الإنسان. بعيدًا عن الملذات العابرة، يسعى قلبنا للحصول على الفرح العميق، الكامل والدّائم الّذي بإمكانه أن يعطي «طعمًا» للوجود. هذا بخاصّةٍ ينطبق عليكم، فالشّباب هو فترةٌ من الاكتشاف المستمرّ للحياة، والعالم، والآخرين، والذّات.

١٥٤٩. يحتاج المرضى إلى طبيب، والضّالون إلى مرشد، والعميان إلى مَن يقودهم إلى النّور، والعِطاش إلى الينبوع الحيّ الّذي مَن يشرب منه لا يعطش أبدًا، والموتى إلى الحياة، والخِراف إلى راعٍ، والابناء إلى معلِّم: تحتاج البشريّة كلّها إلى يسوع المسيح، الشّخص الوحيد القادر على أن يروي أعماق الشّباب ويُشبع فكرهم وأحاسيسهم وعواطفهم.

١٥٥٠. أيّها الشّباب، تعلّموا أن تلمسوا عمل الله في حياتكم، اكتشفوا وجوده في عمق أعمالكم اليوميّة. آمنوا بأنّه وَفِيٌّ دائمًا للعهد الّذي ختمكم به يوم عمادكم واعلموا بأنّه لن يتخلّى عنكم أبدًا. إرفعوا عيونكم إليه، هو الّذي أحبّكم وبذل نفسه لأجلكم على الصّليب. إنّ التّأمّل بحُبٍّ عظيمٍ كهذا، يزرع في قلوبنا رجاءً وفرحًا لا يغلبهما شيء. لا يمكن أن يحزن المسيحيّ عندما يلتقي بيسوع الّذي بذل نفسه لأجله.

١٥٥١. يتميّز الشّاب المسيحيّ:

١. **بروح الفرح بلا تشاؤم.** إنه يرى، من خلال نظرته الإنجيليّة، يد الله الصّالحة الّتي خلقت كلّ شيءٍ لأجله؛ إنّه يشعر بلمسات حبّ الله الفائق له حتّى في أصعب الظّروف.

٢. **برؤية كلّ شيء جميلاً.** إنّ الشّاب الحيّ الّذي يسلك بروح مسيحه يحمل نظرةً قدسيّةً مُفرحةً نحو كلّ ما في العالم: نحو الجسد وأحاسيسه وعواطفه وطاقاته؛ نحو الزّواج بعلاقاته القلبيّة والجسديّة؛ نحو الحياة الاجتماعيّة...

٣. **بالحرّيّة الإنسانيّة.** فقد خلق الله الإنسان كائنًا حرًّا. قدّم له الحرّيّة في أكمل وجه. لا يُلزمه بعملٍ ما أو يمنعه عن تصرُّفٍ معيّن، حتّى ترك للإنسان الحرّيّة إن أراد أن يقاوم الله نفسه أو يهاجمه أو ينكر وجوده. يتركه في كمال حرّيّته، لكنّه كأبٍ مُحبٍّ يوجّهه دون أن يُلزمه، يُقدِّم له نعمته المجّانيّة وإمكانيّاته القادرة على تجديد طبيعته حتّى إرادته دون قهر. أيّها الشّاب، أيّتها الشّابة، مسيحينا مُحبٌّ للشّباب، لا ليَكتُم أنفاسهم أو يحكم حرّيّتهم، بل ليقيمهم بالحقّ أبناء الله الأحرار (يوحنّا ٨: ٣٦).

١٥٥٢. أيّها الشّباب لا تخافوا من دعوة المسيح لكم إلى الحياة المكرّسة، أو الرّهبانيّة، أو التّبشيريّة أو الكهنوتيّة. كونوا على يقينٍ بأنّه يغمر بالفرح الّذين يكرِّسون حياتهم له ويُلَبُّون دعوته بترك كلّ شيءٍ والبقاء معه ووضع أنفسهم بخدمة الآخرين. كذلك، عظيمٌ هو الفرح الّذي يحيط به الرّجل والمرأة اللّذين يتّحدان بالزّواج لتأسيس عائلةٍ فيشكّلان علامة حبّ المسيح لكنيسته.

١٥٥٣. أيّها الشّباب، اِلجئوا دومًا إلى سرّ التّوبة والمصالحة فهذا هو سرّ الفرح. تقدّموا إليه دائمًا بصفاءٍ، وثباتٍ، وثقةٍ واطلبوا من الرّوح القدس أن ينوّركم لتعترفوا بخطاياكم وتلتمسون المغفرة من الله. سيحتضنكم الله دائمًا، وسيطهّركم ويجعلكم تدخلون فرحه: « هكذا يكون الفرح في السّماء بخاطئٍ واحدٍ يتوب» (لوقا ١٥: ٧).

• صلاة

لتُقدّس شباب وشابّات هذا العصر، يا أبتِ العطوف، ارحمهم من تدخّلات الشّيطان في حياتهم. قوّهِم بحُبّك وتحنّن على قلوبهم العطشى، فلا يخرجوا ليبحثوا سواك. يا ربّ، قدّس عواطفهم وتصرّفاتهم لمجدِكَ... لا تسمح لعدوّ الخير أن يجرّهم إلى الخطيئة أو حتّى إلى أعتابها بخطَطِهِ الخبيثة. أنتَ الحصنُ وأنتَ الخلاص، اجذبهم إليكَ... وعرّفهُم أنّ الحرّيّة هي فيك وليسَ في سواك.

لأنّك رحومٌ من الأزل وإلى الأبد،

آمين

الباب الخامس والعشرون

من أجل وحدة الكنائس

إنّ هذا الباب هو، بكلّيّته، نداءٌ قلبيٌّ ووُجدانيّ من أجل إحياء شركة المؤمنين الإيمانيّة والأسراريّة (راجع أعمال ٢: ٤٤) والعمل الفرديّ والجماعيّ المسؤول على أن تكون الكنيسة كما نُصلّي في قانون الإيمان «واحدة، جامعة، مقدّسة، رسوليّة». هذا هو الحلم الّذي يراود كافّة المؤمنين المسيحيّين من مختلف العائلات الرّوحيّة.

١٥٥٤. مهما تعدّدنا ومهما أصبحنا، نوعًا ما، مجزّئين فإنّنا نؤمن بوحدانيّة الله والأقانيم الثّلاثة في وحدةٍ واحدةٍ ضمن غنى التّنوع الإلهيّ. نحن لا نخاف من غنى التّنوّع إنّما من فقر الطّائفيّة. الطّائفيّة ليست إلاّ غُرفًا مُظلمةً نحجب فيها ذواتنا عن معرفة الله ونسجن فيها تطوّرنا الرّوحيّ ونموّنا الإيمانيّ.

١٥٥٥. تعالَوا نحقِّق معًا وَحدة جسد المسيح أي الكنيسة، لتكون كما كانت الجماعة المسيحيّة الأولى متوحِّدةً قلبًا وروحًا وفكرًا. تعالَوا نعمل معًا لأجل هذه الوحدة المنشودة والّتي صلّى لأجلها السّيّد المسيح له المجد والإكرام في صلاته الكهنوتيّة قبل انطلاقه إلى الآلام الطّوعيّة، إذ قال: «ليكونوا بأجمعهم واحدًا كما نحن». لنُصلّ، أيّها الأحبّاء، على هذه النّية المقدّسة.

١٥٥٦. نحن نأتي إلى الكنيسة لنطلب شركة الرّوح القدس ووحدة الإيمان. الشّركة غير المنتجة يجب إغلاقها، إذ يجب عليها أن تكون إنتاجيّة (مثمرة بالفضائل، مُحِبّة، جامعة ورسوليّة). كلّ إنسانٍ يجمع بقلبه جميع الكنائس يكون محبوبًا عند الله. لأنّ وحدة الكنيسة هي غنًى، إنّها شهادةٌ حيّةٌ و إيمانٌ راسخٌ بمسيحٍ واحد.

١٥٥٧. إلى متى سنبقى نجزّئ مسيحنا إلى عدّة مسحاء؟ إلى متى سنبقى متقوقعين على ذواتنا في غرف طوائفنا المظلمة؟ إلى متى سنبقى متفرّقين ومبتعدين عن بعضنا البعض؟ ماذا تعمل أنتَ وأنتِ ونحن وأنتم لأجل وحدة الكنيسة؟ ما يجمعنا أكثر بكثيرٍ ممّا يفرّقنا، إنّه شخص المسيح، ولا أظنّ أنّ الطّوائف ومصلحة الطّوائف (أفضّل تسميّة «العائلات الرّوحيّة») أهمّ من شخص المسيح ؟!؟

١٥٥٠. يشتاق الرّبّ لأنْ يرانا سويّة. يشتاق الرّبّ للألفة الّتي تجمعنا بحميميّة اللّقاء في كنيسةٍ واحدة. يشتاق الله لأن يرانا متوحّدين مع ذواتنا وعابدين له. ذواتنا؟ نعم، ذوات مُحِبّة وممتلئة بالحُبّ والسّلام.

١٥٥٨. يجب أن نعمل على توحيد حركات الصّلاة الكنسيّة، بمعنى أن نجتمع معًا للصّلاة في كنائسنا لتتوحّد لغة القلوب ولغة الرّوح فيما بيننا، لنكون علامةً فارقة وشهادةً حيّة على حضور الرّبّ يسوع المسيح في كنائسنا ورعايانا. صلّوا لأجل وَحدة الكنيسة.

١٥٥٩. أنا من أجل الجماعة وليست الجماعة من أجلي، لذلك يلزمنا في بعض الأوقات الانسحاق والتّواضع أن ننظر إلى حقيقة الأمور بمنظارٍ آخر. فالجماعة تعمل لهدفٍ واحد، وعدم وحدانيّة الهدف تهدِّد روحانيّة الجماعة وتؤدّي إلى انشقاقات.

١٥٦٠. تأمّل للصّلاة ورجوع كلّ إنسانٍ مسيحيّ إلى نفسه وداخله: إلى متى سنبقى أسرى طوائفنا؟ إلى متى سنبقى نؤمن بعدّة مسحاء: مسيح الكاثوليكيّ، مسيح الأرثوذكسيّ، مسيح المارونيّ، مسيح اللّاتينيّ، مسيح الجماعات المسيحيّة الأخرى. لقد قمنا بتجزئة المسيح رأس الكنيسة، واختبأنا في ظلمة الغرف الطّائفيّة، وانغلقنا على ذواتنا، وأصبحنا عبيدًا للمستفيد الأوّل من فرقتنا وانقساماتنا، إبليس وملائكته. كلّ طائفةٍ دافعت عن فكرتها الخاصّة بالتّوحيد، ولكنّنا نسينا أو تجاهلنا أنّ المسيح دُفِنَ مرّةً وقام مرّة، وأصبحنا مهزلةً لغيرنا من باقي الدّيانات السّماويّة. يا ربّ أنر قلوبنا وعقولنا.

١٥٦١. من منّا لديه الجرأة وعلى استعدادٍ بأن يُصلَب ويضحّي بحياته وروحه خلاصًا لجميع البشر، بدل فادينا ومخلّصنا المصلوب سيّدنا يسوع المسيح؟ هل أنتَ مستعدّ؟ هل أنتِ مستعدّة؟

١٥٦٢. ما أجمل أن يجتمع الإخوة معًا ليُعبِّروا بصرخةٍ واحدة عن ألمهم وحزنهم لاستشهاد إخوةٍ لهم، وفي الوقت نفسه، يُصلّون إلى السّيّد المسيح أن يغفر لقاتليهم ومُضطَهِديهم لأنّهم لا يدرون ماذا يفعلون.

١٥٦٣. لا يمكن أن يكون لونًا رماديًّا مع المسيح... إمّا أن نجمع أو أن نفرّق، ليس هنالك حلٌّ وسط. إذا كنّا نفرّق فسيقول لنا دون محاباةٍ للوجوه: «أبعدوا عنّي يا ملاعين إلى النّار الأبديّة»، «في الحقيقة أنا لا أعرفكم». علينا أن نكون أسرى للمسيح وليس لطوائفنا... المسيح جاء ليحرّرنا، المسيح جاء ليرمّمنا، المسيح جاء ليعطينا الخلاص.

١٥٦٤. يبدأ إبليس محاربة الكنيسة بالاضطهاد المُرَوِّع، والقتل والتّعذيب والتّخويف. إنْ فشل، فإنّه يحاربها من الدّاخل بالهرطقات والانقسامات.

١٥٦٥. الهرطقة هي محاولة اختراق الشّرّ لمجال الإلهيّات. لقد اقتحم المسيح عالم الشّيطان ليحرِّر أسراه بالصّليب: «إذ جرّد الرّئاسات والسّلاطين أشهرهم جهارًا ظافرًا بهم فيه»، أي في الصّليب (كولسّي ٢: ١٥) كذلك إبليس بالهرطقات يقتحم الكنيسة ليسئ إلى المسيح «صالبين لأنفسهم ابن الله ثانيةً ومُشهِّرين إيّاه» (عبرانيّين ٦: ٦). يُحدث إبليس بالهرطقة بلبلةً في الكنيسة والهدف هو الانقسام وفقط الانقسام: «كلُّ مملكةٍ تنقسم على نفسها تَخرُب وكلّ بيتٍ ينقسم على ذاته يسقط» (لوقا ١١: ١٧).

١٥٦٦. كلّ انقسامٍ في الكنيسة هو من عمل إبليس، وهو يحمل روح الهرطقة حتّى لو لم يكن الخلاف على أمورٍ لاهوتيّة. ولكنّ المسيح لا ينقسم أبدًا. الكنيسة مُؤَمَّنةٌ في سلام المسيح وحمايته في كلّ الأرض بسرٍّ فائق، وسرّها مخفيٌّ عن إبليس وجنوده، لأنّها غير مُخضَعةٍ لسلطانه و«أبواب الجحيم لن تقوى عليها» (متّى ١٦: ١٨).

١٥٦٧. علينا أن نعمل من أجل تحقيق الوحدة المسيحيّة وتجميع القوى والإمكانيّات لنكون يدًا واحدةً وقبضةً واحدةً في وجه كلّ مَن تحلو له نفسه في إضعافنا وتشريدنا وزعزعتنا.

١٥٦٨. لقد حان الوقت أيّها المسيحيّون بكلّ عائلاتكم الرّوحيّة: الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة والبروتستانتيّة أن نعمل معًا لأجل أولادنا ومستقبلنا، نعمل بمخطَّطٍ واضحٍ ورؤيةٍ ثاقبةٍ لواقعنا الَّذي نعيش فيه، منطلقين مع بعضنا البعض إلى افتتاح الزّمن الَّذي فيه نكون واحدًا بكلّ ما في الكلمة من معنى.

١٥٦٩. لن نستطيع أن نصدّ العدوّ إلاّ إذا اتّحدنا معًا لنبنيَ السّور الحصين والمنيع على مَن يحاولون كسر أمّتنا المؤمنة بالرّبّ يسوع المسيح الحيّ، الغالب، المنتصر والظّافر. لا تخافوا، يقول لنا السَّيِّد المسيح في الإنجيل المقدّس، لأنّي قد غلبتُ العالم.

١٥٧٠. «ابن الله» الحرّيفهم الكنيسة عِشرةً مع الله والإنسان وليست طائفيّة.

١٥٧١. الإيمان بالقيامة يأتي كنتيجةٍ لأحداثٍ متشابكة تُبيِّن تاريخيّة قيامة الرّبّ من الموت. لذا، فإنّ هذه الأحداث المتشابكة تُظهر: وحدة الزّمن، وحدة الأشخاص، ووحدة اللاّهوت.

١٥٧٢. إنّ «الأنا» الشّخصيّ لا يذوب في كيانٍ كنسيٍّ يمثّله رؤساء الكنيسة، فالكنيسة لا يمثّلها فقط رؤساؤها بل كلّ مسيحيٍّ يحيا حياة المسيح، وهذا ما يجعل الأنا الشّخصيّ يتأكّد وجودُه بالانفتاح على «الأنا» الكنسيّ بحيث يمكن تحديد الكيان الكنسيّ بعلاقة محبّةٍ وحياةٍ وشركةٍ بين أشخاصٍ يَحيَون من حياة الله. لا يليق بنا أن نبحث عمّا هو شخصيّ، فكمال الشّخص يتحقّق بالتّخلّي الكامل والتّنازل عن الذّات.

١٥٧٣. كلّ شخصٍ يحاول أن يؤكّد ذاته لا يصل إلاّ إلى تجزئة الطّبيعة، إلى الكائن الخاصّ والفرديّ، متمِّمًا عملاً مخالِفًا لعمل المسيح الَّذي قال في الإنجيل المقدّس: «مَن ليس معي فهو عليّ، ومَن لا يجمع معي فهو يُفرِّق» (متّى ١٢: ٣٠).

١٥٧٤. إنّه [المسيح] كعاملٍ في نفسه، قد جَلَبَ إلى حيّز الوجود حقيقةً جديدةً ذات طابعٍ اشتراكيٍّ ومسكونيّ، وهي الكنيسة المؤلَّفة من يهودٍ وأُمم، جُعلوا إخوةً وأخواتٍ، راسخين معًا «بدمه».

• صلاة

هذه كنائسُنا، يا سيّدي الحبيب، هذا ما فعلناهُ بها... لقد شقّقناها وتعاركنا من أجل لا شيء يمجّد ظهوركَ الإلهي وقيامتك. نحتاجُكَ بنّاءً يُرمّمُ ما حطّمناه بإيدينا! نحتاجُكَ دواءً لأسقامنا الفكريّة المُتطرّفة والهجوميّة! نحتاجُكَ، يا ملكنا، لتجمعنا من جديدٍ بالإيمان والمحبّة! نحتاجُك أيّها الرّوح القُدُس لتُكلّل كنائسنا بروحٍ واحدة وقلبٍ واحد وجسدٍ واحد، لأنّ كلّ انشقاقٍ هو من الشّيطان. اجمعنا باسمِك وقدّس خُطانا نحو السّماء، فنكونُ عائلةً مقدّسةً مُوحّدةً بنعمة تدبيركَ الخلاصي. اغفر لنا نحنُ الخطأة!

باسمِ الآب والابن والرّوح القُدُس، إلهٍ واحد،
آمين.

الباب السّادس والعشرون

كلماتٌ من القلب إلى القلب

إنّ هذا الباب هو جمْعٌ لمُعظم ما تكلّمت به عاطفةُ الأب أبو سعدى مع رعيّة كنيستنا، وهو يُشغِل حيّزًا هامًّا في حياة الرّعيّة مع راعيها.

١٥٧٥. لقد أضأتم شمعة عمري حين عرفتكم بأسمائكم وحين كنتم وما زلتم إلى جانبي وحولي تُضيئون بمحبّتكم ضياء قلبي وشمعة غَيرتي ونور حياتي. تؤكّدون لي في كلّ مناسبة أنّكم معي في خدمة كنيسة المسيح ومجتمعنا. لكلّ واحدٍ منكم مكانةٌ رفيعةٌ في قلبي وصلاتي. فليُباركّكم المسيح القائم من بين الأموات ويزيدكم من خيراته وبركاته السّماويّة.

١٥٧٦. ما يُفرِح قلبي ويُثلِج صدري ويُحرّك عاطفتي الكهنوتيّة رؤية شبابنا وشاباتنا وعائلاتنا الشّابة مع أطفالهم في الكنيسة ليس فقط لهدف الاحتفال بالسّرّ الإفخارستيّ العظيم، بل أيضًا لانتمائهم إلى هذا المكان المقدّس ولإبرازهم لهويّتهم المسيحيّة. أنتم يا أبناء رعيّتي المحبوبين منبعُ افتخاري واعتزازي وشموخي، أنتم تاج رأسي المرصَّع باللّآلئ والألماس.

١٥٧٧. إنّها كلماتٌ نابعةٌ من قلب كاهنٍ يغارُ عليكم ويقلق على مصيركم وهو كالأب الَّذي يُنبِّه أبناءه عند وقوعهم في الخطأ وعند سلوكهم الطّريق المعاكس لإرادته وتربيّته. فيا ليتكم تكونون آذانًا جسديّةً وقلبيّةً صاغيّة، كما كان يردِّد دائمًا معلّمنا الإلهيّ: «مَن له أذنان للسّماع فليسمع».

١٥٧٨. إخوتي وأخواتي، عندما أقول شيئًا فأنا، لا سمح الله، لا أدين أيّ إنسان لأنّي لستُ مخوَّلاً بالدّينونة والقضاء، ولكنّي أُوقظ الحسّ والشّعور الإيمانيّ في قلوبكم ومسلكيّتكم الحياتيّة ولو بكلماتٍ لا تخلو من القسوة، ذلك أنّ كلمة الله نفسها تُوبِّخ وتؤنّب الضّمير المتغافل والمتخاذل. اِقرأوا ما قاله أنبياء العهد القديم عن سلوك الشّعب المُعوج والبعيد عن الله؛ اِقرأوا ماذا فعل يسوع بالَّذين جعلوا من بيت أبيه مغارة لصوص! كلامي يصبّ في خانة إيقاظ الشّعور الدّينيّ والغَيرة الكنسيّة والنّموّ الإيمانيّ لمسيحيّتنا. يقول القدّيس بولس لتلميذه تيموثاوس: «إنّ الكتاب كلَّه قد أوحى به الله، وهو مفيدٌ للتّعليم والحِجاج، والتّقويم، والتّهذيب في البرّ، لكي يكون رجل الله كاملاً، متأهِّبًا لكلّ عملٍ صالح» (٢ تيموثاوس ٣: ١٦).

١٥٧٩. إنّي أخاف على كرامة بناتنا ونسائنا أكثر ممّا أخاف على كرامتي الشّخصيّة، ولذلك من المستحيل جدًّا أن أتكلّم عنهنّ بطريقةٍ مُباحةٍ لا سمح الله. فكرامتكم هي من كرامتي وأنا أحبّ أن أراكم دائمًا كبارًا شامخين مثل الأرز في لبنان. باركّكم المسيح الحيّ القائم من بين الأموات. أَعطُوا مجدًا للرّبّ. هلّلويا.

١٥٨٠. وأنا مثل أبٍ يرشد أولاده إلى الطّريق الصّحيح، والأب حين يصل لمرحلة ضرب ابنه صفعةً على وجهه، فهو لا يريد أن ينتقم من ابنه، بل يريد أن يقول له كفى، يجب أن تعود إلى الطّريق الصّحيح، فضربة الأب تأتي من محبّته وغيرته على مصلحة ابنه، وهي، بالتّالي، ليست ضربةً انتقاميّة لا سمح الله. فيا ليتنا نتعاون جميعًا، لأنّ عدم الاكتراث واللّامبالاة بآلام المسيح لأجلي ولأجلك ولأجله ولأجلها هي مشكلة في حدّ ذاتها ويجب أن نتعاون لحلّها. آمين للرّبّ القائم.

١٥٨١. قمّة حدث «طلعة العذراء» كان حين وصلت أمّنا الطّاهرة المنزهة عن العيب إلى جبل الكرمل، حيث رأيتُ وشهدتُ دموعَ الكثيرين نتيجة عاطفتهم الإيمانيّة الجيّاشة. لقد كان مشهدًا مؤثّرًا وباعثًا على الشّعور بالهُويّة المسيحيّة الّتي بتنا في أمسّ الحاجة إلى تقويتها.

١٥٨٢. أوّلاً وقبل كلّ أمٍّ أخرى، أُعايد أمّي العذراء الطّاهرة الّتي ولدتني للخلاص بابنها يسوع المسيح، لكِ مكانةٌ عظيمةٌ في قلبي يا أحنّ أمٍّ على الأرض وفي السّماء؛ أُعايد ثانيًا أُمّي والدتي الحبيبة طالبًا من الله تعالى أن يُعطيها الصّحة والعافيّة والعمر المديد؛ ثالثًا، أُعايد أمّي الرّوحيّة الكنيسة المقدّسة الّتي احتضنتني تحت كنفها الأموميّ ابنًا بالمعموديّة المقدّسة للولادة الثّانيّة «من عَلُ»؛ رابعًا، أعايد أمّي الرّهبانيّة الباسيليّة المخلّصيّة الّتي ولدتني ولادةً روحيّةً، كنسيّةً ورُهبانيّة، وهي الّتي سهرت على تربيتي، وهي صاحبة الفضل بعد الله في ما أنا عليه اليوم؛ خامسًا، أعايد كلّ أمهات الرّعيّة اللّواتي أصبحن بمثابة الأمّ الحنون لي ولإخوتي الكهنة.

١٥٨٣. أشكر جميع أبناء رعيّتي المحبوبين الَّذين عَمِلوا بكلّ نشاطٍ لإنجاح هذا الحدث الرّعويّ المميَّز (حفلة الرّعيّة الميلاديّة) وكم كانت فرحتي كبيرة، حين رأيتُكم مجتمعين مع بعضكم البعض وحول كهنتكم في جوٍّ من الألفة والمحبّة والابتسامة الَّتي غطّتِ الوجوه وسحرتِ القلوب، ما أروعَكم وكم أنا فخورٌ بكلِّ واحدٍ منكم فردًا فردًا. لقد جعلتم قلبي يرقصُ من شدّة الفرح، أنتم شعارُ فخري وعنوانُ اعتزازي، أعشقُ كبرياءكم بكنيستكم ورعيَّتكم، بارككم الله جميعًا.

• صلاة

أيّها الرّبّ يسوع المسيح، اِمنح شبيبتنا، رجالنا ونساءنا، عائلاتنا الشّابة، قلبًا نقيًّا، طاهرًا، عفيفًا، بسيطًا، لا يُفكِّر بالشّرّ ولا تأوي إليه الشّهوات القاتلة والمميتة. هب لنا اللهمّ عقلاً ساهرًا، وفكرًا حكيمًا، وقلبًا قنوعًا معتقًا من كلّ خيالٍ شيطانيّ. بارك كهنتك ورهبانك الَّذين يخدمون بمحبّةٍ وغَيرةٍ رعويّةٍ وُقّادة كنيستك المقدّسة، وأبعد عنهم خَدَمَة الشّيطان وملائكته وعباداته.

هذه رعيّتكَ، يا عريس كنيستنا، هذا شعبُكَ الّذي وضعتني راعيًا روحيًّا لهُ، فأهّلني أن أقوم بواجباتي لكَ وله بحسب إرادتك. سيّدي، أنا لستُ أطلُبُ مجدًا لنفسي، إنّما أطلُبه لكَ.. بل وأبذُلُ كلّ جُهدٍ جسيديٍّ وروحيٍّ من أجل ذلك. أشكركَ في كلّ حين أيّها الحبيب الممجَّد إلى الأبد.

آمين

الباب السّابع والعشرون

وطنيّات

إنّ هذا الباب هو مرآةٌ للمواقف الوطنيّة الّتي عبّر عنها الأب أبو سعدى من خلال مقابلاته وعظاته. وهي مُنبّهٌ حازمٌ لكلّ مَن ينجرف في طريق نسيان هذا الوطن وتجاهُلِ مسؤوليّته تجاهه.

١٥٨٤. مشكلتُنا كمسيحيّين تكمنُ في أنّنا فقدنا الانتماءَ للمسيح والأرض. كيف تقبلونَ أن تُصبح أرضُ المسيح الجغرافيّة والتّاريخيّة فارغةً من مواطنيها الأصليّين والمتجذِّرين فيها منذ بدء المسيحيّة في القدس الشّريف؟ وكيف نتخلّى عن قطرات دم مسيحنا الَّتي روى بها أرض جبل الزّيتون قبل انطلاقه إلى آلامه الاختياريّة الخلاصيّة؟ اِستيقظوا أيّها المسيحيّون من سباتكم العميق الّذي ما زلتم قابعين في ظلماته واقبلوا نورَ المسيح في حياتكم وعائلاتكم.

١٥٨٥. لطالما اكتفَينا بالتّنديد والاستنكارولم نقم بأيّ عملٍ يواجه آلة العدوان هذه على مسيحيّتنا ومسيحنا، وهذا يُشرِّع لهم الحقّ في أنّ المسيحيّين يعيشون حالة سُباتٍ عميق، وكأنّ أمر مسيحهم ومسيحيّتهم لا يعنيهم. لا تنتظروا أن يُدافع عنكم أحدٌ، حتّى الغرب الَّذي يدّعي المسيحيّة وهو بعيدٌ كلّ البُعد عن رسالتها وتعاليمها. تعالَوا نضع أيدينا بأيدي بعض، نتكاتف، نتعاون، نرصّ صفوفنا ونُلغي منها كلّ تعصُّبٍ طائفيّ. لقد حان وقت العمل معًا.

١٥٨٦. نعم، أيّها المسيحيّون، لا تخافوا من عددكم الصّغير، لأنّ نوعيّتكم قد فاقت عددكم بأضعافٍ وأضعاف. لقد حان الوقت الَّذي نُصبح فيه كتلةً واحدةً قويّةً جبّارةً نستطيع من خلالها الحفاظ على وجودنا التّاريخيّ والجغرافيّ والخلاصيّ في هذه البلاد المقدّسة.

١٥٨٧. إنّ الشّرق ليس للمسلمين أولليهود فقط، إنّه أيضًا الوطنُ الأمّ للعرب المسيحيّين المتواجدين فيه منذ نحو ألفي عام وهم متجذِّرون فيه ومنتمون إليه وإلى ترابه وهم شركاءُ أصليّون في بناء الوطن والهُويّة، وليسوا دخلاءَ على أيّة شريحةٍ أخرى: إنّهم أصليّون وبامتياز. أعود وأشدِّد على أنّ المسلم سيفقد ميزته إذا لم يبقَ مسيحيّ في الشّرق.

١٥٨٨. لنطرح السّؤال على أنفسنا نحن المسيحيّين الَّذين أُهينوا بتمزيق الإنجيل المقدّس من المتعصّب اليهوديّ الغاشم. لنطرح السّؤال من زاويةٍ أخرى: كم مسيحيًّا يعرف إنجيله المقدّس؟ كم مسيحيّ يقرأ إنجيله؟ كم بيت يملك الإنجيل المقدّس؟ وإنِ امتلكه، أين يكون الإنجيل، أليس على الرّفوف لتتزيّن به بدل أن يتزيّن به قلبُنا وذهننا وكياننا؟ لذلك، تعالَوا نبدأ بقراءة الإنجيل المقدّس والتّبحّر في رسالته الخلاصيّة والتّعرُّف من خلاله على شخص الحبيب يسوع المسيح. هذه هي الحقيقة الَّتي يجب أن نتعلّمها ممّا حدث.

١٥٨٩. إنّ تمزيق الكتاب المقدّس، العهد الجديد، يشير وبكلّ وضوحٍ إلى أنّ مرحلةً جديدةً باتت تلوح في الأُفق: هل يا تُراها مرحلة تفريغ المسيحيّين من الشّرق؟ مَن هو المستفيد الأوّل من هذا التّفريغ والتّهجير الممنهَج؟ علينا أن نقرأ هذه الحادثة بتمعُّنٍ مستفيضٍ لمعرفة أدقّ التّفاصيل الَّتي تحوم حولها: إفراغ المسيحيّين من الشّرق ليس ضربةً تُوجَّه إلى المسيحيّين فقط، بل إلى صدور العرب المسلمين. هذا هو قَدَرُنا، وهذا هو مصيرنا.

١٥٩٠. إنّ المسيحيّين والمسلمين في خندقٍ واحد ومصيرهم مرتبطٌ ارتباطًا مباشرًا الواحد بالآخر. فإنّ ما يحدث على المقدّسات الإسلاميّة في القدس الشّريف يحدث أيضًا على المقدّسات المسيحيّة والعكس تمامًا.

١٥٩١. لن ندع أيًّا كان أن يُلغيَ وجودنا وتاريخنا المتجذِّر في هذه البلاد المقدّسة: **ناصرة البشارة والتّجسُّد الإلهيّ، بيت لحم الولادة، بيت ساحور، بلدة الرّعاة السّاهرين، نقطة التقاء فرح السّماء والأرض (لوقا ٢: ٨-١٨)، كفرناحوم احتضان المسيح، بحيرة طبريّا حبيبة المسيح، القدس القيامة والقبر الفارغ،** بالإضافة إلى قرانا ومدننا المهجَّرة والمنكوبة، الّتي هي أسمى تعبيرٍ عن معاناة العرب المسيحيّين من الظّلم والقهر والاحتلال، لا ننسى لئلاّ يضعوننا في سجن النّسيان، ونُنسى هناك قابعين في ظلمة الأسر والهوان.

١٥٩٢. لا بدّ من العمل الحثيث على تربيّة جيلٍ جديدٍ واعٍ لقيمة التّاريخ المقدّس الَّذي دخل من خلاله الله بواسطة الكلمة الإلهيّ المتجسِّد يسوع المسيح تاريخنا الخاصّ، ولكنوز الجغرافيا المقدّسة أي الأماكن الَّتي عاش فيها السَّيِّد له المجد والإكرام وداسها برجلَيه المقدّستَين مبشِّرًا ومعلِّمًا عن اقتراب تحقيق ملكوت الله في البشريّة المُهمَّشة وتحويل هذه الأرض إلى مُلكٍ إلهيّ تسوده مملكة الله.

١٥٩٣. إنَّ من حقّ المسيحيّين أن يدافعوا عن حضورهم ووجودهم المقدّس في الشّرق – الّذي كان يُدعى «الشّرق المسيحيّ»، ويؤكّدوا على شهادتهم المشتركة في كلّ المجتمعات إنطلاقًا من إيمانهم بالرّبّ يسوع، بأنّ العيش معًا نحن المؤمنين بالله مسيحيّين ومسلمين هو جزءٌ من هذا التّراث والتّقليد والقيم الّتي توارثناها قبل أربعة عشر قرنًا.

١٥٩٤. لا عجب في أن تُدعى **فلسطين الحبيبة «بالإنجيل الخامس»**، أو «**الإنجيل المتجسِّد في التّاريخ والجغرافيا**» للمسيحيّين أجمعين، إذ إنّها احتوت تاريخ الخلاص من جهة، ومكان تجسيد هذا الخلاص من جهةٍ أخرى. إنّ موضوع لاهوت الأرض هو من المواضيع الهامّة جدًّا والَّتي يجب طرحها بجِديَّةٍ ومسؤوليّةٍ مسيحيّة من خلال أبحاث ودراسات شاملة، تُبيِّن للمسيحيّين أهميّة تعلُّقهم بالأرض كإرثٍ مقدّسٍ وكنعمةٍ إلهيّةٍ أُعطِيَت لهم وعليهم المحافظة عليها.

١٥٩٥. الإنسان الّذي يقترب إلى الله لا يُمكنه أن ينظر إلى الإنسان الآخر كموضوع دين، فعلى سبيل المثال: إذا كنتُ، أنا المسيحيّ، قريبًا من المسيح، فلا يمكنني بالتّالي أن أنظر بازدراءٍ إلى أبناء الدّيانات الأخرى. لذلك، أدعو جميع مسيحيّي الأراضي المقدّسة إلى إعادة تجديد إيمانهم لأنّهم ورثة القدّيسين، و أدعوهم أيضًا للتّجذّر أكثر وأكثر في أرضهم ووطنهم. نحنُ اليوم نعاني من مشكلة الهجرة، وهذه مشكلةٌ لا تدُلّ على الإيمان بيسوع المسيح؛ فإنّ يسوع المسيح قد تجسّد في أرضنا، عاش في بلادنا، وبالتّالي علينا أن نتجذّر في بلادنا وألّا نترك هذا البلد مهما كلّف الأمر.

١٥٩٦. إنّ العربيّ المسيحيّ عندما يُغادر هذه البلاد ويُهاجر إلى الغرب، يرى هنالك مَن يستقبله، ويقدِّم له الخدمات اللّازمة ليعيش في أحضان الغرب دون أن يشعر بالغربة. إلاّ أنّه وبالرّغم من كلّ معاني الضّيافة الغربيّة يزداد الوعي الّذي يجعل العربيّ المسيحيّ في بلاد الغرب يشعر في أعماقه بأنّه مقتلَعٌ من جذوره الأصيلة، ولهذا تتمّ المطالبة من وقتٍ لآخر بأن يتحمَّل العالمان العربيّ والإسلاميّ مسؤوليّة الوجود المسيحيّ في الشّرق، وحماية الرّوابط بين الجميع ما داموا متعاونين على الخير.

١٥٩٧. هناك كثيرون، من ذوي النّفوس الضّعيفة والفكر الأصوليّ الّذي يرفض الآخر ويعمل على إلغائه، وبالتّالي، يعمل على تفقير المجتمع العربيّ وتجريده من غناه بوجود الآخر المختلف، يبثّون أفكارهم المسمومة بأنّ المسيحيّ لا يمتّ إلى القوميّة العربيّة بصِلةٍ، وأنّه مستوطنٌ قادمٌ مع الحملات الصّليبيّة، ويجب إعادته إلى بلده الأصليّ، أي الغرب. أقول لهؤلاء المرتزقة، **إنّ المسيحيّ هو الّذي دافع عن العروبة بفكره ووُجدانه وثقافته وتمايزه وإخلاصه لوطنه وقوميّته، وهو ابن هذا الشّرق؛ إنّه ابن فلسطين والأردن ولبنان وسوريا والعراق...**

١٥٩٨. إنّ المسيحيّ يشعر أنّه **مواطنٌ من الدّرجة الثّانية** إنْ لم يكن من الدّرجة العاشرة في وطنه، مع أنّه ما برح يُقدِّم ويُضحِّي في سبيله؛ يشعر أنّه مُهمَّشٌ في وطنه، إذ تنظر إليه بعض العيون الفارغة نظرة المساند لسياسات الغرب «الصّليبيّ»، متناسين، هؤلاء الجَهَلَة، أنّ هذا المسيحيّ هو عربيّ المنشأ والأصل، وهو زهرة الشّرق وباعث النّهضة العلميّة والأدبيّة واللّغويّة والثّقافيّة...

١٥٩٩. لا نتكتّم على حقّنا المشروع في الدّفاع عن أرضنا ومعتقداتنا وإيماننا. هذه بلادنا، وهذه أرضنا ولن نتركها مهما حدث، إذ إنّ وجودنا هنا ليس مِنّةً من أحد، نحن هنا، نحن هنا، نحن هنا.

١٦٠٠. بدايةً، **قد رسمَ الله الكونَ كلّه، بالكلمة ابنِهِ، ومن ثُمّ رسمَ ملامحَ أرضِنا بدمِهِ الكريم.** فكيفَ لنا أن نتنكّر لأرضٍ لا أقدَسَ منها سواهُ القُدّوس؟ كيفَ لنا أن نزلّ في حُبِّنا لها وكيفما التفَتْنا مِن حولنا نرى خطوات الرّبّ مغروسةً فيها؟ قدّسوا هذه الأرض كما قدّسها لنا سيِّدُنا يسوع المسيح، ابنُ الإنسان!

١٦٠١. نسمع في الآونة الأخيرة كلامًا كثيرًا خارجًا من قلوبٍ حاقدة وألسنةٍ طائفيّة تُهدّد المسيحيّين العرب وتعتبر دينهم غير شرعيّ، وهذا كلّه وليد «الرّبيع» العربيّ. نقول لهؤلاء المرتزقة إنّ الدّين المسيحيّ كان وما زال وسيبقى دين الحقّ والتّسامح والمغفرة والمحبّة والانفتاح على الآخر المختلف عنّي دينًا وعقيدةً وإيديولوجيّة. المسيحيّة العربيّة هي الأصل وجذورها عميقةٌ في بلاد الشّام واليمن والجزيرة العربيّة... إنّهم الغساسنة والمناذرة وبني تغلب... **وأقول لهم إنّ المستفيد الأوّل من هذا التّقسيم وهذه التّفرقة العنصريّة هو مشغلّهم الّذي يخدمونه بأمانةٍ وإخلاص.** هذه العنصريّة الطّائفيّة بعيدةٌ كلّ البُعد عن أخلاقيّات شعبنا الّذي لم يعرف يومًا المسيحيّ من المسلم. فعودوا إلى جذوركم وأخلاقكم، واتّقوا الله في ما تفعلون وتقولون.

١٦٠٢. لذا، **نحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى «ربيعٍ مسيحيٍّ عربيّ»... إلى «نهضةٍ مسيحيّةٍ تاريخيّةٍ»** تُعيد أبناءنا وبناتنا إلى التّفكير العميق في هُويّتهم الإيمانيّة الّتي لا يُمكن أن تُفصل عن هُويّتهم التّاريخيّة والجغرافيّة، من خلال تعميق فكر الإنتماء إلى الأرض ومعرفة التّاريخ الصّحيح لئلّا يشعروا، في أيّ زمنٍ كان، أنّهم غرباء في أرضهم ووطنهم، بل هم أصليّون ومتجذّرون فيه. إنّ الجهل هو عدوّ الإنسان الأوّل.

• صلاة

يا مسيحي، يا إلهي! ماذا يحدث في وطنك الّذي اخترته مكانًا لتجسّدك ورسالتك ومحبّتك وتضحيتك وآلامك وموتك وقيامتك؟ وكأنّنا ما زلنا نعيش أيّامك أيّها الحبيب! يقتلون الأبرياء، يُشرّدون الشّيوخ والنّساء والأطفال! يعيثون فسادًا في وطنك... حيثُ وطئت قدماكَ الطّاهرتان درب الصّليب من أجل خلاصهم! يا مُخلّصي، إنّ دماء الأبرياء تصرخ إليك، وأنت في علياء سماواتك، قائلةً: إلى متى سيبقى الظّلم والاستبداد والقتل والاحتلال؟ فالتَفِت إلى صوتهم... يا ربّ! أسرع إلى إنقاذ شعبٍ ضعيفٍ، أنظر إليهم بعين الرّأفة. تحنّن على قلوبهم المتألّمة، إنّهم خليقتُك.. إحفظهُم في سِتر حماك، بشفاعة والدتك الفائقة القداسة أمّنا مريم وجميع قدّيسيك.

آمين

كلمةٌ خِتاميّة

لطالما نوّه لنا «أبونا» أغابيوس في عظاته أنّه «لم تكن أقوال الآباء وسِيَرهم ورسائلهم وفكرهم يُمثِّل تُراثًا ثمينًا يُوضَع في بطون الكُتُب أو يُحفَظ في خزائن المتاحف والجامعات ليكون مادّةً لدراساتٍ فلسفيّةٍ نظريّة، إنّما كانت إنجيلاً عمليًّا حيًّا تخطُّه الأجيال بالرّوح القدس، شهادةً لديمومة عمل الله الخلاصيّ المُستمرّ في كلّ جيل. هكذا اعتزّ الآباء بتراث السّابقين لهم لا بكونه أدبًا روحيًّا لأجيالٍ ماضيّة، وإنّما بكونه مُمثّلاً لحاضرٍ حيٍّ وحياةٍ واقعيّةٍ صادقةٍ وعاملةٍ في الكنيسة». وها نحنُ قد وضعنا هذه الشّذرات كبذورٍ مُهيّئةٍ للزّرع في أرضِ قلوبنا وقلوبكم.

ونذكُرُ حينَ، في عِظةٍ من عظاتهِ، عام ٢٠١٠، قد رأى، «أبونا»، رعيّتهُ مُعجَبةً بأقوالهِ إعجابًا جمًّا، إذ ختم عظتهُ قائلاً: «لن أشكر المُعجبين بأقوالي. أريدهم أن يعملوا، أن يتحرّكوا، أن يقوموا من بين الأموات والظّلمة والخوف. إيماننا هو ضدّ كلّ ما تقدّمتُ بذكره. إيماننا هو علاقة الإنسان الحيّة مع يسوع النّاصريّ الحاضر في وسطنا، فيُصبح خليقةً جديدةً، سائلين الله أن يهبنا بنعمته قلبًا جديدًا. آمين».

مِن عُمقِ الكلماتِ تبزُغُ شمسُ البرّ بأجنحتها. يُرَفرِفُ الرّوح القُدُس فوقها ولا يسأم حتّى نُخاطبُهُ و«نردّ التّحيّة» له، مُشرّعين ألأبوابَ لحضوره وعمله. بعد مُشوارِ قراءةِ الألفَ وستّمائةِ اِقتباسٍ قد تختلطُ المشاعرَ بين الفينة والأخرى: بينَ الكلمات الرّقيقة العذبة، بينَ الخشوعيّة الهادئة، بينَ الصّرامةِ والحزمِ، وبين علاماتٍ ونبراتٍ أخرى تعزِفُ على أوتارِ الكيانِ الإنسانيّ المؤمن. مع العلم، أنّ كلّ هذه الوَمَضات ما هي إلّا إرساليّاتٌ تنهَمِرُ من العلاء لمخاطبة الإنسان لإنسانيّته الّتي ليسَ لها أن تتألّه بفضّل الإيمان والحقّ اللّذين يؤدّيان إلى طريقٍ واحدٍ وحيد: الخلاص.

الفهرس

- **المؤلّف في سطور..٣**
- **تقديم...٥**
- **مُقدّمة...٧**
- **كلمةُ شُكرٍ قلبيّة...١١**
- **الباب الأوّل**
  اللّاهوت الإيمانيّ ١٥
- **الباب الثّاني**
  ماهيّة النّعمة الخلاصيّة في الظّهور الإلهي والقيامة..........٢٣
  ١) ماهيّة النّعمة الخلاصيّة ولاهوتها..........................٢٥
  ٢) نعمة الخلاص المجّانيّ ٢٨
  ٣) لاهوت النّعمة الخلاصيّة في الظّهور الإلهي (الميلاد) ٣٠
  ٤) لاهوت النّعمة الخلاصيّة في الآلام والصّليب..................٣٧
  ٥) الوليمة المسيحانيّة...٤١
  ٦) لاهوت النّعمة الخلاصيّة في حدث القيامة....................٤٢
  ٧) قدسيّة الزّمن القياميّ..٤٤
- **الباب الثالث**
  عاداتٌ كنسيّةٌ قديمة...٤٩
- **الباب الرّابع**
  رونق الأيديولوجيّة المسيحيّة.......................................٥٥
  ١) المسيحيّة، ديانة اللّقاء الشّخصيّ..................................٥٧
  ٢) نظرة المسيحيّة للإنسانِ الآخروالكون: نظرةٌ ليتورجيّةٌ..............٥٩
  ٣) القدّيسون، الإنجيل النّاطق...٦٢

٤) مسيح المسيحيّة!..٦٤
٥) المسيحيّة بين الشّهادة والاستشهاد...........................٦٦
٦) الكتاب المقدّس تجسُّدٌ ثانٍ للمسيح...........................٦٨

- **الباب الخامس**

أُسَريّة الرّعيّة:كيان الكنيسة الخاصّ والعامّ..........................٧٣
١) ماهيّة الكنيسة...٧٥
٢) الكنيسة الأرضيّة، مجاهدةٌ ومتألّمةٌ ومُضطَهَدة..........................٧٦
٣)اللّاهوت الرّعويّ...٧٨
٤) «الأنا» بين الأنانيّة والكنسيّة....................................٨٣
٥) المسيحيّ سفيرٌ دائمٌ ومعتَمَدٌ إلهيّ..................................٨٧
٦) اللّاهوت الپنيڤماتولوجيّ (الرّوحيّ).................................٨٩
٧) اللّاهوت الإكليزيولوجيّ (الكنسيّ)................................٩٠
٨) اللّاهوت اللّيتورجيّ..٩٢
٩) الفرّيسيّة المسيحيّة والأصوليّة الكنسيّة...............................٩٧

- **الباب السّادس**

روحانيّة الإنسان المسيحيّ...١٠١
١) الرّوحانيّة، اشتراكٌ في حياة الرّوح القدس.........................١٠٣
٢) المسيحيّ بين دعوته الإلهيّة وواقعه البشريّ.........................١٠٥
٣) روحانيّة الصّليب...١١٣
٤) لاهوت القلب..١١٤
٥) المسيحيّ بين العالم الرّوحيّ والعالم المادّيّ..........................١١٧
٦) الحياة الدّيريّة والرّهبانيّة.......................................١١٩
٧) الإنسانٌ كائنٌ نُسكيّ...١٢٠
٨) الإنسان كائنٌ إفخارستيّ...١٢١
٩) العبادة بالرّوح والحقّ...١٢٢

١٠) هل العاطفة الدّينيّة هي إيمانٌ حقيقيّ؟........................ ١٢٤
١١) روحانيّة المسبحة الشّرقيّة، «صلاة القلب»........................ ١٢٥
١٢) الحقّ الّذي فيك!........................ ١٢٦

- **الباب السّابع**

العلاقة مع الله........................ ١٢٩

١) «أَمِلْ قلبي إلى شهادتِكَ»........................ ١٣١
٢) علاقة الله بالإنسان والإنسان بالله........................ ١٣٣
٣) الإلتزام أحد أركان العلاقة الصّحيحة مع الله........................ ١٣٥
٤) جديد العلاقة بين الله والإنسان: يسوع المسيح........................ ١٣٥
٥) العلاقة الشّخصيّة بالرّبّ........................ ١٣٨
٦) يسوع الثّائروالحرّ........................ ١٤٠

- **الباب الثّامن**

ديناميكيّة العمل الرّعويّ........................ ١٤٣

١) صعوبات الواقع الرّعويّ وتحدّياته........................ ١٤٥
٢) أصالة الطّقوس الكنسيّة........................ ١٤٧
٣) أسرار الكنيسة المقدّسة........................ ١٤٨
٤) سلطة الكنيسة التّعليميّة والتّدبيريّة........................ ١٥٢
٥) العلمانيّ في الكنيسة........................ ١٥٨
٦) الشّراكة الرّوحيّة في الرّعيّة: احتضانٌ وتحوُّل........................ ١٦١
٧) لاهوت الخدمة الرّعويّة........................ ١٦٢
٨) المسيح نموذج الخدمة الرّعويّة ومفتاحها الأساس........................ ١٦٣

- **الباب التّاسع**

الدّعوة الكهنوتيّة وأبعادها........................ ١٦٥

١) الدّعوة بين مبادرة الله وقبول الإنسان........................ ١٦٧
٢) صفات الكاهن........................ ١٦٩
٣) الأبوّة الكهنوتيّة الرّوحيّة «الأب الرّوحيّ»........................ ١٧٢

٤) الكاهن، المعلِّم والواعظ.............................. ١٧٣
٥) الكاهن والأسرار.............................. ١٧٥

- **الباب العاشر**
مُخطّط الله للإنسان: التّألّه.............................. ١٧٩

١) ماهيّة التّألّه.............................. ١٨١
٢) الإنسان بين مخطّط الله ومخطّطه الخاصّ.............................. ١٨٣
٣) الطّاعة.............................. ١٨٥
٤) مريم بين الحرّيّة والطّاعة، خليقةٌ متألّهة.............................. ١٨٧
٥) الإنسان والتّبنّي الإلهيّ.............................. ١٨٩

- **الباب الحادي عشر**
الرّوح القُدُس وعمله.............................. ١٩٣

١) الرّوح القدس في الكتاب المقدّس.............................. ١٩٥
٢) طبيعة الرّوح القدس وعمله.............................. ١٩٦
٣) الرّوح القدس باني الكنيسة ومهندسها.............................. ١٩٨
٤) المسيحيّ، كائنٌ پنيڤماتولوجيّ (روحيّ).............................. ٢٠٠

- **الباب الثّاني عشر**
حياة القداسة.............................. ٢١٥

١) ماهيّة القداسة.............................. ٢١٧
٢) الخليقة الجديدة.............................. ٢١٩
٣) قداسة الإنسان: طهارة القلب.............................. ٢٢٠
٤) تقديس الإنسان والعالم.............................. ٢٢١

- **الباب الثّالث عشر**
الصّوم والصّلاة.............................. ٢٢٧

١) الصّلاة الحقيقيّة عطيّة النّعمة الإلهيّة.............................. ٢٢٩
٢) الصّلاة الشّخصيّة واللّيتورجيّة.............................. ٢٣١

٣) الصّلاة نحو الشّرق............ ٢٣٣
٤) الصّوم سرّ التّواضع أمام الله............ ٢٣٤
٥) الغفران الصّياميّ............ ٢٣٥
٦) الهدوء القلبيّ............ ٢٣٦
٧) الصّوم الإفخارستيّ الإنقطاعيّ............ ٢٣٨
٨) السّهر والذّكر الدّائم لاسم المسيح............ ٢٣٩

- **الباب الرّابع عشر**
الحُبّ والمحبّة............ ٢٤١

١) ماهيّة المحبّة وطبيعتها............ ٢٤٣
٢) محبّة الله المتجسّدة في شخص الحبيب (يسوع المسيح)............ ٢٤٧
٣) المحبّة المسيحيّة إخلاءٌ للذّات وعطاءٌ كامل............ ٢٤٩
٤) الحبّ الحقيقيّ............ ٢٥١
٥) مدرسة الحبّ............ ٢٥٧

- **الباب الخامس عشر**
إخلاء الذّات والتّجرّد............ ٢٦٥

- **الباب السّادس عشر**
التّوبة والمغفرة............ ٢٧١

١) مفهوم الخطيئة............ ٢٧٣
٢) التّوبة عودةٌ إلى الذّات............ ٢٧٣
٣) التّوبة ثورةٌ تهزّ أعماق الكيان الدّاخليّ الإنسانيّ............ ٢٧٦
٤) التّوبة سرّ شفاء............ ٢٨٠
٥) التّوبة سرّ الصّليب والقيامة............ ٢٨٣
٦) المغفرة............ ٢٨٣
٧) لاهوت المصالحة............ ٢٨٧

- **الباب السّابع عشر**
مسلكيّة الحياة المسيحيّة............ ٢٩١

١) المسيحيّة مسلكيّةٌ حياتيّة................................٢٩٣
٢) المسيحيّ، سفيرُ المسيح على الأرض......................٢٩٥
٣) مقوّمات التّربيّة المسيحيّة................................٢٩٧
٤) بين إرضاء الله وإرضاء النّاس..............................٣٠٠
٥) الآخر، صورة الله..٣٠٠
٦) يسوع هو ضمانتنا الحقيقيّة..................................٣٠١
٧) باقةٌ منتقاةٌ من زهور المسيحيّة............................٣٠٤

- **الباب الثّامن عشر**
مواجهة النّفس وبناؤها..................................٣١٧

١) فلسفة الأقنعة..٣١٩
٢) فلسفة المواجهة الذّاتيّة....................................٣٢٠
٣) أنت وذاتك!..٣٢١

- **الباب التّاسع عشر**
الشّهادة – الاستشهاد والجهاد الرّوحيّ....................٣٢٩

١) المسيح، حمل الله، نموذج الاستشهاد........................٣٣١
٢) التّرابط بين الشّهادة والاستشهاد............................٣٣٢
٣) النّفس الشّاهدة والشّهيدة...................................٣٣٢
٤) دور الرّوح القدس في الشّهادة................................٣٣٣
٥) الشّهادة إشراق الفجر داخل القلب...........................٣٣٤
٦) الكنيسة المُرسَلة والشّاهدة..................................٣٣٦
٧) ماهيّة الجهاد في المسيحيّة..................................٣٣٧

- **الباب العشرون**
لاهوت الخدمة الكنسيّة واللّيتورجيّة......................٣٤٣

١) الكنيسة بين الإيمان والعبادة................................٣٤٥
٢) الخدمة الحقيقيّة والصّامتة..................................٣٤٧

٣) شخصيّة الخادم الرّوحيّ الأمين..٣٤٩
٤) القيادة المسيحيّة..٣٥٠
- الجماعة الرّوحيّة الرّعويّة...٣٥١

الباب الحادي والعشرون
سرّ الزواج والعائلة المسيحيّة...٣٥٣
١) العائلة، كنيسةٌ مصغَّرة...٣٥٥
٢) البيت المسيحيّ...٣٥٧
٣) صورة العائلة المسيحيّة المشوَّهة..٣٥٨
٤) أصالة العائلة المسيحيّة..٣٦٠
٥) الشّباب المسيحيّ...٣٦١
٦) بناء المجتمع المسيحيّ الجديد..٣٦٢
٧) سرّ الزّواج اليوم...٣٦٦
٨) من أجل زواجٍ ناجح..٣٦٨

- **الباب الثّاني والعشرون**
الموت والحياة في الإيمانِ المسيحيّ.....................................٣٧١
١) الجنس البشريّ وواقع الموت...٣٧٣
٢) طبيعة الموت...٣٧٤
٣) بين الموت والدّينونة..٣٧٦
٤) المسيحيّ، إنسان الرّجاء والقيامة...٣٧٧
٥) الفرح القياميّ واللّيتورجيّا الفصحيّة.....................................٣٨٠
٦) لاهوت الحياة الأبديّة...٣٨٢
٧) سؤالٌ للتّأمّل الشّخصيّ..٣٨٣

- **الباب الثّالث والعشرون**
مريم العذراء، العنصرة الأولى...٣٨٥
١) مريم، كنيسة الرّوح القدس وهيكله.......................................٣٨٧
٢) عقيدة بتوليّة مريم الدّائمة..٣٨٧

٣) «النَّعَم» المريميّة.. ٣٩٠
٤) أمومة مريم.. ٣٩٠
٥) قداسة مريم.. ٣٩١
٦) مريم في حياة الكنيسة.. ٣٩٣
٧) رموز الكتاب المقدّس تتحقّق في مريم.. ٣٩٥
٨) شفاعة مريم.. ٣٩٧
٩) مريم، فرح الله للعالم.. ٣٩٨
١٠) مريميّات.. ٣٩٩

- **الباب الرّابع والعشرون**
الشّبيبة بين المعنى واللّا معنى.. ٤٠٣
- **الباب الخامس والعشرون**
مِن أجل وحدة الكنائس.. ٤١١
- **الباب السّادس والعشرون**
كلماتٌ من القلب إلى القلب.. ٤١٩
- **الباب السّابع والعشرون**
وطنيّات.. ٤٢٥
- **كلمةٌ ختاميّة.. ٤٣٣**
- **الفهرس.. ٤٣٥**